54
روائع الأدب العالمي

رحلة إلى الهند

تأليف الكاتب الإنجليزي
إدوارد مورجان فورستر



رحلة إلى الهند

رحلة إلى الهند

تأليف
إ.م. فورستر

ترجمة
دائرة الترجمة في الدار

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت
ص.ب 13-5329 بيروت - لبنان
تلفون : 674 803 1 961 00 فاكس : 223 790 1 961 00
E-mail : darbachir@terra.net.lb

الإسم الأصلي للكتاب
A PASSAGE TO INDIA

إسم المؤلف
E.M. FORSTER

المقدمة

تعتبر رواية رحلة إلى الهند من أحسن الروايات الإنجليزية التي كتبت في بداية القرن العشرين. وتدور أحداثها في إحدى ولايات الهند أثناء الاستعمار البريطاني لها وتَحَكُّم المستعمر الإنجليزي في إدارتها. وقد قدمها الكاتب بصورة شيِّقة بأسلوب يجمع ما بين السَّرد التاريخي والوصف والرواية لأحداث قد تكون حقيقية، وأسلوبها مشوب بالسخرية والفكاهة والتشويق، ويوضح طبيعة العلاقة ما بين المستعمر المتَعجْرف والشعب الهندي الذي يتميَّز بالمراوغة والخداع والتظاهر بالخضوع، يعرض الكاتب بها صورا لمختلف الطوائف الدينية من مسلمين ومسيحيين وسيخ وهندوس وبراهمة. وتشتمل الرواية على أحداث واقعية مثيرة تدور أحداثها حول:، فتاة إنجليزية وطبيب هندي تعلّم في "**إنجلترا**" وناظر مدرسة إنجليزي، وأصدقاؤهم من الفريق الهندي ضد الفريق الإنجليزي وهي أحداث مثيرة مليئة بالمفاجآت. كما تشتمل الرواية على فلسفات دينية مختلفة. وتعد بحق ملحمة للصراع ما بين المحتل والشعب المغلوب على أمره.

شخصيات الرواية

- الدكتور "**عزيز**" : طبيب في منتصف العمر في مستشفى "**كاندرابور**" الحكومية وتعلم في "**إنجلترا**" .

- الآنسة "**كويستد**" أو "**عديلة**" : فتاة إنجليزية حضرت إلى الهند لدراسة أوضاعها قبل أن تقرر إن كانت ستتزوج من قاضي المدينة أو لا .

- "**هيسلوب**" (**روني**) : قاضي المدينة والمرشح للزواج من "**عديلة**" .

- السيدة "**مور**" والدة "**روني**" .

- "**فيلدنج**" (**سيريل**) : ناظر مدرسة الكلية الحكومية .

- الأستاذ "**جود بول ناريان**" : أستاذ برهمي بالمدرسة الحكومية .

- السيد "**تورتون**" : جابي الجزية بالولاية (المحصل) .

- السيد "**ماك برايد**" : المشرف العام على شرطة الولاية .

- "**الميجور كاليندار**" : كبير الجراحين المدنيين بـ"**كاندرابور**" .

- "**حميد الله**" : محام ومهراجا هندي .

- "**محمود علي**" : محام .

- الآنسة "**ديريك**" : إنجليزية تعمل وصيفة لمهرانا .

"**رام شاند**" : من أكبر ملاك الأراضي في ولاية "**كاندرابور**" .

كما هي موصوفة وإلا يضطروا للذهاب لأسفل حتى لا يصيبهم الوهم. وبالنسبة للمحطة المدنية نفسها فإنها لا تثير أي مشاعر. وهي بلا شجر ولا تتمرد أيضا. ولقد خططت بطريقة معقولة بناد بالقرميد الأحمر عند حافة المنحدر، وعلى مسافة أبعد للخلف حانوت البقالة ومقبرة وقد وضعت أكواخ "**البنجالو**" على طول الطرق التي تتقاطع بزاوية مستقيمة. ليس بداخلها شيء غير سار والمنظر هو فقط الجميل، وهي لا تشارك المدينة في شيء إلا في السماء المقوسة فوقها والسماء لها أيضا تغييراتها وإن كانت ملحوظة أقل من تغييرات الخضرة والنهر. وتنتشر السحب عالية ولكن هي في العادة قبّة من مزيج من الألوان الخفيفة المتناغمة بين درجات اللون الأزرق. وفي النهار يتحول اللون الأزرق إلى أبيض حيث يعانق الأرض وبعد غروب الشمس تأخذ السماء محيطا جديدا من البرتقالي الذي يسبح نحو الأرجواني الناعم. ولكن قلب اللون الأزرق يستمر وهكذا أثناء الليل. ثم تتعلق النجوم مثل المصابيح والمسافة ما بين القبة وبين النجوم لا تذكر بالنسبة للمسافة خلفها، وأن تلك المسافة الأبعد رغم أنها خلف اللون إلا أنها تحررت من اللون الأزرق.

والسماء تجعل كل شيء مستقرا.. ليس الطقس والفصول فحسب وإنما أيضا تصبح الأرض جميلة.

والأرض من تلقاء نفسها لا تفعل الكثير. فقط هناك بزوغ ضعيف للزهور. ولكن عندما تختار السماء أن تتدخل فإن العظمة تنهمر على حوانيت "**كاندرابور**" أو إن البركة تنتقل من أفق إلى أفق. والسماء يمكن أن تفعل ذلك لأنها قوية وضخمة. والقوة تأتي من الشمس التي تتسلل إليها يوميا بوفرة من الأرض المنهكة. ولا توجد جبال على حافة المنحنى، وتمتد الأرض منبسطة فرسخا بعد فرسخ وترتفع قليلا ثم تنبسط ثانية. فقط في الجنوب حيث القبضات والأصابع ارتسمت خلال التربة فإن الامتداد اللانهائي ينقطع. تلك القبضات والأصابع هي تلال "**ماربار**" التي تحتوي على كهوف غير عادية.

الفصل الثاني

ترك الشاب دراجته التي سقطت قبل أن يستطيع الخادم أن يمسكها ثم قفز من فوق الشرفة. لقد كان مُفْعَما بالحركة وصاح:

- "**حميد الله**".. "**حميد الله**".. هل تأخَّرت؟

رد عليه مضيفه:

- لا داعي للاعتذار.. إنك دائما ما تتأخر.

- أرجوك أن تتفضَّل وترد على سؤالي. هل تأخّرتُ؟ هل أكل "**محمود علي**" كل الطعام؟ إذا كان الأمر كذلك أستطيع أن أذهب لمكان آخر. يا سيد "**محمود علي**" كيف حالك.

- شكرا لك يا دكتور "**عزيز**"، أنا أموت.

- أتموت قبل الغداء؟ أوه مسكين يا "**محمود علي**"!

- "**حميد الله**" هنا في الحقيقة الميِّت. لقد انتقل إلى الرفيقِ الأعلى في الوقت الذي ركبت فيه دراجتك مباشرة.

قال الآخر:

- نعم هكذا الأمر. تصورّ نفسك ونحن نحدّثك من عالم آخر أسعد!

- هل حدث أن كان هناك شيء مثل النرجيلة (الشيشة) في ذلك العالم الآخر الأسعد الخاص بك؟

- لا تثرثر يا "**عزيز**" .. إننا نتبادل حديثا حزينا جدا.

كانت النرجيلة مكبوسة جيدا كالعادة في بيت صديقه وكانت تُبقْبقُ وهي مكْتُومة. ضبطها وسلّكها واستسلم التبغ أخيرا وتصاعد بقوة إلى رئتيه وخياشيمه طاردا دخان روث البقر المحترق الذي ملأ رئتيه أثناء قيادته الدراجة عبر السوق. لقد كان الدخان لذيذا واستلقى في نشوة حسّية ولكن صحية حيث بدا حديث الرجلين الآخرين بالنسبة له ليس حزينا بشكل خاص. لقد كانا يتناقشان حول ما إذا كان من الممكن أو غير الممكن أن يُصْبحا صديقين مع الرجل الإنجليزي. وقد جادل "**محمود علي**" أن ذلك غيرُ ممكن ولم يوافق "**حميد الله**" ولكن مع العديد من التحفظات بأنه ليس هناك أيُّ احتكاك بينهم. كان الاستلقاء على الشرفة لذيذا حقا والقمر بدرا هناك أمامه والخدم يعدُّون العشاء خلفه ولا مشاكل تحدث.

- حسنا، انظر إلى تجربتي الخاصة هذا الصباح.

رد "**حميد الله**":

- إنني أكْتفى فقط بأن ذلك ممكن في "**إنجلترا**".

كان "**حميد الله**" في هذا البلد من زمن طويل قبل الاندفاع الكبير للناس على البلاد وقد استقبل استقبالا وديا في "**كامبردج**" أكمل قائلا:

- إنه مستحيل هنا يا "**عزيز**". إن الولد ذا الأنف الأحْمَر أهانني في المحكمة وأنا لا ألومه. لقد قيلَ له: إن عليه أن يُهيِّنني. لقد كان حتى وقت قريب ولدا لطيفا ولكن الآخرين سيطروا عليه.

- نعم ليس لديهم أيُّ فرصة هنا وهذه هي النقطة. لقد جاءوا من الخارج مدعين أنهم رجال مهذبون وقيل لهم: إن ذلك لن يصْلح. انظر إلى "**ليزلي**" وانظر إلى "**بلاكستون**" والآن هو ولدك ذو الأنف الأحمر و"**فيلدنج**" سيتبعه. لماذا.. إنني أتذكر عندما جاء "**تورتون**" أولا. كان ذلك في منطقة أخرى من المقاطعة. إن رفاقَكَ لن يصدقوني ولكني ركبت مع "**تورتون**" في عربته.. "**تورتون**"! أوه.. نعم.. لقد كنا يوما ما على علاقة حَميمَةٍ.. وقد أراني مجْموعةً من طوابع البريد الخاصة به.

- من الممكن أن يتوقع أنك ستسرقها الآن.. "**تورتون**"! ولكن الولد ذا الأنف الأحمر أسوأ من "**تورتون**" بمراحل.

- لا أظن ذلك. إنهما جميعا يصبحان متشابهين تماما لا أسوأ ولا أحسن. إنني أمنح أيَّ رجل إنجليزي مُهْلة سنتين سواء كان "**تورتون**" أو "**بيرتون**" فإن الفرق فقط في حرف واحد.. وأنا أمنح

أي امرأة إنجليزية ستة أشهر.. كل الحكام متشابهون بالضبط. ألا توافقني؟

رد "**محمود علي**" وقد دخل في الفكاهة هذه المرة وهو يحسّ بالألم والمتعة في آن واحد من كل كلمة تنطق:

– لا أوافقك. من ناحيتي أنا أجد مثل هذه الاختلافات العميقة بين حكامنا. فذو الأنف الأحمر يغمغم و"**تورتون**" يتكلم بوضوح والسيدة "**تورتون**" تأخذ رشَاوَى. والسيدة حرم ذي الأنف الأحمر لا تأخذ رشاوى ولا تستطيع أن تفعل ما دام ليس هناك حتى الآن السيدة حرم ذي "الأنف الأحمر".

– رشَاوَى؟

– ألم تكن تعرف ذلك عندما أعيروا إلى وسط الهند حول قناة ما عندما أعطاها مهراجا أو ما شابه ذلك ماكينة خياطة من الذهب الخالص حتى يمكن أن يجري الماء خلال ولايته.

– وهل فعلت؟

– لا.. فهذه السيدة "**تورتون**" ماهرة. عندما نحصل نحن الفقراء السود على رشَاوَى فإننا نقوم بأداء ما ارتشينا لنفعله والقانون يكشفنا أحيانا. أما الإنجليزي فيأخذ ولا يفعل شيئا. أنا مُعجَب بهم.

– نحن جميعا نعجب بهم يا "**عزيز**" أرجوك ناولني النرجيلة.

– أوه.. ليس بعد. النرجيلة مُبهِجة جدا الآن.

– أنت ولد أناني جدا.

رفع صوته فجأة ونادى على العشاء ورد عليه الخدم بأنه جاهز. وكانوا يقصدون أنهم ودُّوا لو كان جاهزا وهكذا فهمهم لأن أحدا لم يتحرك ثم استمر **حميد الله** ولكن بسلوك مختلف وانفعال واضح:

– ولكن خذ حالتي.. حالة الشاب "**هوج بانستر**". هو ابن صديقَيَّ العزيزين القَس المحترم "**بانستر**" وحرمه واللذان كانت طيبتهما معي في "**إنجلترا**" لن أنساها أو أصفها أبدا. لقد كانا أبا وأماً لي، كنت أتكلم معهما كما أفعل الآن.. وفي العطلات كان بيتهما في الكنيسة قد أصبح بيتي.. وكانا يأمنان على كل أطفالهما معي وكنت عادة ما أحمل الصغير "**هوج**" هناك. وقد حملته إلى جنازة الملكة "**فيكتوريا**" وظل بين ذراعِيَّ مرتفعا فوق الجمهور.

همهم "**محمود علي**":

– الملكة "**فيكتوريا**" كانت مختلفة!

– وقد علمت الآن أن ذلك الولد أصبح رجل أعمال كتاجر جلود في "**كاونبور**". تصور مدى شوقي لرؤياه وأن أدفع له أجر هذا البيت الذي قد يكون بيته. ولكن لا جدوى من ذلك. إن "**الأنجلو هنود**" الآخرين لابدَّ أنهم تمكّنوا من السيطرة عليه من زمن بعيد وربما ظن أنني أريد شيئا وأنا لا أستطيع أن أواجه ذلك من ابن صديقَيَّ القديمين. أوه!.. ما الذي جَرى من السوء بهذه البلد في كل شيء يا صاحبي؟ أنا أسألك! دخل "**عزيز**" في الحديث:

- لماذا تتحدثون عن الإنجليز؟ دعنا ننساهم ونكون سعداء. الملكة "**فيكتوريا**" والسيدة "**بانستر**" هما الاستثناء الوحيد وقد ماتتا.

- لا.. لا أعترف بذلك ولا أقره لقد قابلت أخريات.

قال "**محمود علي**" وقد غير اتجاهه دون توقع:

- وكذلك أنا. كل السيدات لسن متشابهات على الإطلاق.

لقد تغير مزاجهن وتذكّرنَ القليل من الشفقة والمجاملة.

- لقد قالت لي: شكرا لك كثيرا. بطريقة طبيعية للغاية وقدمت لي حلوى "**اللوزنج**" عندما ضايقني حلقي.

كان "**حميد الله**" يتذكر أمثله أهم من الأعمال الملائكية ولكن الآخرين الذين لا يعرفون سوى "**الأنجلو هنود**" كان لابد أن ينقّبوا في ذهنه عن الخُرْدة والفُتات ولم يكن مفاجأة أن يعود إلى عبارة: "بالطبع كل هذا استثناء. والاستثناء لا يثبت القاعدة. والمرأة المتوسطة هي مثل السيدة "**تورتون**" يا "**عزيز**". أنت تعرف كيف هي.

ولكن "**عزيزاً**" لم يكن يعرف ولكنه قال: إنه يعرف. هو أيضا يعمّم إحباطاته.. لقد كان من الصعب على أعضاء مشتركين في موضوع السلالة أن يفعل غير ذلك. وما عدا الاستثناءات فإنه وافق على أن كل النساء الإنجليزيات متعاليات ومرتشيات. انطفأ البريق من الحديث ودار مظهره البارد ممتدا إلى ما لا نهاية. أعلن الخادم عن العشاء.. تجاهلوه. كان الرجل الأكبر سنا قد وصل إلى موضوعاتهم السياسية الأبدية. تَسلّل "**عزيز**" إلى الحديقة وكانت رائحة الأشجار حلوة من زهور الزنبق الخضراء وشذرات من الشعر الفارسي خطرت على باله.. العشاء.. العشاء.. لكنه عندما عاد إلى البيت من أجل العشاء كان "**محمود علي**" قد ذهب بعيدا هو الآخر ليتحدث مع سائسه. قال "**حميد الله**":

- تعال وقابل زوجتي قليلا إذن.

وقضيا عشرين دقيقة في الحديث وراء الحجاب. كانت البيجوم "**حميد الله**" خالة بعيدة لـ"**عزيز**" وهي الأنثى الوحيدة القريبة التي لديه في "**كاندرابور**" وكان لديها الكثير لتقوله له في هذه المناسبة عن حفل ختان عائلي. كان من الصعب أن يبتعد عنها، لأنه حتى وقت تناولهما طعام الغداء لم تكن قد بدأت حديثها وبالتالي أطالت في تعليقاتها خوفا من أن يظنوا أنها نافدة الصبر. وعندما استُهجنَ الختان تذكرتْ موضوعاتها العائلية وسألت "**عزيز**" من سيتزوج.

أجاب في احترام ولكن في ضيق:

- واحدة كافية. (يقصد زواجها).

قال "**حميد الله**":

- نعم.. لقد أدَّى دوره.. ولا داعيَ لمضايقته إنه يتحمل عائلته ولدين وأخته.

- يا خالتي.. إنهم يعيشون في راحة مع أم زوجتي حيث كانت تعيش عندما ماتت وأستطيع أن أراهم كلما عَنّ لي ذلك.. إنهم أطفال صغار للغاية ثم إنه يرسل لهم كل مرتبه ويعيش ككاتب

من الدرجة الدنيا ولا يخبر أحدا بالسبب فماذا تريدين منه أن يفعل أكثر من هذا؟

- ما الذي سيحدث لكل بناتنا لو أن الرجال رفضوا الزواج؟ إنهنَّ سَيتزوَّجنَ من هم أقل منهن أو..

ثم بدأت تحكي القصة المملّة عن السيدة سليلة الأباطرة التي لم تستطع أن تعثر على زوج في الدائرة الضيّقة التي تسمح لها كبرياؤها أن تقترن في داخلها وعاشت دون زواج، وسنها الآن ثلاثون عاما.. وبينما القصة مستمرَّة فقد أقنعت الرجلين وبدت المأساة عارا على كل المجتمع، وأنه من الأفضل تعدُّد الزوجات بدلا من الحرمان من نعمة الله التي من المفروض أن نتلقاها: رباط الزوجية والأمومة القوية في البيت.. لأجل أي شيء آخر وُلدتَّ وكيف يمكن للرجل الذي أنكر عليها ذلك أن يقف ليواجه خالقها وخالقه في اليوم الآخر؟ أخذ "**عزيز**" الإذن بالرحيل قائلا:

- "ربما.. ولكن فيما بعد".

وهذا هو رده الذي لا يتغير على مثل هذا النداء.

قال "**حميد الله**":

- لا يجبُ أن نُؤجِّلَ ما تفكّر فيه مباشرة.. لهذا السبب الهند في هذا البلاء لأننا نؤجل الأشياء.

ولكنه عندما رأى قريبه الصغير يبدو عليه القلق أضاف بعض الكلمات الملطّفة، وبذلك أزال أيّ انطباع قد تكون زوجته قد تركته. وخلال غيابهم كان "**محمود علي**" قد ذهب في عربته تاركا رسالة أنه سيعود خلال خمس دقائق، ولكنهم لم يكن في حسابهم أن ينتظروا. جلسوا ليقابلوا قريباً بعيداً "**محمد لطيف**" الذي يعيش على سخاء "**حميد الله**" ولا يشغل وظيفة ولا قرينَ له. ولم يتكلّم ما لم يوجّه إليه الكلام، ولما لم يتكلم معه أحد فقد ظل في صمت مُطْبق. وكان من حين لآخر يتجشّأ تمجيدا للطعام الجيد. كان رجلا عجوزا مهذبا وسعيدا وطوال حياته لم يقم بأي عمل. وطالما كان أحد أقاربه لديه بيت كان متأكدا من أنه وجد بيتا يُؤْويه ومن المؤكد أنه لن يحدث أبدا أن تُفْلس كل العائلة.. وكانت زوجته تحيا وجودا مشابها على بعد حوالي مائة ميل. وهو لم يزرها ويَعْزو ذلك إلى مصاريف تذكرة السكك الحديدية، وحاليا "**عزيز**" يمازحه وكذلك الخدم ثم بدأ يتلو الشعر الفارسي والأوردو وبعض العربية. كانت ذاكرته قوية، وكان وهو شاب قد قرأ باتساع ووفرة والنصوص التي كان يفضلها هي انحلال الإسلام وقيصر الحب. وكانوا ينصتون إليه في استمتاع حيث يأخذون بوجهة النظر العامة عن الشعر وليست الوجهة الخاصة السائدة في "**إنجلترا**". ولم يحسّوا بالملل أبدا وهم يسمعون كلمات وكلمات ويتنفسونها مع هواء الليل البارد دون التوقف أبدا عن التحليل في اسم الشاعر "**حافظ**" و"**حالي**" و"**إقبال**" وفي هذه الأسماء الضمان الكافي. وكان اسم الهند يُهمَسُ به في الخارج تحت القمر اللاهي وكانت الهند عبارة عن مائة هند، ولكن في تلك اللحظة كانت هندا واحدة تخصهم. قاطعه خادم في زي قرمزي هو تمورجي الطبيب المدني وناول "**عزيزا**" مذكرة. قال دون أن ينهض:

- العجوز "**كاليندار**" يريد أن يراني في بيته "**البنجالو**" وقد يكون لديه الأدب بأن يقول لماذا.

- حالة ما . . ربما أتجرأ وأقول ذلك .

- أتجرأ وأقول لا . . أتجرأ وأقول لا شيء على الإطلاق . لقد عرف ساعة تناولنا الغداء، هذا كل ما هناك واختار أن يقاطعنا في كل وقت ليظهر لنا قوته .

قال "**حميد الله**" وهو يفكّر في تمهيد الطريق للطاعة :

- من جهة هو يفعل ذلك دائما ومن جهة أخرى قد تكون حالة خطيرة ولا تستطيع أن تعرف . أليس من الأفضل لك أن تنظف أسنانك بعد المضغة؟

- إذا كنت مضطرا لتنظيف أسناني فإنني لن أذهب على الإطلاق . أنا هندي ومن العادات الهندية مضغ التبغ ويجب على الطبيب المدني أن يتعوَّد على ذلك . دراجتي يا "**محمد لطيف**" من فضلك .

نهض القريب الفقير وقد استغرق قليلا في الموضوع ووضع يده على "جادون" الدراجة بينما قام خادم بإدارة العجل . وضع "**عزيز**" يديه تحت إبريق الغسيل ثم جففهما ووضع قبعته الخضراء ثم بنشاط غير متوقع انطلق من مجَّمع "**حميد الله**" السكني .

- "**عزيز**" . . "**عزيز**" . . أيها الولد الطائش .

ولكن "**عزيز**" كان بعيدا نحو السوق وهو يقود الدراجة في غضب شديد . لم يكن لديه لا جرس ولا أنوار ولا مكابح، ولكن ما فائدة مثل هذه الملحقات في بلاد فيها يأمل راكب الدراجة فقط في أن يمر من وجه إلى وجه وقبل أن يصطدم به يكون قد اختفى؟ ثم إن المدينة خالية بدرجة معقولة في تلك الساعة .

وعندما نام إطار دراجته قفز من فوقها ونادى على عربة "تونجا" (وهي عربة صغيرة يجرها جواد) .

لم يجد في البداية واحدة وكان عليه أيضا أن يترك دراجته عند بيت أحد أصدقائه . وقد تلكّأ أكثر من أجل غسيل أسنانه . ولكنه أخيرا كان يسير بسرعة نحو الخطوط المدنية وقد تملكه إحساس حي بالسرعة، وعندما دخل الطرق بنظافتها الشديدة أصابه إحباط شديد وكانت الطرق تسمَّى على أسماء الجنرالات المنتصرين وتتقاطع بزوايا قائمة وهي رمز لشبكة "**بريطانيا**" العظمى التي ألقتها على الهند . أحس بأنه وقع أسير خيوطها العنكبوتية . وعندما عاد إلى مجمَّع الميجور "**كاليندار**" كان مُحمّلا بصعوبة انفعاله ويسيطر على نفسه من النزول من عربة "التونجا" ويقترب من البيت الريفي "**البنجالو**" على قدميه . وليس هذا بسبب أن روحه ذليلة وإنما بسبب مشاعره وأطراف أعصابه الحساسة والذي يخشى أن يهان . لقد كانت هناك "حالة" في العام الماضي . . رجل هندي مهذب سار بعربته حتى بيت أحد المسؤولين وصدّه الخدم وقيل له أن يقترب بطريقة لائقة أكثر . . حالة واحدة من بين آلاف الحالات الزائرة لمئات من المسؤولين ولكن شهرتها عمت الآفاق . خشي الشاب وارتجف من تكرارها معه . اتخذ موقفا وسطا حيث أوقف السائق خارج فيضان النور الذي يملأ الشرفة .

كان الجراح المدني بالخارج . ولكن الحاجب ترك له رسالة!

رد عليه الخادم بلا اكتراث "لا" وأصبح "**عـزيز**" في حالة يأس. لقد كان خادما نَسيَ أن يمنحه حُلْواناً وهو لا يستطيع الآن أن يفعل شيئا لأنه يوجد أناس في البهو. كان مقتنعا أن هناك رسالة وأن الرجل أخفاها كنوع من الانتقام. وبينما هما يتجادلان خرج الناس من المجمَّع- كانتا سيدتين. رفع "**عــزيز**" قبعته. نظرت الأولى، وكانت في زي السهرة - إلى الهندي ثم استدارت مبتعدة غريزيا وصاحت:

- يا سيدة "**ليزلي**" هذه عربة "تونجا"!

- هل هي ملكنا؟

تساءلت الثانية وقد حَذتْ حذو الأولى. ثم قفزت الاثنتان داخل "التونجا" وهي تقول:

- لنأخذ الهبات التي منحها لنا الربُّ.. هيا يا "تونجا".. انطلق.. انطلق.. لماذا لا يتحرك ذلك الأبله؟

قال "**عزيز**" للسائق:

- اذهب وسأدفع لك غدا.

وعندما انطلقتْ "التونجا" صاح مجاملا:

- مرحبا بكما جدا يا سيدتيّ.

لم يردا عليه وقد انشغلتا تماما بشؤونهما.

وهكذا حدث الأمر المعتاد كما قال له "**محمود علي**".. الإهانة التي لابد منها.. لقد تجاهلتا انحناءه لهما وأخذتا عربته وقد يكون هناك الأسوأ ولكن سُرِّيَ عنه إلى حد ما أن السيدتين "**كاليندار**" و"**ليــزلي**" لابد أنهما بدينتان وستثقلان على "التونجا" لأسفل وللخلف. إن النساء الجميلات يمكن أن يؤلمنه. التفت إلى الخادم وأعطاه روبيتين وسأله ثانية عما إذا كانت هناك رسالة. أصبح الرجل الآن متحضرا جدا وردَّ عليه بنفس الرسالة: الميجور "**كاليندار**" ذهب بالعربة بعيدا منذ نصف ساعة.

- ألم يقل شيئا؟

- في الحقيقة كان قد قال: "اللعنة على "**عـزيز**" وهي كلمات فهمها الخادم ولكنه كان مؤدبا جدا لا يستطيع أن يعيدها. قد يُعْطى المرء "بقشيشا" أكثر من اللازم أو أقلّ والحقيقة أن العملة التي يمكن أن تشتري الحقيقة الكاملة لم تصكّ بعد.

- إذن سأكتب له خطابا.

عرض عليه استخدام البيت، ولكنه كان يشعر بالكرامة لدرجة أنه لم يدخل. أحضر الورق والحبر إلى الشرفة وبدأ خطابه:

- سيدي العزيز

بناء على أمرك العاجل سارعت كما يجب على المرؤوس أن يفعل..

ثم توقف ثم قال للخادم وهو يمزّق الخطاب:

- أخبره أنني حضرت للزيارة وهذا يكفي.. هذه هي بطاقتي. استدع لي "تونجا".

- آسف كلها في النادي.

- إذن استدع واحدة بالتليفون من محطة القطار .

وعندما سارع الرجل ليفعل ذلك قال:

- يكفي.. يكفي! أفضّل أن أمشي.

ثم طلب منه ثقابا وأشعل سيجارة. كانت الاستجابة لطلباته وإن كانت مدفوعة الأجر إلا أنها هدّأت من غيظه. إن تلك الخدمات ستستمر طالما كان معه روبيات وهذا شيء له اعتبار. ولكن أن يزيل التراب الأنجلو هندي عن قدميه! أن يهرب من الشبكة ويعود إلى وسط السلوكيات والحركات التي يعرفها! بدأ يسير.. وهذا تمرين غير مألوف.

لقد كان رجلا رياضيا بطلا وضئيلا وأنيقاً في مجمله، ولكنه حقّا كان شديد القوة. ومع ذلك فإن السير كان يُتْعبه كما يتعب كل شخص في الهند عدا الوافد الجديد عليها. هناك شيء عدائي في تلك الأرض إما أنها تستسلم وتغوصُ فيها القدم في حُفْرة، أو من جهة أخرى تكون صلبة بدرجة غير متوقَّعة وحادة وتضغط أحجارا أو بلورات ضد النعال. إن سلسلة من تلك المفاجآت ترهق المرء، وكان يرتدي خُفّا رقيقا وهو أداة فقيرة للسير في أي أرض. وعند حافة المحطة المدنية استدار ودخل مسجدا ليستريح. لقد كان دائما يحب المسجد.. كان رحبا ونظامه يسرُّهُ.. وكان الفناء الذي يدخل منه الناس خلال باب محطم يحتوي على صهريج للوضوء من الماء النقي الطاهر الذي كان دائما في حركة والذي كان في الحقيقة جزءا من قناة تزوِّد المدينة بالماء. والجزء المغطّى من المسجد كان أعمق عن المعتاد، وكان مظهره مظهر أبرشية كنيسة إنجليزية أزيل أحد جوانبها. وحيث كان يجلس كان ينظر خلال بَوآكِ ظلامها كان مضاء بمصباح صغير معلّق وبالقمر. والواجهة مضاءة كلية بضوء القمر، ولها مظهر الرخام وأسماءُ الله التسعة والتسعون مكتوبة على الإفريز بخط أسود بارز والإفريز لونه أبيض على خلفيَّة السماء الزرقاء. وكان التباين بين هذا الازدواج وبين احتوائه على الظلال بداخله يسر "**عزيز**". وحاول أن يتمثّل ذلك في بعض حقائق الدين والحب. وعندما نال المسجد رضاه انطلق خياله. والمعبد الخاص بأي عقيدة أخرى مثل الهندوكية أو المسيحية أو الإغريقية كان من الممكن أن تصيبه بالملل وتفشل في إيقاظ إحساسه بالجمال، هنا في المسجد يوجد الإسلام ووصفه الخاص وأكثر من الإيمان وأكثر من صيحة الحرب وأكثر من.. وأكثر من.. والإسلام هو مسلك نحو الحياة ممتع ودائم حيث وجد جسده وأفكاره في هذا المكان.

كان مجلسه هو جدار منخفض يحيط بالفناء من على اليسار والأرض تحته ممتدَّة نحو المدينة التي بَدتْ أشجارها مُهْتزَّة الصورة، ووسط السكون سمع أصواتا عديدة صغيرة. وعلى اليمين هناك في النادي شاركت فرقة موسيقية من الهواة في المجتمع الإنجليزي. وفي مكان ما كان الهندوس يقرعون الطبول.. وكان يعلم أنهم هندوس لأن اللحن لم يكن غريبا عليه.. وآخرون كانوا يُوَلْوِلُون على جسد ميت، وكان يعلم جسد من هذا؛ لأنه شهده بعد الظهر. وكان هناك بوم.. وزهور ذات رائحة لذيذة في حديقة ناظر المحطة. ولكن المسجد هو الوحيد الذي كان له معنى في نفسه، ثم عاد إليه من وسط إغراء الليل المعقّد وملأه بالكثير من المعاني التي لم يقصدها بانيه.. يوما ما سيبني هو

نفسه مسجدا أصغر من هذا، ولكن بذوق كامل حتى يمكن لكل من يمّرون به أن يشعروا بالسعادة التي يحسّ بها هو الآن. وبالقرب منه تحت القبة المنخفضة سيكون قبره وعليه كتابة فارسية تقول:

"واحَسْرتاه! بدوني على مدى آلاف السنين

ستزدهر الوردةُ ويتفتّح الربيع"

"ولكن هؤلاء الذين فهموا قلبي

"سيقتربون ويزورون القبر الذي أنا فيه"

لقد رأى الأبيات الرباعية على قبر ملك "**ديكان**" واعتبرها فلسفة عميقة.. كان دائما يعتبر الرثاء عميقا.. إنه الفهم السرُي للقلب! كرَّر العبارة والدموع في عينيه. وبينما هو يفعل ذلك بدا له وكأن أحد أعمدة المسجد يَهْتزُّ. تطوَّح العمود وسط العتمة ثم نزع نفسه من مكانه. كان الإيمان بالأشباح يجري في دمائه ولكنه جلس ثابتا. تحرك عمود آخر وثالث، ثم خطت امرأة إنجليزية وسط ضوء القمر. فجأة أحسّ بغضب عارم وصرخ:

– يا سيدة! يا سيدة! يا سيدة!

شهقت السيدة: أوه!

– يا سيدة هذا مسجد وليس لك الحقّ على الإطلاق أن تكوني هنا وكان من الواجب عليك أن تخلعي حذاءك. هذا مكان مقدّس للمسلمين.

– لقد خلعته!

– هل فعلت؟

– لقد تركته في المدخل.

– إذن أستميحك عذرا.

كان لايزال مأخوذا والسيدة تتحرك مبتعدة وبينهما صهريج الوضوء. نادى عليها:

– أنا آسف حقا لحديثي.

– نعم لقد كنت على حق.. ألم أكن كذلك؟ إذا خلعت حذائي يسمح لي بالدخول؟

– طبعا ولكن القليل جدا من النساء يقمن بذلك خاصة إذا ظن معظمهن أنه لا يوجد أحد بالداخل ليراهن.

– هذا لا يشكّل اختلافا.. لأن الله موجود.

– يا سيدتي!

– أرجوك دعني أذهب.

– هل يمكنني أن أقوم ببعض الصّلاة الآن أم في أي وقت؟

– لا.. شكرا لك.. لا شيء حقا.. وتصبح على خير.

– هل يمكنني أن أعرف اسمك؟

أصبحت الآن في ظل المدخل وبذلك لم يستطع أن يرى وجهها ولكنها رأت وجهه ولم يعرف إن كان سعيدا أم آسفا. لقد كانت أكبر سنا من البيجوم "**حميد الله**" (البيجوم هي حرم المهراجا)

ولها وجه أحمر وشعر أبيض وخدعه صوتها. قالت وقد غيرت صوتها:

- السيدة "**مور**".

- يا سيدة "**مور**" أخشى أنني أفزعتك.. لابد أن أخبر مجتمعي وأصدقائي عنك. الله موجود هنا وهو رحيم جدا وطيّب جدا فعلا وأعتقد أنك وصلت حديثا إلى الهند.

- نعم وكيف عرفت؟

- من الطريقة التي تحدثينني بها.. لا.. ولكن هل يمكنني أن أستدعي لك عربة؟

- لقد أتيت فقط من النّادي.. لقد كانوا يقومون بلعبة رأيتها في "**لندن**" وكانت حامية الوطيس.

- ما اسم تلك اللعبة؟

- ابنة العم "**كيت**".

- أعتقد أنه ليس من الواجب عليك أن تسيري ليلا بمفردك يا سيدة "**مور**" هناك أشرار في المنطقة والفهود قد تأتي لتعترض طريقك من تلال "**ماربار**" وكذلك الحيّات.

صرخت وكانت قد نسيت موضوع الحيّات. استمر قائلا:

- مثلا الخنافس ذات الست مخالب... أنت تلتقطينها فتعضك وتموتين.

- ولكن عليك أن تتحدث عن نفسك.

- أنا تعوّدت عليها.

- وتعودت على الحيات؟

ضحك الاثنان وقال:

- أنا طبيب ولا تجرؤ الحيات على عضي.

جلسا جنبا إلى جنب في المدخل ولبسا أحذية المساء سألها:

- من فضلك هل يمكنني أن اسألك سؤالا؟ لماذا أتيت إلى الهند في هذا الوقت من السنة وموسم الجو البارد قد انتهى لتوّه؟

- لقد نويت أن أبدأ مبكّرة عن ذلك ولكن حدث تأخير لا مفر منه.

- سرعان ما سيصبح الجو غير صحّي لك.. ثم لماذا بالذات أتيت إلي "**كاندرابور**"؟

- لأزور ابني.. إنه حاكم المدينة هنا.

- أوه.. لا.. يجب أن تعذريني هذا مستحيل.. إن حاكم مدينتنا اسمه السيد "**هيسلوب**" وأعرفه شخصيا.

قالت وهي تبتسم:

- إنه أيضا نفس اسم ابني.

- ولكن يا سيدة "**مور**" كيف يمكن أن يكون؟

- لقد تزوجت مرتين.

- نعم.. لقد فهمت الآن وزوجك الأول توفّي.

– لقد مات وكذلك فعل زوجي الثاني.

قال بطريقة مستترة:

– إذن نحن في نفس الحال.. إذن أصبح حاكم المدينة هو كل أسرتك الآن؟

– لا.. هناك أبناء أصغر.. "**رالف**" و"**ستيلا**" في "**إنجلترا**".

– والسيد المحترم هنا هو أخ غير شقيق لـ"**رالف**" و"**ستيلا**".

– بالضبط.

– يا سيدة "**مـور**" إن هذا أمر غريب للغاية.. لأنني مثلك تماما لدي ابنان وابنة.. أليس هذا نفس الموقف؟

– ما هي أسماؤهم؟ لا تقل إنها "**روني**" و"**رالف**" و"**ستيلا**"؟

أمتعه الإيحاء وقال:

– لا في الحقيقة.. ولكن كم يبدو الأمر مضحكا! إن أسماءهم مختلفة تماما وستدهشك.. اسمعي من فضلك. أنا سأخبرك بأسماء أطفالي. الأول اسمه "**أحمد**" والثاني اسمه "**كريم**" والثالثة وهي الكبرى "**جميلة**" ثلاثة أطفال يكفي. ألا توافقينني؟

– بل أوافقك.

سألها:

– هل تتفضلين بزيارتي هناك في مستشفى "**مينتو**" صباح أحد الأيام؟ ليس عندي شيء آخر أقدمه لك في "**كاندرابور**".

– شكرا لك فقد رأيتها بالفعل وإلا لأحببت جدا أن آتي معك.

– أظن أن الطبيب المدني قد أخذك إليها.

– نعم والسيدة "**كاليندار**".

تغيّر صوته:

– آه.. سيدة ساحرة جدا.

– ممكن.. عندما يعرفها المرء أفضل.

– ماذا؟ ألم تحبيها؟

– بالتأكيد قصدت أن تكون لطيفة ولكني لم أعتبرها ساحرة جدا كما قلت.

انفجر قائلا:

– لقد استولت لتوّها على عربتي "التونجا" دون إذني. هل يمكن أن تسمي ذلك سحرا؟ والميجور "**كاليندار**" يقاطعني ليلة بعد أخرى في المكان الذي أتناول فيه عشائي مع أصدقائي وأذهب مباشرة في الحال قاطعا أهم متعي ولا أجده هناك ولم يترك حتى رسالة.. من فضلك هل هذا سحر؟ ولكن ما أهمية الأمر؟ لا أستطيع أن أفعل شيئا وهو يعرف ذلك. أنا مجرد مرؤوس ووقتي لا قيمة له والشّرفة كافية للهندي.. نعم.. نعم إنه يدعني أقف في الشرفة.. والسيدة "**كاليندار**" تأخذ عربتي "التونجا" وتتركني مذهولا..

أنصتت... كان ثائرا منفعلا جزئيا من أخطائه ولكن أكثر بكثير من معرفة أن شخصا ما يتعاطف معهم وهذا ما دعاه إلى التكرار والتجاوز والتناقض. لقد أثبتت تعاطفها بنقد مسلك رفيقتها من بني وطنها أمامه ولكنه قبل ذلك كان قد عرف. كانت الشعلة التي قد لا تكون حتى جمالا يزيد من اشتعالها قد قفزت وظهرت ورغم أن كلماته كانت مشاكسة كان قلبه بدأ يتوهج سريا. وبدأ يتفجر ذلك في الكلام:

- هل تفهمينني؟ أنت تعرفين ماذا يحسّ الآخرون. أو.. لو كان الآخرون يشبهونك!

ردّت وهي في الحقيقة أكثر اندهاشا.

- لا أعتقد أنني أفهم الناس جيدا. فقط أعرف إن كنت أحبهم أو لا أحبهم.

- إذن أنت شرقيّة!

قبلت أن يصحبها عائدة إلى النادي وقالت عند البوابة: إنها ودت لو كانت عضوا حتى تستطيع أن تطلب منه الدخول. قال ببساطة:

- الهنود غير مسموح لهم بالدخول إلى نادي "**كاندرابور**" ولو حتى كضيوف.

إنه لم يعد يهتمّ بأخطائه الآن لأنه كان سعيدا، وبينما هو يهرول إلى أسفل التل تحت القمر الجميل ورأى مرة أخرى المسجد الحبيب إلى نفسه أحسّ وكأنه يمتلك الأرض كما يمتلكها الآخرون. ماذا يهمّ لو أن القلائل من الهندوس مهلهلي الثياب قد وعظوه هناك، وأن بعض الإنجليز الباردين نجحوا؟

الفصل الثالث

كان الدور الثالث من لعبة "ابنة العم **كيت**" وقد تطورت تطورا حسنا عندما عادت السيدة "**مور**" ودخلت النادي وقد حجبت النوافذ حتى لا يرى الخدم الأعضاء وهم يتصرفون بهذه الحرارة الرهيبة. وكانت مروحة كهربائية واحدة تدور متخبطة كطائر جريح والأخرى لا تعمل. لم تجد رغبة في العودة إلى المشاهدة فذهبت إلى غرفة البلياردو. حيّتها "**عديلة كويستد**" وهي الفتاة الفضولية التي كلفها "**روني**" بإحضارها من "**إنجلترا**" و"**روني**" كان أيضا حذرا، والذي لم يكن من المحتمل ألا تظن الآنسة "**كويستد**" بالتأكيد أنه سيتزوجها ثم إنها نفسها كانت سيدة أكبر سنا. قالت "**عديلة**":

- أريد أن أرى الهند الحقيقية.

- أريد أن أراها أنا أيضا، وأودّ أن أستطيع ذلك.

ومن الواضح أن آل "**تورتون**" سينظّمون شيئا ليوم الخميس.

- سينتهي ذلك بركوب الفيل.. هكذا يفعلون دائما، انظري إلى هذه الأمسية في لعبة "ابنة العم **كيت**" تصوري لعبة "ابنة العم **كيت**"! ولكن أين كنت بالخارج وهل نجحت في التطلع إلى القمر فوق نهر "**الجانج**"؟

لقد حدث في الليلة السّابقة أن السيدتين رأتا انعكاس القمر على سطح النهر بحيث بدا أوسع من القمر الحقيقي، وأكثر سطوعا، وهو ما سرهما.

– لقد ذهبت إلى المسجد ولكنني لم أشاهد القمر.

– إن الزاوية قد تكون تغيرت بحيث يسطع في وقت متأخر.

تثاءبت السيدة "**مور**" التي أصبحت مرهقة بعد نزهتها على الأقدام وقالت:

– يتأخر أكثر فأكثر ولكن دعيني أفكر.. إننا لا نستطيع أن نرى الوجه الآخر من القمر من هنا... أليس كذلك.

قال صوت حسن:

– هيَّا تعاليا.. إن الهند ليست سيئة لهذه الدرجة على الجانب الآخر من الأرض إذا رغبتما ولكننا مازلنا متمسكين بالقمر القديم.

لم تكن واحدة منهما تعرف صاحب الصّوت ولم يسبق لهما أن قابلتاه.. ذهب مع كلماته اللطيفة الودية عبر الأعمدة المبنية من القرميد الأحمر ليختفي وسط الظلام. قالت الآنسة "**عديلة**":

– إننا حتى لم نشاهد الجانب الآخر من العالم وهذه شكوانا.

وافقتها السيدة "**مور**" لأنها أصيبت هي أيضا بالخيبة من قتامة حياتها. لقد قامتا برحلة رومانسية للغاية عبر البحر الأبيض المتوسط، وعبر رمال مصر إلى ميناء "**بومباي**" لتجدا فقط شبكة من البيوت الريفية من نوع "**البنجالو**" في نهاية الرحلة. ولكنها لم تأخذ تلك الخيبة بنفس الجدّية مثل الآنسة "**كويستد**" بسبب أنها أكبر منها سنا بأربعين سنة وتعلمت أن الحياة لا يمكن أن تعطينا أبدا ما نريده في اللحظة التي نعتبرها مناسبة. والمغامرات تقع بالفعل، ولكن ليس في الوقت المضبوط. قالت مرة ثانية: إنها تمنّت شيئا مثيرا يتم ترتيبه في الخميس القادم.

قال صوت لطيف آخر:

– تناولا مشروبا يا سيدة "**مور**" ويا آنسة "**كويستد**". تناولا مشروبين!

كانتا تعرفان صاحب هذا الصوت هذه المرة، إنه المحصل السيد "**تورتون**" والذي معه تناولتا الغداء. كان قد وجد مثلهما أن جو لعبة "ابنة العم **كيت**" حار أكثر من اللازم. وأخبرهما أن "**روني**" يقوم بالنيابة عن الميجور "**كاليندار**" والذي غدر به بعض مرؤوسيه من الوطنيين، وأنه يقوم بالعمل على أكمل وجه، ثم عاد إلى صفات ومزايا "**روني**" الأخرى وقال بصوت هادئ: إن ذلك شيء مجامل. ليس لأن الشاب كان جيِّدا بشكل خاص في الألعاب، أو إتقانه اللغات الغريبة أو أن له معرفة جيدة بالقانون فحسب وإنما من الواضح أيضا أن "**روني**" محترم جدا.

دهشت السيدة "**مور**" لأن الوقار والاحترام ليسا من الصفات التي تصف بها أي أم ابنها. وعرفت الآنسة "**كويستد**" أن ذلك يقلق لأنها لم تكن قد قررت عما إذا كانت تحب الرجال الموَقَّرينَ. حاولت في الحقيقة أن تناقش وجهة النظر هذه مع السيد "**تورتون**" ولكنه أسكتها بحركة فكاهية جيدة من يده:

– السبب في ذلك هو أن "**هيسلوب**" صاحب لنا، وهو الطراز الذي نريده.. إنه واحد منا.

وقال أحد المدنيين الذي كان يلعب فوق مائدة البلياردو :

- اسمعوا . . اسمعوا . .

أصبح الأمر الآن بعيدا عن الشكّ . وانتقل المحصّل لبعض الواجبات التي نادته .

وفي نفس الوقت انتهى العرض وعزفت فرقة الهواة السلام الوطني . وتوقفت الأحاديث، وألعاب البلياردو . وتصلّبت الوجوه . كان سلام جيش الاحتلال . ذكر ذلك كل عضو في النادي أنه شعارهم في المنفى . كان عليهم أن يتحمَّلوا يوما آخر بعيدا عن الوطن . . . ثم تدفقوا للخارج واحدا وراء الآخر بعد أن صبَّ كل واحد للآخر شرابا . رفضت "**عديلة**" والسيدة "**مور**" الشراب، وأعلنت الآنسة "**كويستد**" ثانية أنها ترغب في رؤية الهند الحقيقية .

كانت معنويات "**روني**" مرتفعة وصدمه الطلب وكأنه شيء كوميدي . سأل أحد المارين به :

- كيف يمكن للمرء أن يرى الهند الحقيقية يا "**فيلدنج**" ؟

ردّ الرجل ثم اختفى :

- حاول أن ترى الهنود !

- من كان هذا؟

- إنه ناظر مدرستنا . . الكليّة الحكومية !

تنهّدت السيدة "**ليزلي**" :

- وكأن باستطاعتنا تجنب رؤياهم !

قالت الآنسة "**كويستد**" :

- لقد تجنبتهم ما عدا خادمي الخاص، ونادرا ما تحدّثت مع هندي منذ رست سفينتي .

- أوه . . يالحسن حظك .

- ولكني أريد أن أراهم .

أصبحت مركزا لدائرة من السّيدات اللاتي تمثل المجتمع الإنجليزي الراقي . قالت إحداهن :

- أنت تريدين رؤية الهنود . . . وما الجديد في ذلك؟

وقالت أخرى :

- وطنيون . . لماذا . . هذا خيال .

وقالت ثالثة أكثر جدّية :

- دعيني أشرح لك . . الوطنيون لا يحترمون أحدا وسترين .

- هذا يحدث بعد العديد من اللقاءات .

ولكن السّيدة الودود والغبية للغاية استمرّت :

- إن ما أقصده هو أنني كنت ممرضة قبل زواجي وقد تقابلت مع العديد منهم، لذلك أعرف . إنني فعلا أعرف الحقيقة عن الهنود . إنهم أسوأ وضعٍ غير مناسب لأي امرأة إنجليزية . لقد كنت ممرضة في ولاية وطنية . والأمل الوحيد أن أعيش بمعزل عنهم .

- حتى بمعزل عن المرضى ؟

قالت السيدة "**كاليندار**":

- ولماذا؟ إن أرحم شيء يمكن فعله لوطني هو أن تدعيه ليموت.

سألت السيدة "**مور**" بابتسامة لطيفة ولكن ملتوية:

- وماذا لو ذهبت إلى السماء؟

- إنه يستطيع الذهاب إلى حيث يريد مادام لا يقترب مني.. إنهم يصيبونني بالرّعب.

قالت السيدة التي كانت ممرضة:

- في الحقيقة لقد فكرت فيما كنتم تقولونه عن السماء ولذلك أنا ضد الجمعيات التبشيرية.. أنا كلي مع الملحقين القساوسة ولكنني كلية ضد البعثات التبشيرية ودعوني أشرح.

ولكن قبل أن تتمكن من الشرح تدخل المحصل:

- هل تريدين حقا أن تقابلي الأخ "**أريان**" يا آنسة "**كويستد**"؟ أنا واثق من أنه سيمتّعك. يمكنك عمليا أن تري أي نمط تحبينه وما عليك سوى الاختيار. أعرف رجال الحكومة وملاك الأراضي. و"**هيسلوب**" هنا يمكنه أن يضع يده على مجموعة محامين أمام المحاكم، بينما إذا أردت التخصص في التعليم فإننا يمكننا اللجوء إلى "**فيلدنج**".

شرحت الفتاة "**عديلة**":

- لقد تعبت من رؤية الوجوه الخلابة تمر بي وكأنها في إطار.. لقد كان ذلك رائعا عندما رسونا، ولكن هذا البريق المصطنع سرعان ما ذوى.

لم تكن انطباعاتها ذات أهمية بالنسبة للمحصّل. إنه مهتم فقط بأن يمنحها وقتا طيبا. هل تحب دورا من لعبة "البروج"؟ وشرح لها أنه يقصد أن تقرب الهوّة ما بين الشرق والغرب... كان مسرورا من تعبيراته ومن نفسه. قالت:

- أنا فقط أريد الهنود الذين نلتقي بهم اجتماعيا مثل أصدقائك.

- حسنا.. نحن لا نلتقي معهم اجتماعيا إنهم مليئون بكل الفضائل، ولكننا ليست لدينا فضائل، والآن الساعة الحادية عشرة والنصف والوقت متأخر على المنطق.

قالت السيدة "**تورتون**" معلقة إلى زوجها وهما يقودان العربة بعيدا:

- الآنسة "**كويستد**"! ياله من اسم!

لم تكن قد تقبّلت السيدة الشابة الجديدة، واعتبرتها غير لطيفة وغريبة الأطوار. ووثقت بأنها لم تحضر إلى هنا من أجل الزواج من الصغير اللطيف "**هيسلوب**" وإن بدا الأمر كذلك. ووافقها زوجها على ذلك من كل قلبه، ولكنه لم يتحدث أبدا ضد أي امرأة انجليزية. إذا استطاع أن يتجنّب ذلك، وكل ما قاله هو: إن الآنسة "**كويستد**" طبعا ارتكبت أخطاء.

أغلقت السيدة "**مور**" عينيها وفكرت في السيد "**فيلدنج**":

- السيد "**فيلدنج**" غير موثوق به، ومن الأفضل له لو تزوّج الآنسة "**كويستد**" لأنها هي أيضا غير موثوق بها.

وصلا إلى بيتهما "**البنجالو**" المنخفض وكان أقدم "**بنجالو**" في المحطة المدنية وأقلها راحة.. كان

انسحابهما من النادي قد قطع الأمسية التي كانت مثل كل التجمعات مشوبة ببعض الحدة الحكومية. إن مجتمعا يؤمن بالركوع على الركب أمام نائب الملك، ويؤمن بأن الكرامة التي تحيط بالملك يمكن أن تُنقل لمكان آخر لتقديم بعض التبجيل لأي شخص يحل محل نائب الملك. لقد كان آل "**تورتون**" في "**كاندرابور**" شبه آلهة وسرعان ما سيتقاعدون إلى فيلا في الضواحي ويموتون منفيين.

ثرثر "**روني**" قائلا:

– لقد كان لطيفا من الرجل أن ينظم حفل "بريدج". لقد كنت أود أن أقدم شيئا بنفسي،، ولكن لازلت جديدا هنا. ولا أحد يجرؤ على أن يظن أنه يعرف هذه البلاد مالم يظل فيها عشرين عاما على الأقل. فمثلا من الأخطاء أنني عندما جئت في البداية إلى هنا مباشرة سألت واحدا من المتقاضين أن يشرب معي سيجارة. مجرد سيجارة. واكتشفت فيما بعد أنه أرسل منادين عبر السّوق كلّه يعلن الخبر ويخبر كل المتقاضين:

– أوه من الأفضل أن تذهبوا إلى الوكيل "**محمود علي**" إنه صديق لحاكم المدينة.. ومن وقتها كنت أهاجمه في المحكمة قدر المستطاع، لقد تعلمت الدرس وأتعشم أن يكون هو أيضا تعلم.

سألته الآنسة "**كويستد**":

– لماذا لا تدعو المتقاضين إلى النادي؟

– ليس هذا مسموحاً به.

نادى على السايس أن يحضر عربته "الكارتة".

أخذت السيدة "**مور**" تشاهد القمر بالخارج، وكان بياضه السّاطع يشوبه بعض بقع أرجوانية من السماء المحيطة. في "**إنجلترا**" كان القمر يبدو ميتا ومنفرا ولكن هنا رأته وسط وشاح السماء مع النجوم الأخرى والأرض. أحست بإحساس من الوحدة والألفة مع الأجساد السماوية. يدخل المرأة العجوز ويخرج منها مثل الماء خلال الصهريج تاركا نوعا من الطزاجة. لم تكره لعبة "ابنة العم **كيت**" أو السّلام الوطني، ولكن آثارهما ماتت في إحساس جديد. عندما لمع المسجد عند ناصية الطريق صاحت:

– أوه.. نعم.. هنا دخلت.. هنا كنت!

سألها ابنها:

– كنت هنا متى؟

– أثناء اللعب.

– ولكن يا أمي لا يمكن أن تفعلي شيئا كهذا!

– لا أستطيع؟

– لا. حقا في هذه البلاد.. إنه لا يجوز. هناك الخطر من الأفاعي وما شابه ذلك... إنها تميل إلى أن تستلقي هناك ليلا.

– آه نعم... هكذا قال أيضا الرجل الموجود هناك.

قالت الآنسة "**كويستد**" التي كانت مغرمة جدا بالسيدة "**مور**" وسعدت لأنها نالت بعض الهروب:

- إن هذا يبدو رومانسيا.. لقد قابلت شابا في المسجد، ولم تجعليني أعرف ذلك أبدا.

- لقد كنت على وشك أن أخبرك بذلك يا "**عديلة**"، ولكن شيئا ما غيّر الحديث وجعلني أنسى.. إن ذاكرتي ضعفت.

- هل كان لطيفا؟

- لطيف جدا.

- من هو؟

- دكتور... لست أعرف اسمه.

- دكتور؟ لست أعرف بوجود طبيب شاب في "**كاندرابور**" شيء غريب.. ما شكله؟

- إنه صغير الجسم إلى حدّ ما، وله شارب صغير، وعينان سريعتان. لقد صاح فيّ عندما كنت في الجزء المظلم من المسجد وكان صياحه بسبب حذائي. وهكذا بدأنا الحديث. كان يخشى أن أكون مرتدية إياه ولكني تذكرت لحسن الحظ، وأخبرني عن أطفاله، ثم عدنا معا إلى النادي وهو يعرفك جيدا.

- أتمنى لو أشرت لي عليه لأنني لا أستطيع أن أعرف من هو.

- إنه لم يدخل النادي وقال إنه غير مسموح له بدخوله.

بناء عليه صدمته الحقيقة وصاح:

- أوه يا إلهي يا رحيم! لا ليس مسلما؟ لماذا لم تخبريني أبدا أنك كنت تتحدثين مع وطني؟ لقد كنت أفهم الأمر كله خطأ. مسلم محمديّ!

صاحت الآنسة "**كويستد**":

- مسلم محمديّ! ياله من أمر رائع! أليس هذا من طبع والدتك يا "**روني**"؟ بينما نحن نتحدث عن الهند الحقيقية، تذهب هي وترى الهند ثم تنسى أنها رأتها.

من وصف أمه ظن "**روني**" أنه الطبيب الشاب "**موجينز**" من هناك أعلى "**الجانج**".. ولكن ما هذا الخلط بين الأمور؟ لماذا لم تشر بلهجة صوتها أنها كانت تتحدث عن هندي؟ بدأ يستجوبها بدكتاتورية وتدقيق:

- لقد صاح فيك من داخل المسجد.. أليس كذلك؟ كيف؟ ياله من طيش! ما الذي كان يفعله هناك في ذلك الوقت من الليل؟ لا... إنه ليس وقت الصلاة.

- إذن ناداك من هناك بشأن حذائك؟ إذن لقد كانت طريقة قديمة لاعتراض طريقك؟

- أعتقد أنه كان اعتراض طريق، ولكنها ليست حيلة. لقد كانت أعصابه مشدودة للغاية، وعرفت ذلك من صوته. وما إن أجبته حتى تغيّر.

- لم يكن عليك أن تردّي عليه:

ردت فتاة المنطق:

- الآن انظر هنا! ألا تتوقع ألا تردّ على محمدي مسلم إذا طلب منك أن تخلع قبعتك وأنت في الكنيسة؟

- الأمر مختلف.. أنت لا تفهمين.

- أعرف أنني لا أفهم وأريد أن أفهم... ما الفرق من فضلك؟ ود لو أنها لم تتدخل. إن أمه ليست سوى رحّالة متنقلة على القارات ومؤقتا وستعود إلى "**إنجلترا**" ومعها الانطباعات التي اختارتها. ولكن "**عديلة**" التي فكرت في أن تقضي كل حياتها في هذا البلد، وهذا أمر أكثر جدية، وهي ستكون متعبة إذا ما أصرّت على موضوع السؤال الوطني. شد لجام الفرس وقال:

- ها هو نهرك "**الجانج**".

تشتت انتباههم. تحتهم كان بريق مشع ومفاجئ لا يمت لا إلى الماء ولا لضوء القمر، بل مثل حزمة مضيئة فوق حقول من الظلام أخبرهم أنه هناك حيث كان الشاطئ الرملي يتكون وكان الظلام الخفيف في القمّة هو الرمل وأن الأجسام الميتة كانت تطفو إلى نهاية الطريق من "**بناريس**" أو ربما تطفو إذا أفلتت من التماسيح:

- إنها أجسام كثيرة للموتى التي تأتي إلى "**كاندرابور**".

همهمت أمه:

- التماسيح بداخله أيضا.. ياله من أمر مرعب! ياله من نهر رهيب، وياله من نهر رائع.

كان الوهج والبريق الآن يتغيّر سواء بسبب تغيّر القمر أو الرمال، وسرعان ما ذهبت حزمة الضوء، ودائرة القمر نفسها تغيّرت وقد انعكست على الفراغ المائي المتموج. لم ينتظروا طويلا وإنما قادوا العربة "الكارتة" إلى بيت الحاكم حيث ذهبت الآنسة "**كويستد**" إلى الفراش، وأجرت السيدة "**مور**" حوارا قصيرا مع ابنها.

أراد أن يسأل عن الدكتور المحمدي المسلم في المسجد. كان من واجبه أن يبلغ عن الأشخاص المشتبه فيهم، وإنه من المتوقع أن يكون طبيبا سيئ السمعة زحف من السوق. وعندما أخبرته أنه شخص له علاقة بمستشفى "**مينو**" أحس بالراحة وقال: إن اسم أخينا هذا هو "**عزيز**" وإنه لا بأس به ولا شيء ضدّه.

- "**عزيز**"..! ياله من اسم ساحر.

- إذن جرى بينك وبينه حديث.. هل فهمت منه أنه في وضع حسن؟

كانت تجهل قوّة سؤاله عندما أجابت:

- نعم.. من أول لحظة.

- أعني من الناحية العامة.. هل بدا أنه يسامحنا نحن الغزاة المتوحشين والبيروقراطيين القساة ومثل تلك الأمور؟

- أوه نعم.. أعتقد ذلك فيما عدا آل "**كاليندار**" إنه لا يهتم بـ"**الكاليندار**" على الإطلاق.

- أوه.. إذن قال لك هذا.. أليس كذلك؟ إن الميجور سيهتم بذلك. أتساءل ماذا يقصد بملاطفته؟

- "**روني**" ! "**روني**" ! هل ستنقل هذا إلى الميجور؟

- نعم الأحرى أنه يجب عليَّ ذلك في الحقيقة.

- ولكن يا ابني العزيز!

- إذا سمع "**الميجور**" أنني غير محبوب من أحد المرؤوسين لي فإني أتوقع أن ينقل ذلك لي.

- ولكن يا ابني العزيز.. إن ذلك حديث خاص!

- لا شيء خاص في الهند. و"**عزيز**" يعرف ذلك عندما صرح بذلك فلا تقلقي. إن له بعض الهدف من هذا القول واعتقادي الخاص أن الملحوظة لم تكن صادقة.

- وكيف تكون غير صادقة؟

- لقد استغل "**الميجور**" ليؤثر فيك.

- لست أفهم ماذا تقصد يا ابني.

- إنها آخر صيحة في مراوغات الوطني المتعلم... لقد اعتادوا التملق ولكن الجيل الأصغر يعتقد في ضرورة إظهار الرجولة والاستقلال. إنهم يظنون أن ذلك يؤثِّر أحسن مع الشرطة الحربية المتجولة سواء كان الوطنيون يتذللون أو يختالون وهناك دائما شيء ما وراء كل تعليق يقوم به. هناك شيء ما ليزيد من عزته وكرامته. وطبعا هناك استثناءات.

- إنك لم تَعْتد أن تحكم على الناس هكذا في الوطن.

رد عليها بحدة بل بخشونة ولكن حتى يسكتها. كان ينتقي عباراته ومجادلاته مما يستخدمه الرسميون القدامى وإن بدا غير واثق بنفسه، وعندما قال: إن هناك استثناءات دون شك كان يردد عبارات السيد "**تورتون**" بينما عبارة "زيادة عزته" كانت من مأثورات الميجور "**كاليندار**" .لقد أفلحتْ الكلمات وكانت مستخدمة عادة في النادي ولكنه كان أكثر ذكاء في انتقاء العبارات المستخدمة للمرة الأولى من تلك المبتذلة كثيرة الاستخدام. قالت:

- لا أستطيع أن أنكر أن ما تقوله يبدو معقولا جدا ولكن يجب ألا تنقل حقا للميجور "**كاليندار**" أي شيء مما قلته لك عن الدكتور "**عزيز**" .

- موافق بشرط في المقابل ألا تتحدَّثي عن "**عزيز**" مع "**عديلة**" .

- ألا أتحدث عنه؟ لماذا؟

- هانت تعودين مرة ثانية يا أمي... أنا لا أستطيع حقا أن أشرح كل شيء. لا أريد من "**عديلة**" أن تقلق وتبدأ في التساؤل عما إذا كنا نعامل الوطنيين بطريقة صحيحة وكل هذا الهراء..

- ولكنها وصلت فعلا إلى حالة القلق ولهذا السبب هي هنا لقد ناقشتني في كل هذا ونحن على السفينة. لقد جرى بيننا حديث طويل عندما نزلنا على الشاطئ في "**عدن**" كانت تعرف أنك في اللّعبة حسب تعبيرها ولكن لست في الفعل وأحسَّت أنه يجب عليها أن تأتي وتلقي نظرة شاملة قبل أن تقرر وقبل أن تقرر أنت أنها عادلة التفكير جدا.

قال في امتعاض:

- أعرف.

على أية حال لم يمنعها من التفكير في "**عزيز**" وهذا ما فعلته عندما أوت إلى حجرتها. وعلى ضوء تعليق ابنها أعادت التفكير في المشهد في المسجد لترى من منهما كان انطباعه صحيحا. نعم... لقد بدأ الطبيب بالاستئثار عليها وقال: إن السيدة "**كاليندار**" لطيفة ثم.. عندما وجد الأرض سليمة تحت قدميه تغير.. لقد تحوَّل إلى الانتحاب على أحزانه، ويتهمها بالتعالي عليه بينما ابنها اعتبره لا يمكن الوثوق به وفضولي ومُتَطفِّل. نعم كل ذلك قد يكون حقيقيا، ولكن كم هو مزيّف كملخَّص لرجل كانت حياته الأساسية مذبوحة.

عندما همّت بتعليق معطفها وجدت أن رأس الشماعة يحتله دبور صغير. كانت قد رأت هذا الدبور أو أقاربه في النهار. لم يكن مثل الدبور الإنجليزي وكان له سيقان طويلة صفراء يضمها أسفله عندما يطير. إن الحيوانات والحشرات الهندية لا تحترم الديكور حيث تسكن داخل البيوت خفافيش وجرذان وطيور وحشرات مثلما تفعل بالخارج، حيث يعتبرون البيت امتدادا طبيعيا للغابة الأبدية. إنه معلق في مكانه بينما الذئاب في الخلاء تعوي معبرة عن رغباتها، ويختلط عواؤها مع قرع الطبول. قالت السيدة "**مور**" للدّبور:

- يا عزيزي الغالي.

لم يستيقظ ولكن صوتها طاف ليزيد من عدم الارتياح بالليل.

الفصل الرابع

أوفى المحصل بكلمته. في اليوم التالي أرسل بطاقات دعوة للعديد من السادة الهنود المحترمين في الجوار ذاكرا أنه سيكون في البيت في حديقة النادي ما بين الخامسة والسابعة يوم الخميس القادم.. وكذلك إن السيدة "**تورتون**" سيسعدها أن تستقبل أي سيدات من عائلاتهم لا يرتدين البردة. وقد تسبّب عمله في الكثير من الإثارة ونوقش في مختلف المجتمعات الهندية. كان تفسير السيد "**محمود علي**":

- إنها أوامر من الجهات العليا. إن "**تورتون**" لا يمكن أن يفعل ذلك إلا مجبرا. هؤلاء الرسميون الكبار يختلفون. إنهم يتعاطفون. إن نائب الملك يتعاطف، إنهم يودُّون لنا أن نُعامل بالطريقة الصحيحة. ولكنهم نادرا ما يأتون، ويعيشون بعيدا جدا وفي نفس الوقت..

قال رجل مهذب عجوز له لحية:

- من السّهل أن تتعاطف عن بعد. إنني أقدّر أكثر قيمة الكلمة الطيبة التي تقال لي بجوار أذني. لقد قالها السيد "**تورتون**" لسبب ما أيّا كان.. إنه يتكلم ويسمع وأنا أفهم لماذا نحتاج إلى مناقشة الأمر أكثر.

- ليست لنا طبيعتك الطيبة يا "**نواب بهادور**" ولا تعليمك.

- الملازم الحاكم قد يكون صديقي الحميم جدا ولكني لا أسبب له أي متاعب: كيف حالك يا "**نواب بهادور**"؟

- أنا بخير، وشكرا يا سير "**جيلبرت**" كيف حالك؟ وكل شيء ينتهي. ولكنني يمكن أن أكون شوكة في لحم السيد "**تورتون**" وإذا طلب مني أن أقبل دعوته. فإنني سآتي من "**ديلكوشا**" خصيصا رغم أني ساضطر إلى تأجيل أعمال أخرى.

فجأة قال رجل قصير أسود:

- إنك ستجعل من نفسك شيئا تافها.

حدثت هزة من المعارضة: من هو ذلك قليل الأدب الذي نقد زعيم ملاك الأراضي المسلم في المقاطعة؟ ورغم أن "**محمود علي**" كان يشاركه الرأي إلا إنه أحس بانه مضطر إلى معارضته وقال وهو يتطوّح للأمام:

- يا سيد "**رام شاد**"!

- يا سيد "**محمود علي**"!

- يا سيد "**رام شاد**" يمكن لـ"**نواب بهادور**" أن يقرر ما هو رخيص دون تقييمنا له على ما أظن.

قال "**نواب بهادور**" لـ"**رام شاد**" بكل رقّة:

- لا أتوقع أن أبخس نفسي حقها.

كان مدركا أن الرجل غير مؤدب وأراد أن يحميه من العواقب. كان يود لو أنه أجابه "**أتوقع أنني سأجعل نفسي رخيصا**"، ولكنه رفض باعتباره البديل الأقل لياقة وقال:

- لست أرى داعيا.. لماذا يجب علينا أن نرخص أنفسنا لست أدري لماذا يجب علينا أن نفعل ذلك.

أحسّ بانه لا يستطيع أن يقلّل الفجوة الاجتماعية بينه وبين مستمعيه أكثر من ذلك فأرسل حارسه الأنيق الذي كان حاضرا معه ليحضر السيارة. وعندما جاء كرّر كل ما سبق أن قاله وباستطالة أكبر وانتهي:

- إلى اللقاء يوم الخميس يا سادة يا محترمين جميعا أتعشم أن نلتقي في حديقة الزهور الخاصة بالنادي.

كان "**نواب بهادور**" من كبار الملاك، ومحسنا كبيرا، ورجل قرار وبرّ. وكان عدوا مستقيما وصديقا يعتمد عليه. وكرم ضيافته كان مثالا للكرم، وكان تعليقه المفضّل "امنح ولا تقرض.. مَنْ بعد الموت سيشكرك؟" وكان يعتبر من العار أن يموت غنيا. وإذا كان هذا الرجل مستعدا لأن يقطع بالسيارة خمسة وعشرين ميلا لمجرد أن يصافح يد المحصل، فإن الاستعراض يصبح له مظهر آخر.. لأنه لم يكن مثل بعض الرجال المبجلين الذين يعدون بالحضور ثم يفشلون في آخر لحظة. إذا قال إنه سيحضر فإنه سيحضر ولن يحبط مؤيديه. والسادة المحترمون الذين حاضرهم من قليل حثّ كل منهم الآخر على أن يحضر الحفل رغم اقتناعهم داخليا أن نصيحته غير مسموعة.

كان قد تكلّم في الحجرة الصغيرة القريبة من قاعات المحكمة حيث المحامون في انتظار الزبائن، والذين كانوا يجلسون على التراب بالخارج. والذين لم يتلقوا بطاقات من السيد "**تورتون**"، وخلفهم أناس رثّو الملابس، وأناس حتى لم يرتدوا تلك الملابس ويقضون حياتهم في حك عصوين

معا أمام دمية قرمزية مثالا للإنسانية التي تنحط وتهبط ولا تصلح لتلقي أي دعوة.

ربما كل الدعوات تأتي من السماء، وربما لا جدوى من أن يكون للرجال مبادراتهم نحو الوحدة ،وكل ما يفعلونه هو توسيع الهوة بينهم إذا حاولوا. لذلك رغم أن السيد "**جريز فورد**" والسيد "**سورلي**"... المبشرين المخلصين واللذين يسافران دائما بالدرجة الثالثة في السكة الحديد لا يحضران أبدا إلى النادي. وهما يبشّران: في بيت "أبينا" هناك بيوت كثيرة، وهناك فقط سيرحب بكل الأعداد الهائلة من البشر ويخفف عنهم. لن يَصدَّ واحدا بواسطة الخدم من فوق الشرفة سواء كان أبيض أو أسود، ولن يظل أحد واقفا. من يقترب بقلب محب.. ولماذا يمكن أن تنقطع الضيافة الإلهية هنا؟ ألن يكون هناك بيت حتى للقردة؟ كلا.. وقال السيد "**سورلي**" الشاب وقد تقدم للأمام:

- بلى إنه لا يرى أي، سبب يمنع القردة من أن تنال حصتها من البركة العامة، وقدم مناقشات متعاطفة مع أصدقائه من الهندوس. ثم الذئاب وابن آوى. لقد كانت الذئاب أقل أهمية في ذهن السيد "**سورلي**"، ولكنه اعترف بان رحمة الرب لا نهاية لها، وقد تشمل كل الثدييات. والدبابير. أصبح يحس بعدم الارتياح عندما هبط إلى الدبابير ومال إلى تغيير الحديث. والبرتقال والكافور والبلورات والطين.

والبكتيريا بداخل السيد "**سورلي**"؟ لا.. لا.. إن الأمر تجاوز الحدود.. لابد أن نستبعد البعض من تجمعاتنا وإلا لأصبحنا خاويي الوفاض.

الفصل الخامس

لم يُحقّق حفل "البريدج" أو على الأقل لم يكن ما كانت تعتبره كل من السيدة "**مور**" والآنسة "**كويستد**" حفلا ناجحا لقد وصلتا مبكرتين مادام قد أقيم على شرفهما، ولكن معظم الضيوف الهنود وصلوا مبكرين عنهما، وقد وقفوا متجمعين عند الطرف البعيد من ملاعب التنس لا يفعلون شيئا. قالت السيدة "**تورتون**":

- إنها الخامسة فقط. وسيحضر زوجي في لحظات من مكتبه ويبدأ الأمر. ليست لدي أي فكرة عما يجب أن نفعله. هذه أول مرّة نقيم فيها حفلا مثل هذا بالنادي. يا سيد "**هيسلوب**"! هل إذا أنا متّ هل ستقيم مثل هذا الحفل؟

ضحك "**روني**" وقال للآنسة "**كويستد**" معلقا:

- لقد أردت شيئا غير استعراضي، وقد قدّمناه لك. ما رأيك في الأخ "**أريان**" في قمّة أناقته؟

لم تجب هي ولا أمه والأحرى أنهما كانتا تحدّقان في حزن فوق نجيل التنس. لا إنها ليست حفلة مبهرة لقد تخلى الشرق عن عظمته الدنيوية وهبط إلى واد داخله لا يستطيع المرء أن يرى.

- الفكرة العظمى التي يجب أن نتذكرها أن أحدا ممن هم هنا لا يهمّ، ومن يهموننا لم يحضروا. أليس كذلك يا سيدة "**تورتون**"؟

قالت السيدة العظيمة وهي تسند ظهرها للخلف كمظهر للتحفظ:

- هذا صحيح بالقطع!

استمر "**روني**":

- الهنود المتعلمون لا فائدة منهم بالنسبة لنا، ومعظم الناس الذين ترونهم محرّضون على الفتنة بداخلهم، والباقون قد يهربون وهم يصرخون. أما المزارع فهو حكاية أخرى. و"**البتهاني**" (وهو أفغاني مقيم بالهند) رجل إذا أحببت اعتباره كذلك. ولكن هؤلاء الناس لا تتخيلين أنهم هنود.

أشار إلى ثلاثة رجال يرتدون العوينات والملابس الأوروبية، وكان يشعر بالاحتقار لهم. ساد الصّمت عندما انتهى من حديثه على جانبي الملعب. على الأقلّ انضم المزيد من السيدات الإنجليزيات، ولكن كلماتهن كانت تموت فور خروجها من أفواههن. حامت بعض الحدأن فوق الرؤوس والسماء تصب الضوء من قبتها.

تحدثوا عن لعبة "ابنة العم **كيت**" حاولوا أن يعيدوا مسلكهم الخاص في الحياة على المسرح وأن يرتدوا ملابس الطبقة الوسطى من الإنجليز الموجودين بالفعل هناك. في العام القادم قد يمثلون دور الطبقة الأرستقراطية أو أفراد الحرس الملكي البريطاني. لم يهتم الرجال بالأدب وسط هذه الغفلة السنوية لأنهم ليس لديهم وقت له ولم تفعل النساء أي شيء يمكنهن به مشاركة الرجال كان جهلهن بالفنون ملحوظا ولم يفتهن أي فرصة لإعلان ذلك كل للآخر، لقد كان هذا مسلك المدرسة العامة التي كانت مزدهرة أكثر مما في "**إنجلترا**". لقد صد "**روني**" أمه عندما سألته عن آلته الفيولا لأن الفيولا، كانت نقيصة وعيبا، وليست بالتأكيد الآلة التي تذكر علنا. لاحظت الآن كيف أن أحكامه أصبحت أكثر تسامحا وأكثر تقليدية. عندما شاهدا مسرحية "ابنة العم **كيت**" في لندن معا في الماضي كان قد احتقرها والآن يتظاهر بأنها مسرحية جيدة حتى لا يجرح شعور أحد. لقد تلقت المسرحية المديح في الصحف المحلية، وكذلك الإدارة المسرحية والأداء لكل ولكن المقال احتوى على العبارة التالية:

- الآنسة "**ديريك**" كانت من جانبها تبدو ساحرة كانت تنقصها الخبرة اللازمة وكانت تنسى الكلام من حين لآخر.

لقد تسبب هذا النقد الخفيف العبقري في المضايقة العميقة ليس في الحقيقة للآنسة "**ديريك**" التي كانت صلبة مثل المسامير، وإنما ضايق أصدقاءها. إن الآنسة "**ديريك**" لا تنتمي إلى "**كاندرابور**". لقد توقفت ليلة مع رجل الشرطة "**ماك برايد**" وكانت طيبة جدا لأنها ملأت الفراغ في فريق التمثيل في آخر لحظة لقد حملت معها انطباعا طيبا عن الكرم المحلّي.

صاح جابي الجزية (المحصل) وهو يلمس زوجته في كتفها:

- إلى العمل يا "**ماري**".. إلى العمل!

نهضت السيدة "**تورتون**" بطريقة غريبة:

- ما الذي تريد مني أن أفعله؟ أوه تلك النساء مرتديات "**البُردَة**"!! لقد ظننت أن إحداهن لن تأتي.. أوه يا إلهي!

كانت مجموعة صغيرة من النساء الهنديات قد احتشدن في أحد أركان الأرض بالقرب من بيت صيفي مقام على الطراز الروستيك، والذي بداخله لجأت النساء الأكثر خجلا. وقفت الباقيات وظهورهن للصحبة، ووجوههن ملتصقة بمجموعة من الشجيرات. وعلى مسافة قصيرة وقف أقاربهن الرجال يشاهدون المنظر. كان المنظر له معنى: جزيرة تحجبها الأمواج المتقلبة والمتوقع أن ترتفع أكثر. قالت السيدة "**تورتون**":

– لقد اعتقدت أنهن سيأتين إليّ.

– هيا يا "**ماري**" اذهبي إليهن!

– أرفض أن أصافح بيدي أيا من الرجال مالم يكن "**نواب بهادور**".

نظر بطول الصفّ وقال:

– من هذا الذي هناك بعيدا؟ أوه.. نحن نعرف لماذا هو هنا على ما أظن.. إنه وراء ذلك العَقْد ويريد أن ينال تأييدي لـ"**محرم**" وهو المَنَجِّمُ الذي يريد أن يلوي إجراءات البلدية الخاصة بالمباني وهو إيراني الأصل.. هاللو! ها هو قد ذهب.. لقد اصطدم بشجرة الخطمي لقد شد اللجام لليسار بينما يقصد اليمين. كالمعتاد.

قالت السيدة "**تورتون**" التي كانت قد تقدمت نحو البيت الصيفي تصحبها السيدة "**مور**" والآنسة "**كويستد**" والكلب.

– لم يكن من الواجب أبدا أن يسمح لهؤلاء الناس بالدخول بجيادهم وعرباتهم.. هذا أمر سيئ منهم. وكيف يمكن ألا أعرف ذلك على الإطلاق! إنهم يكرهون ذلك مثلي. تحدث مع السيدة "**ماك برايد**" لقد أقام زوجها حفلات إلى أن صدمت. صححت الآنسة "**كويستد**":

– هذا ليس حفل "بُوردَة".

قال أحد المتعالين:

– أوه.. حقا!

سألت السيدة "**مور**":

– هل يمكن أن تتفضّل وتخبرنا من هؤلاء السيدات؟

– أنت أعلى منهن على أية حال. لا تنسي هذا. أنت أعلى من أي شخص في الهند ما عدا واحدا أو اثنين من "الرانبات" وهن زوجات المهراجات. اللاتي هن في مستواك.

تقدمت السيدة "**مور**" وصافحت أيدي المجموعة وقالت بضع كلمات قليلة للترحيب باللغة الأوردية. لقد تعلمت لغة البلاد فقط لتتحدث بها مع الخدم، ولم تعرف أي كلمة مهذبة للحديث بها سألت رفاقها:

– هل هذا ما أردتم.

– أرجوك أن تخبر هؤلاء السيدات أنني كنت أتمنى أن أتحدث بلغتهن ولكننا وصلنا مؤخرا لهذا البلد.

قالت إحداهن:

- ربما نتكلم قليلا من لغتكم.

قالت السيدة "**مور**":

- ياله من أمر جميل إنها تفهم!

قالت إحدى السيدات الأخريات:

- "**إيستبورن**" - "**بيكاديللي**" - "**هايدبارك كورنر**".

- أوه... نعم، إنها كلمات إنجليزية.

قال أحد المشاهدين:

- وهي تعرف "**باريس**" أيضا.

صاحت "**عديلة**" وقد أضاء وجهها بشرا:

- الآن نستطيع أن نتكلم.. ياله من أمر مفرح!

قالت السيدة "**تورتون**":

- إنهن يذكرن "**باريس**" بالحسرة لا شك.

كانت السيدة "**تورتون**" قد أصبحت أكثر تباعدا منذ أن اكتشفت أن بعض أعضاء الفريق كُنّ يظهرن بمظهر الغرب.

شرح المشاهد:

- السيدة الأقصر هي زوجتي السيدة "**بهاتا شاريا**"، والسيدة الأطول هي أختي وهي السيدة "**داس**".

ضبطت كل من السيدة القصيرة والطويلة ساريهما وابتسمتا. كان هناك فضول غريب، وعدم اطمئنان لحركاتهما، وكأنهما كانتا تبحثان على صيغة جديدة لا يعرفها الغرب ولا الشرق. وعندما تحدّث زوج السيدة "**بهاتا شاريا**" ابتعدت عنه، ولكنها لم تهتم برؤية الرجال الآخرين. في الحقيقة كانت كل النساء غير مطمئنات ينكمشن ثم يتمالكن أنفسهن، ثم يقهقهن ويقمن بحركات دقيقة تعبيرا عن الدهشة أو اليأس أمام ما يقال ومن جهة أخرى يربتن الكلب "**التريير**" أو يجفلن منه.. لقد نالت الآنسة "**كويستد**" الآن فرصتها التي كانت تتمناها. الهنود الودودون أمامها الآن وهي تحاول أن تجعلهم يتكلمون ولكنها فشلت. لقد صارعت دون جدوى ضد جدرانهم التي تردد صدى عبوديتهم. أي شيء تقوله كان ينتج عنه عدد من الإحباطات تتنوع مثل همهمة الاهتمام عندما أسقطت منديلها. لم تحاول أن تفعل شيئا لتعرف ماذا سيحدث وهم أيضا فعلوا مثلها.. لا شيء. وكانت السيدة "**مور**" هي أيضا مثلها لم تنجح. انتظرتهما السيدة "**تورتون**" وعلى وجهها تعبير مشتت. كانت تعلم أن الأمر كله هراء من البداية عندما استأذنوا في الرحيل أحست السيدة "**مور**" بهاتف غريزي وقالت للسيدة "**بهاتا شاريا**" التي أحبت وجهها:

- إنني أتساءل إن كنا نستطيع أن نزوركن يوما ما؟

ردّت وهي تنحني بطريقة ساحرة:

- متى؟

- عندما يكون ذلك مناسبا.

- كل الأيام مناسبة.

- الخميس؟

- طبعا بالتأكيد.

- سنستمتع بالزيارة جدا. ستكون سرورا حقيقيا، ماذا عن الوقت؟

- في أية ساعة!

- أخبرينا أية ساعة تفضلين.. إننا غرباء جدا على بلدك ولا نعرف متى تستقبلين زوارك.

بدا أن السيدة "**بهاتا شاريا**" هي أيضا لا تعرف.. كل ما تعرفه أن السيدتين الإنجليزيتين ستأتيان لزيارتها في أحد أيام الخميس، ولذلك ستنتظرهما في ذلك اليوم باستمرار. كان كل شيء يسرها ولا شيء يدهشها أضافت:

- سنرحل إلى "**كلكتا**" اليوم.

قالت "**عديلة**" وهي لم تفهم في البداية التلميح:

- أوه.. هل ستفعلين؟

ثم صاحت:

- ولكن لو فعلت فسنجد أمك رحلت.

لم تجادلها السيدة "**بهاتا شاريا**" ولكن زوجها نادى عن بعد:

- نعم.. نعم تعاليا إلينا يوم الخميس.

- ولكنكما ستكونان في "**كلكتا**".

قال شيئا سريعا لزوجته باللغة البنغالية ثم أردف:

- لا... لا.. لن نفعل.. نحن ننتظركما يوم الخميس.

ردّدت السيدة كالصدى:

- يوم الخميس.

صاحت السيدة "**مور**":

- لا يمكن أن تفعل شيئا صعبا كهذا بأن تؤجل أعمالك من أجل خاطرنا؟

أخذ يضحك:

- لا بالطبع لا.. نحن لسنا من هذا النوع من الناس.

- أعتقد أنك فعلت... من فضلك.. إن ذلك يزعجني للغاية.

أخذ الجميع يضحكون وحدثت مناقشة لا شكل لها. انسحبت أثناءها السيدة "**تورتون**" وهي تبتسم في نفسها. في وقت مبكر من صباح الخميس سترسل السيدة "**بهاتا شاريا**" عربتها لتحضرهما وبها خادم ليدلهما على الطريق. هل يعرف الخادم أين يعيشون؟

نعم بالطبع يعرف كل شيء. وانصرف الجميع وسط دوامة من المجاملات والابتسامات. وثلاث نسوة لم يكن لهن أي مساهمة في الحفل انطلقن فجأة كالرصاصة من البيت الصيفي وهن

يحيونهم.

في نفس الوقت كان المحصِّل يقوم بدورته. وقدَّم تعليقات مرحة وبعض النكات قوبلت بالهتاف من كل الضيوف تقريبا. كان يعتقد أن حفل البريدج أفاد أكثر مما أضرّ وإلا لما أقامه. وفي اللحظة المناسبة انسحب إلى الجانب الإنجليزي من الحضور فوق النجيل. كان الانطباع الذي تركه خلفه منوّعا. كان العديد من الضيوف خاصة المتواضعين شاكرين له لأن يحدّثهم مثل هذا المسؤول رفيع المقام وهذه ميزة كبرى. والبعض الآخر كانوا أكثر ذكاء مثل "**نواب بهادور**" الذي لم يهتم بنفسه، ومن أجل أن يتميز مع من يحييه كان مدفوعا بمجرد اللطف الذي كان السبب وراء الدعوة. كان يعرف الصعوبات. و**حميد الله** ظن أيضا أن المحصل قد أدى دوره جيدا. ولكن الآخرين مثل "**محمود علي**" كانوا وقحين. لقد كانوا مقتنعين تماما أن "**تورتون**" دفع إلى إقامة الحفل من قبل رؤسائه في المناصب العليا وأنه طوال الوقت كان يعاني غضبا جارفا ومع ذلك حتى "**محمود علي**" كان سعيدا بحضوره. لقد كانت أماكن الزيارة ساحرة خاصة عندما كانت نادرا ما تفتح وبدا له أن تظهر طقوس النادي الإنجليزي وأن يستطيع أن يقدم وصفا "كاريكاتوريا" بعد ذلك لأصدقائه بعد السيد "**تورتون**" كان المسؤول الرسمي الذي يؤدي عمله على أكمل وجه هو السيد "**فيلدنج**" ناظر المدرسة الحكومية الإنجليزية الصغيرة. كان يعرف القليل عن المقاطعة وأقل من ذلك عن السكان، ولذلك لم يكن في حالة ذهنية ساخرة. كان رياضيا وبشوشا. كان يمرح وهو يكشف أخطاء عديدة. كان آباء التلاميذ يحاولون أن يغطوها. وعندما حان وقت تقديم المنعشات لم يتحرك من مكانه إلى الجانب الإنجليزي. كان يتحدث مع أي شخص، ويأكل أي شيء. ومن بين العديد المصطفين عرف أن السيدتين الجديدتين من "**إنجلترا**" حققتا نجاحا باهرا، وأن أدبهما في رغبتهما أن يُصبحا ضيفتين على السيدة "**بهاتا شاريا**" وأنهما لم يسعداها هي فحسب، وإنما أسعدا كل الهند بتقديم صداقتهما لها.

وجد أصغرهما بمفردها. كانت تنظر إلى قمة سياج أشجار الكافور فوق تلال "**ماربار**" البعيدة والتي زحفت ظلالها قريبا كما هو المعتاد عند غروب الشمس .أخبرها بأن الظلال تصل إلى المدينة إذا كان الغروب بطيئا، ولكنها سريعة الآن لأن الجو استوائي. لقد سرتها جدا هذه المعلومة، وشكرته من كل قلبها لمدرجة أنه دعاها هي والسيدة الأخرى إلى الشاي. قالت:

- كم أودّ جدا أن أحضر في الحقيقة وكذلك ستودّ ذلك أيضا السيدة "**مور**" كما أعرف.

- أنا شبه ناسك كما تعرفين.

- أفضل شيء هو أن تأتي إلى هذا المكان.

- نظرا لعملي وما شابه ذلك فإنني لا أحضر للنادي كثيرا.

- أعرف... أعرف ونحن لا نخرج منه أبدا. وأحسدك لأنك مع الهنود.

- هل تودّين أن تقابلي واحدا أو اثنين منهم؟

- جدًّا.. جدا في الحقيقة.. هذا ما أشتاق له.. إن هذا الحفل جعلني بائسة جدا، وغاضبة للغاية. لقد ظننت أن رجال وطني هنا لابد أن يكونوا محبوبين. الغريب أنهم يدعون الضيوف ولا

يعاملونهم بالطريقة اللائقة! أنت والسيد "**تورتون**" وربما السيد "**ماك برايد**" الوحيدون الذين أظهروا أدبا عاما. والباقون جعلوني أشعر بالعار تماما والأمر يزداد سوءا أكثر فأكثر.

لقد ساء الأمر فعلا. عندما بدأ لعب التنس أصبح الحاجز لا يمكن اختراقه. لقد كان المأمول القيام ببعض المباريات ما بين الشرق والغرب، ولكن الأمر نُسي، واحتكرت الملاعب من الأزواج المتردّدين على النادي، وكره "**فيلدنج**" ذلك أيضا، ولكنه لم يقل ذلك للفتاة، لأنه وجد بعض المنطق النظري في ثورتها. هل نهتمّ بالموسيقى الهندية؟ أخبرها أن هناك أستاذا عجوزا هناك في الكلية يغني. قالت:

- أوه هذا بالضبط ما أردنا أن نسمعه. هل سمعت عن الدكتور "**عزيز**"؟

- أعرف كل شيء عنه. أنا لا أعرفه شخصيا. هل تحبّين أن أدعوه هو أيضا؟

- لقد قالت السيدة "**مور**" إنه لطيف.

- حسنا جدا يا آنسة "**كويستد**" هل يوم الخميس يناسبك؟

- في الحقيقة يناسبني. وسنذهب يوم الخميس صباحا إلى تلك السيدة الهندية في بيتها. كل الأشياء اللطيفة ستحدث يوم الخميس.

- لن أطلب من حاكم المدينة أن يحضركما لأنني أعلم أنه مشغول في ذلك الوقت.

- نعم.. "**روني**" يعمل عملا شاقا.

أخذت تتأمل التلال. كم هي لطيفة. ولكنها لا تستطيع أن تلمسها. فجأة تخيلت حياتها الزوجية. إنها و"**روني**" سيحبسان في النادي مثل هذا المساء ثم يذهبان إلي البيت لترتدي ملابسها وقد يقابلان عائلة "**ليزلي**" وعائلة "**كاليندار**" وآل "**تورتون**" ويدعونهم وهم أيضا يدعوانهما بدورهما. بينما الهند الحقيقية تختفي من أمامها دون أن تلاحظ. وسيظل كل شيء على حاله من طيور وزهور وحيوانات والحركة ستستمر طالما كانت هناك جماهير في السوق ومستحمون في النهر. وستجلس أعلى عربة "كارتة" وتراهم. ولكن القوّة وراء الألوان والحركة ستهرب منها وسترى الهند كهامش وليس كروح.

وبالتأكيد سترحل هي و"**روني**" في العربة بعيدا عن النادي خلال دقائق قليلة ثم يرتديان ملابسهما وعلى الغداء تأتي الآنسة "**ديريك**" وآل "**ماك برايد**" وقائمة الطعام: حساء جولييت المليء بالبازلاء المعلبة والخبز الذي على شكل الكوخ، والسمك المملوء بالشوك، وكأنه سمك موسى، والمزيد من البازلاء مع لحم الكوستاليتا، والسردين، على خبز التوست وهي قائمة الطعام "**الأنجلو هندي**". قد يضاف صنف أو ينقص عندما ينهض أحدهم أو ينقص من العدد الرسمي. ويستورد السردين وشراب "الفرموت" بواسطة مختلف الشركات، ولكن التقاليد تستمر: طعام المنفى يطهوه الخدم الذين لا يفهمونه. فكرت "**عديلة**" في الشباب والنساء الذين جاءوا إلى هنا قبلها، وجلسوا أمام نفس الطعام ونفس الأفكار. إنها لن تصبح أبدا مثلهم لأنها هي نفسها شابة وكل ما تعرفه أنها جاءت ضد شيء هو غادر وقاس في آن واحد تحتاج ضده لحلفاء. لابد أن تجمع حولها في "**كاندرابور**" القليل من الناس يحسون مثلما تحس وهي سعيدة لأنها قابلت "**فيلدنج**"

والسيدة الهندية ذات الاسم الذي من الصعب نطقه. يجب عليها أن تعرف أفضل بكثير أين تقف خلال اليومين القادمين.

كانت الآنسة "**ديريك**" تصاحب مهرانا في ولاية وطنية بعيدة. وكانت عبقرية ومرحة وجعلتهم جميعا يضحكون حول رحيلها الذي قررته؛ ليس لأن المهرانا قالت لها ذلك وإنما لأنها أحست أنها تستحق ذلك وهي الآن تريد أن تأخذ سيارة المهراجا أيضا التي قالت إنها تنوي أن تسرقها. وقالت أيضا شيئا مضحكا عن حفل البريدج كما أنها كانت تعتبر شبه الجزيرة الهندية كأوبرا كوميدية. قالت:

– إذا لم يستطع المرء أن يرى الجانب المضحك لهؤلاء الناس لفاض الكيل بالمرء يا سيدة "**ماك برايد**".

لم تكف السيدة "**ماك برايد**" وهي التي كانت من قبل ممرضة عن الصياح: أوه يا "**نانسي**"! ياله من أمر رهيب وقاتل يا "**نانسي**"! كم أتمنى أن أنظر للأمور مثلك.

أما السيد "**ماك برايد**" فإنه لم يكن يتكلم كثيرا وبدا لطيفا عندما رحل الضيوف وأوت "**عديلة**" للفراش كان هناك لقاء آخر بين الأم وابنها. كان يريد نصيحتها ودعمها بينما يكره التدخل، بدأ حديثه:

– هل "**عديلة**" تتحدث كثيرا معك. أنا مشغول جدا بالعمل. ولم أقابلها كثيرا كما كنت أرجو ولكنني أتعشم أن تجد الأمور مريحة؟

– أنا و"**عديلة**" نتحدث كثيرا عن الهند يا عزيزي وما دمت ذكرت ذلك فانت على حق.. وكان يجب عليك أن تكون معها بمفردك أكثر من ذلك.

– ولكن الناس ربما نشروا الأقاويل حولنا.

– حسنا.. لابد أن يثرثروا أحيانا فدعهم يفعلون.

– الناس غريبو الأطوار بالخارج هنا، وليس الأمر كما في وطننا، ولنأخذ مثلا صغيرا: عندما ذهبت "**عديلة**" عند حدود مجمع النادي وتبعها "**فيلدنج**" رأيت السيدة "**كاليندار**" تتابعهما. إنهم يلاحظون كل شيء إلى أن يتأكدوا تماما أنك من نوعهم.

– لا أعتقد أن "**عديلة**" يمكن أبدا أن تكون على شاكلتهم. إنها متفردة جدا.

– أعرف أن هذا ملحوظ عليها جدا.

كانت السيدة "**مور**" متعودة على الخصوصية الخاصة بأهل "**لندن**" ولم تستطع أن تدرك أن الهند التي بدت غامضة جدا ليس بها أي خصوصية وبالتالي فإن التقاليد لها قوة أعظم. استمر قائلا:

– أعتقد أنه ليس في ذهنها شيء.

– اسألها واسأل نفسك يا بنيّ العزيز.

– من المحتمل أنها سمعت حكايات عن الحرارة ولكن بالطبع يجب عليّ أن أرسلها إلى التلال في كل أبريل. أنا لست من النوع الذي يدع زوجته تشوى في السهول.

- أوه.. لن يكون الموضوع مسأله طقس.

- ليس هناك في الهند شيء سوى الطقس يا أمي العزيزة إنه ألف وباء كل شيء.

- نعم كما كان السيد "**ماك برايد**" يقول ولكن الأكثر هو أن "**الأنجلو هنود**" أنفسهم هم الذين يضغطون على أعصاب "**عديلة**". إنها لا تظن أنهم يتصرفون بطريقة لائقة مع الهنود هل فهمت؟

صاح وقد نسي حسن سلوكه:

- ألم أقل لك ذلك؟ لقد عرفت ذلك في الأسبوع الماضي. أوه كيف يمكن أن تقلق المرأة على موضوع هامشي!

نسيت موضوع "**عديلة**" أثناء دهشتها وقالت:

- موضوع جانبي؟ كيف يمكن أن يكون الأمر كذلك؟

- نحن لسنا هنا إلا من أجل التصرف بطريقة لائقة!

- ماذا تعني؟

- ما أقوله: إننا في الخارج هنا لتحقيق العدالة ونبقي على السلام. هذه هي عواطفي.. والهند ليست حجرة مكتب.

قال بهدوء وكان مسلكه هو الذي ضايقها أكثر من عواطفه:

- عواطفك هي من عند الرب.

حاول أن يستعيد هدوءه فقال:

- الهند تحب الآلهة.

- والرجال الإنجليز يحبون أن يتصرفوا كآلهة.

- لا جدوى من ذلك وعلينا أن نكف.. انظري.. ما الذي تريدين أنت و"**عديلة**" أن أفعله؟ أن أقف ضد طبقتي وضد كل الناس الذين أحترمهم وأعجب بهم هنا؟ أن أتساهل في سلطتي كما فعلت حتى أبدو لطيفا..! أليس هذا سلوكا طيبا؟ إن أيا منكما لا تفهم ما هو العمل وإلا لما تكلمت بهذا الهراء، وأنا أكره هذا الحديث، إنه أمر حساس ورهيب أن أسير على منوالك أنت و"**عديلة**". لقد رأيتكما في النادي اليوم بعد أن تكبد المحصل كل ذلك العناء ليمتعكما. أنا لست هنا لأعمل وأهتم وأسيطر على هذا البلد اللعين بالقوة.. أنا لست مبشرا، أو عضو منظمة العمل، أو رجل مكتبات لطيفا وتافها وخالي الذهن.. أنا مجرد خادم الحكومة وهي الوظيفة التي أردتني أن أختارها لنفسي وهكذا الأمر.. لسنا لطفاء في الهند، ولا ننوي أن نكون لطفاء، وأمامنا شيء أكثر أهمية نقوم به.

كان يتحدث بإخلاص، وكل يوم كان يعمل بجد في المحكمة محاولا أن يقرر أي الدفاعين أقل كذبا، محاولا أن يوزع العدالة دون خوف ليحمي الضعيف ضد الأقل ضعفا، وغير المترابط ضد غير المعقول وهو محاط بالتملق والأكاذيب. هذا الصباح أدان كاتبا في السكة الحديد بأنه أجبر الحجاج على دفع أعلى من الأجور. و"**بتهانيا**" بمحاولة الاغتصاب. لم يتوقع لا شكرا ولا حمدا ولا عرفانا،

وقد يستأنف كل من الكاتب و"**البتهاني**" ويرشوان شهودهما أثناء فترة انتظار الاستئناف ويلغيان حكمهما.

كان يتحدث بجدية ولكنها ودت لو أنه فعل ذلك بحيوية أقل. كيف يستمتع "**روني**" من عوائق موقفه! كيف محت من ذهنه أنه ليس في الهند ليسلك بلطف ويستخرج من ذلك مواقف مُرضية. إن كلماته لو قيلت بغير صوته ربما كانت قد أثَّرت فيها ولكنها عندما سمعت الرضا الذاتي ينبعث منها عندما رأت فمه يتحرك في رضاء عن النفس وبكفاءة تحت أنفه الصغير الأحمر أحست بطريقة غير منطقية جدا أن هذه ليست الكلمة الأخيرة عن الهند. لمسة واحدة من الندم، ليست هي البديل الحكيم وإنما الندم الحقيقي من صميم القلب كان من الممكن أن يجعل منه رجلا مختلفا والامبراطورية البريطانية مؤسسة اجتماعية مختلفة قالت وهي تدير خواتمها في أصابعها:

- الإنجليز هنا في الخارج يجب أن يكونوا لطفاء.

قال وهو يتحدث برقة مرة ثانية بعد أن خجل من توتّره:

- وكيف تنفذين ذلك بالخارج يا أمي؟

- لأن الهند هي جزء من الأرض. وقد وضعنا الله على الأرض بهدف أن نكون لطفاء كل منا مع الآخر. الله.. هو الحب. لقد وضعنا الله على الأرض كي نحبَّ جيراننا وأن نظهر ذلك وهو كل الوجود حتى في الهند ليرى كيف ننجح.

بدا مكتئبا وقلقا بعض الشيء.. إنه يعلم ذلك الانجذاب الديني لديها، وأنه عرض من أعراض المرض وقد كان لديها الكثير منه عندما مات زوجها الذي لم يكن والده، فكر أنها بالتأكيد تعاني من الكبر ولا ينبغي مضايقتها حول أي شيء تقوله.

- إن الرغبة في السلوك اللائق الذي يرضي الله.. والرغبة الخالصة إذا كانت نابعة من القلب تفوز ببركاته. أعتقد أن كل شخص يفشل ولكن هناك العديد جدا من أنواع الفشل. والإرادة الطيبة والمزيد من الإرادة الطيبة وأنا أتكلم بلسان الإرادات الطيبة.

انتظر حتى انتهت ثم قال برقة:

- أنا أفهم ذلك جيدا. وأعتقد أنه يجب عليّ أن أعود إلى ملفاتي الآن وستذهبين للفراش.

- أعتقد ذلك.. أعتقد ذلك!

لم يفترقا لفترة طويلة ولكن المحادثة أصبحت غير واقعية لأن المسيحية دخلت فيها. كان "**روني**" يوافق على الدين مادام يقوي السلام الوطني، ولكنه يعارضه عندما يحاول أن يؤثر على حياته ثم يقول في لهجة محتدمة:

- لا أظن أن الأمر يُفلح إذا جرى الحديث حول تلك الأمور. كل رفيق له أن يعمل حسب دينه هو.

أحسّت السيدة "**مور**" أنها أخطات حينما ذكرت الرب، ولكن وجدت من الصعوبة أن تتجنّب ذلك كلما زادت في السن، وهو دائما في فكرها باستمرار منذ أن جاءت إلى الهند، إنها في حاجة إلى أن تذكر اسمه باستمرار.

وفي الخارج كانت البواكي هناك تبدو دائما بواكي، وخلف أبعد صدى يوجد السكون. وندمت بعد ذلك على أنها لم تظل عند الموضوع الجاد الحقيقي الذي كان السبب في زيارتها للهند، وبالتحديد العلاقة بين "**روني**" و"**عديلة**" هل سينجحان أم لا في أن يرتبطا بالزواج؟

الفصل السادس

لم يذهب "**عزيز**" إلى حفل البريدج. بعد مقابلته للسيدة "**مور**" مباشرة تحول إلى موضوعات أخرى. وردت له عدة حالات جراحية جعلته مشغولا. لقد كف عن أن يكون منبوذا أو شاعرا وأصبح دارس طب وأشيب الشعر جدا ومليئا بالتفاصيل العديدة التي كان يصبها في آذان أصدقائه. كانت مهنته تبهره في وقت ما ولكنه كان يطلب أن تكون مثيرة، وكانت يده وليس عقله هي العلمية. كان يستخدم المشرط بمهارة وحب. ولكنّ ملل النظام الصحيّ نفّره. وبعد تطعيمه رجلا ضد التيفود قد يذهب ويشرب ماء غير نقي هو نفسه. وكان يقول الميجور "**كاليندار**" عنه.

- ماذا يمكن أن نتوقع من صاحبنا هذا.. إنه بلا وازع. ولكنه في قرارة نفسه كان يعلم أنه لو لم يقم هو وليس "**عزيز**" بإجراء عملية الزائدة للسيدة "**جرايز فورد**" لأصبحت السيدة العجوز في عداد الموتى. وهذا لم يجعله يحسن الظن أكثر من ذلك بمرؤوسه.

كان هناك صف وراء المسجد في الصباح ودائما ما يكون هناك صف. و"**الميجور**" الذي استيقظ في نصف الليلة الماضية أراد أن يعرف لماذا لم يأت "**عزيز**" بسرعة عندما أخطر بذلك والذي قال:

- يا سيدي أرجو المعذرة لقد فعلت.. لقد ركبت دراجتي، ولكن الإطار انفجر أمام واجهة مستشفى "**كاو**" لذلك كان علي أن أعثر على عربة "تونجا".

- انفجرت أمام مستشفى "**كاو**"... هل هذا حدث؟ ولكن كيف حدث أن ذهبت إلى هناك؟

- أرجو المعذرة؟

- يا إلهي! عندما أعيش هنا وأنت تعيش هناك ليس أبعد من عشر دقائق بيننا ومستشفى "**كاو**" ليست بعيدا أبدا على الجانب الآخر منك هناك.. إذن كيف حدث أن مررت على مستشفى "**كاو**" في طريقك إليّ؟ والآن قم ببعض العمل كنوع من التغيير.

ابتعد مهرولا وهو غاضب دون انتظار ليسمع العذر الذي كان معقولا على أية حال: إن مستشفى "**كاو**" على خط مستقيم من بيت "**حميد الله**" وبيته هو. لذلك كان طبيعيا أن يمر "**عزيز**" عليه. لم يدرك الميجور أن الهنود المثقفين يزور كل منهم الآخر باستمرار وأنهم بذلك يجاهدون لعمل نسيج اجتماعي جديد. إنه يعلم فقط أن أحدا منهم لم يقل له الحقيقة على الإطلاق رغم أنه كان في البلاد من عشرين عاما. راقبه "**عزيز**" يذهب في استمتاع. عندما تكون روحه المعنوية عالية فإنه يرى الإنجليز في وضع فكاهي، ويستمتع بأنهم لا يفهمونه. ولكنه كان استمتاعا للانفعالات والأعصاب قد يحطمها حادث أو مرور الوقت. إنه جزء من المرح الأساسي الذي أصابه عندما يكون مع هؤلاء الذين يثقون به. خطر على خياله تشبيه بلا مجاملة يشمل

السيدة "**كالبندار**" وفكر أنه لابد أن يقول ذلك لـ"**محمود علي**" وسيجعله يضحك. ثم عاد إلى العمل. كان كفئا ولا يمكن الاستغناء عنه وهو يعرف ذلك. كان التشبيه قد ذهب من ذهنه وهو يمارس مهارته المهنية خلال تلك الأيام المشغولة بالعمل الممتع. سمع بطريقة مبهمة أن المحصِّل سيقيم حفلا وأن "**نواب بهادور**" قال: إن على الجميع أن يحضروه. وزميله المساعد الدكتور "**بنالال**" كان في حالة نشوة أمام منظور ذلك الحفل. وكان متعجِّلا وملحا عليه أن يذهبا معا في عربته الجديدة. كانت الترتيبات تناسبهما معا. لقد تجنب "**عزيز**" مهانة ركوب الدراجة أو مصاريف الإيجار بينما الدكتور "**بنالال**" الذي كان أكبر منه سنا وشديد الحياء وهو شخص يستطيع أن يتحكم في قيادة جواد العربة أنه يستطيع أن يقودها بنفسه، ولكنه خشي من السيارات ومن النواصي المفاجئة غير المعروفة على أرض النادي ومما قد يحدث من كوارث وقال في أدب:

- إن ذلك يمكن أن يخلق انطباعا طيبا أن يصل طبيبان معا في آن واحد.

ولكن عندما حان الوقت أصيب "**عزيز**" بنفور شديد وصمّم على عدم الذهاب. أولا: لأن زحام العمل لم ينته إلا في وقت متأخر مما تركه عليلا ولا يمكن الاعتماد عليه. ولسبب آخر: وهو أن اليوم بالمصادفة كان ذكرى وفاة زوجته. كانت قد ماتت فور وقوعه في حبها. لم يكن قد أحبها في البداية. كان متأثرا بالمشاعر الغربية فلم يرغب في الاقتران بامرأة لم يسبق له أن شاهدها أبدا والأكثر من ذلك أنه عندما شاهدها خاب ظنه فيها وأنجب ابنه الأول في شبه كراهية. وبدأ التغيير بعد الولادة. حيث أسرته بحبها وإخلاصها له الذي أوحى بأكثر من الخضوع وبجهودها في أن تعلّم نفسها وضد عدم ارتداء البردة الذي من المؤكد سيأتي في الجيل التالي إن لم يكن في جيلها. لقد كانت ذكية ولازال لديها فتنة من الطراز القديم، وبالتدريج فقد الإحساس بأن أقاربه اختاروها له خطأ.. لقد أصبحت أم طفله.. ابنه.. وبعد أن وهبته الابن الثاني... ثم توفيت. وأدرك وقتها ماذا فقد، وأنه لن توجد امرأة أخرى تحل محلها، وقد يقترب صديق منه أكثر من أن يفكر في أي امرأة. لقد رحلت ولا يوجد أحد مثلها. متع نفسه ونسيها في أوقات ولكن في أوقات أخرى كان يحس بأنها أخذت كل الجمال والبهجة في العالم إلى الفردوس، وفكر في الانتحار، هل سيقابلها بعد القبر؟ هل هناك مكان لمثل هذا اللقاء؟ ولوْ كان "أرثوذكسيّ" إلا أنه لم يعرف.. وحدانيةُ الله. لاشكّ فيها، ولكن في النقاط الأخرى كان يتأرجح مثل أي مسيحي متوسط. كان إيمانه بالحياة القادمة أمل شاحب يختفي ثم يعود للظهور في عبارة واحدة،أو في عشرات من دقات القلب، ولم يكن يعرف أي رأي يتمسك به وإلى متى. هكذا كان الأمر بالنسبة لآرائه، لا شيء يبقى، ولا شيء يمر وينتهي إلا ويعود ثانية، والدورة تسير على هذا المنْوال وهو ما يجعله شابا باستمرار وكان يقوم بالحداد على زوجته بإخلاص أكثر؛ لأنه كان نادرا ما يقسو عليها.

لقد كان الأمر أبسط لو أنه أخبر الدكتور "**بنالال**" بأنه غيّر رأيه بشأن الحفل، ولكن حتى آخر لحظة لم يكن يعلم أنه غير رأيه والحقيقة أنه لم يغير رأيه، وإنما رأيه تغير من تلقاء ذاته. اجتاحه مقت لا يمكن التغلب عليه: على السيدة "**كالبندار**" والسيدة "**ليزلي**" لا.. إنه لا يستطيع أن يتحملهما، ويمكن لهما أن تخمّنا ذلك وأن السيدة الإنجليزية العجوز ذات المقام الرفيع لديها موهبة

تجعلها تكشف أعماقه، وتتلذذ بتعذيبه. وفي الوقت الذي كان من الواجب عليه أن يكون مستعدا وقف في مكتب البريد يكتب برقية لأطفاله. واكتشف عند عودته أن الدكتور "**بنالال**" زاره ثم رحل. حسنا. دعه يرحل.

فتح درجا وأخرج منه صورة زوجته وحدّق فيها، وسالت الدموع من عينيه وفكّر: "كم أنا تعيس!" ولكن لأنه فعلا لم يكن سعيدا اختلط انفعال غير سعيد آخر مع شعوره بالأسى على نفسه: إنه يرغب في أن يتذكر زوجته، ولا يستطيع. لماذا يستطيع أن يتذكر الناس الذين لا يحبهم؟ إن صورتهم دائما حيّة بداخله، بينما كلما حدّق في الصورة قلت رؤيته لها. لم يدرك أنه كلما زاد حبنا للميت زاد إحساسنا بعدم حقيقة وجوده، وأنه كلما أضفينا عليه المزيد من العواطف أفلت من بين أيدينا. كل ما تبقى له من زوجته قطعة من الورق البنّي وصورة لأولاده الثلاثة. لقد كان أمرا لا يحتمل، وفكّر ثانية "كم أنا غير سعيد!" ثم أصبح أكثر سعادة. لقد تنفّس للحظات هواء الموتى المحيط به، وهو ككل رجل شرقي نزع نفسه من الموت بشهقة، لأنه لايزال شابا وقال لنفسه : "لن أتخلص من ذلك أبدا وبالتأكيد الشديد فإن مهنتي فاشلة وأبنائي سيكبرون بطريقة خطأ. هرول ليتجنب الصورة ونظر في مذكرات أخرى أعدّها حول حالة في المستشفى. ربما يطلب أحد الأغنياء أن يجري له جراحة خاصة ويربح مبلغا ضخما من المال. كانت المذكرات تهمّه بشكل خاص ثم نظر إلي الصورة ثانية. لقد مرت لحظتها ولم يعد يفكر في زوجته ثانية.

بعد الشاي تحسنت معنوياته، وخرج ليقابل "**حميد الله**". لقد ذهب "**حميد الله**" إلى الحفل،ولكن فرسه كان هناك واقفا لذلك استعاره "**عزيز**" وكذلك بنطلون ركوب الخيل ومضرب البولو. ذهب إلى الميدان وكان مهجورا ما عدا عند حوافه حيث كان بعض شباب السّوق يتمرنون. ولكن على ماذا يتمرّنون؟ لقد كانوا يجرون حول المضمار، ولكن ركبهم كانت تصطكّ لأن الحالة البدنية المحلية كانت منحطّة، وكان تعبير على وجوههم لا يدلّ على العزيمة التي يجب أن تكون. نادوا مُتَهكّين :

– سلام أيها المهراجا!

وقف الشباب وضحكوا ونصحهم ألا ينهكوا أنفسهم ووعدوه ألا يفعلوا ثم جروا ثانية.

ركب الفرس في الوسط، وأخذ يضرب الكرة. إنه لا يستطيع اللعب، ولكن الفرس يستطيع. وأعدّ نفسه ليتعلم وقد تخلّى عن كل توتُّر بشري. نسي كل شئون الحياة اللعينة وهو يعدو فوق الأرض البنية للميدان وهواء الليل يصدم جبينه، والأشجار المحيطة تصدم عينيه. اندفعت الكرة بعيدا نحو ملازم عسكري وحيد آخر كان يتمرن. فصدّها لتعود من حيث أتت ونادى على "**عزيز**" :

– ألق بها ثانية!

– حسنا!

كان القادم الجديد لديه معرفة بما يفعل، ولكن جواده لا يعرف شيئا وبالتالي كانا متعادلين في القوّة. ركزا إلى حد ما على الكرة، وأصبح كل منهما مغرما بالآخر، وابتسما عندما شدا اللجام

ليستريحا. كان "**عزيز**" يحب الجنود فهم إما أن يتقبلوك أو يسبّوك وهو أفضل بكثير من التعالي الاجتماعي. والملازم كان يحبّ أي شخص يعرف ركوب الخيل. سأله:

- هل تلعب كثيرا؟

- لا على الإطلاق.

- دعنا نقم بجولة أخرى.

وعندما ضرب الكرة. جمح حصانه وسقط من فوقه وهو يصرخ ثم عاد وامتطاه ثانية وسأل:

- ألا تسقط أبدا من فوق الجواد؟

- كثيرا!

- وليس أنت!

شدا اللجام ثانية ونار الصداقة مشتعلة في عيونهما، ولكنها بردت مع برودة جسديهما، لأن الأبطال الرياضيين فقط هم الذين يشعلون نارا مؤقته. عادت الوطنية ثانية بينهما، ولكن قبل أن تمارس تاثيرها حيّا كل منهما الآخر وافترقا وفكر كل منهما "آه فقط لو كانوا كلهم على شاكلته!".

الآن حان وقت الغروب. جاء عدد قليل من إخوته في الدين إلى الميدان، وكانوا يصلّون ووجوههم نحو مكة، ورغم أن "**عزيز**" لم يكن ميّالا للصلاة لم يفهم لماذا يجب أن يزعجوا أنفسهم بوثني أخرق. سمع صوتا ينادي عليه من الطريق. كان الدكتور "**بنالال**" عائدا في حالة إحباط ويأس عالية من حقل المحصِّل:

- يا دكتور "**عزيز**"! أين كنت؟ لقد انتظرتك عشر دقائق كاملة في بيتك ثم رحلت.

- أنا آسف جدا. لقد كنت مضطرا للذهاب إلى مكتب البريد.

- إلى مكتب البريد؟ لماذا لم ترسل أحد الخدم؟

- لدي عدد قليل جدا لأن دائرتي صغيرة.

- لقد تحدث خادمك معي.. لقد قابلت خادمك.

- ولكن فكر يا دكتور "**بنالال**"... كيف يمكنني أن أرسل خادمي وأنت قادم.. وتأتي وتذهب وأترك منزلي وحيدا، وربما عاد خادمي وكل متعلقاتي تختفي في نفس الوقت بسبب الأخلاق السيئة. هل كنت تفعل ذلك؟ إن طاهيتي صماء، ولا أستطيع الاعتماد أبدا عليها، الصبي صغير ولم أسمح أبدا لـ"**حسن**" بأن يغادر البيت.

لقد قال كل ذلك، وأكثر من منطلق حضاري وهو أن ينقذ ماء وجه الدكتور "**بنالال**" ولكن هذا لم يفلح حيث قال:

- وحتى لو كان الأمر كما قلت فلماذا لم تترك قصاصة ورق تقول فيها أين ذهبت؟

وهكذا استمر الجدل إلى أن كشف "**بنالال**" عن سبب ضيقه:

- لقد كان ما بعد الظهر قاسيا ومتوحشا وقد أفسدت بعض الزهور الغالية في حديقة النادي وقد جرّني أربعة رجال والرجال والسيدات الإنجليز يشاهدونني وصاحبنا المحصل يكتب مذكرة بنفسه. ولكن يا دكتور "**عزيز**" لن آخذ الكثير من وقتك الثمين فإن هذا لن يهمك ولديك كل هذه

الارتباطات والبرقيات، أنا مجرد طبيب فقير عجوز ظننت أن عليّ أن أظهر احترامي عندما طلب مني ذلك وأذهب إلى المكان الذي طلب مني الحضور إليه. وقد لاحظت أن غيابك أثار تعليقات.

- ليعلقوا ما شاءوا.. عليهم اللعنة!

- رائع أن تكون شابا.. أوه رائع جدا ولكن اللعنة على من؟

- أذهب أو لا أذهب فكما أحب.

- ولكنك وعدتني ثم ابتكرت موضوع البرقية.

ثم سارا و"**عزيز**" تحدوه رغبة وحشية في أن يجعل منه عدوا مدى الحياة. وكان يستطيع ذلك بسهولة بأن يعدو بالفرس عائدا إلى الميدان، أخذ يرمح ويلف ويلعب بالكرة إلى أن غرق جسده في العرق، وعندما أعاد فرس "**حميد الله**" إلى إسطبله أحسّ أنه مساوٍ لأي رجل. ولكن ما إن هبط على قدميه حتى أحس بخوف يزحف عليه. هل أغضب المحصل بالتغيب عن حفله؟ الدكتور "**بنالال**" شخص لا أهمية له ولكن هل من الحكمة أن يتشاجر معه؟ لقد تحولت عقده الذهنية من الأمور الإنسانية إلى الأمور السياسية. لم يعد يفكر إن كان يستطيع أن يتفاهم مع الناس أم لا. ولكن هل هم أقوى منه؟

كان في انتظاره بالبيت رسالة صغيرة تحمل طابعا حكوميا، وكانت فوق المائدة كقنبلة شديدة الانفجار والتي قد تنفجر بمجرد لمسها لتحطم بيته البنجالو وصار فتاتا.

لابد أنه سيطرد، لأنه لم يحضر الحفل، وعندما فتح المذكرة وجدها مختلفة. إنها دعوة من السيد "**فيلدنج**" يطلب منه الحضور لتناول الشاي بعد غد. ارتفعت روحه المعنوية بقوةٍّ وعنف. إنها كانت سترتفع على أية حال. ولكن هذه الدعوة منحته بهجة خاصة؛ لأن "**فيلدنج**" كان قد طلب منه تناول الشاي معه من شهر مضى، وكان قد نسيَ الأمر، ولم يلب الدعوة أبدا، وها هي دعوة ثانية دون توبيخ، أو حتى تلميح لعدم حضوره، هذه هي المجاملة الحقة. أخذ قلمه بسرعة، وكتب ردا مؤثرا وأسرع بالخبر إلى بيت "**حميد الله**". لقد اشتاق لأن يعرف كلّ شيء عن هذا الصاحب الرائع، وعن مرتبه، وما يفضله وسوابقه، وكيف يمكنه أن يدخل السرور عليه ولكن "**حميد الله**" كان لا يزال بالخارج، بينما كان "**محمود علي**" موجودا، والذي لن يفعل سوى أن يقول نكاتا سخيفة وقاسية عن الحفل.

الفصل السابع

هذا السيد "**فيلدنج**" تعلق بالهند مؤخرا. كان قد تجاوز الأربعين عاما في السن عندما دخل أقدم بوابة وهي نهاية محطة "**فيكتوريا**"، أقدم محطة في "**بومباي**". وبعد أن رشا مفتش تذاكر أوروبي أبيض أخذ أمتعته ودخل مقصورة في أول قطار استوائي ركبه. ظلت الرحلة في ذهنه كمغزى. ومن بين رفيقيه في المقصورة شاب حضر حديثا للشرق مثله وأما الثاني فخلاسي أنجلو هندي في نفس سنه. تجمعت انطباعات جديدة عنده بأن بعضا من انطباعاته السابقة تعدّ أخطاء. أن ينظر إلى

الهندي على أنه إيطالي ليست مثلا خطأ شائعا ولا حتى خطأ مميتا وقد حاول "**فيلدنج**" إجراء تناظر بين شبه الجزيرة الهندية وشبه الجزيرة الإيطالية، والأخيرة كانت أصغر وأحسن تشكيلا والتي تمتد بين مياه البحر الأبيض المتوسط الكلاسيكية.

كانت مهنته– رغم أنها تعليمية – منوَّعة وكانت تشمل الانتقال بعدها إلى الأسوأ والمنفِّر والآن هو شديد الألم وحسن الطباع وذكي على حافة منتصف العمر وهو مؤمن بالتعليم. لم يكن يهمّه من يُعَلّم. تلاميذ المدارس العامة أو المعاقين ذهنيا أو رجال الشرطة مرّوا عليه، ولم يكن لديه أي اعتراض على أن يضيف إليهم الهنود. وبنفوذ الأصدقاء عين ناظرا لكلية "**كاندرابور**" الحكومية الصغيرة وأحبها وافترض أن ذلك نجاح. لقد نجح فعلا مع تلاميذه ولكن الفجوة بينه وبين بني وطنه – والتي لاحظها في القطار – اتسعت بدرجة ميؤوس منها، لم يستطع أن يكشف في البداية ما هو الخطأ. لم يكن شخصا غير وطني وكان منسجما دائما مع الإنجليز في "**إنجلترا**". إذن لماذا الأمر مختلف هنا؟ كان مظهريا أشعث مشوشا ضخما، وله ساقان مقوستان، وعينان زرقاوان وكان يبدو موحيا بالثقة أن يتكلم. ثم أحيانا ما يحير الناس بسلوكه ويفشل في تجنب عدم الثقة التي عادة ما توحي بها مهنته وتضخم الشعور في الهند بأن السيد "**فيلدنج**" قوة مخربة بسبب الآراء الهدَّامة التي يعرضها ويستخدم تلك الأفكار بأكثر الطرق إقناعا وهي تبادل الأفكار. لم يكن مبشرا، ولا باحثا وكان أسعد مخلوق بطريقة هات وخذ في الأحاديث الخاصة. والعالم الذي يؤمن به هو عالم من الرجال يحاولون أن يصل كل منهم للآخر، ويمكنهم أن يفعلوا ذلك أفضل بمساعدة النية الطيبة مضافا إليها الثقافة والذكاء. وهي عقيدة سيئة المكانة في "**كاندرابور**" ولكن تأخر جدا بحيث لا يستطيع أن يفقد تلك العقيدة. لم تكن لديه مشاعر عرقية، ليس لأنه متفوق على إخوانه من المدنيين، وإنما بسبب أنه نضج في جو مختلف حيث لم تزدهر روح القطيع والتعلق التي سببت له أبلغ الضرر في النادي، وهذا التأثير الجانبي الأبله لما يُسمى بالأجناس البيضاء إنما هو في الحقيقة كما قال: هي أجناس رمادية وردية. لقد قال ذلك لمجرد أن يكون مرحا ولم يدرك أن "أبيض" لم يعد له صلة بعد باللون أكثر مما يقال عن "حفظ الله الملك" وصلة ذلك بالله. وأن هذا قمة عدم اللياقة باعتبار ما يوحي به ذلك ضمنا.

لقد أحس الرجل الرمادي الوردي الذي كان يحدثه بالعار واستيقظ إحساسه بعدم الأمان، وأوصل ذلك لبقية القطيع، ومع ذلك سامحه الرجال بسبب طيبة قلبه، وقوة بدنه، ولكن زوجاتهم هن اللاتي قرّرن أنه ليس بصاحب حقّا. لقد كرهنه ولم يهتم بهن، ولكن ذلك سبّب له أذى في المجتمع الذي من المتوقع فيه أن يكون الرجل متعاونا وحيويّا. لم ينصح السيد "**فيلدنج**" أحدا بشأن كلبه أو جواده، أو دعا أحدا للغداء معه، أو اتصل به وسط النهار تليفونيا ولم يقم بتزيين الأشجار من أجل الأطفال في عيد الكريسماس، ورغم حضوره إلى النادي فإن ذلك فقط للعب التنس أو البلياردو ثم يرحل. وهذا صحيح.. لقد اكتشف أنه يستطيع الاستمرار في التعامل مع الرجال الهنود والإنجليز على حد سواء، ولكن حتى تبقى علاقته مع النساء الإنجليزيات يجب أن يهمل الهنديات، لأن الاثنين لا يمكن الجمع بينهما، ومن غير المجدي لوم أي طرف ما لم تلمهما معا للوم

كل منهما الآخر. هكذا الأمر وعلى المرء أن يختار. ومعظم الرجال الإنجليز، كانوا يختارون النساء من بني جلدتهم، واللاتي تزايدن في العدد، وجعلن من نمط الحياة المنزلية السنوية ممكنة أكثر. لقد وجد هو أن ذلك أكثر ملاءمة ومنعه من أن يشارك الهنود وأن يدفع الثمن. وأصبحت القاعدة ألا تدخل أي امرأة إنجليزية إلى الكلية إلا من أجل مهام رسمية وإذا كان قد دعا السيدة "**مور**" والآنسة "**كويستد**" على الشاي، فإن ذلك بسبب أنهما قادمتان جديدتان ترغبان رؤية كل شيء بعين عادلة، وإلا يتحول صوتهما إلى نبرة أخرى عندما تتحدثان إلى الضيوف الآخرين.

والكليّة نفسها كان قدرها قد انحط بسبب إدارة الأشغال العامة، ولكن أراضيها كانت تشمل حديقة عتيقة، وبيتا بالحديقة كان يعيش فيه معظم العام.

كان يقوم بارتداء ملابسه بعد الاستحمام عندما أعلن عن وصول الدكتور "**عزيز**". رفع صوته وصاح من غرفة النّوم:

– أرجوك اعتبر نفسك في بيتك.

كانت العبارة عفوية مثل معظم أعماله وهو ما كان يعبّر عما بداخله ويودّ أن يقوله. ولكن بالنسبة لـ"**عزيز**" كان لها معنى محدد فقال ردا عليه:

– هل يمكنني أن أفعل هذا حقا يا سيد "**فيلدنج**"؟ هذا ظُرف منك حقا... إنني أحب السلوك غير التقليدي للغاية.

ارتفعت معنوياته عاليا وألقى نظرة نحو غرفة المعيشة، هناك بعض الرفاهية فيها، ولكنها ليست منظمة، ولا شيء يمكن أن يخيف فقيرا هنديا. وكانت أيضا غرفة جميلة جدا تطل على الحديقة خلال ثلاث بواك من الخشب فاستمر.

– الحقيقة إنني اشتقت من زمن لمقابلتك.. لقد سمعت كثيرا عن طيبة قلبك من "**نواب بهادور**". عندما كنت لأزال طازجا هنا كنت أتمنى لو أنك مرضت حتى يمكننا أن نتقابل بهذه الطريقة.

ضحكا وعندما شجّعه نجاحه بدأ يرتجل الكلام:

– لقد قلت في نفسي كيف حال السيد "**فيلدنج**" هذا الصباح؟ ربما كان شاحبا. والطبيب المدني شاحب أيضا ولن يكون قادرا على الحضور عندما يبدأ الارتجاف. وإن عليّ أن أذهب بدلا منه ووقتها نتبادل أحاديث فكاهية كما أنك باحث مشهور في الأشعار الفارسيّة.

– أنت تعرفني بالمنظر إذن؟

– طبعا طبعا.. هل تعرفني؟

– أعرفك جيدا بالاسم.

– لقد كنت هنا من وقت قصير، ودائما ما أكون في السوق، ولا عجب إذن في أنك لم ترني، ومع ذلك تعجّبت لأنك تعرف اسمي يا سيد "**فيلدنج**" فهل أسألك؟

– نعم؟

– خمّن كيف يكون منظري قبل أن تخرج. هذا نوع من اللعب.

- أنت طولك خمسة أقدام وتسع بوصات.

كان السيد "**فيلدنج**" يحملق خلال الزجاج المصنفر لحجرة النوم.

- جيد جدا.. وماذا بعد؟ أليست لي لحية موقرة بيضاء؟

- اللعنة!

- هل هناك خطأ ما؟

- لقد وطئت زرّ قميصي المشبك.

- خذ زرّي.. خذ زرّي.

- هل لديك واحد احتياطي؟

- نعم... نعم... دقيقة واحدة.

- لا داعي إذا كنت ترتديه أنت.

- لا.. لا.. إنه في جيبي.

خطا جانبا بحيث اختفى خياله على الزجاج المصنفر، وخلع ياقته، وانتزع الزر المشبك الخلفي وكان ضمن مجموعة أحضرها له شقيقه من أوروبا. وصاح:

- ها هو ذا!

- تعال به للداخل إذا لم يكن في هذا مضايقة لك.

- دقيقة واحدة!

أعاد تثبيت الياقة وهو يدعو ألا تقفز من الوسط أثناء تناول الشاي. فتح له "**فيلدنج**" الباب وصافحه بحرارة:

- شكرا لك.

ابتسم وبدأ ينظر حوله وكأنه صديق قديم. ولم يندهش "**فيلدنج**" من سرعة صداقتهما الحميمة. قال "**عزيز**":

- لقد سمعت دائما أن الإنجليز يحافظون على حجراتهم نظيفة ومرتبة ويبدو لي أن الأمر ليس كذلك وليس عليّ أن أخجل.

جلس في مرح على حافة السرير ونسي نفسه تماما فوضع ساقيه تحت فخذيه وتربع وقال:

- كل شيء مرتّب على الأرفف يبدو باردا.. هل صلح الزرّ يا سيد "**فيلدنج**"..؟ دعني أضعه في ياقتك آه لقد فهمت أن عراوي القميص الخلفية ضيّقة ويجب توسيعها قليلا.

زمجر السيد "**فيلدنج**" وهو يحني رقبته:

- لماذا بحق الجحيم ترتدي ياقات أساسا؟

- نحن نرتديها لنخدع الشرطة.

- ما هذا؟

إذا كنت أركب الدراجة في زي أوروبي، وياقة منشاة، وقبّعة بها حفرة فإنهم لا يلاحظونني.. وعندما أرتدي طربوشا يصيحون إن مصباحك تالف. إن اللورد "**كورزون**" لم يدخل ذلك في

اعتباره عندما شجع الوطنيين على التمسك بزيهم الخلاب.. أحيانا ما أغمض عينيّ وأحلم بأنني أرتدي ملابسي الرائعة مرة ثانية.. يا سيد "**فيلدنج**" ألم تكن الهند جميلة وقت الإمبراطورية المغولية في قمتها و"**علام جير**" يحكم "**دلهي**" على عرش الطاووس؟

قال "**فيلدنج**" :

– سيدتان ستحضران الشاي لمقابلتك هل تعلم هذا؟

– تقابلاني؟ لا أعرف أي سيدة!

– ولا السيدة "**مور**" والآنسة "**كويستد**"؟

– أوه... نعم... تذكرت... إنها سيدة عجوز جدا ولكن هل تتفضل وتذكر اسم رفيقتها؟ لقد غرقت الرومانسية التي حدثت عند المسجد في داخل إدراكه فور أن انتهى الأمر.

– الآنسة "**كويستد**".

أحسّ بالخيبة لأن ضيوفا آخرين سيحضرون، وكان يود أن ينفرد بصديقه الجديد. قال:

– كما تحب!

– يمكنك أن تتحدث مع الآنسة "**كويستد**" كما تحب عن عرش الطاووس ويقولون: إنها فنانة.

– هل هي من مذهب ما بعد التأثيريين؟

– فعلا من مذهب ما بعد التأثيريين.. تعال إلى حفل الشاي... إن ذلك العالم أصبح أكثر من اللازم بالنسبة لي في مجمله.

تضايق "**عزيز**". كانت الملحوظة تقصد أنه وهو هندي غامض ليس من حقه أن يسمع عمّا بعد التأثيريين. وهو امتياز محجوز لجنس الحاكم لدرجة أنه ردّ بجفاء:

– أنا لا أعتبر السيدة "**مور**" صديقتي.. لقد قابلتها مصادفة في مسجدي.. إن لقاء قصيرا وحيدا لا يصنع صداقة..

ولكن سرعان ما اختفى جفاؤه بسبب حسن نوايا السيد "**فيلدنج**" وذهبت مشاعره هو نحوه، وتعلقت تحت الأمواج الصاخبة للانفعالات التي تستطيع فقط أن تحمل الغريق إلى الشاطئ أو تلقي به فوق الصخور. إنه آمن حقا أمان المتعامل مع الشواطئ الذي يستطيع فقط أن يفهم الثبات، ويفترض أن أي سفينة لابد أن تتحطم، ولديه إحساس أن المتعامل مع الشاطئ لا يعرف الحقيقة. إنه كان حسّاسا أكثر منه مستجيبا. كان يجد في كل ملحوظة معنى، ولكن ليس دائما المعنى الحقيقي. فمثلا "**فيلدنج**" لم يكن يقصد أن الهنود مبهمون ولكن ما بعد التأثيريين هو الغامض. هناك فجوة تفصل تعليقه عن تعليق السيدة "**تورتون**" كيف هذا! إنهم يتحدّثون الإنجليزية! ولكن بالنسبة لـ"**عزيز**" كان المعنى واحدا. رأى "**فيلدنج**" أن خطأ ما حدث ولكنه لم يتململ باعتباره متفائلا حيث إن العلاقات الشخصية تهمه وسار الحديث بينهما كما كان من قبل.

– ثم إنه إلى جانب السيدتين اللتين أتوقع حضورهما. هناك أحد مساعدي "**ناريان جودبول**" :

– أوه... تقصد "**ديكاني البرهمي**"؟

إنه أيضا يحب استرجاع الماضي ولكن ليس بالضبط "**ألامجير**".

- لم أكن أظن ذلك. هل تعلم ماذا يقول أصحاب المذهب "**الديكاني البرهمي**"؟ أن "**إنجلترا**" استولت على الهند منهم هم وليس من المغول. أليست هذه وقاحة منهم؟ إنهم حتى قدموا الرشاوى ليظهروا في كتب النصوص لأنهم أغنياء للغاية.. لابد أن الاستاذ "**ناريان جودبول**" ليس مثل بقية "**الدوكاني البرهمي**" من كل ما سمعته عنه. إنه رجل مخلص جدا.

- لماذا لا تقيمون ناديا أنتم أيها الأصدقاء في "**كاندرابور**"؟

- ربما في يوم ما. عليّ الآن أن أقابل السيدة "**مور**" وتلك التي ما اسمها؟

لحسن الحظ إنه حفل ليس تقليديا لا تحكمه القواعد وعلى هذا الاساس وجد "**عزيز**" أنه من السهل الحديث مع السيدتين الإنجليزيتين وعاملهما كرجال الجمال كان من الممكن أن يربكه لأنه يحمل قوانينه الخاصة ولكن السيدة "**مور**" كانت عجوزا والآنسة "**كويستد**" كانت واضحة جدا وجنبته أي حرج أو قلق. كان جسد "**عديلة**" حاد الزوايا والنمش على وجهها كل ذلك يعد عيوبا رهيبة في عينيه وتساءل كيف أن السماء لم تكن رحيمة معها بشأن شكل جسدها. لقد كان مسلكه نحوها قد ظل واضحا ومستقيما. بدأت الحديث .

- أريد أن أسألك يا دكتور "**عزيز**" عن شيء ما. لقد سمعت من السيدة "**مور**" كيف كنت عونا كبيرا لها في المسجد وياله من أمر مثير!

صمتت ثم استأنفت:

- لقد علمت الكثير عن الهند خلال الحديث الذي استغرق عدة دقائق أكثر مما عرفته في ثلاث ساعات منذ أن رسونا في الهند.

- أوه أرجوك ألا تقولي هذا.. هل هناك شيء آخر استطيع أن أخبرك به عن الهند؟

- أريد منك أن تشرح لي ما أحسسنا به من خيبة هذا الصباح.. لابد أنه نوع من الإتيكيت الهندي.

رد عليها:

- إن صدقهم لا وجود له. نحن بالطبيعة أكثر الناس إحجاما عن الرسميات.

قالت السيدة "**مور**":

- أخشى أننا ارتكبنا بعض الحماقة والمخالفة.

- هذا أيضا غير ممكن، ولكن هل يمكنني أن أعرف الحقائق؟

- سيدة وسيد هنديان محترمان كان من المفروض أن يرسلا عربتهما لنا هذا الصباح في التاسعة، ولكنها لم تأت أبدا، انتظرنا وانتظرنا ولم نفكر فيما حدث.

قال "**فيلدنغ**" وقد فهم في الحال أنها نوع من الأحداث التي من الأفضل عدم الكشف عنها.

- لابد أنه حدث سوء فهم ما.

أصرت الآنسة "**كويستد**":

- لا.. لم يكن الأمر كذلك.. إنهما حتى أجّلا سفرهما إلى "**كلكتا**" ليقابلانا ويمتّعانا. لابد أننا ارتكبنا خطأ فادحا. نحن متأكدتان من ذلك.

- لم أكن أقلق بشأن هذا.

قالت بحدّة وقد احمرّ وجهها قليلا:

- هذا بالضبط ما قاله السيد "**هيسلوب**". إذا لم يقلق المرء كيف له أن يفهم؟

مال المضيف إلى تغيير الموضوع ولكن "**عزيز**" تناوله بحرارة وأصرّ على معرفة أسماء المقصرين اللذين عُرِفَ أنهما من الهندوس.

- إنهما من الهندوس الأجلاف الذين ليس لديهم أي فكرة عن المجتمع، وأعرفهم جيدا، لأنني طبيب في مستشفى. إن ذلك الصاحب الجلف هو الذي لا يعرف المواظبة! أو المحافظة على العهد ومن الأفضل أنكما لم تذهبا إلى بيتهما لأن ذلك كان حريا بأن يعطيكما فكرة خطأ عن الهند. وليس شيئا صحيا وأظن من ناحيتي أنهما أحسّا بالعار والخجل من بيتهما ولهذا السبب لم يرسلا العربة.

قال الرجل الآخر:

- هذه فكرة عامة.

أعلنت "**عديلة**":

- لهذا أنا أكره الغموض.

- نحن الإنجليز نفعل ذلك.

صححت له:

- أنا أكره الأسرار؛ لأنني إنجليزية ولكن من وجهة نظري الشخصية.

قالت السيدة "**مور**":

- أنا أحب الأسرار الغامضة ولكني أكره أكثر الاختلاط الذهني.

- السر الغامض هو اختلاط ذهني.

- أوه.. هل تظن ذلك يا سيد "**فيلدنج**"؟

- السر الغامض هو اصطلاح عميق المغزى للاختلاط الذهني. ولا فائدة من إبرازه في كلا الحالتين. أنا و"**عزيز**" نعرف جيدا أن الهند لغز.

- الهند؟ يالها من فكرة مقلقة!

قال "**عزيز**" من أعماقه:

- لن يكون هناك خلط ذهني عندما تأتون لزيارتي. السيدة "**مور**" والجميع الآخرون.. أدعوكم جميعا.. من فضلكم.

قبلت السيدة العجوز وهي لازالت تظن أن الشاب الطبيب لطيف لدرجة قصوى، والأكثر من ذلك أن إحساسا جديدا شبه متراخ وشبه متحمس منعها من أن ترفض أي سبيل جديد. والآنسة "**كويستد**" قبلت من باب المغامرة. هي أيضا أعجبت بـ"**عزيز**" واعتقدت أنها إذا عرفته جيدا فإنه لن يغلق باب وطنه في وجهها. كانت دعوته لها قد قبلتها بامتنان وسألته عن العنوان.

فكر "**عزيز**" في بيته البنجالو في رعب. لقد كان كوخا مقزّزا ملفوظا بالقرب من السوق

الوضيع. وعمليا ليس به سوى حجرة واحدة وقد شوهتها أسراب الذباب الأسود . صاح:

- أوه.. ولكننا سنتحدث عن شيء آخر الآن. أتمنى لو أني أعيش هنا.. أترون هذه الحجرة الجميلة! دعونا نعجب بها معا قليلا. أترون تلك الأقواس والمنحنيات أسفل البواكي يا للرقة! إنها عمارة "السؤال والجواب" أنت في الهند يا سيدة "**مور**" وأنا لا أمزح.

ألهمته الغرفة. كانت قاعة متفرجين بنيت في القرن الثامن عشر من أجل مسؤول عالٍ، ورغم أنها من الخشب إلا أنها ذكّرت "**فيلدنج**" بـ"**لوجيا دي لانزي**" في "**فلورنسا**". حجرات صغيرة تحولت الآن إلى النمط الأوروبي ملحقة بالبهو على الجانبين، ولكنّ البهو الرئيسيّ لم يكن مغطى الحوائط بالورق، أو به زجاج بالنوافذ. وهواء الحديقة المنعش يصب بداخلها في حرية. كان "**فيلدنج**" قد ترك أشجار المانجو تنمو أيضا وهو لا يعلم من سيأتي ويدخل، وخدمه يجلسون على الدرج ليل نهار حتى يطاردوا اللصوص. كان المبنى جميلا بالتأكيد، والرجل الإنجليزي لم يفسده. ومع ذلك لا يوجد أدنى شك فيمن تخصّه الحجرة حقا. فقال:

- أنا أقيم العدالة هنا.. لقد سرقت أرملة فقيرة، وجاءت إلى هنا وأعطيتها خمسين روبية ولأخرى مائة روبية وهلم جرّا.. لابد أنني أحب ذلك!

ابتسمت السيدة "**مور**" وهي تفكر في الطرق الحديثة التي تتمثل في ابنها وقالت:

- الروبيات لا تدوم للأبد.. هذا ما أخشاه.

- روبياتي يمكن أن تدوم. والله قد يمنحني المزيد عندما يرى أنني أمنح. كونوا دائما عطائين مثل "**نواب بهادور**". لقد كان أبي هكذا ولهذا السبب مات فقيرا.

أشار إلى الحجرة التي ملأها بالكتبة والموظفين وكلّهم مسنون لأنهم عاشوا من زمن طويل. قال:

- إذن ما علينا إلا أن نجلس على السّجاد بدلا من المقاعد للأبد، ونحن نمنح وهذا هو الفرق الرئيسيّ بين الآن والماضي ولكني أظن أنه لا يجب علينا أن نعاقب أحدا.

وافقت السيدتان وقال هو برقّة:

- يا للمجرم المسكين.. امنحه فرصة أخرى. إن إرسال الرجل للسجن سيجعله أسوأ ويفسده.

رقّت تعبيرات وجهها لتلْكَ الرقّة التي لدى شخص غير قادر على الإدارة وعلى السيطرة وعلى فهم أنه إذا أطلق سراح المجرم فإنه سيسرق مرة ثانية الأرملة الفقيرة. لقد كان حنونا مع كل شخص عدا القليل من أعداء الأسرة الذين لا يعتبرهم بشرا أو هؤلاء الذين أراد الانتقام منهم. إنه حتى كان حانيا على الإنجليز، وكان يعلم في أعماق قلبه أنه ليس بيدهم أنهم باردون، هكذا وغريبو الأطوار، ويدورون كتيار مثلج في بلده. كرر:

- نحن لا نعاقب أبدا.. أي أحد. وفي المساء سنقيم وليمة ضخمة بالرقص الهندي والفتيات الجميلات، والتي ستضيء على كل جانب من الخزان بالألعاب النارية في أيديهم، والجميع سيحتفلون في سعادة ،حتى اليوم التالي حيث ستسود العدالة كالسّابق: خمسون روبية ومائة وألف... إلى أن يأتي السلام. ولماذا لم نعش في ذلك الزمن؟ ولكن هل أنتم معجبون ببيت السيد "**فيلدنج**"؟ هل رأيتم كيف طليت الأعمدة بالأزرق وتندات الشرفة.. بماذا تسمونها؟ والذي فوقنا

وبالداخل أيضا أزرق. وأشعتها الصغيرة متعرجة تشبه البامبو.. إنها جميلة جدا، وأشجار البامبو تتموّج على جانب الخزان بالخارج.. يا سيدة "**مور**"! يا سيدة "**مور**"!

قالت وهي تضحك:

- حسنا؟

- هل تذكرين الماء بجوار مسجدنا؟ إنه يأتي لأسفل ويملأ هذا الخزان ،وهي ترتيبات ماهرة من الأباطرة. لقد كانوا يتوقفون هنا في طريقهم إلى "**البنغال**". لقد كانوا يحبون الماء.. وأينما ذهبوا كانوا يصنعون النافورات والحدائق والحمامات. لقد كنت أخبر السيد "**فيلدنج**" بأني على استعداد لأن أقدم أي شيء لخدمتهم.

كان مخطئا بشأن الماء الذي لم يكن أي إمبراطور- مهما كانت براعته - يستطيع أن يجعله يتحرك لأعلى التل بفعل الجاذبية إلى منخفض له بعض عمق. وفيه تمتد "**كاندرابور**" ما بين المسجد وبيت السيد "**فيلدنج**". كان من الممكن أن يدفعه "**روني**" إلى مغادرة المكان وكان "**تورتون**" سيرغب في أن يدفعه إلى مغادرة المكان أيضا ولكنه تمالك نفسه حتى "**فيلدنج**" نفسه لم يرغب في أن يدفعه إلى مغادرة المكان. لقد أخفى لهفته على الحقيقة الشفهية، واهتم أساسا لواقع المزاج. أما بالنسبة للآنسة "**كويستد**" فقد تقبلت أي شيء قاله "**عزيز**" كحقيقة واقعة. وكانت في جهلها قد اعتبرته مثل الهند، ولم تتصور أبدا أن أفقه محدود وأن طريقته غير دقيقة وأنه لا يوجد أحد يعد هو الهند.

إنه الآن أكثر حماسا وإثارة، وهو يثرثر بشدة، بل إنه بدأ يستخدم عبارة "اللعنة" عندما يختلط عليه الكلام. أخبرهم عن مهنته، وعن العمليات التي شاهدها والتي اشترك فيها ودخل في التفاصيل التي أخافت السيدة "**مور**" رغم أن الآنسة "**كويستد**" فهمت خطأ أنها دليل على اتساع أفقه. لقد سمعت مثل هذه الأحاديث في بلدها في الدوائر العلمية المتطورة. وافترضت أنه متحرر، ويمكن الاعتماد عليه على حد سواء، ووضعته في برج عالٍ لا يستطيع الحفاظ عليه. إنه مرتفع بما يكفي الآن، ولكن بالتأكيد ليس في برج عالٍ. لقد رفعته الأجنحة لأعلى ،ولكنها تخبّطت لتسقط به. هدأ وصول الأستاذ "**جودبول**" منه إلى حدّ ما لم يحاول البراهمي الهادئ واللغز أن يقلل من شأن بلاغته، بل بالعكس أخذ يصفق له. أخذ قدح شايه إلى مسافة قليلة من الضوء من فوق مائدة منخفضة موضوعة خلفه، والتي أسند ظهره عليها، ولما كانت تحوي الطعام مصادفة تظاهر الجميع بعدم اكتراثهم بشاي الأستاذ "**جودبول**" كان أكبر سنا، وأكثر حكمة، وله شارب أشيب، وعينان زرقاوان، وبشرته بيضاء مثل الأوروبيين، وقد ارتدى عمامة بلون المكرونة الأرجوانية الشاحبة،. ومعطفا تحته سترة حتى وسطه، ومئزر رجل هندي وجوربا، وغطاء حذاء. وكان غطاء الحذاء يماثل لون المئزر، وكان كل مظهره يوحي بالانسجام في الذوق، والألوان وكأنه، استطاع أن يصالح ما بين لبس الشرق والغرب. عقليا وبدنيا. كانت السيدتان مهتمتين به، وأمّلتا في أن يزود الدكتور "**عزيز**" بأن يقول شيئا عن الدين. ولكنه فقط أخذ يأكل ويأكل ويأكل وهو يبتسم ولا يدع عينيه أبدا تقعان على يديه.

تـرك "**عـزيز**" الأباطرة المغول، وتحول إلى موضوعات لا تحبط أحدا. وصف عملية نضوج المانجو وكيف أنه في صباه اعتاد أن يهرب وسط الأمطار إلى دغل مانجو ملك أحد أعمامه ويلتهم الثمرات :

- ثم أعود والماء يصبّ عليّ، وربما هناك ألـم في بطني أكثـر من الأمطار، ولكنني لـم أكن أهتم. لقد كـان كل أصدقائي يتـألمون معي. ولدينا حكمة بالأوردية : "ما أهميـة عدم السعـادة ما دمنا جميعا غير سعداء." وهو ما يأتي مناسبا بعد تناول المانجو. عليك الانتظار حتى ينضج المانجو. لماذا لا تستقرون جميعا في الهند؟

قالت "**عديلة**" :

- أخشى أني لن أستطيع أن أفعل ذلك.

لم تكن تعلم معنى ملاحظتـها. كان الأمر بالنسبـة لها وللرجال الثلاثة الآخرين معناه أن تلك الملاحظة هي مفتاح بقيّة الحديث. وبعد العديد من الدقائق لم تصل إلى نصف الساعة أدركت أنها ملاحظة مهمة وأنها قالتها موجهة إلى "**روني**".

- إن الزائرين من أمثالك نادرون جدا.

قال الأستاذ "**جودبول**" :

- إنهم فعلا كذلك. وهذه الدماثة نادرا ما نراها. ولكن ماذا يمكن أن نفعل لنجعلهم يبقون.

قال "**عزيز**" :

- المانجو! المانجو!

ضحكوا وتدخل "**فيلدنج**" قائلا :

- وحتى المانجو يمكن الحصول عليه في "**إنجلتـرا**" الآن. إنهم يشحنونه في غرف تبريد بالثلج. ومن الممكن عمل هند في "**إنجلترا**" ظاهريا تماما كما يمكن عمل "**إنجلترا**" في الهند.

قالت الفتاة :

- بصراحة هذا مكلف جدا.

- أعتقد ذلك.

- وشيء كريه.

ولكن المضيف لـم يكن يسمح للمحادثة بأن تأخذ هذا المنحنى الثقيل. التفت للسيدة العجوز التي بدت مرتبكة، وتدخّل ولم يكن يستطيع أن يعرف السبب في ارتباكها، فسألها عن خططها، وأجابت بأنها تودّ لو شاهدت الكلية. فنهض الجميع فيما عدا الأستاذ "**جـودبول**" الذي كان ينهي على موزة. قال "**فيلدنج**" :

- ألن تأتي أيضا يا "**عديلة**"؟ هل تكرهين المعاهد التعليمية؟

قالت الآنسة "**كويستد**" وهي تعاود الجلوس في مكانها :

- نعم.. هكذا الأمر.

تـردد "**عـزيز**" فإن المستمعين يتسلّلون منه. إن النصف المألوف لديه سيرحل، ولكن النصف المنتبه أكثر سيبقى، أعاد التفكير في أنها فترة ما بعد ظهر غير عادية فتوقف عن الذهاب معهم.

واستكمل الحديث كالمعتاد قال:

- إنني أتحدث الآن كطبيب.. هل يمكن أن يقدم المرء مانجو غير ناضج لزائريه كنوع من اللّهو؟

ثم قال الرجل العجوز:

- ولكني سأرسل لك القليل من الحلوى الصحّية.. سأمنح نفسي هذه السعادة.

- يا آنسة "**كويستد**" إن حلوى الأستاذ "**جودبول**" لذيذة.

كان "**عزيز**" وهو يقول ذلك حزينا لأنه ود أن يرسل لها الحلوى ولكن ليس عنده زوجة تطهوها.

- إنها ستعطيك طعما هنديا حقيقيّا.. آه.. في وضعي الفقير لا أستطيع أن أعطيك شيئا.

- لست أدري لماذا تقول ذلك في حين أنك طلبت منّا برقّة أن نزور بيتك؟

فكر ثانية في بيته البنجالو في رعب. يا إلة السماوات لقد أخذته الفتاة الغبية بكلمته! ما الذي سيفعله؟ صاح:

- نعم كل شيء مرتب! أدعوكم جميعا لمقابلتي في كهوف "**ماربار**".

- سيسعدني ذلك.

- أوه.. إن ذلك أعظم متعة إذا ما قورنت بحلواي الفقيرة، ولكن.. ألم تزر الآنسة "**كويستد**" كهوفنا بعد؟

- لا.. إنني حتى لم أسمع عنها.

صاح الرجلان:

- لم تسمعي عنها؟ كهوف "**ماربار**" في تلال "**ماربار**"؟

- نحن لا نسمع أشياء مثيرة في النادي. فقط عن التنس والأشعّة الطبية.

صمت الرجل العجوز ربما لأنه شعر بأنه ليس من المفروض أن تنقد أهلها، وربما خشي أنه لو وافق فإنها قد تنقل عدم وفائه ولكن الشاب قال بسرعة:

- أعرف ذلك.

- إذن أخبرني بكل شيء لن أستطيع أبدا أن أفهمه عن الهند. وهل هي تلك التلال التي أراها أحيانا في المساء؟ وما هي تلك الكهوف؟

انطلق "**عزيز**" في الشرح ولكن بدا واضحا أنه لم يزر الكهوف هو نفسه. لقد كان دائما ينوي زيارتها، ولكن العمل وأشغاله الخاصة منعته، ثم إنها بعيدة جدا فتفضل الأستاذ "**جودبول**" بإنقاذه:

- يا سيدي الشاب العزيز هل سمعت عن هذه الحكمة المفيدة "القدر والغلاية".

- هل هي كهوف واسعة؟

- لا ليست واسعة.

- اشرحها لو سمحت يا أستاذ "**جودبول**".

- سيكون هذا شرفا عظيما.

سحب مقعده قريبا وعلا وجهه تعبير من التوتر. أخذت الآنسة "**كويستد**" صندوق السجاير، وقدمت له ولـ"**عزيز**" سيجارة، وبعد فترة صمت تأثيرية قال:

- هناك مدخل في الصخور تدخلينه، وخلال المدخل هناك كهف.

- هل هو شيء يشبه الكهف في "**إليفانتا**"؟

-لا.. ليس هذا على الإطلاق. في "**إليفانتا**" هناك نقوش للإله "**شيفا**" المدمر و"**بارفاتي**". ولا يوجد نقوش في "**ماربار**".

- أوه لا.. أوه لا..

- ومع ذلك فهي مزينة بطريقة ما.

- أوه لا...

- إذن لماذا هي شهيرة لهذه الدرجة؟ إننا جميعا نتحدث عن كهوف "**ماربار**" الشهيرة. ربما كان نوعا من تباهينا الفارغ.

- لا.. لا يمكن أن أقول ذلك.

- إذن صفها لهذه السيدة.

- سيكون هذا من دواعي سروري العظيم.

استمر في هذا السرور وأدرك "**عزيز**" أنه يخفي شيئا ما عن الكهوف، وأدرك ذلك لأنه كان يعاني من هذا الكبت هو نفسه. وأحيانا قد يتجاوز عن حقيقة ذات صلة بوضع ما ليتعامل مع مائة حقيقة لا علاقة لها بالموضوع، الأمر الذي كان يثير حنق الميجور "**كاليندار**" والذي كان يتهمه بالمكر والخداع وهو على حق ولكن بشكل عام. كان الأستاذ "**جودبول**" صامتا الآن ولا شك أنه لم يكن لديه الرغبة في الصّمت، ولكنه كان يخفي شيئا.

ظل الحوار مرحا وودّيا. ولم تعرف "**عديلة**" أن العقل المحمديّ البسيط نسبيا، كان يضم الليلة القديمة، لقد كان "**عزيز**" يلعب لعبة مثيرة. كان يتعامل مع لعبة بشرية ترفض أن تعمل، وكان يعرف ذلك جيدا لأنها لو عملت فلن يكون هو ولا الأستاذ "**جودبول**" مستفيدين على الإطلاق ولكن المحاولة أثارت حماسه، ومال إلى تجديد الفكرة. استمر في الثرثرة وقد صمّ أذنيه أمام أي حركة معارضة.

في هذه اللحظة دخل عليهم "**روني**". لم يحاول أن يخفي ضيقه وصاح في الحديقة:

- ما الذي جرى لـ"**فيلدنج**"؟ أين أمي؟

ردت عليه "**عديلة**" ببرود:

- مساء الخير!

- أريدك أنت وأمي في الحال.. ستقام مباراة "**بولو**".

- لقد ظننت أنه لن يكون هناك "**بولو**".

- لقد تغير كل شيء. لقد جاء بعض العسكريين، تعالي معي وسأخبرك عن ذلك.

قال الأستاذ "**جودبول**" والذي نهض احتراما:

- والدتك ستعود قريبا يا سيدي.. ليس هناك إلا القليل يمكن رؤيته في كليتنا الفقيرة.

لم يعره "**روني**" انتباها واستمر في توجيه الحديث لـ"**عديلة**". لقد أسرع من عمله ليصحبها لتشاهد "**البولو**". لأنه ظن أن ذلك قد يدخل السرور عليها. لم يقصد أن يكون وقحا مع الرجلين. الصّلة الوحيدة بينه وبين الهنود صلة رسمية وهم مرؤوسوه أما اعتبارهم أفرادا وبشرا فقد نسي ذلك. ولكن "**عزيز**" لم ينس ذلك. إنه لن يتخلّى عن الساعة الودّية السابقة فلم ينهض من مقعده وإنما نادى على "**روني**".

- تعال إلى هنا وانضمّ إلينا يا سيد "**روني**" واجلس إلى أن تظهر أمك.

رد "**روني**" بأنه أمر أحد خدم "**فيلدنج**" أن يذهب ويحضرها. قال "**عزيز**" بطريقة غامضة:

- قد لا يفهم ذلك... اسمح لي..

رغب "**روني**" أن يرد بحدّة فهو يعرف هذا النمط من الرجال، فهو المتشبه بالأوروبيين. ولكنه خادم الحكومة ووظيفته أن يتجنّب الحوادث، فلم يقل شيئا، وتجاهل التحدّي الذي استمر "**عزيز**" يقدمه. لقد كان "**عزيز**" مستفزًا. لم يكن يقصد أن يكون مستفزا للسيد "**روني**" الذي لم يسبب له أي ضرر، ولكنه هنا أنجلو هندي لابد أن يصبح رجلا. إنه لم يقصد أن يكون حميم الصلة بطريقة زلقة مع الآنسة "**كويستد**"، وإنما فقط أراد أن يظهر دعمه لها، ولم يقصد أيضا أن يكون صارخا ولا لطيفا مع الأستاذ "**جودبول**".. إنه رباعي غريب الشأن! لقد كان "**روني**" يتميز غيظا. والأستاذ البرهمي يراقب الثلاثة، ولكن بعيون منكسة، ويدين مضمومتين، وكأن شيئا غير ملحوظ يحدث. إنه مشهد من مسرحية، ورغم أن "**فيلدنج**" شاهدهم عن بعد عبر الحديقة مجتمعين بين الأعمدة الزرقاء في القاعة الجميلة قال "**روني**":

- لا تزعجي نفسك بالحضور يا أمي. إننا بدأنا للتوّ.

ثم أسرع بعد ذلك إلى "**فيلدنج**" وانتحى به جانبا وقال في شبه حماس:

- أيها العجوز.. أرجو أن تعذرني.. ولكني أظن أنه لم يكن من اللائق أن تترك الآنسة "**كويستد**" بمفردها.

رد "**فيلدنج**" وهو يحاول أن يكون صادقا:

- أنا آسف.. ماذا هناك؟

- حسنا.. لا شك في أنني بيروقراطيّ قحّ، ومع ذلك لا أحب أن أرى فتاة إنجليزية تترك بمفردها لتدفن مع هنديين.

- لقد بقيت بمحض إرادتها لتدخل أيها العجوز.

- نعم هذا لا بأس به في "**إنجلترا**".

- أنا لا أستطيع أن أرى أي ضرر في ذلك حقًا.

- إذا لم تكن تستطيع أن ترى فعليك أن ترى.. ألا ترى أن ذلك الصاحب قليل الأدب وصاخب؟

كان "**عزيز**" متوهجا ومسيطرا على السيدة "**مور**".

احتجّ "**فيلدنج**":

- هو ليس قليل الأدب وإنما أعصابه مشدودة فقط.
- وما الذي يمكن أن يكون قد شدّ أعصابه الغالية؟
- لست أدري.. لقد كان على ما يرام عندما تركته.
- حسنا.. أنا لم أقل له شيئا على الإطلاق.
- أوه.. حسنا تعال الآن وخذ سيدتيك بعيدا، لقد انتهت الكارثة.
- يا "**فيلدنج**" لا تظن أنني آخذ الأمر مأخذا سيئا، أو أي شيء من هذا القبيل. أعتقد أنك لن تأتي معنا إلى "**البولو**"؟ كم كان هذا سيسعدنا لو فعلت.
- أخشى أنني لن أستطيع.. أنا آسف بشدة لأنني كنت مهملا ولكني لم أقصد ذلك.

كان التوتر سائدا عند رحيلهم وكأنه بزغ من كل الأرض. تساءل "**فيلدنج**" فيما بعد.. يبدو أنه لا يوجد احتياطي من الهدوء والسكينة يمكن نشره على الهند. أو أنه لا يوجد هدوء، أو أن الهدوء نفسه ابتلع كل شيء هناك كما بدا ذلك على الأستاذ "**جودبول**". لقد كان "**عزيز**" هنا متفاخرا ودعيّا وبغيضا. وكل من الآنسة "**كويستد**" والسيدة "**مور**" بلهاوان وهو نفسه والسيد "**هيسلوب**" محتشمان ظاهريا ولكنهما بغيضان حقا ويكره كل منهما الآخر. قالت السيدة "**مور**":

- إلى اللقاء يا سيد "**فيلدنج**" وشكرا جزيلا.. يالها من مبان رائعة للكلية!
- إلى اللقاء يا سيدة "**مور**"!
- إلى اللقاء يا سيد "**فيلدنج**" لقد كان بعد ظهر رائعا!
- إلى اللقاء يا آنسة "**كويستد**".
- إلى اللقاء يا دكتور "**عزيز**"!
- إلى اللقاء يا سيدة "**مور**".
- إلى اللقاء يا دكتور "**عزيز**"!
- إلى اللقاء يا آنسة "**كويستد**".. إنك بالطبع لن تنْسَيْ أبدا تلك الكهوف أليس كذلك؟ إنني سأرتّب العرض كلّه في لحظة.

أخذ يشدّ على يدها بقوة ليظهر مدى ارتياحه.

- شكرا لك.

أضاف مدفوعا من الشيطان في جهد أخير:

- ياله من أمر محزن أن تغادري الهند بهذه السرعة. أوه.. أرجوك أن تعيدي التفكير في البقاء.

قالت الآنسة "**كويستد**" وقد أحسّت فجأة بالإثارة:

- وداعا يا أستاذ "**جودبول**" كم هو محزن ألا أسمعك وأنت تغني.

رد:

- أستطيع الغناء الآن.

ثم غنى.

ارتفع صوته الرفيع وأخرج صوتا بعد الآخر. وأحيانا بدا الصوت موسيقيا ملحنا وأحيانا، أخرى كان تقليدا للحن غربيّ. . ولكن آذانهم نقدت التتابع اللحني، وسمعوا خليطا من الضجيج ليس بالحاد ولا المفهوم ولا الممقوت. لقد كانت أغنية "طائر مجهول" . لم يفهمها سوى الخدم. وبدأوا يتهامسون. والرجل الذي كان يجمع الكستناء من ماء الخزان جاء عاريا وهو يحرك شفتيه في استمتاع ويخرج لسانه الأحمر. سكتت الأصوات فجأة كما بدأت. قال "**فيلدنج**" :

– شكرا لك. ماذا كان هذا؟

– سأشرح لك بالتفصيل. . إنها أغنية دينية حول الإله "**كريشنا**" والعذراء بائعة اللبن والتي طلبت منه وتوسّلت أن يأتي إليها، ولكنه يرفض المجيء وتكرر ذلك سبع مرات .

قالت السيدة "**مور**" برقّة:

– ولكنه يأتي مع أغنية أخرى على ما أظن؟

– لا . .إنه يرفض أن يأتي. أقول له تعال. . تعال. . تعال ولكنه يرفض أن يأتي.

اختفت خطوات "**روني**" بعيدا وساد صمت مطبق. . لا أمواج تعكر صفو الماء ولا ورقة شجرة تتحرك.

الفصل الثامن

رغم أن الآنسة "**كويستد**" عرفت "**روني**" جيدا في "**إنجلترا**" إلا أنها أحسّت بأنها كانت عاقلة وحكيمة عندما قررت أن تزوره قبل أن تصبح زوجا له. لقد زاد وضوح رضائه الذاتي، والنقد الذاتي وافتقاره إلى الرقّة والحساسية تحت سماء الهند الآسيوية. لقد أظهرت الهند جوانب في شخصيته لم تكن تحبها ولا تعجب بها لم يكن يهتم بما يدور في أذهان أترابه، وكان أكثر ثقة بأن رأيه فيهم صحيح، ولم يكن يهتم إن كان مخطئا، وعندما تثبت خطأه كان عادة مثيرا للحنق، ويستطيع دائما أن ينجح في الإيحاء بأنه لم يكن عليها أن تتعب نفسها بإثبات خطئه. ووجهة نظرها دائما غير مناسبة له وبراهينها ياتّة وقاطعة ولكن عقيمة. تذكرت ذلك وأنه خبير في معلوماته وهي ليس لديها أي معلومات، وأن خبرته هذه لن تساعدها لأنها لا تستطيع أن تفسر تلك المعلومات. لقد درس في المدرسة العامة بـ"**إنجلترا**" وبجامعة "**لندن**" وتدرب سنة في مدرسة خارجية وتتابع في الوظائف في مقاطعة معيَّنة، وسقوطه من فوق الجواد، وحمَّى إصابته، كل ذلك يمثّل بالنسبة لها التدريب الوحيد الذي يُفهم به الهنود وكل من أقام في وطنها، وهو التدريب الوحيد الذي يقال عنه إنها تستطيع أن تفهمه، لأنه بالطبع يمتد فوق معلومات "**روني**" المستويات العليا من المعلومات التي حصل عليها آل "**تورتون**" و"**كاليندار**" الذين لم يقضوا مثله عاما واحدا في البلاد، وإنما قضوا عشرين عاما، والذين حواسهم الغريزية فوق قدرة البشر. لأنه بالنسبة لها لم يبالغ في ادعاءاته، وتمنت لو فعل. إنه المثال الواضح للمسؤول قليل الخبرة الذي يقول: أنا لست كاملا ولكن. . وهذا هو ما يضغط على أعصابها كم كان فظّا في بيت "**فيلدنج**"، وأفسد الحديث،

ثم خرج وسط أغنية شجيّة! وبينما هو يقودهم في عربة "التام تام" أصبح توترها لا يطاق ،ولم تدرك أن أكثر ذلك التوتر كان موجها ضدها هي، لقد تاقت إلى فرصة أن تطير إليه بأسرع ما يكون، ولما كان هو أيضا لديه نفس الإحساس، فقد أصبحا معا في الهند وهي فرصة حدثت. لقد غادروا لتوهم مبنى الكلية الحكومية في "**كاندرابور**" عندما سمعته يقول لأمه التي كانت معه على المقعد الأمامي في حفل التخرج على أرض الكلية.

- ما هذا الذي سمعته عن الكهوف؟

وسرعان ما فتحت "**عديلة**" النيران:

- يا سيدة "**مور**" إن طبيبك اللطيف قرّر لنا نزهة بدلا من حفل في بيته ومفروض أن نقابله هناك بالخارج أنا وأنت والسيد "**فيلدنج**" والأستاذ "**جودبول**" بالضبط نفس المجموعة.

سأل "**روني**":

- بالخارج أين؟

- عند كهوف "**ماربار**".

همهم بعد فترة صمت:

- حسنا.. ليباركني الله... ولكن هل أفصح عن بعض التفاصيل؟

- إنه لم يفعل.. لو كنت تحدثت معه لرتّبنا الأمر.

هز رأسه وهو يضحك فقالت:

- وهل قلت شيئا مضحكا؟

- إنني فقط أفكر كيف استطاع ذلك الطبيب أن يرتدي ياقة قميصه بهذا الشكل.

- أعتقد أننا كنا نناقش الكهوف.

- وأنا كذلك. لقد كان "**عزيز**" يرتدي زيّا مثيرا من دبوس رباط العنق إلى غطاء الحذاء، ولكنه نسي زرّ ياقته الأوسط من الخلف، وهكذا حال كل الهنود: عدم العناية بالتفاصيل وهو نفس الإهمال الذي يكشف عن العرق، وكذلك مسألة المقابلة عند الكهوف، وكأنها عند ناصية الشارع، بينما هي تبعد أميالا عن المحطة.

- هل ذهبت إليها؟

- لا.. ولكني بالطبع أعرف كل شيء عنها.

- أوه.. طبعا!

- هل أنت مرتبطة جدا بهذه البعثة يا أمي؟

قالت السيدة "**مور**" دون توقع:

- أمك ليست مرتبطة بأي شيء، وبالطبع لست مرتبطة بالذات بحفل البولو هذا. هل يمكن أن تقود العربة مباشرة إلى "البنجالو" أولا لتتركنا هناك؛ لأنني أفضل أن أستريح من فضلك.

- أنزلني هناك أنا أيضا لأنني بالتأكيد لا أريد رؤية البولو.

قال "**روني**":

- من الأفضل أن أترك البولو.

كان قد فاض به الكيل وأحس بالخيبة ولم يعد يتمسك بالتحكم في نفسه وأضاف في صوت عال وغاضب:

- لن أسمح لكما أن تختلطا بالهنود بعد الآن. وإذا كان لابد من الذهاب لزيارة كهوف "**ماربار**" فسيتم ذلك تحت الرعاية البريطانية.

قالت السيدة "**مور**":

- أنا لم أسمع أبدا عن تلك الكهوف، ولا أعرف أين هي ولا كيف هي، ولكنني حقا لا أستطيع أن أتحمّل كل هذا الشجار والمتاعب.

أحسّ الشابّان بالخجل. أنزلاها عند "البنجالو" واستمرا معا إلى ملعب البولو، وهما يشعران بأن هذا على الأقل ما يجب عليهما أن يفعلاه. لقد فقدا روح الدعابة والفكاهة، ولكن ثقل روحيهما المعنوية بقي وعواصف رعد تلوح في الجو. كانت الآنسة "**كويستد**" تعيد التفكير في سلوكها هي وانتهت إلى أنه لا يعجبها على الإطلاق. وبدلا من أن تزن "**روني**" وتزن نفسها وتنتهي إلى قرار حكيم حول الزواج فإنها بالمصادفة لاحظت وسط الحديث حول ثمار المانجو أنها لم تقصد الوقوف في طريقها في الهند. وهذا يعني أنها لن تتزوج "**روني**" ولكن يالها من طريقة تعلن بها ذلك. يالها من طريقة تتصرف بها فتاة متحضرة! إنها مدينة له بتفسير، ولكن للآسف مبادئها وطبعها المتحضر أجلاه لوقت آخر، لم يكن هناك معنى لأن تكون غير مهذبة معه وأن تصوغ شكاواها حول سلوكه في هذه الساعة من اليوم. وكان المساء قد حل. جرى البولو فوق الميدان بالقرب من مدخل مدينة "**كاندرابور**"، وكانت الشمس بالفعل تغرب. ابتعدا عن فريق الحكام إلى مقعد بعيد، وهناك أجبرت نفسها على أن تقول الملحوظة التي لم تنضج بعد:

- لابد أن نجري محادثة شاملة يا "**روني**"!

جاء ردّه:

- إن مزاجي كان منحرفا ولابد أن أعتذر عن ذلك. أنا لم أقصد أن آمرك أنت وأمي بذلك، ولكن بالطبع تلك الطريقة التي خدعوكما بها هؤلاء البنغاليون هذا الصباح ضايقتني وأنا لا أريد أن يستمر حدوث مثل هذه الأمور ثانية.

- إن الأمر لا علاقة له بهم...

- لا.. ولكن "عزيز" يمكن أن يفعل مثل ذلك الخلط بالنسبة للكهوف. إنه لم يقصد شيئا بدعوته وأستطيع أن أعرف ذلك من صوته.. إنها طريقتهم لإبداء لطفهم.

- إنه شيء مختلف جدا، لا دخل له بالكهوف هو ما أردت الحديث عنه معك. لقد قررت أخيرا أننا لن نتزوج يا عزيزي!

جرح الخبر "**روني**" بعمق. تحكم في نفسه بقوة وقال:

- إنك لم تقولي أبدا إننا سنتزوج يا فتاتي العزيزة فلا داعي لأن تغضبي نفسك.

أحسّت بالخجل. كم هو رقيق ومهذّب! وكان هذا هو الذي جذب كلا منهما نحو الآخر في

أول لقاء والذي تمّ وسط المنظر الرائع لبحيرات "**إنجلترا**" . لقد انتهت محنتها، ولكنها أحست بأنها ستظل مؤلمة ولمدة أطول. "**عديلة**" لن تتزوج من "**روني**" بدا الأمر وكأنه حلم. قالت :

– ولكن دعنا نناقش الأمر. إنه مخيف ومهم ولا يجب أن نخطو خطوات خاطئة. أريد أن أعرف وجهة نظرك عني. فقد يساعد ذلك كلينا.

كان مسلكه غير سعيد ومتحفظا.

– أنا لا أعتقد كثيرا في مسألة المناقشة هذه. ثم إنني مرهق لدرجة الاحتضار من كل تلك الأعمال التي أحضرها لي مكتب "**محرم**" إذا سمحت لي.

– أنا فقط أريد كل شيء واضحا تماما بيننا وأن أجيب على أي سؤال يهمك أن توجهه لي عن سلوكي.

– ولكن ليس لدي أية أسئلة. لقد تصرفت في إطار حقوقك. من حقّك فعلا أن تاتي لتلقي نظرة عليّ وأنا أمارس عملي، وكانت خطة ممتازة، وعلى أية حال فإنه لا جدوى من المزيد من الحديث..

أحس بالغضب يعتمل بداخله وأحس بالجرح. قالت "**عديلة**" :

– أظن أنه ليس هناك شيء آخر ولا أسامح نفسي لأنني كبدتك أنت وأملك كل هذا العناء.

كانت تحسّ بتثاقل وهي تتجهم ناظرة إلى الشجرة التي كانا يجلسان تحتها، وطائر أخضر صغير يراقبهما، كررت عبارتها الأولى وهي تحسّ بأنه لابد من أن يقدّم أحدهما حديثا عميقا وعاطفيا قالت :

– لقد كنا بريطانيين جدا في هذا الشأن وأعتقد أن هذا لا بأس به.

– ما دمنا بريطانيين فلا بأس بذلك على ما أظن.

– على أية حال نحن لم نتشاجر يا "**روني**" .

– أوه لو حدث لكان غباء شديدا.. لماذا نتشاجر؟

– أعتقد أن علينا أن نظل أصدقاء.

– أعرف أنه لابد من ذلك.

جرت بينهما موجة من الارتياح، بعد ذلك تحوّلت إلى موجة من الحنان، ثم ذهبت. لقد رقّ كل منهما بسبب صدقهما وبدآ يحسّان بأنهما وحيدان وغير عاقلين. لقد فرقت بينهما التجارب وليس السلوك. إنهما ليسا غير متشابهين في الحقيقة بالمقارنة بالناس الواقفين بجوارهما. بالطبع هما صديقان وللأبد سألته وهي تقرب كتفها منه أكثر :

– هل تعرف اسم ذلك الطائر الأخضر هناك؟

– الوروار.

– لا يا "**روني**" إن به خطوطا حمراء على جناحيه.

غامر بالقول :

– ببغاء!

– يا إله السماوات.. لا.

اختفى الطائر موضع التساؤل في قبّة الشجرة. لم يكن له أهمية ومع ذلك أحبّا أن يتعرفا عليه.. ربما كان هذا سيرقّق من قلبيهما، ولكن لا شيء في الهند يمكن تحديده.

– السيد "**ماك برايد**" لديه كتاب مصوّر عن الطيور. أنا لست على دراية جيدة في مسألة الطيور على الإطلاق والحقيقة لا فائدة مني في أي معلومات خارج نطاق عملي وهذا شيء يؤسف له.

– وهكذا الأمر معي فأنا لا أصلح لأي شيء.

صاح "**نواب بهادور**" بأعلى صوته مما جعلهما يجفلان:

– ما هذا الذي أسمعه؟ ما هذا الاعتراف الذي لا يمكن تصديقه والذي أسمعه؟ سيدة إنجليزية لا فائدة منها؟ لا.. لا.. لا..

ضحك في صدق وفي حدود مدى الترحيب به. قال "**روني**":

– هاللو "**نواب بهادور**"! هل كنت تشاهد "**البولو**" ثانيا؟

– لقد كنت أفعل يا صاحبي!

قالت "**عديلة**" وهي تستجمع شتاتها ومدّت له يدها:

– كيف حالك؟

حكم الرجل العجوز من حركة الفتاة أنها جديدة على البلاد، ولكنه لم يكترث. إن النساء اللاتي يكشفن عن وجوههن في نظر أهل بلده يبدون أكثر غموضا من نساء الهند، وربما كان ذلك يدل على إباحيتهن، وهذا أمر لا يعنيه على أية حال. عندما رأى قاضي المدينة (حاكمها) بمفرده مع عذراء في وقت الشفق ولّدَ عنده نية مقصودة. لقد كان لديه سيارة صغيرة جديدة وأراد أن يضعها تحت تصرفهما وعلى حاكم المدينة أن يقرر قبول العرض أو لا.

كان "**روني**" في هذه اللحظة قد شعر بالخجل من صلافته مع "**عزيز**" و"**جودبول**" وها هي فرصة لإظهار أن باستطاعته معاملة الهنود بنوع من التقدير عندما يستحقون ذلك. لذلك قال لـ"**عديلة**" بنفس طريقة الصداقة الحزينة التي استخدمها عند مناقشة الطيور.

– هل جولة لمدة نصف ساعة يمكن أن تمتّعك؟

– أليس من المفروض أن نعود ثانية إلى "البنجالو"؟

حدّق فيها:

– لماذا؟

– أعتقد أنه من الواجب أن أقابل أمك وأناقش معها خطط المستقبل.

– كما تحبين، ولكن ليس هناك داع للإسراع.. هل هناك؟

صاح الرجل العجوز قبل أن يسرع إلى السيارة:

– دعوني آخذكما إلى "البنجالو" وبعد ذلك الجولة.

– قد يستطيع أن يريك بعض مظاهر البلد التي لا أستطيع أنا أن أريك إياها ثم إنه رجل

مخلص.. لقد ظننت أنك قد تهتمين ببعض التغيير.

قررت ألا تسبب له أي متاعب أكثر من ذلك فوافقت ولكن رغبتها في رؤية الهند الحقيقية تضاءلت لقد شعرت بوجود عنصر مصطنع في ذلك.

كيف سيجلسون في العربة؟ كان لابد من ترك الحارس الشخصي الأنيق وراءهم. جلس "**نواب بهادور**" في الأمام لأنه لم يكن لديه نية أن يجاور فتاة إنجليزية قال:

- رغم تقدّمي في العمر إلا أنني أتعلم القيادة. المرء يستطيع أن يتعلم أي شيء إذا أراد وحاول.

وعندما وجد بعض الصعوبة في القيادة قال:

- الحقيقة أنني لا أقوم بالقيادة، وإنما أطلب من سائقي أسئلة وبذلك أعرف السبب وراء أداء كل شيء قبل أن أقوم بها بنفسي. وبهذه الطريقة فإن حوادث خطيرة وقاتلة مثل تلك الحادثة التي وقعت لأحد مواطني في حفل استقبال بالنادي، كان من الممكن تجنبها. إن صديقنا الطيّب "**بانالال**" كان من الممكن ألا يحدث ذلك الخراب الذي حدث للزهور. دعونا نأخذ جولتنا الصغيرة إلى نهاية طريق "**جنجافاني**" على بعد نصف فرسخ من هنا. ولكنه استغرق في النوم.

أمر "**روني**" السائق أن يتخذ طريق "**ماربار**" بدلا من "**جنجافاني**" لأن الأخير كان تحت التصليح، ثم جلس بجوار السيدة التي فقدها. أصدرت السيارة صوت محرك، واندفعت على طريق يجري بين الحقول. أشجار من النوع الفقير على جانبي الطريق، والمنظر بأكمله كان وضيعا، ويوحي بأن الريف كان واسعا جدا، ولا يمكن الإقرار بأنه ممتاز. تبادل الشابان حديثا واهنا وأحسّا بعدم الأهمية، وعندما بدأ الظلام ينتشر بدا وكأنه يغطي كل الخضرة المتواضعة. زاد وجه "**روني**" قتامة، ولمست يدها يده بسبب مطب، وبرزت بينهما في الحال كل آثار المملكة الإنسانية العاطفية، وأعلنت أن كل ما بينهما لم يكن سوى شجار الأحبة. كان كل منهما معتدا بنفسه بحيث لا يزيد من الضغط ولا الانسحاب وهبطت عليهما وحدة مزيفة مثل الوميض الذي يسكن فراشة النار، قد تختفي في لحظة وربما تظهر ثانية، ولكن الظلام وحده هو الدائم. والليل المحيط بهما، والذي يبدو مطلقا هو نفسه وحدة مزيفة، وقد تغيّر شكله بوميض النهار الذي يتسرب حول أطراف الأرض ومن النجوم.

حدث تشابك وتماسك واهتزاز وتقافز، ثم انحراف وارتفاع عجلتين لأعلى، ثم اصطدام بشجرة عند الجسر ثم ثبات في المكان.. إنه حادث ولكن خفيف لم يصب أحد واستيقظ "**نواب بهادور**" وصاح باللغة العربية وشد لحيته بعنف. سأل "**روني**":

- ما الخسائر؟

بعد لحظات من الصمت سمحت له بالسيطرة على الموقف، كان الخادم الآسيوأوروبي مرتبكا وأسرع على صوت "**روني**" وكل بوصة منه تبدو إنجليزية وأجاب:

- امنحني خمس دقائق وسآخذكم إلى أي مكان ملعون!

أطلق "**روني**" يدها وقال:

- هل أنت خائفة يا "**عديلة**"؟

– لا على الإطلاق.

صاح "نواب بهادور" بخشونة:

– لا أعتبر قمة الجنون نوعا من الخوف!

قال "**روني**" وهو يهبط من السيارة:

– حسنا... لقد انتهى الأمر والدموع لا جدوى من ورائها لقد كان من حسن حظنا أن اصطدمنا بهذه الشجرة.

– انتهى كل شيء.. أوه نعم.. لقد انقضى الخطر فدعونا ندخن سجاير ونفعل ما يسرُّنا.. أوه.. نعم... لنمتّع أنفسنا.. يا إلهي يا رحيم...

ثم ضاعت كلماته في كلمات عربية مرّة ثانية:

– أليس هذا جسرا.. لقد انزلقنا..

قالت "**عديلة**" التي شاهدت سبب الحادث وظنت أن الجميع قد رأوه:

– إننا لم ننزلق.. لقد صدمنا حيوانا.

انطلقت صرخة عالية من الرجل العجوز. لم يكن فزعه مناسبا ومثيرا للضحك:

– حيوان؟

– لقد اندفع حيوان ضخم نحونا من الظلام وصدمنا.

صاح "**روني**":

– بحقّ السماء هي على حقّ.

– بحقّ السماء السيدة على حقّ.

ردد ذلك الآسيوأوروبي.. بجوار مفصلات الباب يوجد انبعاج وانفتح الباب بصعوبة.

– طبعا أنا على حقّ. لقد رأيت ظهره المغطى بالشعر بكل وضوح.

– قولي لي يا "**عديلة**" ماذا كان؟

– لست أعرف الحيوانات أكثر من معرفتي للطيور، إنه أكبر من الماعز بكثير.

قال الرجل العجوز:

– بالضبط أكبر من الماعز بكثير.

قال "**روني**":

– دعنا نذهب في هذا الاتجاه وننظر في آثاره.

– بالضبط هل تود أن تستعير مصباحا بالبطارية؟

سار الإنجليزيان بضع خطوات للخلف وسط الظلام وهما متشابكان وسعيدان. بفضل شبابهما وتربيتهما لم يغضبا من الحادثة.. تتبعا آثار الإطارات إلى مصدر المشاكل.. بعد مدخل الكوبري مباشرة. من المحتمل أن يكون الحيوان قد خرج من واد شديد الانحدار، ثم اختلطت الآثار مع آثار أخرى متشابكة ولم يستطيعوا الكشف عنها، والأكثر من ذلك أن "**عديلة**" في إثارتها ركعت وسحبت معها جونلتها. لقد كان الحادث بمثابة إنقاذ لهما.. لقد نسيا علاقتهما الشخصية التي

سبق أن أجهضت وأحسّا بأنهما مغامران وهما يحاولان حل اللغز وسط التراب. نادت على مضيفهما الذي لم يصاحبهما:

– أعتقد أنه جاموسة.

– بالضبط.

– ما لم يكن ضبعا.

وافق "**روني**" على الاحتمال الأخير.. إن حيوانات ابن آوى تتسكّع وسط الوديان شديدة الانحدار وأنوار الكشافات العالية تزغللها وتصيبها بالدوار.

قال الهندي بسخرية غاضبة وحركة نحو الليل:

– ممتاز.. ابن آوى! يا سيد "**هاريس**"!

– لحظة من فضلك.. امنحني عشر دقائق!

– الصاحب يقول ابن آوى.

– لا تقلق يا سيد "**هاريس**" لقد أنقذتنا من التحطم لقد أحسنت صنعا يا سيد "**هاريس**"!

– تحطم يا صاحبي! ما كان هذا سيحدث لو لم يأخذنا إلى طريق "**جانجا فاني**" بدلا من "**ماربار**".

– هذه غلطتي أنا.. لقد أخبرته أن يأتي من هذا الطريق لأنه أفضل لأن السيد "**ليزلي**" جعله مستقيما حقا نحو التلال.

– آه.. الآن فهمت!

بدأ يستجمع شتات نفسه واعتذر ببطء وبإفاضة عن الحادث.. همهم "**روني**" –العفو– ولكن الاعتذار كان واجبا عليه هو وكان عليه أن يعتذر قبل هذا لأن الإنجليز هادئون جدا أمام الأزمات فلم يكن من المفترض أن الاعتذارات ليست مهمة.

في تلك اللحظة اقتربت عربة ضخمة من الاتجاه العكسي. تقدم "**روني**" خطوات قليلة نحو الطريق، ورفع صوته بسلطة وأشار لها أن تقف. كان عليها علامة "**ولاية موكا**" على أعلى مقدمتها، وكانت بداخلها الآنسة "**ديريك**" بكل بشاشة.

– السيد "**هيسلوب**" والآنسة "**كويستد**" لماذا تقبضون على آنسة بريئة؟

– لقد حدث لنا عطب.

– ولكن كم هو فظيع!

– لقد اصطدمنا بضبع.

– يا له من أمر فاسد جدا.

– هل يمكن أن تسمحي لنا بتوصيلة؟

– نعم طبعا.

قال "**نواب بهادور**":

– خذيني معك أيضا.

صاح الآسيوأوروبي السيد "**هاريس**" :

– وماذا عنّي؟

قالت الآنسة "**ديريك**" في حزم:

– الآن ما كل هذا؟ أنا لست أتوبيسا.. إن معي "أرغن" وكلبين كما ترون.. سآخذ ثلاثة منكم إذا جلس أحدكم في الأمام ويرعى الكلب من نوع "**الباج**" ولا أكثر من ذلك.

قال "**نواب بهادور**" :

– أنا سأجلس في الأمام.

– هيا اقفز وليست لدي أية فكرة عمن تكون.

حاول السائق **هاريس**" أن يتشبه بالأوروبيين حين تدخّل قال:

– أوه.. لا.. ماذا عن غذائي؟ لا يمكن أن تتركوني بمفردي طوال الليل.

قال "**نواب بهادور**" الذي استعاد وقاره المعتاد:

– "**نوسو**" سيحضر لك بعض الغذاء المناسب على دراجة، وسأرسله بأسرع ما يمكن وفي نفس الوقت عليك أن تصلح سيارتي.

سارعوا بالرحيل وبعد نظرة لوم جلس السيد "**هاريس**" القرفصاء. كان عند وجود الهنود والإنجليز يزداد ثقة بالنفس لأنه لم يكن يعرف لمن منهما ينتمي. ظل متضايقا قليلا بسبب دمائه المختلطة، ولكن سرعان ما أصبح لا ينتمي إلا إلى نفسه.

ولكن الآنسة "**ديريك**" كانت ذات روح ممزقة. لقد نجحت في سرقة سيارة "**مودكول**". إن مهراجاها سيحس بالمرض الشديد ولكنها لم تهتم ويمكنه أن يطردها لو رغب. قالت:

– أنا لا أعتقد أن هؤلاء الناس يخلون بك.. وإذا لم أنتزع الشيء كالشيطان فقد أصبح في لا مكان. إنه لا يريد السيارة. بالطبع إنه على ضمان الولاية. إنني سأراقب في "**كاندرابور**" أثناء إجازتي. يجب أن ينظر للأمر على هذا الأساس. على أية حال ليس أمامه إلا أن ينظر للأمر بهذه الطريقة. ومهرانتي مختلفة.. مهرانتي العزيزة– وهذا هو كلبها "**الترير**" ياللشيطان المسكين لقد التقطهما معا مع السائق. تصوروا أخذ الكلاب من مؤتمر رئاسيّ!

اهتزت وهي تضحك وأكملت:

– والأرغن هو غلطتي الصغيرة.. إنني أملكه. ومن الممكن أن يقبض عليّ بسببه في القطار... أوه!

ضحك "**روني**" في تحفظ. لم يوافق على أن يأخذ الإنجليز خدمات تحت اسم الولاية الوطنية حيث يحصلون على بعض النفوذ، ولكن على حساب التميز العام. قال للسيدة الشابة: إنها ستتفوق على الهنود في لعبتهم إذا استمرت على ما هي فيه.

– إنهم دائما ما يطردونني وبعدها أجد وظيفة أخرى. والهند كلها ثائرة على المهرانيات والرانيات والبجومات اللاتي يصخبن مع أمثالي.

– حقًا.. لم يكن لدي فكرة.

– وكيف يمكن أن يكون لديك فكرة يا سيد "**هيسلوب**"؟ وكيف له أن يعرف عن المهرانيات يا آنسة "**كويستد**"؟ لا شيء.. على الأقل أتعشم ألا يعرف.

قالت "**عديلة**" بهدوء وقد كرهت لهجة الشابة:

– أفهم أن هؤلاء الناس الكبار ليسوا مهمين بصفة خاصة.

لمست يدها يد "**روني**" ثانية وأضيف إلى الإحساس الوجداني بينهما تصادف الأفكار.

– آه هنا أنت مخطئة. إنهم لا ثمن لهم.

تدخل "**نواب بهادور**" من معزله على المقعد الأمامي.

– لا أستطيع أن أقول إنها مخطئة.. الولاية الوطنية والولاية الهندوكية وزوجة الحاكم الهندوكي قد تكون دون شكّ أكثر السيدات امتيازا، ولا تفترضوا لحظة واحدة، أنني ضد صاحبة السعادة المهرانا "**مودكول**". ولكنني أخشى أنها غير مثقفة، وأنها تصبح متطيرة (تؤمن بالخرافات). ثم في الحقيقة كيف يمكن أن تكون غير ذلك؟ ما هي فرصة التعليم التي تتاح لمثل هذه السيدة؟ إن التطيّر رهيب.. رهيب..! إنه أعظم عيب في أخلاقنا نحن الهنود. إنه واجب كل واحد من المدنيين أن يحارب التطَيُّر والخرافات. ورغم أن لدي خبرةً قليلة بالولاية الهندوكية، ولا خبرة على الإطلاق بهذه الولاية بالذات أقصد "**مودكول**"، وأستطيع أن أغامر وأتخيل أن حاكمها لديه ١٢ مدفعا لتحيته. ومع ذلك لا أستطيع أن أتصور أنه كان من الممكن أن توجد الهند البريطانية حيث يسود العقل والنظام في كل اتجاه كفيضان.

كان الرجل العجوز قد انطلق في الحديث بسلاسة، وأراد أن يدعم رأي الآنسة "**كويستد**" بأن الناس الكبار لا أهمية لهم. لأنه هو نفسه أكبر من العديد من الرؤساء المعتمدين، وفي نفس الوقت لا يجب عليه أن يذكرها أو يخبرها بأنه كبير ما لم تحسّ بأنها ارتكبت عملا غير لائق. لقد كانت هذه أرضية خطبته العصماء وزاد من نجاحها حمده وشكره للآنسة "**ديريك**" من أجل التوصيلة واستعداده، لأن يمسك كلبا مقززا بين ذراعيه، وأسفه العام للمتاعب التي تسبب فيها للجنس البشري أثناء المساء. هو أيضا أراد أن ينزلوه بالقرب من المدينة ليضع يده على كناس منطقته، ويعالج الفوضى التي سببها حارسه الشخصي. وبما أنه نسج كل هذه المتاعب المقلقة في ثوب واحد، شكّ في أن مستمعيه لم يحسوا بأي اهتمام، وأن حاكم المدينة كان يلاطف الفتاتين العذارى من وراء غطاء الأرغن ولكن حُسن الأدب أجبره أن يستمر. لم يهمه إن كانوا قد أحسوا بالملل، لأنه هو نفسه لم يكن يعرف ما هو الملل، ولم يكن الأمر بالنسبة له ذا بال إن كانوا متحررين فاسقين؛ لأن الله خلق كل الأجناس ليكونوا مختلفين. لقد انتهى الحادث وحياته نافعة ومميزة وسعيدة تسير كما كانت من قبل، وتعبر عن نفسها في تدفق من الكلمات أحسن اختيارها.

عندما تركهم هذا العجوز لم يعلق "**روني**" وإنما تكلم بمرح عن البولو. لقد علمه "**تورتون**" أنه أصح وأعقل ألا يتحدث عن الرجل في الحال. امتنع عما كان يود أن يقوله عن "**نواب بهادور**" وأخلاقه إلى وقت آخر من المساء. لمست يده – التي كان يحركها ليقول وداعا – يد "**عديلة**" مرة ثانية. وضغطتها دون شك وردّ عليها بالمثل ولا شك أن ضغطهما القوي والثابت كان يعني شيئا.

نظر كل منهما للآخر عندما وصلا إلى البنجالو لأن السيدة "**مور**" كانت بداخله وكان على الآنسة "**كويستد**" أن تتكلم وقالت في عصبية:

– يـا "**رونـي**"! لابد أن أسحب كل ما قلته في الميدان. وافقها وبناء عليه أصبحا مخطوبين للزواج. لم يتوقع أي منهما هذه العاقبة. لقد أرادت أن ترتد إلى شرطها السابق حول عدم التأكد المهم والمثقف، ولكن ذلك فاتها في هذه الساعة الخاصة لم تكن عواطفها مثل الطائر المجهول أو الحيوان ذي الشعر، وإنما واضحة ومعروفة. أحست بالمهانة مرة ثانية لأنها تكره الشعارات المعلنة، وأحست أيضا أنه لابد سيحدث مشهد آخر بين حبيبها وبينها عند هذه النقطة.. شيء درامي وأسطوري. كان مسرورا بدلا من الإحباط وقد فوجئ، واندهش ولكن لم يكن لديه فعلا ما يقوله.. ولكن حقا ماذا هناك يمكن أن يقال؟ أن يتزوجا أو لا يتزوَّجا.. هذا هو السؤال الذي قرراه في تصميم وبالإيجاب.

– تعالي ودعينا ننقل كل هذا لأمي.

فتح الباب الزنك الذي يحمي البنجالو من الدبابير والحشرات الطائرة. أيقظت الضجة الأم. لقد كانت تحلم بطفليها الغائبين اللذين نادرا ما كانت تذكرهما "**رالـف**" و"**ستيلا**". ولم تفهم في البداية ما هو المطلوب منها. لقد تعودّت هي أيضا على التسويف في التفكير، وأحسّت بالقلق عندما انتهت من تفكيرها. عندما انتهى الإعلان قال تعليقا حلوا وصادقا:

– انظرا هنا أنتما الاثنتان! شاهدا الهند إذا أحببتما، وكما تحبّان، ولكن... الأمر مختلف الآن.. لم أكن واثقا بنفسي!

قالت السيدة "**مـور**" في نفسها: إن واجباتها هنا انتهت، ولا تريد أن تشاهد الهند الآن وإنما تفكر في رحلة العودة. ذكّرت نفسها بكل ما يعنيه الزواج السعيد وزيجاتها السعيدة، وإحداها أنتجت "**رونـي**". ووالدا "**عـديلة**" أيضا زوجان سعيدان وكان من الممتاز أن ترى أن الأحداث يعيدها الجيل الشاب. أحسّت بألم في قدميها عندما تذكّرت الكلية الحكومية... لقد سار السيد "**فـيلدنج**" بسرعة شديدة ولمسافة طويلة. لقد ضايقها الشابان في عربة "التام تام" وأوحيا بأنهما سيقطعان علاقتهما ببعضهما. ومع ذلك فالأمر لا بأس به الآن، وهو يتحدث عن رباط الزوجية، لقد استقر "**رونـي**" الآن. وعليها أن تعود إلى الوطن وتساعد الآخرين إذا رغبا في ذلك. إنها حالة من الزواج السابق وحتى إن كانت غير سعيدة فإن مهمتها هي أن تساعد الآخرين، وجائزتها أن يقال لها: إنها متعاطفة ولطيفة، والنساء العجائز لا يجب أن يتوقعن أكثر من ذلك.

تناولا العشاء معا وجرى حديث أكثر ملاءمة وعاطفة حول المستقبل، وبعد ذلك تحدّثا حول الأحداث العابرة وراجع "**روني**" الحساب من وجهة نظره.

كان يعمل بينما السيدتان تستمتعان. لقد اقترب شهر محرم.-بداية السنة الهجرية- وكالعادة كان مسلمو "**كاندرابور**" يقيمون أبراجا ورقية بأحجام ضخمة ليضعوها تحت أغصان بعض أشجار معينة. وكان المرء يعرف ماذا سيحدث بعد ذلك. عندما يلصق البرج يصعد أحد المسلمين الشجرة ويقطع الفرع المعلق عليه البرج. ويحتج الهندوس، ويحدث اضطراب وشغب ديني وقد ترسل فرق

الشرطة. ثم تحدث مفاوضات وإرسال مندوبين، ولجان مصالحات، تحت رعاية "**تورتون**" وتتوقف كل أعمال "**كاندرابور**" العادية. هل العملية تأخذ طريقا آخر أو تصبح الأبراج أقصر؟ قدم المسلمون الاقتراح الأول والهندوس الاقتراح الثاني، وقد فضل المحصل رأي الهندوس. إلى أن شك في أنهم أحنوا الشجرة لتقترب من الأرض. وقالوا إنها انحنت بفعل الطبيعة. فقامت عمليات القياس والخطط وزيارة رسمية. ولكن "**روني**" كان يكره هذا اليوم لأنه يثبت أن البريطانيين لازمون للهند. وكان من المؤكد أن تحدث حمامات دم بدونهم. صار صوته راضيا ولطيفا، مرة ثانية. إنه ليس هنا من أجل أن يكون لطيفا، وإنما ليحقق السلام والآن و"**عديلة**" وعدت بأن تصبح زوجته فلاشك في أنها واثقة بأنها ستفهم. سألته بلهجة غير مكترثة وهو ما كان يريده بالضبط:

– ماذا يمكن أن يظنه رجلنا العجوز صاحب السيارة؟

– رجلنا العجوز يميل للمساعدة وهو عاقل كما هو دائما في الشؤون العامة. لقد شاهدت فيه رجل الاستعراض الهندي.

– هل فعلا رأيت ذلك؟

– أخشى هذا. غير معقول أليسوا كذلك؟ حتى أحسنهم!

– إنهم جميعا ينسون زر ياقة قمصانهم الخلفية. إن عاجلا أو آجلا. فإنك ستتعاملين مع ثلاثة أنواع من الهنود: "**بهاتا شاريا**" و"**عزيز**" وهذا العجوز. وليس من محض المصادفة حقا أن الجميع اختلوا بك.

تدخلت السيدة "**مور**":

– أنا معجبة بـ"**عزيز**".. إن "**عزيز**" صديق حقا.

– عندما اصطدم الحيوان بنا فقد "**نواب**" عقله وهجر سائقه التّعس وتطفل على الآنسة "**ديريك**".. إنها ليست جرائم كبرى.. ولكن لا يمكن أن يرتكبها رجل أبيض.

– أي حيوان؟

– لقد حدث لنا حادث بسيط على طريق "**ماربار**" وظنّت "**عديلة**" أنه ابن آوى.

صرخت:

– حادث؟

– لا شيء.. لم يصب أحد. وقد استيقظ مضيفنا وهو يتخبط من أحلامه، وظن أنها غلطتنا، وأخذ يردد بالضبط بالضبط!

ارتجفت السيدة "**مور**" وصاحت: شبح!

ولكن الكلمة لم تعبر شفتيها، ولم ينتبه لها الشابان لانشغالهما بوجهات نظرهما الخاصة. فقال "**روني**":

– نعم لا شيء جنائيّ، ولكن هناك ذلك الوطني الذي لا يوجد أيّ سبب يجعلنا نمنعه من السماح له بدخول أنديتنا. وكيف أن فتاة لطيفة مثل الآنسة "**ديريك**" تحصل على خدمات تحت أعين الوطنيين وهذا يحيرني.. ولكن لابد أن أستمرّ في عملي!

و"**كريشنا**" هو العامل الفقير الذي من المفروض أن يحضر الملفات من مكتبه. وهو لم يعد بعد وأثار شجارا.

صاح "**روني**" بشكل عاصف، والملاحظ الخبير فقط يمكن أن يعرف أنه ليس غاضبا وأنه لم يكن يرغب كثيرا في الملفات وأنه أثار الشجار فقط لأن هذا هو المعتاد. والخدم الذين كانوا يفهمون ذلك جيدا جروا ببطء في دوائر وهم يحملون مصابيح العواصف إلى أن هدأ الرجل الإنجليزي وغرّم الرسول الفقير ثمانية "أنّا" وهو ما يساوي نصف روبية والذي جلس على مقعدته في الحجرة المجاورة.

خرج "**روني**" من أفكاره تلك وقال:

– هل ستتذرعين بالصبر مع حماتك المستقبلية يا عزيزتي "**عديلة**" أم هي تبدو وديعة؟

– كنت أودّ ذلك، ولكن لا أشعر بالإثارة وأنا فقط سعيدة أنها استقرت أخيرا، ولكن غير مدركة بهذه التغييرات الكبرى فنحن لازلنا نفس الأشخاص الثلاثة.

– هذه هي أفضل مشاعر يمكن الحصول عليها.

قالت "**عديلة**" وهي ساهمة تفكر:

– أعتقد ذلك.

– لقد خشيت وأنا في مدرسة السيد "**فيلدنج**" أن الأمر قد يستقر على وضع معاكس.

قالت "**عديلة**" فورا لـ"**روني**":

– لقد سمعتني أخبر "**عزيزا**" و"**جودبول**" بأني لن أقيم في بلدهم. لم أكن أقصد ذلك، لماذا قلت ذلك؟ لقد شعرت بأني لم أكن صريحة ولا مهتمة بالقدر الكافي أو ما شابه ذلك. لقد كان الأمر وكأنني أرى كل شيء أكبر من حجمه. لقد كنت لطيفا جدا معي، وقد كنت أقصد أن أكون طيبة عندما أبحرت من بلدي، ولكن بطريقة ما لم أكن طيبة.. يا سيدة "**مور**" إذا لم يكن الإنسان صادقا للغاية فما فائدة وجوده؟

استمرت في وضع أوراق لعبها. لقد كانت الكلمات غامضة ولكنها أحست عدم الارتياح الذي تسببت فيه تلك الكلمات. لقد مرّت بذلك هي نفسها مرتين خلال ارتباطاتها من شك وندم. كل شيء حدث صحيحا بعد ذلك وأصبح غير مشكوك فيه هذه المرة. قالت السيدة "**مور**":

– الزواج يجعل معظم الأشياء صحيحة بالقدر الكافي.

– لا... لو كنت في مكانك لما قلقت.. إنه جزء من الأشياء الغريبة المحيطة بنا. وأنا وأنت نحاول أن نتعامل مع الأشياء التّافهة بدلا من المهمة. نحن كما يقول الناس عنا "جدد".

– أتعنين أن إخوتي مختلطو الفكر عن الهند؟

– الهند!

– ما الذي يجعلك تسمينه شبحا؟

– ما الذي سميته شبحا؟

– إن ما صدمنا هو حيوان .. ألم تقولي: أوه... شبح! كان يمرّ؟

- لابد أنني لم أكن أفكر فيما أقوله.
- في الحقيقة من المحتمل أن يكون ضبعا.
- آه هذا أقرب إلى الحقيقة.

هناك في طرف "**كاندرابور**" انتظر "**نواب بهادور**" سيارته، جلس بجوار بيته في المدينة، وهو مبنى غير مفروش وصغير، نادرا ما كان يدخله. كانت العمامات وكأنها الإنتاج الوحيد وسط الظلام، فقد تظهر عمامة جديدة من حين لآخر من الخلف للأمام، وتحني نفسها أمامه ثم تنسحب. كان مشغول الذهن. كان موضوع انشغاله دينيا. قبل الآن بتسع سنوات عندما حصل لأول مرة على سيارة قادها وصدم بها رجلا سكيرا وقتله ومن وقتها والرجل لايزال ينتظره. لقد كان "**نواب**" بريئا أمام الله والقانون، وقد دفع ضعف التعويض اللازم، ولكن بلا جدوى لأن الرجل ظل ينتظره بلا كلام بالقرب من مسرح موته. لم يكن يعرف أحد من الإنجليز ذلك ولا السّائق أيضا. لقد كان سرا عرفيا يتصل بالدم أكثر من الكلام. والآن هو يتكلم في رعب عن ظروف خاصة. لقد قاد الآخرين إلى الخطر.. لقد خاطر بأرواح اثنين بريئين من الضيوف المبجلين. أخذ يكرر ماذا يهم لو أنه قتل؟ لابد أن يحدث ذلك في وقت ما ولكن ماذا عن هؤلاء الذين وثقوا به؟

لقد ارتجفت الصحبة من أصدقائه، وطلبوا الرحمة من الله. ولكن "**عزيز**" فقط ظل متحفظا بمنأى عنهم، لأن تجربة خاصة منعته! هل الأمر باحتقاره الأشباح استطاعت أن تعرفه السيدة "**مور**". همس لحفيد "**نواب**" وهو شاب محترم نادرا ما يقابله ولكنه معجب به:

- هل تعلم يا "**نور الدين**"... أنت تعرف يا صاحبي العزيز.. نحن المسلمين ببساطة لابد أن نتخلص من هذه الخرافات، وإلا لما تقدمت الهند.. إلى متى سأسمع عن الخنزير البري على طريق "**ماربار**"؟

خفض "**نور الدين**" بصره واستمر "**عزيز**":

- إن جدّك ينتمي إلى جيل آخر، وأنا أحترم وأحب الرجل العجوز المحترم كما تعرف. ولا أقول شيئا ضده. فقط إنه خطأ بالنسبة لنا لأنك شاب. أريدك أن تعدني.. يا "**نور الدين**" هل تنصت لي؟ ألا تؤمن بالأرواح الشريرة وإذا مت، لأن صحتي تضعف أن أجعل أبنائي الثلاثة لا يؤمنون بها كذلك.

ابتسم "**نور الدين**" وصعد رد مناسب على شفتيه، ولكن قبل أن ينطقه وصلت السيارة وصحبه جده معه.

انتهت لعبة الورق المسمّاة "الصبر" حيث استمرت السيدة "**مور**" تردّد: "عشرة أحمر على ولد أسود" عرضت الآنسة "**كويستد**" أن تعاونها وأن تدخل وسط تعقيدات اللعبة تفاصيل عن الضبع، والخطوبة، و"**مهرانا مودكول**،"، وعائلة "**بهاتا شاريا**" وعن اليوم بصفة عامة. حاليا ذهب اللاعبون إلى الفراش، ولكن ليس قبل أن يستيقظ أناس آخرون في أماكن ما... أشخاص لا يستطيعون مشاركتهم عواطفهم، ووجودهم يتجاهله هؤلاء النائمون. والليل الذي لم يكن أبدا هادئا ولا مظلما تماما ذهب مختلفا عن بقية الليالي الأخرى بهبّات قليلة من الرياح، والتي بدت وكأنها تهبط

عموديا من السماء ثم ترتدّ ثانية إليها بقوة وتركيز غير تاركة أي انتعاش خلفها. لقد اقترب موعد الجوّ الساخن.

الفصل التاسع

رقد "**عزيز**" مريضا كما سبق أن توقّع.. كان مرضه خفيفا كان قد رقد بعد ثلاثة أيام في البنجالو الخاص به وهو يدّعي أنه شديد المرض. لقد كان مسًّا من الحمى، وكان من الممكن ألا يهتمّ بها لو كان عنده شيء مهمّ بالمستشفى. كان يتأوّه من حين لآخر وظن أنه لابد ميت، ولكنه لم يفكر في ذلك طويلا، وأي شيء بسيط كان من الممكن أن يشتّت انتباهه. كان ذلك يوم أحد، وهو دائما يوم غير محدد في الشرق وعذر للتهرب. كان يمكنه أن يسمع أجراس الكنيسة وهو نعسان من كل من المحطة المدنية ومقار البعثات التبشيرية هناك خلف المجازر... مختلف النواقيس والدّقات بمقاصد مختلفة، لأن مجموعة كانت تنادي بعزم للأنجلو هنود، والأخرى تنادي بضعف على الإنسانية جمعاء. لم يكن يعترض على المجموعة الأولى وتجاهل الثانية، وهو يعلم عدم تأثير نفوذها. لقد بشّر الأخ العجوز "**جريز فورد**" والأخ الشاب "**سورلي**" أثناء المجاعة لأنهما كانا يوزعان الطعام ولكن عندما تحسنت الأحوال تركوا في حالهم مرة ثانية طبعا. ورغم أنهما كانا يدهشان ويحزنان في كل مرة يحدث فيها ذلك إلا أنهما لم يتعلما. قال في نفسه لا أحد من الإنجليز يفهمنا سوى السيد "**فيلدنج**" فقط ولكن كيف يمكنني أن أقابله مرة ثانية؟ إذا دخل هذه الحجرة فإن سوء حالتها سيصيبني بالعار لدرجة الموت.

نادى على "**حسن**" أن يظهر. ولكن "**حسن**" كان يختبر أجره المعدني بإلقائه على عتبة الشرفة وقد عرف "**عزيز**" أنه ليس من المستحيل ألا يسمعه وسواء سمعه أم لا أو أن "**عزيز**" ينادي أو لا ينادي فلن يرد عليه. قال في نفسه: هذه هي الهند على بعضها.. كيف نحن.. ها نحن هكذا! استغرق في النوم ثانية وتجولت أفكاره على سطح الحياة بالتدريج استقرت أفكاره على نقطة محددة: الحفرة التي لا قرار لها حسب المبشرين ولكنه لم يعتبرها أبدا سوى غمازة لناعمة الخد. نعم إنه يريد أن يقضي أمسية مع بعض البنات يغنون، وكل ذلك وتلك الحلاوة الغامضة التي تصل قمتها في الشهوانية. ثم هذا هو ما يرغبه فعلا. ولكن كيف يمكن أن يرتب ذلك؟ لو كان الميجور "**كاليندار**" هنديا لتذكر من هم الشباب ولمنحه إجازة يومين أو ثلاثة إلى "**كلكتا**" دون أسئلة. ولكن الميجور كان يفترض أن مرؤوسيه مصنوعين من الثلج، أو أنهم يذهبون إلى أسواق "**كاندرابور**" وكلا الفكرتين مقزّزة. فقط السيد "**فيلدنج**" هو..

- **حسن!**

جاء الخادم عدوا. أشار "**عزيز**" إلى الكتلة المعلّقة من السقف:

- انظر إلى هذه المجموعة من الذباب أيها الأخ.

كانت نواة الكتلة عبارة عن سلك كهربائي. وكأن مصباح الكهرباء ليس مهمّا وإنما كانت هناك

مستعمرة من الذباب بدلا منه وقد اسودّ جسم المصباح بأجسادها.

– مرحى.. هذا ذباب!

– حسنا.. حسنا.. إنه ممتاز ولكن لماذا ناديت عليك؟

قال "**حسن**" بعد تفكير مؤلم:

– لأطرده بعيدا!

– إذا طردته إلى أي مكان فإنه يعود. يجب أن تقوم ببعض الترتيبات ضد الذباب. لهذا السبب أنت خادمي كان على "**حسن**" أن ينادي على الصبي الصغير ليحضر سلما من بيت "**محمود علي**". وعليه أن يأمر الطاهية أن تشعل الوابور البريموس وتسخن الماء. وعليه بنفسه أن يصعد السلم وبين ذراعيه دلو ويغرق المصباح في الماء.

– **حسن**ا ما الذي تنوي أن تفعله؟

– أقتل الذباب.

– **حسن**ا.. افعل ذلك.

انسحب "**حسن**" والفكرة استقرّت في رأسه وبدأ يبحث عن الولد الصغير. ولما لم يجده صارت خطواته أبطأ، وعاد متسللا إلى موقعه فوق الشرفة، ولكنه لم يستمر في اختبار روبياته حتى لا يسمع سيّده رنينها، ظل "**عزيز**" يفكر في النساء الجميلات. كان عقله في هذا مباشرا وشديدا، وإن لم يكن متوحّشا. لقد تعلم كل ما يحتاجه فيما يتعلق بدستوره الخاص من عدة سنوات مضت بفضل النظام الاجتماعي الذي ولد فيه، وعندما ذهب ليدرس الطبّ نفر من الحذلقة والجلبة التي يتعامل بها الأوروبيون مع حقائق الجنس. يبدو أن العلم يدرس كل شيء من الطرف الخطأ. إنه لم يفسر تجاربه عندما وجدها في كتاب ألماني، لأنها وهي موجودة في الكتاب لم تكن تجاربه هو الفعلية. إن ما أخبره به والده ووالدته، أو التقطه من الخدم، كان معلومات عن النوع الذي اعتبره مفيدا. وتناقله مع الآخرين عندما تتاح الفرصة. كان لا يجب أن يجلب العار على أطفاله بارتكابه بعض الحماقات. تصور أنه لو وقع في ذلك لأصبح غير جدير بالاحترام. ويجب أيضا أن يضع مهنته موضع الاعتبار، وماذا يمكن أن يظنه ميجور "**كاليندار**" لقد كانت قناعاته اجتماعية. لا ضرر في أن يخدع المجتمع مادام المجتمع لن يكتشف ذلك، لأن المجتمع إذا اكتشف أنك أسأت إليه فإنه ليس كصديق يصاب بالجرح فقط لمجرد عدم الوفاء. وقد فكر بوضوح تام حول ذلك وفي نوع الكذبة التي يستخدمها ليرحل إلى "**كلكتا**". وفكر في الرجل الموجود هناك ليرسل إليه برقية، أو رسالة يمكن أن يظهره للميجور "**كاليندار**" سمع صوت إطارات في مجمعه السكني. نادى أحدهم مستعلما. كانت فكرة أن يتعاطف أحد معه قد زادت من الحمّى ولفّ نفسه في لحافه وهو يطلق أنينا صادقا. سمع صوت "**حميد الله**":

– "**عزيز**" صديقي العزيز! لقد قلقنا غاية القلق.

خبطة وخبطتان وثلاث وأربع خبطات على السرير حيث جلس الناس على سريره. قال صوت السيد "**سيد محمود**" مساعد المهندس:

- عندما يرقد الطبيب مريضا فإنه أمر جلل.

قال صوت السيد "**حق**" مفتش الشرطة:

- وعندما يرقد مساعد المهندس مريضا فإنه أمر جلل أيضا.

- نعم نحن جميعا مهمون جدا ومرتباتنا تثبت ذلك.

تدخّل ابن أخ مساعد المهندس "**رافي**":

- لقد تناول الدكتور "**عزيز**" الشاي مع الناظر يوم الخميس الماضي بعد الظهر. والأستاذ "**جودبول**" الذي حضر أيضا مرض هو الآخر وهو أمر يبدو خطيرا؟

زحفت نيران الشكّ في صدر كل رجل. صاح "**حميد الله**" بشكل سَلْطَوي فاسكتهم:

- همهمة فارغة!

ردّد الجميع العبارة وهم يشعرون بالخجل من أنفسهم، إن التلميذ الماكر اللئيم وقد فشل في إثارة فضيحة فقد ثقته بنفسه ونهض وظهره للجدار. سأل "**عزيز**":

- هل الأستاذ "**جودبول**" مريض؟ أنا جدُّ آسف!

برز وجهه الصادق النابه والمتعاطف من بين طيَّات لحافه الأرجواني وقال:

- كيف حالك يا سيد "**سيد محمود**" ويا سيد "**حق**"؟ كم هو لطيف منكما أن تسألا عن صحّتي؟ كيف حالك يا سيد "**حميد الله**"؟ ولكنك نقلت لي أخبارا سيئة: ما الذي حدث له ذلك الصاحب الممتاز؟

قال "**حميد الله**":

- لماذا لا تَردُّ يا "**رافي**"؟ أنت السُّلطَة الكبرى!

نعم "**رافي**" رجل كبير. إنه "**شرلوك هولمز**" في "**كاندرابور**". هيا أفصح يا "**رافي**"!

نطق التلميذ في صوت منخفض "إسهال"، ولكنه تشجع بعد ذلك لأن ذلك حسن من وضعه. اشتعلت نيران الشكّ مرة ثانية في صدور من هم أكبر منه. رغم أن ذلك كان في اتجاه مغاير.. هل يمكن أن يسمي هذه الحالة المتقدمة من الإسهال.. كوليرا؟ صاح "**عزيز**":

- هل الأمر كذلك؟ إنها حالة خطيرة. إننا بالكاد لم ننته بعد من شهر مارس. لماذا لم يخطروني؟

- إن الدكتور "**بانالال**" يعالجه يا سيدي.

- أوه.. نعم كلاهما هندوكي.. لقد تعلّق كل منهما بالآخر مثل الذباب وأبقوا الأمر مُعْتما. تعال هنا يا "**رافي**" واجلس وأخبرني بكل التفاصيل. هل هناك قَيْء؟

- أوه نعم يا سيدي فعلا وهناك آلام شديدة.

- هذا يوضح الأمر.. خلال أربع وعشرين ساعة سيموت.

بدا كل الموجودين مصدومين ولكن الأستاذ "**جودبول**" قد أضاع مكانته بالارتباط بأحد أتباع الدين. لم يؤثر فيهم بالقدر اللازم عندما بدا يعاني من المرض. ولم يمض وقت طويل إلا واتهموه بأنه مصدر للعدوى. قال السيد "**حق**":

- كل الأمراض تأتي من الهندوس.

كان السيد "**سيد محمود**" قد زار معارض دينية في "**الله أباد**" و"**أوجان**" ووصفها بكل احتقار. وفي "**الله أباد**" كان هناك ماء متدفّق يحمل كل النجاسة بعيدا، بينما في "**أوجان**" فإن النهر الصغير "**سيبرا**" كانت ضفافة مملوءة بنفايات المستحمين وجراثيمهم تملأ البركة. وكان يتكلم بقرف عن الشمس الحامية وروث البقر، وزهور عباد الشمس ،وخيام الصدوقيين الذين يسير بعضهم الهويني عاريا وسط الشوارع. وسألوه عن اسم الوثن الرئيسي في "**أوجان**" أجاب: إنه لا يمكن أن يضيع وقته الثمين على مثل تلك التفاهات واحتقر أن يسأل. أخذ انفجار غضبه بعض الوقت ووسط حماسه. انطلق يتحدث بالبنغالية حيث أتى من تلك البلاد. وأصبح كلامه غير مفهوم.

كان "**عزيز**" يحب أن يسمع دينه وهو يمتدح، كان يلطف من سطح ذهنه ويلهم بصور جميلة يمكن أن تتكون تحت ذلك السطح. عندما انتهت خطبة المهندس الطويلة قال: هذه بالضبط وجهة نظري الخاصة.

رفع يده وكفه للخارج، وبدأت عيناه تلمعان، وقلبه يمتلئ حنانا وبرز أكثر من بين لحافه، ورتّل بعض أبيات من شعر "**غـالب**" لم تكن لها أي صلة بأي شيء حدث من قبل، ولكنها أتت من القلب، وتحدث إلى قلوبهم. لقد طغى عليهم شعور بالشفقة والرثاء. ووافقوه وهذا أعلى درجة من الفن، أن يلمس الشعر المستمع بإحساس يضعفه هو، وأن ينشئ نوعا من المقارنة بين الإنسانية والزهور. ساد الهدوء الغرفة الحقيرة، وتوقفت المؤامرات الساذجة والإشاعات، وعدم الرضا الضحل. بينما الكلمات التي قيلت كشيء لا يموت ملأت الجو. لم يكن ذلك كنداء للمعركة، وإنما ثقة هادئة بأن الهند وحدة واحدة، هي الإسلام الذي كان دائما من المؤكد أنه سيبقى.. إلى أن نظروا خارج الباب. ومهما يكن ما أحسّ به "**غـالب**" فإنه على أية حال عاش في الهند، وهذا دعّم الأمر معهم. لقد ذهب ومعه زهوره التوليب وورود، ولكن زهور التوليب والورود لم تذهب، والممالك الشقيقة في شمال: الجزيرة العربية والفرس وفرغانا وتركستان قد امتدت أمام أيديهم وهم يغنون في حزن، لأن كل الجمال حزين وحيوًا "**كاندرابول**" المثيرة للضحك والاستغراب حيث كل شارع وبيت مقسم ضد نفسه. قالوا عنها: إنها قارة موحدة.

من بين الصحاب كان "**حميد الله**" فقط هو الذي يفهم الشعر. وكانت عقول الآخرين متدنية وخشنة. ومع ذلك أنصتوا بسرور لأن الأدب لم يكن قد انفصل عن الحضارة. ومفتش الشرطة مثلا لم يشعر بأن "**عزيز**" قد حقّر من نفسه عندما قرأ الشعر. وإنما جلس فقط وعقله خاو وعندما كانت أفكاره الضئيلة تعود وتزدهر في رأسه كان يشعر بانتعاش لذيذ. لم يفد الشعر أي واحد، وإنما كان مجرد تذكرة عابرة. نفحة من شفاه الجمال الرباني. وعندليب مغرد بين عالمين من التراب.

انطلق "**عـزيز**" يفكر في النساء ثانية، ولكن بطريقة مختلفة أقل تحديدا وأكثر شمولا وعمقا. أحيانا ما يكون للشعر هذا التأثير عليه، وأحيانا يزيد فقط من رغباته المحلية وهو لم يعرف أبدا أي رغبة يمكن أن يحققها.. إنه لا يستطيع أن يكتشف أي قاعدة لهذا ولا لأي شيء في العالم.

زاره "**حميد الله**" في طريقه إلى لجنة من المشاهير تثير القلق وهم لهم ميول وطنية حيث هنود

ومسلمون، واثنان من السيخ، واثنان من البارسي، واحد البانيين ومسيحي وطني، يحاولون أن يحب كل واحد منهم الآخر أكثر مما يحدث طبيعيا بينهم. وطالما أساء أحدهم إلى الإنجليز فإنهم جميعا يتحدون، ولكن لا شيء بناء يفعلونه. وإذا ما كان على الإنجليزي أن يرحل إلى بلده، فإن اللجنة تختفي أيضا. كان "**حميد الله**" سعيدا لأن "**عزيز**" الذي يحبه وأسرته متصلة بأسرته لأنه لم يكن يهتم بالسياسة التي تفسد الأخلاق والمهنة. فكر في "**كمبردج**" وفي حزن كقطعة شعر أخرى انتهت. كم كان سعيدا وهو هناك من عشرين سنة! لم تكن السياسة تهم السيد والسيدة "**بانيستر**" في بيتهما. هناك الألعاب والعمل والمجتمع اللطيف شكل نسيجا متكاملا، وبدا هيكلا كافيا للحياة الوطنية.. وهنا كل شيء مشدود ومخيف. وهو حتى لا يستطيع أن يثق بالسيدين "**سيد محمود**" و"**الحق**" رغم أنهما أتيا في عربته والتلميذ كان عبقريا. مال لأسفل وقال:

- "**عزيز**".. "**عزيز**"... يا ولدي العزيز لابد أن نذهب فقد تأخرنا بالفعل. هيا استردّ صحتك بسرعة لأنني لست أعرف ماذا يمكن أن تفعل دائرتنا الصغيرة بدونك.

ردّ عليه "**عزيز**":

- لن أنسى أبدا كلماتك العاطفية المؤثرة هذه .

قال المهندس:

- أضف إليها كلماتي.

- شكرا لك يا سيد "**سيد محمود**" سأفعل.

وصاح الآخرون مدفوعين كل حسب قدرته الطيبة:

- وكلماتي أيضا يا سيدي.

استمرت الصحبة في الجلوس على السرير.. يَمصُّون القَصَب الذي جرى "**حسن**" وأحضره من السوق، وشرب "**عزيز**" كوبا من اللبن بالتوابل. سمعوا صوت عربة أخرى لقد وصل الدكتور "**بانالال**" يقود السيارة السيد "**رام شاند**" الرهيب... عاد جوُّ حجرة المريض إلى حالته السابقة بسرعة، وعاد المريض إلى تحت اللحاف ثانية. قال الطبيب الهندوكي بعصبية بسبب الوكر القذر المليء بالعصابة والذي دفعه إليه فضوله:

- أرجو أن تعذروني أيها السادة.. لقد حضرت للسؤال بناء على أوامر الميجور "**كاليندار**".

قال "**حميد الله**" وهو يشير إلى الشكل الذليل:

- ها هو يكذب.

- يا دكتور "**عزيز**".. يا دكتور "**عزيز**".. لقد أتيت للسؤال.

قدم "**عزيز**" وجها خاليا من التعبير أمام الترمومتر.

- يدك من فضلك!

أمسك بيد "**عزيز**" وتطلع إلى السقف الذي علاه الذباب ثم أعلن:

- بعض الحرارة.

قال "**رام شاند**" وهو يرغب في خلق المتاعب:

- أعتقد أنها ليست حرارة كبيرة.

قرّر الدكتور "**بانالال**" وهو يهزّ الترمومتر حتى يصبح ارتفاع الحرارة مجهولا:

- بعض الحرارة ويجب أن يظلّ في السرير.

كان نافرا من زميله الشاب منذ كارثة "**دابل**" ودّ لو استطاع أن يفعل به مقلبا ويبلغ عنه الميجور "**كاليندار**" أنه كان يخدعه رغم أن الميجور "**كاليندار**" كان يظن الأسوأ عن الوطنيين ولم يصدقهم أبدا عندما يحملون إليه روايات كل حول الآخر. رأى أن التعاطف هو أسلم طريقة. سأله:

- كيف حال المعدة؟ وكيف حال الرأس؟

وعندما لمح كوب اللبن الفارغ أمر بلبن خالي الدّسم. قال "**حميد الله**" وهو يربت عليه قليلا:

- لقد كان هذا ارتياحا شديدا لنا.. لقد كان جيدا منك أن زرت صاحبك الدكتور.

- هذا فقط واجبي.

- نحن نعلم مدى انشغالك.

- نعم هذا صحيح.

- كم حالات المرض في المدينة؟

شكّ الدكتور في أن هناك فخّا في هذه الملحوظة. إذا اعترف بأن هناك مرضى أو لا ففي كلتا الحالتين قد يستخدم ذلك ضدّه... أجاب:

- هناك دائما مرضى. وأنا دائما مشغول.. هذه طبيعة الطبيب.

قال "**رام شاند**":

- ليس أمامه دقيقة واحدة وهو مطلوب بشدة في كلية الحكومة.

- ربما تكون تعالج الأستاذ "**جودبول**"؟

بدا الدكتور محترفا وبقي صامتا:

- نأمل أن إسهاله قد توقف.

- إنه يتقدم في الشفاء ولكن ليس من الإسهال.

- نحن قلقون عليه جدا هو والدكتور "**عـزيز**" لأنهما صديقان عظيمان. لو أمكن وأخبرتنا باسم شكواه سنكون ممتنّين.

بعد فترة صمت حذرة قال:

- البواسير!

صاح "**عزيز**" وهو غير قادر على كبح جماح نفسه:

- وهذا مختلف تماما عن الكوليرا التي قلت عنها يا "**رافي**".

صاح الطبيب وهو مرتبك وحائر جدا.

- كوليرا.. كوليرا... وماذا بعد.. ماذا الآن؟ من ينشر مثل هذه التقارير غير الصحيحة حول مرضاي؟

أشار "**حميد الله**" إلى المذنب:

- لقد سمعت الكوليرا وسمعت وباء الطاعون الدُّملي أو الأُرْبي وأعرف كل أنواع الأكاذيب.. إلى أين سينتهي ذلك.. أنا أسأل نفسي عن ذلك أحيانا. هذه المدينة مليئة بالإفادات الكاذبة والرواة أنفسهم لابد من كشفهم ومعاقبتهم بقوة.

- هل تسمع هذا يا "**رافي**"؟ لماذا تزعجنا بكل هذا الهراء؟

همهم التلميذ إن تلميذا آخر أخبره، وأن النَّحوَ الإنجليزي السيئ الذي تجبرهم الحكومة على استخدامه يعطي دائما المعنى الخطأ للكلمات وتقود الباحثين إلى الأخطاء.

قال "**رام شاند**":

- هذا ليس بسبب لأن تلقي بالتهمة ضد الدكتور.

وافقه "**حميد الله**" وهو متلهّف على تجنّب أي شيء غير سار. انتشر الشجار بسرعة. ونظر كل من السيدين "**سيد محمود**" و"**الحق**" كل للآخر وهما مستعدان للطيران خارج الحجرة.

- لابد أن تعتذر بطريقة صحيحة يا "**رافي**" وأرى أن عمّك يريد ذلك. أنت لم تقل بعد إنك آسف على المتاعب التي سببتها لهذا الرجل المحترم بإهمالك.

قال الدكتور "**بانالال**" وقد هدأ:

- إنه مجرد صبيّ.

قال "**رام شاند**" حتى الأولاد يجب أن يتعلموا.

قال السيد "**سيد محمود**" فجاة:

- ابنك فشل في اجتياز أقل مستوى على ما أظنّ؟

- أوه حقا؟ أوه نعم... ربما. إنه لم يكن ميزة لقريب في "صحافة الطباعة المزدهرة".

- ولا أنت كنت ميزة لهم بتولّيك قضاياهم في المحاكم. ارتفعت أصواتهما.. وهاجم كل منهما الآخر مع تلميحات غامضة ووقع شجار سخيف. حاول "**حميد الله**" والدكتور أن يهدئا ما بينهما ووسط الحجرة قال أحدهم:

- أقول! هل هو مريض أم غير مريض؟

لقد دخل السيد "**فيلدنغ**" الوكر دون أن يلحظه أحد، نهض الجميع على أقدامهم، وقام "**حسن**" تكريما للرجل الإنجليزي يضرب مصباح الذباب بعود قصب. قال "**عزيز**":

- اجلسوا.. يالها من حجرة! وياله من اجتماع! وياله من حديث غبي وقبيح.

كانت الأرضية مغطاة بمصاصة القصب، وقشر البندق، وملطخة بالحبر. والصور مكرمشة فوق الجدران القبيحة، ولا ستارة ولا مروحة! لم يكن "**عزيز**" يقصد أن يعيش هكذا، ولا مع هؤلاء الناس من الدرجة الثالثة. ووسط ارتباكه فكر فقط في "**رافي**" الذي لا معنى له، الذي ضحك عليه وسمح لنفسه أن يخدع. لابد من إرسال الصبي للخارج وهو سعيد، وإلا لفشلت الضيافة على طول الخط. قال مفتش الشرطة:

- عظيم منك يا سيد "**فيلدنغ**" أن تتنازل وتزور صديقنا لقد تأثرنا من عطفك السامي.

قال بسرعة:

- لا تتحدث معه هكذا فهو لا يريد ذلك وهو لا يريد ثلاثة مقاعد لأنه ليس ثلاثة رجال إنجليز. تعال هنا يا "**رافي**" واجلس ثانية. أنا سعيد لأنك استطعت أن تحضر مع السيد "**حميد الله**" يا ولدي العزيز فإن ذلك سيساعدني على الشفاء أن أراك.

قال "**رافي**" ليشدّ من أزر نفسه:

- أرجوك أن تسامحني على أخطائي.

كرّر السيد "**فيلدنج**" سؤاله:

- حسنا... هل أنت مريض يا "**عزيز**"؟

- لا شك أن الميجور "**كاليندار**" أخبرك بأني أخادع.

- حسنا.. وهل أنت تخادع.

ضحك الجميع وفكروا أنه رجل إنجليزي في أحسن حالاته:

- اسأل الدكتور "**بانالال**".

- هل أنت واثق بأنني لم أتعبك بالمرور عليك؟

- لماذا؟.. لا.. هناك ستة أفراد بالفعل في حجرتي الصغيرة. أرجوك أن تظل جالسا واعذرني على عدم تمسكي بالرسميّات.

استدار واستمر في توجيه الكلام لـ"**رافي**" الذي كان مذعورا من وصول ناظر مدرسته وتذكر أنه حاول أن ينشر إشاعة حقيرة عنه واشتاق لأن يهرب.

قال "**حميد الله**" وهو يقدم سيجارة:

- إنه مريض، وهو غير مريض، وأعتقد أن معظمنا في مثل حالته.

وافقه "**فيلدنج**". لقد تآلف هو والمحامي أمام المحاكم العليا "**حميدالله**". لقد أصبحا حميمين إلى حد معقول، وبدأ كل منهما يثق بالآخر.

- العالم كله ينظر إليّ وأنا أموت، ومع ذلك لم أمت، ولذلك لابد أن نفترض وجود العناية الإلهية المباركة.

قال رجل الشرطة:

- أوه... هذا صحيح! صحيح حقا!

- هل يظن السيد "**فيلدنج**" أن هذا صحيح؟

- يظن ماذا صحيحا؟ العالم يموت.. أنا واثق بذلك.

- لا.. لا.. أقصد وجود العناية الإلهية.

- حسنا.. أنا لا أعتقد في العناية الإلهية.

سأل السيد "**سيد محمود**":

- إذن كيف تؤمن بالله؟

- أنا لا أؤمن بالله.

حدثت حركة ورفع "**عزيز**" رأسه لحظة وهو يشعر بالفضيحة. سأل "**حميد الله**":

- هل صحيح أن معظم الإنجليز ملحدون الآن؟

- المثقفون فقط من المفكرين. أستطيع أن أقول ذلك رغم أنهم لا يحبون هذه التسمية. والحقيقة أن الغرب لا يهتم كثيرا إن كنا نؤمن أو لا نؤمن هذه الأيام. من خمسين سنة مضت أو حتى عندما كنت أنا وأنتم شبابا، حدث الكثير من الخلاف والفوضى حول ذلك.

- ألم تنحدر الأخلاق هي أيضا؟

- إن ذلك يعتمد على ما تسميه.. نعم.. نعم.. أعتقد أن الأخلاق انحدرت فعلا.

- أرجو أن تعذر سؤالي: ولكن في هذه الحالة لماذا تبرر "**إنجلترا**" تمسكها بالهند؟

ها هم قد عادوا إلى السياسة مرة أخرى. رد "**فيلدنج**":

- هذا سؤال لا أستطيع أن أفكر فيه. أنا خارج وطني هنا فقط لأنني احتجت إلى وظيفة. ولا أستطيع أن أخبرك لماذا "**إنجلترا**" هنا أو عما إذا كان من الضروري أن تكون هنا.. هذا أمر خارج نطاقي.

- الهنود الأكْفاء يحتاجون أيضا إلى وظائف.

قال "**فيلدنج**" وهو يبتسم:

- أعتقد أنهم فعلا هكذا. ولكني وصلت قبلهم.

- إذن اعذرني مرة ثانية. هل هو عدل أن يشغل الإنجليزي وظيفة بينما الهنود متَوفِّرون؟ طبعا أنا لا أقصد شيئا شخصيا. ونحن شخصيا سعيدون لأنك هنا ونحن نستفيد استفادة عظيمة من هذا الحديث.

كان هناك رد واحد لمحادثة من هذا النوع:

- "**إنجلترا**" "تحتلّ الهند من أجل مصلحتها. مصلحة الهند! ومع ذلك لم يكن "**فيلدنج**" ميّالا لأن يقول ذلك، ولكن الحماس في أن يكون صادقا دفعه إلى ذلك. قال:

- أنا سعيد لأني هنا أيضا. هذا هو ردّي وهذا هو عذري الوحيد. لا أستطيع أن أخبركم بأيٍّ شيء عن العدالة. قد لا تكون عدالة أني ولدت أصلا.. إنني آخذ حق شخص آخر عندما أتنفس.. أليس كذلك؟ ومع ذلك أنا سعيد، لأن ذلك حدث، وأنا سعيد لأنني هنا. مهما تكن الضربة سيئة فإنها سعيدة العواقب. وهذا بعض التبرير.

ذهل الهنود وفزعوا. كان خطّ الأفكار غير متواصل معهم، ولكن الكلمات كانت واضحة ومحدّدة، وقد جرحت أسماعهم، وشلّت تفكيرهم. لقد كان لديهم العديد من القناعات الذهنية، وعندما تعرَّضتْ تلك القناعات للسُّخرية وجدوا من الصعب إعمال فكرهم. قال "**حميد الله**" الذي كان أكثرهم تحمّلا:

- وهؤلاء الإنجليز المحترمون الذين أسعدهم وجودهم في الهند أليس لديهم أي عذر؟

- لا على الإطلاق.. وعليك استبعادهم.

- قد يكون من الصعب فصلهم عن البقيّة.

قال السيد "**رام شاند**":

- أسوأ من كونه صعبا.. هل أنا مخطئ ؟ لن يوافق أي سيد هندي على أن ينعزل كشيء خاص. وهنا نحن نختلف عن تلك الشعوب الأخرى.. نحن روحانيّون .

قال مفتش الشرطة:

- أوه هذا صحيح.. كم هو صحيح!

- هذا صحيح يا سيد "**حق**" أنا لا أعتبر أننا روحانيّون؛ لأننا لا نستطيع أن نتعاون، ولكن الأمر يحدث هكذا. نحن لا نستطيع المحافظة على الارتباطات ولا نستطيع أن نلحق بالقطارات في مواعيدها. وما هو الأكثر من ذلك يمكن أن نسميه روحانيا في الهند ؟ أنت وأنا كان من الواجب أن نكون في لجنة المشهورين، ولكننا لسنا هناك. وصديقنا الدكتور "**لال**" كان من الضروري أن يكون مع المرضى، ولكنه لم يفعل. وهكذا الأمر مستمر، وسنستمر على هذا المنوال على ما أظن إلى نهاية الزمن.

صاح الدكتور "**بانالال**" الذي كان في حالة كتمان:

- إنه ليس نهاية الزمن.. إن الوقت بالكاد العاشرة والنصف وإذا سمحتم لي أن أقول كلمات قليلة: أيها السادة، يا لها من محادثة مهمة ومثيرة! وشكرا وعرفانا للسيد "**فيلدنج**" أولا وقبل كل شيء لتعليمه لأولادنا ومنحهم كل مزايا الخبرة والمعرفة والحكم على الأمور..

- يا دكتور "**لال**"!

- نعم يا دكتور "**عزيز**"!

- أنت تجلس على ساقي.

- أرجو المعذرة ولكن يجب أن أقول إن ساقك تركلني.

قال السيد "**فيلدنج**":

- هيا بنا، لقد أتعبنا المريض العاجز على أي حال. تسلّلوا إلى الخارج في طابور.. أربعة من المسلمين، واثنان من الهندوس، وأحد الإنجليز. وقفوا على الشرفة:

- إن "**عزيز**" لديه فكرة عالية عنك ولكنه لم يتكلم بسبب مرضه.

قال "**فيلدنج**":

- أنا أفهم ذلك تماما.

كان "**فيلدنج**" في الحقيقة متضايقا من زيارته. ومرّ بعقله تعليق أعضاء النادي بأنه يبخس نفسه حقّها كالمعتاد. إنه لا يستطيع حتى أن يمتطي جواده، لأنه لا يستطيع إحضاره. لقد أعجب بـ"**عزيز**" جدا في أول لقاء لهما وتمنى أن تحدث تطورات.

الفصل العاشر

زحفت الحرارة للأمام في الساعة الأخيرة وكان الشارع مهجورا، وكأن كارثة نظفّته من البشرية خلال ذلك الحديث غير الحاسم. ومقابل بنجالو "**عـــزيز**" يقف بيت واسع لم يتم بناؤه يخص

شقيقين من المنجمين وقد تعلق سنجاب ورأسه لأسفل عليه وقد ضغط بطنه على السقف الحار وهو يحرك ذيله الأجرب. بدا أنه الساكن الوحيد الذي يحتل البيت. جاءت أصوات ضجة من شجرة متربة حيث تزقزق العصافير البنيّة وهي تتطاير حولها بحثا عن الحشرات. كما بدأ طائر النحاس الخفي نقراته "بونك بونك" لم يكن يهم أغلبية الأحياء - إلا قليلا ما ترغبه أو تقرره الأقلية التي تسمّي نفسها بشرا. كان معظم من يسكنون الهند لا يهمهم كيف تُحكَم الهند. ولا الحيوانات الدنيا في "**إنجلترا**" يهمها من يحكم "**إنجلترا**". ولكن في المناطق الاستوائية كان عدم الاكتراث سائدا أكثر والكلمة التي لا يمكن صياغتها أقرب إلى أيديهم وأسهل قراءة لتستأنف السيطرة عندما يتعب الرجال. وعندما خرج الرجال السبعة الذين عقدوا هذا الحديث متنوّع الأفكار داخل البنجالو.. عندما خرجوا منه كانوا مدركين أن العبء العام المشترك والتهديد المبهم الذي سموه "الطقس السيئ قادم" أحسّوا أنهم لا يستطيعون أن يؤدوا أعمالهم أو أنهم لا ينالون الأجر الكافي مقابل أدائه. والمسافة بينهم وبين مركباتهم بدلا من أن تكون خالية كانت مسدودة بوسط كان يضغط على أجسادهم.. ووسائد العربات تحرق بنطلوناتهم وعيونهم تدمع وحبّات من الماء الحار تجمعت تحت أغطية رؤوسهم وصُبّت على خدودهم.. تبادلوا السلام في ضعف ثم تفرقوا إلى داخل البنجالوات الأخرى ليستردوا قيمتهم الذاتية وصفاتهم التي تميِّز كلا منهم عن الآخر.

لقد وصل شهر أبريل (نيسان) نذير الرعب وعادت الشمس إلى مملكتها بالقوة وبدون جمال. لو كان هناك جمال لغفر للشمس قسوتها. إنه نذير محروم من المجد.

الفصل الحادي عشر

رغم أن الهنود ركبوا عرباتهم و"**فيلدنج**" كان يستطيع أن يرى جواده واقفا تحت مظلّة صغيرة في ركن من المجمع السكني فلم يعن أحد بأن يحضره إليه وبدأ يذهب ليحضره بنفسه، ولكنه توقّف عند سماعه نداء من البيت. كان "**عزيز**" جالسا متعبا في السرير وقد بدا أشعث وحزينا وقال في مكر:

- هذا هو بيتك... هذه هي الضيافة الشهيرة لأهل الشرق.. انظر إلى الذباب.. انظر إلى شقوق الجدران.. أليست جميلة؟ الآن أعتقد أنك تريد أن تهرب بعد أن رأيت ما يكفي من الديكور الداخلي الشرقي.

- على أيّة حال أنت تريد أن ترتاح.

- أستطيع أن أستريح طوال اليوم بفضل الدكتور "**لال**".. جاسوس الميجور "**كاليندار**". أعتقد أنك تعرف، ولكن هذه المرة ليس تجسّسا على العمل.. لقد سمح لي أن ترتفع حرارتي قليلا!

- "**كاليندار**" لا يثق بأحد سواء كان إنجليزيا، أو هنديا، وهذا هو طبعه وأتمنى لو أنك لم تكن تحت رئاسته، ولكنك تحت رئاسته وهكذا الأمر!

- قبل أن تذهب، وهو ما يبدو. إنك تريد ذلك بسرعة كبرى، هل تتفضل وتفتح هذا الدرج؟

هل ترى قطعة من الورق البني على القمّة؟

- نعم.

- افتحها.

- من هذه؟

- لقد كانت زوجتي. أنت أول رجل إنجليزي شاهدها. والآن أبعد هذه الصورة.

كان "**فيلدنج**" مندهشا كمسافر يرى فجأة بين الصخور زهورا. لقد كانت الزهور موجودة باستمرار هناك ولكنه فجأة يراها. حاول النظر إلى الصورة ولكن بداخلها كانت هناك امرأة ترتدي الساري الهندي تواجه العالم. همهم:

- لست أفهم أبدا لماذا توليني هذا الشرف والاهتمام يا "**عزيز**"؟ ولكن شكرا لأني أقدر ذلك تماما.

- أوه.. إنه لا شيء.. لم تكن امرأة متعلمة تعليما عاليا أو حتى جميلة.. ضع الصورة بعيدا. لقد كان من الممكن أن تقابلها فلم لا تشاهد صورتها؟

- هل كنت ستسمح لي بمقابلتها؟

- ولم لا.. أنا أؤمن بالتحجّب ولكني كنت سأقول لها إنك أخي وبالتالي يمكنها أن تقابلك. لقد قابلها "**حميد الله**" والعديد من الآخرين.

- وهل ظنَّتْ أنهم إخوتك؟

- طبعا لا، ولكن الكلمة موجودة وهي مناسبة. كل الرجال إخوتي ومادام يتصرف الرجل على هذا الأساس فإنه يستطيع أن يرى زوجتي.

- وعندما يتصرف كل العالم هكذا فلن يكون هناك حجاب أليس كذلك؟

قال "**عزيز**" بخشونة:

- إنه بسبب أنك تقول ذلك، وتحسّ بهذه الملحوظة فإنني أريتك الصورة.. وهذا خارج نطاق سلطة الرجال. إنه بسبب أنك تسلك سلوكا حسنا بينما أسلك أنا سلوكا سيّئا فإنني أريتك الصورة. لم أعد أتوقّع أبدا أن تعود عندما ناديت عليك.

قال في نفسه لابدّ أن الكيل فاض به منّي.

- يا سيد "**فيلدنج**" لا أحد يمكن أبدا أن يدرك كم نحن نحتاج إلى العطف نحن الهنود. بل إننا نحن أنفسنا لا ندرك ذلك. ولكننا نعرف عندما ننال العطف. نحن لا ننسى رغم أننا قد نتظاهر بذلك. وأؤكد لك أنها الأمل الوحيد. إننا لا نستطيع أن ننمي الهند إلا بما نحسّه. ما فائدة كل هذه الإصلاحات، ولجان المصالحة من أجل شهر "**محرم**"، ومجالس الوجهاء والحفلات الرسمية حيث إن الإنجليز يسخرون من بشرتنا؟

- إن الأمر ينتهي من الطرف الخطأ. أليس كذلك؟ أعرف ذلك ولكن المؤسسات والحكومات لا تعرف.

نظر ثانية إلى صورة السيدة. لقد واجهت السيدة العالم بناء على رغبة زوجها ورغبتها، ولكن

كم وجدته مفزعا: ذلك العالم المتناقض!

قال "**عزيز**" برقّة:

- اتركها بعيدا فهي ليست مهمّة فهي ميتة. لقد أريتها لك لأنه ليس لدي شيء آخر أريه لك. يمكنك أن تنظر في كل كوخي البنجالو الآن وتفرغ كل شيء. ليس لديّ أسرار أخرى وأطفالي الثلاثة يعيشون بعيدا مع جدتهم وهذا كل ما هناك.

جلس "**فيلدنج**" بجوار السرير، وهو متأثر من الثقة التي وضعها فيه، وإن كان الأحرى أنه حزين. لقد رغب هو لو أنه حملته أمواج العاطفة. في المرة التالية التي قد يتقابلان فيها فإن "**عزيز**" ربما يكون حذرا ومتحفّظا. لقد أدرك ذلك مما جعله حزينا. العطف والعطف ومزيد من العطف.. نعم إنه قد يستطيع توفيره، ولكن هل هذا هو حقّا ما تحتاجه الأمة الغريبة؟ ألا تحتاج أيضا عدم تسمّم في الدم؟ ما الذي فعله حتى يستحق كل هذا الانفجار في الثقة، وما هي الضيافة التي يمكن أن يعطيها مقابل ذلك؟ نظر للخلف في حياته هو. أي قدر من المحصول الفقير من الأسرار أنتجته حياته! هناك أمور فيها لم يظهرها لأحد، ولكنها كانت غير مهمة للغاية ولا تستحق رفع الحجاب أو البردة عنها.. لقد كان واقعا في الحب وخطب ليتزوج، ولكن السيدة قطعت العلاقة، وذكريات عنها، وأفكار حولها أبعدته عن النساء الأخريات لفترة، ثم التسامح وبعده الندم، وأخيرا استعادة التوازن. كل شيء تافه عدا استعادة التوازن.. و"**عزيز**" لم يرغب منه في أن يعترف بذلك له وربما سمّى ذلك "كل شيء مرتّب جيدا فوق الأرفف" كر "**فيلدنج**" في نفسه: أنا لن أكون حميما ومصرّحا بأسراري أبدا مع هذا الصاحب ولا مع أي أحد.

لقد كانت هذه هي اللازمة الطبيعية. وكان عليه أن يعترف أنه حقا لا يهتم، وأنه سعيد بمساعدة الناس، وأنه يحبّهم ماداموا لا يعترضون، وإذا اعترضوا فإنه سيدع الأمر يمرّ في هدوء. والخبرة يمكن أن تفعل الكثير وكل ما تعلّمه في "**إنجلترا**" و"**أوروبا**" سيكون مساعدا له وسيساعده نحو الوضوح ولكن الوضوح سيمنعه من تجربة شيء آخر. سأل "**عزيز**":

- كيف أحببت السيدتين اللتين قابلتهما يوم الخميس؟

هزّ "**عزيز**" رأسه في اشمئزاز. لقد ذكره السؤال بملاحظته القاسية حول كهوف "**ماربار**" قال:

- "**حميد الله**" أعجب بهما في "**إنجلترا**". وهنا نحن لا ننظر إليهما أبدا. أوه.. لا.. وإنما بحرص شديد. دعنا نتحدث عن شيء آخر.

- "**حميد الله**" على حقّ فالنساء ألطف في "**إنجلترا**" وهناك شيء ما لا يناسبهن هنا.

بعد فترة صمت قال "**عزيز**":

- لماذا لم تتزوج؟

سُرّ "**فيلدنج**" لأنه سُئل. رد قائلا:

- لأنني بطريقة أو بأخرى استطعت أن أعيش بدون زواج لقد كنت أفكر في أن أخبرك قليلا عن نفسي في يوم ما إذا ما استطعت أن أجعل الأمر مثيرا لاهتمامك بالدرجة الكافية، السيدة التي أحببتها لم تتزوجني، وهذه هي النقطة الأساسية، ولكن هذا حدث من خمسة عشر عاما مضت ولا

تعني شيئا الآن.

- ولكن ليس عندك أطفال.

- لا.. لا أحد.

- أرجوك أن تعذرني في سؤالي التالي: هل لديك أي أطفال غير شرعيين؟

- لا.. وكنت سأخبرك بذلك عن طيب خاطر لو كان لديّ.

- إذن اسمك سيموت تماما!

- لابدّ.

هز "**عزيز**" رأسه:

- حسنا.. عدم الاكتراث هذا هو ما لن يفهمه الشرق أبدا.

- أنا لا يهمّني الأطفال.

قال بنفاد صبر:

- الاهتمام بهم لا دخل له بذلك.

- أنا لا أحسّ بغيابهم، ولا أريدهم يبكون حولي وينتحبون حول سرير الموت، وأنا فيه، وأن يتحدثوا في أدب عنّي بعد ذلك وهو ما أعتقد أنه الفكرة العامة.. إنني أفضل لو تركت ورائي فكرة عن أن أترك طفلا. الناس الآخرون يمكنهم الحصول على أطفال. لا التزامات و"**إنجلترا**" مقبلة على تضخم سكاني، وتهرع إلى الهند بحثا عن مزيد من الوظائف.

- لماذا لا تتزوج الآنسة "**كويستد**"؟

- يا إلهي! لماذا؟ الفتاة متزمتة!

- متزمتة.. متزمتة؟ اشرح لي من فضلك هل الكلمة رديئة؟

- أوه.. لست أعرفها ولكنها صدمتني باعتبارها واحدة من أكثر المنتجات إثارة للشجن للتعليم الغربي. إنها تصيبني بالإحباط!

- ولكن متزمتة؟ كيف هذا يا سيد "**فيلدنج**"؟

- إنها تستمر في الكلام دون توقف، وكأنها في محاضرة محاولة بكل جهدها أن تفهم الحياة الهندية ومن حين لآخر تسجّل ملحوظاتها.

- لقد ظننت أنها مخلصة ولطيفة.

قال "**فيلدنج**" وقد خجل من خشونته:

- ربما هي فعلا هكذا.

كان أي تلميح إلى أنه لابد أن يتزوج كان يحدث إفادات مبالغا فيها من جانب الأعزب:

- ولكني لا أستطيع أن أتزوجها لو أردت لأنها أصبحت الآن مخطوبة لسيادة حاكم المدينة وقاضيها.

صاح "**عزيز**" في ارتياح لأن ذلك أعفاه من رحلة "**ماربار**":

- هل هي فعلا خطبت له؟

- إنه من فعل الأم العجوز التي كانت تخشى أن يختار ابنها العزيز زوجته بنفسه. لذلك أحضرت الفتاة معها عن تعمد وألقت بكل منهما للآخر إلى أن حدث . .

- السيدة "**مور**" لم تذكر ذلك ضمن خططها.

- ربما فهمت الأمر خطأ. وأنا بعيد عن إشاعات النادي، ولكن على أية حال لقد خُطبا للزواج.

ابتسم "**عزيز**" لأن الآنسة "**كويستد**" ليست للسيد "**فيلدنج**". على أي حال، هي ليست جميلة، وليس لها تقريبا ثديان إذا فكرنا في الأمر. قال:

- أوه.. نعم... أنت خارج الموضوع أيها الرجل العزيز المسكين. بالنسبة لحاكم المدينة قد يكفي كل منهما الآخر.. هي له. أما بالنسبة لك فسأرتب لك سيدة ثدياها مثل المانجو.

- لا إنك لن تفعل.

- إنني لن أفعل ذلك حقّا، ثم إلى جانب ذلك فإن وضعك يجعل الأمر خطرا عليك.

لقد انزلق ذهنه من الحياة الزوجية إلى "**كلكتا**". وأصبح وجهه جادا. تخيل لو أنه استطاع إقناع ناظر المدرسة أن يصحبه إلى هناك، ثم يوقعه بعد ذلك في المتاعب! ثم فجأة اتخذ مسلكا آخر نحو صديقه، مسلك الحامي الذي يعرف الأخطار الهندية وقال محذّرا.

- لا يمكن أن تكون حريصا في كل شيء يا سيد "**فيلدنج**" فمهما قلت أو فعلت في هذا البلد اللعين هناك دائما صاحب حاسد في الطريق. وقد يدهشك أن تعلم أن هناك على الأقل ثلاثة جواسيس كانوا يجلسون هنا عندما حضرت للسؤال عنّي. لقد كنت مكدرا حقّا لأنك تحدثت بهذه الطريقة عن الله وبالقطع سيبلغون عن ذلك.

- لمن؟

- هذا كله لا بأس به، ولكنك تحدثت أيضا ضد الأخلاق، وقلت إنك جئت لتأخذ وظائف الآخرين، وكل هذا لم يكن من الحكمة. هذا مكان رهيب للفضيحة.. لماذا.. لأنه في الحقيقة أحد تلاميذك كان يستمع.

- شكرا لقولك هذا.. نعم.. يجب عليّ أن أحاول أن أكون أكثر حرصا. عندما أهتم بشيء فإنني أنسى نفسي، ومع ذلك فإنه لا يحدث أي ضرر.

- ولكن التصريح بالكلام قد يجلب عليك المتاعب.

- هذا ما كان يحدث غالبا في الماضي.

- اسمع هذا إذن.. إن نهاية ذلك أن تفقد عملك.

- إذا فعلت ذلك فإنني أفعله وسأعيش وأسافر خفيفا.

- تسافر خفيفا! أنت أغرب نوع من الجنس البشري!

استدار "**عزيز**" وكأنه ذاهب إلى الفراش، ثم استدار ثانية في الحال، ثم قال:

- هل هذا بسبب الجوّ أم ماذا؟

- العديد من الهنود يسافرون خفافا أيضا مثل طائفة الصدوقيين وأمثالهم. إنها إحدى النواحي التي أعجبت بها في وطنك يا "**عزيز**". أي رجل يستطيع أن يسافر خفيفا إلى أن تكون له زوجة

وأطفال. وهذا جزء من قضيتي ضد الزواج. أنا رجل مقدس ناقص القداسة. انقل هذا لجواسيسك الثلاثة وليقدموا ذلك في مزاميرهم التي يطلقونها.

كان "**عزيز**" مسحورا، ومهتما وأدار الفكرة الجديدة في رأسه إذن هذا هو السبب الذي من أجله السيد "**فيلدنج**" وبعض القلائل الآخرين لا يشعرون بالخوف! ليس عندهم ما يفقدونه. ولكنه هو نفسه نشأ وجذوره في المجتمع والإسلام وهو الذي أنجب أطفالا في هذا العالم. وهم مجتمع المستقبل. ورغم أنه عاش في خواء في هذا البنجالو القذر ومع ذلك فإنه في مكانه في العالم:

- لا يمكن طردي من وظيفتي، لأن وظيفتي هي التعليم، وأنا أؤمن بتعليم الناس كيف يصبحون أفرادا، وأن يفهموا الأفراد الآخرين. إنه الشيء الوحيد الذي أؤمن به. وفي الكلية الحكومية أنا أخلط ما بين حساب المثلثات وغيره. ولو كنت صدوفيا فسأخلطا بين شيء آخر، انتهى من بيانه وصمت الاثنان. وأصبح منظر الذباب أسوأ من أي وقت مضى، وتراقص أمام حدقتيهما، وتسلل إلى آذانهما. أخذ "**فيلدنج**" يضرب بوحشية، وجعله التمرين حارا ونهض ليذهب:

- يمكن أن تخبر خادمك أن يحضر جوادي.. يبدو أنه لا يفهم نطقي للأوردية.

- أعرف ذلك. لقد أعطيته الأوامر ألا يفعل. هذه بعض الحيل التي نلعبها على بعض الإنجليز غير المحظوظين، يا للمسكين السيد "**فيلدنج**"! ولكني سأطلق سراحك الآن، أوه أيها العزيز! فيما عداك أنت و"**حميد الله**" ليس عندي من أتحدث معه في هذا المكان. أنت تحب "**حميد الله**"؟

- جدا.

- هل تعدني بأن تأتي إلينا في الحال عندما تقع في المتاعب؟

- لا يمكن أن أقع أبدا في المتاعب.

- هذا هو رجل غريب. وأنا واثق بأنك لن تواجه حزنا!

ترك "**عزيز**" بمفرده وانتهت فترة إعجابه به. كان من الصعب عليه أن يظل في هلع على شخص ما يلعب بكل أوراقه، لقد اكتشف أن "**فيلدنج**" دافئ القلب، وغير تقليديّ حقّا، ولكن ليس حكيما. كان الحديث الصريح في حضور "**رافي**" و"**شاند**" و"**رام**" وشركائهم خطيرا، وغير أنيق، ولا يخدم هدفا مفيدا. ولكنهما أصدقاء وإخوة، وهو أمر مستقر عليه، ويثق كل منهما بالآخر. لقد انتصرت العاطفة. استغرق في النوم وسط ذكريات سعيدة من شعر الشاعر الهندي "**غالب**" والحلاوة الأنثوية وطيبة العجوز "**حميد الله**" و"**فيلدنج**" وزوجته المرحومة، وأطفاله الثلاثة، وانتقل إلى مباهج الدين بلا أعداء، والتي تزدهر وسط الحديقة الأبدية. أو يجري وسط شلالات المياه وسط عروق من الرخام، أو تصعد إلى قباب حيث كتب بالأسود على الرّخام الأبيض أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون.

الجزء الثاني
الكهوف
الفصل الثاني عشر

رغم أن نهر "**الجانجز**" يفيض من أسفل "**فيشنو**" عبر مسافة بسيطة من "**سيفا**"، إلا أنه ليس بالنهر القديم، وعلم الجيولوجيا يتعمق أكثر من الدين في معرفة الوقت الذي لم يكن هذا النهر، ولا جبال "**الهيمالايا**" التي تغذيه موجودة. وأن محيطا فاض على الأماكن المقدسة في "**هندوستان**". وثارت الجبال وملأت بالغرين (الطمي) المحيط وأخذت الآلهة مجالسها عليها وشقّوا النهر وظهرت الهند التي نسميها غير الخالدة على الوجود. ولكن في الحقيقة الهند أكبر من ذلك بكثير في العمر. وأيام المحيط ما قبل التاريخ كان الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة موجودا بالفعل والأماكن المرتفعة من "**درافيديا**" كانت أراض منذ أن بدأت الأرض وشهدت في أحد جوانبها غرق القارة التي انضمت إليها في "**إفريقيا**"، وعلى الجانب الآخر الارتفاع من البحر إلى "**الهيمالايا**" وهي أقدم عمرا من أي شيء في العالم. لم يغطها أي مياه على الإطلاق، والشمس التي كانت تراقبها عهودا لا تعدّ ولا تحصى قد تستمر في التميُّز، والظهور في خطوط أشكالها التي كانت تتبع الشمس قبل أن تنتزع الأرض منها، وإذا كان هذا الجزء هو جزء من الشمس يمكن لمسه في أي مكان، فإنه هنا بين قدمي تلك التلال التي لا يمكن تصورها، وحتى لو كانت تتغير، وكما نهضت جبال "**الهيمالايا**" الهندية، فإن هذه الهند الأولى قد انخفضت، وأخذت تدخل ببطء مرة ثانية في انحناء الأرض. وقد يكون ذلك في دهور لا نهاية لها أن يحدث أن يفيض المحيط هنا أيضا وفوق الصخور المولودة من الشمس مع الطين. وفي نفس الوقت فإن سهل نهر "**الجانجز**" يعتدى عليه بشيء من أفعال البحر. وهي تغرق تحت الأراضي الجديدة. وكتلتها الأساسية لم تمسّ، ولكن حافة مواضعها الخارجية قد قطعت، وتقف بعمق ركبة، وبعمق حتى الزور في التربة المتقدمة. هناك شيء غير واضح في تلك المواضع الخارجية. لا يوجد مثيل لها في العالم ولمحة لها تجعل الأنفاس تنقطع. فهي تصعد فجأة وفي الحال دون الحجم الذي تحتفظ به أكثر التلال وحشية في مكان آخر، ولا تحتفظ بأي علاقة أو بأي شيء سبق أن حلم المرء به أو رآه. وأن تدعوها "غير خارق للطبيعة" إنما يوحي بالأشباح، وهي أقدم من أي أرواح. لقد حفرت الهندوكية بعض الصخور ولصقتها، ولكن الأماكن المقدسة لم تكن مطروقة، وكان الحجيج الذين يبحثون بصفة عامة عما هو غير عادي وجدوا هنا أنها أكثر من اللازم. وبعض الصدوقين (الذين لا يعترفون بالبعث) استقرّوا مرة في الكهف، ولكنهم تبخروا، وحتى "**بوذا**" الذي لابد أن يكون قد مرّ بهذا الطريق في طريقه إلى شجرة "**بوجايا**"، تجنب نكران الذات الأكثر كمالا من نكرانه، ولم يترك أي أسطورة عن الصراع، أو النصر في "**ماربار**".

والكهوف موصوفة بسهولة: نفق طوله ثمانية أقدام وارتفاعه خمسة أقدام، واتّساعه ثلاثة أقدام ،ويؤدي إلى حجرة دائرية قطرها حوالي عشرين قدما، وهذا الترتيب يحدث، ثانية، وثالثة دون

مجموعة التلال وهذا كل شيء. هذا هو كهف "**ماربار**". وإذا رأيت كهفا واحدا، أو كهفين، أو ثلاثة، أو أربعة عشر أو أربعة وعشرين، فإن الزائر يعود إلى "**كاندرابور**"، وهو غير واثق إن كان قد قام بتجربة مهمّة أو غبية، أو إن كان قد قام بتجربة على الإطلاق. سيجد من الصعب أن يناقش الكهوف، أو أن يبعدها عن ذهنه لأن النمط، لا يتغيّر أبدا، ولا يوجد أي نقوش، ولا حتى عش نحل، أو وطواط يمكن أن يميّز كهفا عن آخر. لا شيء مرتبط به، ولا شهرة لها. لأن لها شهرة واحدة وهي عدم الاعتماد على الحديث البشري. إنه وكأن السهل المحيط، أو الطيور العابرة، قد أخذت على نفسها عهدا بالإعلان عما هو غير عادي، وأن كلمة غير عادي جاء جذرها في الهواء، وتنفَّسَهَا البشر.

إنها كهوف مظلمة، حتى وإن واجهتْ فتحاتها الشمس فإن القليل من الضوء يخترقها عند المدخل إلى الحجرة الدائرية، وهناك القليل مما يشاهد، ولا عين تستطيع أن تشاهد ذلك القليل إلا بعد وصول الزائر بخمس دقائق، ويُشعَل عود ثقاب، وفي الحال يرتفع لهب آخر من عمق الصخرة، ويتحرّك نحو السطح مثل الروّح السجينة. وجدران الحجرة الدائرية صقلت بطريقة رائعة للغاية. وتقترب الشعلتان، وتسعيان للاتحاد، ولكنهما لا تستطيعان؛ لأن إحداهما تتنفَّس الهواء والأخرى صخرة. مرآة مطعمة بألوان جميلة بألوان الحب، ونجوم وردية ورمادية تتوسطها، وسديم ساحر بدرجات ظل أقل من ذيل الكوكب أو قمر منتصف النهار، وكل حياة الجرانيت الزائلة هنا فقط مرئية. كانت قبضات وأصابع تبرز فوق الأرض المتقدّمة.. هنا أخيرا جلودها أنعم من أي جلود حصلت عليها الحيوانات وأرقّ من الماء الساكن بلا هواء، وأضخم من الحب. والإشراق يزداد ويلمس اللهب الآخر ويقبله ثم يختفي. ويصبح الكهف مظلما مرة ثانية مثله مثل كل الكهوف.

ومع ذلك فإن جدار الحجرة الدائرية فقط هو اللامع، بينما تركت جوانب النفق خشنة. والمدخل كان ضروريا، لذلك صنع البشر واحدا. ولكن في مكان آخر، وفي أعماق أكثر في الجرانيت، هل هناك حجرات معينة ليس لها مداخل؟ حجرات لم تفتح منذ وصول الآلهة. والتقارير المحلّية تعلن أنها تزيد في العدد عن تلك التي يمكن زيارتها، حيث الموتى يزيد عددها على الأحياء أربعمائة منهم أو أربعة آلاف أو أربعة ملايين. ولا شيء بداخلها الآن، لقد كانت مغلقة قبل ظهور وباء الطاعون الدُّملي، أو الكنز في حالة ما كان الإنسان فضوليّا وقام بعمليات الحفريات.. لا شيء.. لا شيء يمكن إضافته للشر أو للخير. وأحدها أشيع عنه شهرته بالجلمود (الصخر) الذي يتأرجح في قمة أعلى تلك التلال. وكهف في شكل البالونة ليس له سقف، ولا أرضية، ويعكس ظلامه في كل اتجاه بلا حدود. إذا ما سقط الجلمود وتحطم فإن الكهف سيتحطم هو أيضا، وهو فارغ مثل بيضة عيد الفصح. وبسبب تجويف الجلمود يتأرجح مع الريح ويتحرك حتى لو حطّ عليه غراب، وعليه فإن اسمه واسم قاعدته المذهلة هو "**كاوادول**".

الفصل الثالث عشر

كانت تلك التلال تبدو رومانسية تحت أضواء معينة، وعلى مسافات مناسبة، وعند رؤيتها في المساء من الشرفة العليا للنادي، وقد دفعوا الآنسة "**كويستد**" أن تثرثر وتقول للآنسة "**ديريك**" إنها تود لو أنها ذهبت وأن الدكتور "**عزيز**" في بيت السيد "**فيلدنج**" بدا بالأحرى أنه ميّال للنسيان. وقد سمعها الخادم الذي قدم لهما شراب "الفيرموث" وهي تقول ذلك. وذلك الخادم كان يفهم الإنجليزية. وهو لم يكن بالضبط جاسوسا، ولكنه كان يبقي أذنيه مفتوحتين، وإن "**محمود علي**" لم يرشه في الحقيقة، وإنما فقط شَجَّعه على الحضور، والجلوس القرفصاء مع خدمه، وقد يحدث أن يتمشّى إلى طريقهم عندما يكون هناك. وحيث إن القصة انتقلت فقد خلقت انفعالا، وعلم "**عزيز**" في رعب أن السيدتين قد تضايقتا بعمق منه، وأنهما انتظرتا الدعوة يوميا. لقد ظن أن ملحوظته العابرة قد نُسَيتْ. لقد كان موهوبا بذاكرتين: مؤقته ودائمة، فقد عزا مسألة الكهوف إلى الذاكرة الأولى. والآن قد نقلها للأبد إلى هناك ودفع الموضوع بعيدا. بدأ بتأمين "**فيلدنج**" والعجوز "**جودبول**" ثم كلف "**فيلدنج**" بالاقتراب من السيدة "**مور**" والآنسة "**كويستد**" عندما كانتا بمفردهما. وبهذا الترتيب يمكن مراوغة حاميهما "**روني**". لم يحب "**فيلدنج**" المهمة كثيرا. لقد كان مشغولا، والكهوف تثير ملله وتوقّع الاحتكاك والمصاريف، ولكنه لم يكن ليرفض أول جميل طلبه منه صديقه، وفعل المطلوب منه. قبلت السيدتان. وكان ذلك أمرا غير مريح وسط ارتباطاتهما الملحة، ومع ذلك أمّلتا أن تستطيعا ترتيب الأمر بعد استشارة السيد "**هيسلوب**". وعندما استشير لم يثر "**روني**" أي اعتراض بشرط أن يتحمّل السيد "**فيلدنج**" كل المسؤولية لتحقيق راحتهما. لم يكن متحمِّسا للنزهة وكذلك لم تكن السيدتان كذلك.. لا أحد كان متحمّسا ومع ذلك تمت.

كان "**عزيز**" قلقا بشكل رهيب.. لقد غادر القطار قبل الفجر مباشرة، وقطار آخر يعيدهم وقت الغداء. وكان يحس فقط بقليل من الرسميات، وخشي أن يكون قد أحلّ نفسه من التزام بطريقة فخرية. كان عليه أن يطلب من الميجور "**كاليندار**" إجازة نصف يوم، ولكنه رفض بسبب تمارضه الأخير. كان عليه أن يستعير سكاكين المائدة من "**محمود علي**" دون أن يدعوه. ثم هناك مسألة المشروبات الروحية. السيد "**فيلدنج**" وربما السيدتان يشربون وبالتالي كان عليه أن يوفّر الشراب والصودا بقدر كبير وكذلك الكؤوس. ثم كانت هناك مشكلة النقل من طريق محطة "**ماربار**" إلى الكهوف، وهناك مشكلة الأستاذ "**جودبول**" وطعامه، ومشكلة طعام الآخرين. وهما مشكلتان وليستا مشكلة واحدة. لم يكن الأستاذ هندوكياً متزمّتا، ويمكن أن يتناول الشاي وماء الصودا والحلويات أيا كان من طهاها، والخضراوات، والأرز إذا ما طهاهما "**برهمي**"، ولكن لا يأكل اللحم ولا الفطائر خوفا من أن تحتوي على بيض، ولن يسمح لأحد آخر بأكل لحم البقر. إن شريحة من لحم البقر على طبق بعيد قد تهدم سعادته. والآخرون قد يأكلون لحم الضأن. ولكن حول لحم الخنزير يعترض دين "**عزيز**"، وهو لن يتصوّر الآخرين وهم يأكلون لحم الخنزير. لقد أحاطت به المشاكل، بعد المشاكل لأنه تحدّى روح الأرض الهندية التي تحاول أن تبقي الرجال في أقسام.

وأخيرا حانت اللحظة. ظن أصدقاؤه أنه غير عاقل على الإطلاق لاختلاطه بالنساء الإنجليزيات، وحذروه أن يتخذ كل الاحتياطات ضدّ عدم الدقة في المواعيد. وبالتالي قضى الليلة الماضية في المحطة. وقد تكوّم الخدم في المحطة، وأسعدهم ألا يضلوا الطريق، أما هو نفسه فقد ظل يسير ذهابا وإيابا مع العجوز "**محمد لطيف**" والذي كان عليه أن يقوم بدور كبير الخدم. أحسّ بعدم الاطمئنان، وأيضا بأن الأمر غير حقيقي. ظهرت سيارة وأمّل أن يخرج منها "**فيلدنج**" ليشدّ من أزره. ولكنها كانت تضم السيدة "**مور**" والآنسة "**كويستد**"، وخادمهما من أهل التبت. اندفع لمقابلتهما وهو سعيد.

- ولكنكما أتيتما بعد كل ذلك! أوه كم هو رقيق جدا منكما! هذه أسعد لحظة في حياتي.

لقد كانت السيدتان متحضرتين. ولم تكن تلك أسعد لحظة في حياتهما، ومع ذلك تطلعتا إلى إمتاع نفسيهما بعد أن تنتهي مشاكل البداية المبكرة. لم يكونا قد شاهداه منذ ترتيبات البعثة وشكرتاه بمنتهى الدقّة.

- أنتما لن تحتاجا إلى تذاكر.. وأرجوكما أن تمنعا خادمكما لأنه لا يوجد تذاكر في فرع خط "**ماربار**"، وهذا نوع من الغرابة تعاليا إلى العربة، وابقيا إلى أن يظهر السيد "**فيلدنج**" لينضم إلينا. هل تعلمان أن عليكما أن تسافرا محجبتين؟ هل يعجبكما ذلك؟ ردّتا بأن ذلك يعجبهما. لقد جاء القطار إلى المحطة، وحشد من الأتباع زحفوا على المقاعد كالقردة، كان "**عزيز**" قد اقترض خدما من أصدقائه، كما أحضر الثلاثة التابعين له. وشبّت مشاجرات حول الأولوية، وقف خادم السيدتين جانبا وعلى وجهه تعبير شنيع. لقد استأجرتاه وهما لاتزالان جوالتين في "**بومباي**". لقد كان ممتازا في الفندق وبين الناس المحترمين. ولكن ما إن تعاملتا مع أشخاص ظن هو أنهم من الدرجة الثانية، كان يتركهما وهما تشعران بالعار.

كان الليل لايزال مظلما، ولكن شابه ذلك المظهر الذي يدلّ على اقترابه من نهايته. كانت دجاجات ناظر المحطة رابضة على سقيفة مظلة المحطة وهي تحلم بالحدآن بدلا من البوم. أطفئت المصابيح لتوفير مشقة إطفائها فيما بعد، ورائحة التبغ وصوت البصق ارتفع من راكبي الدرجة الثالثة في الأركان المظلمة، ورفعت أغطية الرؤوس ونظفت الأسنان بالسواك. كان موظف صغير مقتنعا جدا بأن شمسا أخرى ترتفع، فأخذ يدقّ الجرس بحماس. وهذا أزعج الخدم. وظنوا أن القطار بدأ السير، فأخذوا يعدون في كلا طرفيه ليتوسّلوا أن يقف. كان لايزال هناك الكثير لابد من إدخاله، عربة الحريم مرتديات البوردة، صندوق محاط بالنحاس، وسلم وبندقية. لم يكن لدى الركاب أي شعور بالعنصرية، فالسيدة "**مور**" كبيرة في السن أكثر من اللازم والآنسة "**كويستد**" حديثه على البلد، وقد تصرفتا مع "**عزيز**" مثلما تصرفتا مع العديد من الشباب الذين كانوا متعاطفين معهما في هذا البلد، لقد توقّع منهما أن يصلا مع السيد "**فيلدنج**" وبدلا من ذلك أمنتا على نفسيهما أن تكونا معه بمفردهما. اقترح عليهما:

- أعيدا خادمكما فهو ليس ضروريا، ثم سنكون جميعا مسلمين معا.

قالت الفتاة بنفاد صبر:

- وهو خادم رهيب. يا "**أنطوني**" يمكنك أن تذهب فلسنا في حاجة إليك.

- لقد قال لي السيد أن آتي.

- والسيدتان تقولا لك اذهب.

ثم التفتتا إلى "**عزيز**":

- تخلص منه يا دكتور "**عزيز**"!

نادى:

- يا "**محمد لطيف**"! هذا هو ابن عمي "**محمد لطيف**". وهو هندي من النوع قديم الطراز ويفضل السّلام.. هذا ما قلته لك إذن يا "**محمد لطيف**". كم هو جميل سلامك ألا تريان؟.. إنه لا يفهم الإنجليزية.

قال العجوز في رقّة:

- أنت تتحدث أكذوبة.

- أنا أتحدث أكذوبة! أوه حسنا جدا.. أليس هو رجل عجوز مضحك؟

سنستمتع معه بنكات كثيرة هذا اليوم، إنه يؤدّي كل أنواع الأشياء الصغيرة. إنه ليس تقريبا غبيا كما تظنون. ومن حسن حظنا أننا أسرة ضخمة.

لفّ ذراعه حول الرقبة المجعّدة:

- ولكن عليك أن تدخل وتتصرف وكأنك في بيتك، ثم عليك أن تستلقي.

ظهرت الفوضى الشرقية المشهورة مرة ثانية وقال "**عزيز**":

- أرجو أن تعذرني.. لابد أن أقابل ضيفَيَّ الآخرين! لقد بدأ يتعصب ثانية، لأنه لم يبق سوى عشر دقائق، ومع ذلك فإن "**فيلدنغ**" الرجل الإنجليزي والذي لا يفوته أبدا القطار و"**جودبول**" وهو هندوكي لا حساب له وأمام هذا المنطق أحس بالراحة والهدوء كلما اقتربت ساعة الرحيل. لقد رشا "**محمد لطيف**" "**أنطوني**" ألا يأتي. وسارا على رصيف المحطة ذهابا وإيابا وهما يتحدثان فيما يفيد. وافقا أنهما أكثرا من عدد الخدم، وأن عليهما أن يتركا اثنين أو ثلاثة وراءهما في محطة "**ماربار**" وشرح "**عزيز**" أنه قد يقدم عنه مزحة أو مزحتين في الكهوف ليس بنوع من القسوة، وإنما ليضحكهم. وافق الرجل العجوز وهو يأتي بحركات جانبية من رأسه، إنه مستعد دائما لأن يكون موضع السخرية والضحك. أحسّ بأهميته فبدأ نكتة غير مهذبة. قال "**عزيز**":

- قلها لي في وقت آخر أيها الأخ عندما يكون لدي وقت فراغ لأننا الآن كما سبق أن شرحت لابد أن نسعد غير المسلمين. سيكون ثلاثة منهم أوروبيين، وواحد هندوكي، وهذا ما لا يجب أن ننساه. وكل الاهتمام لابد أن يكون موجها نحو الأستاذ "**جودبول**" وإلا أحس بأنه أقلّ قيمة من بقية الضيوف.

- سأناقش الفلسفة معه.

- هذا سيكون لطفا منك، ولكن الخدم أيضا أكثر أهمية. يجب ألا تضفي انطباعا بعدم التنظيم.. يمكن أن يحدث ذلك وأشعر أنك ستفعل ذلك.

حصلت هزّة في عربة الحجاب. لقد بدأ القطار يتحرّك، صاح "**محمد لطيف**" طالبا الرحمة من الله. اندفع نحو القطار وقفز على سلم العربة وفعل "**عزيز**" مثله. وكانت عملية سهلة لأن القطار كان بطيئا لأنه فرعي. قال "**عزيز**" وهو معلق على القضيب في العربة وهو يضحك:

- نحن قردة فلا تقلق.. يا سيد "**فيلدنج**" يا سيد "**فيلدنج**"! كان هناك عند التقاطع: السيد "**فيلدنج**" والأستاذ "**جودبول**" يالها من كارثة مذهلة! لقد أغلقت البوابات مبكرة عن موعدها. قفزا من عربتهما "التونجا" وأخذا يلوحان ولكن ما الفائدة! إنهما قريبان جدا وبعيدان جدا! وعندما وصل القطار إلى نقطة وقوفهما صاح "**عزيز**":

- شيء... سيئ.. لقد حطمتني!

صاح الرجل الإنجليزي:

- لقد فعلها الأستاذ "**جودبول**".

نكّس البرهمي عينيه في خجل بسبب الدين لأنه لم يقدّر طول وقت صلاته. صرخ "**عزيز**":

- هيا اقفز. لابد أن تكون معي!

- حسنا... مدّ لي يدك.

احتجت السيدة "**مور**":

- إنه ليس قادرا على ذلك.. إنه سيقتل نفسه.

ولكنه قفز وفشل وأخطأ في إمساك يد صديقه، ثم سقط ثانية على القضيب. فاته القطار بصوته المزعج، ونهض على قدميه وصاح وراءهم:

- أنا بخير فلا تقلقوا وستكونون بخير.

حدث هرج وضجة من الأصوات صاح "**عزيز**" وسطها:

- يا سيدة "**مور**" ويا آنسة "**كويستد**".. لقد فسدت بعثتنا!

ثم تطوّح فوق سلم العربة وهو شبه باك. قالت السيدة "**مور**":

- تعال بالداخل... إنك ستقتل نفسك والسيد "**فيلدنج**" أنا لا أرى أي فساد للرحلة!

قال بطريقة تثير الشفقة كالطفل.

- كيف هذا؟ اشرحي لي!

- سنكون جميعا معا مسلمين كما وعدت.

لقد كانت كاملة كعادتها.. عزيزته السيدة "**مور**" لقد ظهر كل الحب الذي أحس به نحوها في المسجد ثانية وأكثر انتعاشا. ليس أمامه شيء يستطيع أن يفعله من أجلها... إنه على استعداد للموت ليسعدها.

نادت الآنسة "**كويستد**":

- ادخل يا دكتور "**عزيز**". أنت تصيبنا بالدّوار. إذا كانا من البلاهة لدرجة أن يفوتهما القطار فهذه خسارتهما.

- أنا الملوم.. أنا المضيف.

- هذا هراء.. اذهب إلى عربتك.. إننا سنحظى بوقت ممتع بدونهما.

لا أحد كامل الصفات مثل السيدة "**مور**"... إنها صادقة ولطيفة.. يالهما من سيدتين رائعتين وكلاهما ضيفتاه الغاليتان لمدة صباح كامل. لقد أحس بأنه كفء ومهم. لقد كان "**فيلدنج**" خسارة شخصية زادت معزّته كصديق باستمرار، ومع ذلك لو كان "**فيلدنج**" جاء لظل هو في مركز القيادة. لقد قال المسؤولون:

- الهنود غير قادرين على تحمل المسؤولية.

وقال "**حميد الله**" ذلك أيضا. إنه سيري هؤلاء المتشائمين أنهم مخطئون. ابتسم في فخر ونظر للخارج إلى الريف الذي كان لايزال مرئيا كحركة معتمة في الظلام، ثم نظر لأعلى للسماء حيث النجوم تنتشر. سأل:

- ماذا يوجد في هذه الكهوف يا "**محمد لطيف**"؟ لماذا نحن جميعا ذاهبون لنشاهدها؟

كان مثل هذا السؤال خارج مقدرة القريب الفقير المسكين. إنه لا يستطيع أن يردّ بأن الله وحده والقرويون المحليون هم فقط الذين يعرفون، وأن الأخيرين يسعدهم أن يقوموا بدور الأدلاء.

الفصل الرابع عشر

معظم الحياة كئيبة لدرجة أنه لا يوجد ما يقال عنها. والكتب والأحاديث التي قد تصفها وكأنها حياة مهمّة كانت تبالغ أملا في تبرير وجودهم هم. وداخل قواقع عملهم، أو التزاماتهم الاجتماعية فإن الأرواح الإنسانية تتخبط في النعاس معظم الأحيان مسجلة التمييز ما بين المتعة والألم ولكن ليس باليقظة التي ندّعيها. وهناك فترات في أكثر الأيام إثارة خلالها لا يحدث شيء رغم أننا نستمر في الصراخ معلنين:

- أنا أمتّع نفسي أو أنا مرعوب!

ولا نكون مخلصين طالما أحسّ بشيء ما، فإن ذلك متعة ورعب. ولا أكثر من ذلك حقا.

وهكذا حدث للسيدة "**مور**" والآنسة "**كويستد**" حيث لم تشعرا بشيء حقا خلال الليلة السابقة. ومنذ أن غنّى الأستاذ "**جودبول**" أغنيته الصغيرة الغريبة، عاشتا بشكل ما داخل قوقعة، والفرق بينهما هو أن السيدة الأكبر سنا تقبلت فتور المشاعر الخاصة بها، بينما الأصغر كرهت فتور مشاعرها. لقد كانت عقيدة "**عديلة**" أن كل تيار الأحداث مهم ومثير وإذا ما كانت قد أحست بالملل فإنها كانت تلوم نفسها بقسوة، وأجبرت شفتيها على النطق بحماس. هذا كان فقط عدم الصدق في أخلاق هي في غير ذلك صادقة وإنه كان في الحقيقة الاحتجاج المثقّف لشبابها. لقد تضايقت بشكل خاص لأنها كانت في الهند وكانت كذلك مخطوبة للزواج، وهما حدثان مزدوجان من المفروض أن يجعلا كل لحظة سامية.

كانت الهند بالتأكيد قاتمة هذا الصباح، رغم أنها تُرى تحت رعاية الهنود. لقد تحققت أمنيتها، ولكن بعد فوات الأوان، إنها لا يمكن أن تثور على "**عزيز**" وترتيباته. إنها لم تكن على الأقلّ غير

سعيدة أو محبطة. والأشياء المختلفة والغريبة المحيطة بها وعربة البوردة المضحكة، وأكوام السجاد، والأقمشة البوليستر، والشمام المستدير، ورائحة الحلوى، والزيوت والسلم، والصندوق المغلف بالنحاس، ودخول كبير خدم "**حميد الله**" فجأة من المغسلة حاملا الشاي والبيض المسلوق على صينية، كل تلك الأحداث كانت جديدة عليها ومسلية، ودفعها إلى التعليق تعليقا مناسبا، لذلك حاولت أن تجد الراحة في التفكير إن اهتمامها الرئيسي هو من الآن فصاعدا هو "**روني**" . قالت :

– ياله من خادم لطيف ومرح . . . ياله من راحة بعد "**أنطوني**" !

– إنهم يذهلون المرء أكثر . . ياله من مكان غريب لصنع الشاي .

– أريد أن أطرد "**أنطوني**" فإن مسلكه على رصيف المحطة جعلني أقرر ذلك. على أية حال لابد أن نحصل على خادم آخر في "**سيملا**" ستكونين يا "**عديلة**" في الفندق، ولا أظن أن خادم "**روني**" "**بالديو**" . .

كانت "**عديلة**" تحب التخطيط وقالت :

– حسنا جدا . . ستحصلين على خادم آخر وسأحتفظ أنا بـ"**أنطوني**" . لقد تعودت على طرقه غير الشهيّة. إنه سيرعاني أثناء موسم الجو الحار .

– لست أعتقد بالجوّ الحار . والناس مثل الميجور "**كاليندار**" الذي يتحدّث عنه دائما، فإن ذلك لأنه يأمل أن يحس المرء بأنه غير خبير وضئيل مثلهم بعبارتهم الدائمة" "لقد أمضيت في هذا البلد عشرين عاما" .

– أنا أؤمن بموسم الجو الحار ولكني لم أفترض أبدا أنه سيكبح جماحي .

نظرا لحالة الفراغ الكبير عند كل من "**روني**" و"**عديلة**" فإنهما قد لا يتزوجان قبل مايو، وبالتالي فإن السيدة "**مور**" قد لا تعود إلى "**إنجلترا**" في الحال بعد الزفاف وهو ما كانت تأمل أن تفعله. وبحلول شهر مايو (أيار) فإن حاجزا وشبكة من النيران قد تسقط عبر الهند وعلى البحر الملاصق لها، وستضطر إلى البقاء قابعة هناك على جبال "**الهيمالايا**" منتظرة أن يبرد الجو . أعلنت الفتاة :

– لن أكون مكبوحة الجماح . ليس لدي صبر مع تلك النساء اللاتي يتركن أزواجهن يعانون شدة الحرارة في السهول. إن السيدة "**ماكبرايد**" لم تبق هنا مرة واحدة منذ أن تزوجت . إنها تترك زوجها الذكي جدا بمفرده نصف العام، ثم تدهش عندما تكون بعيدا عن الاتصال به .

– إن لديها أطفالا كما ترين .

قالت الآنسة "**كويستد**" بلا اهتمام :

– أوه . . . نعم . . . هذا صحيح .

– إن الأطفال هم الاهتمام الأول إلى أن يكبروا ويتزوّجوا وعندما يحدث هذا للمرء مرة أخرى فإن له الحقّ في أن يعيش من أجل نفسه في السهول أو في التلال كما يحب .

– أوه . . . أنت على حق تماما . . . أنا لم أفكر في ذلك أبدا .

ناولت قدحها الفارغ للخادم وأكملت :

– إذا أراد المرء ألا يصبح غبيا وعجوزا .

- إن فكرتي الآن، هي أن أبناء عمي سيعثرون لي على خادم في "**سيملا**" وعلى كل حال لابدّ أن يقابلوني في الزفاف الذي بعده سينوي "**روني**" أن يعيد تنظيم هيئة خدمه تماما. إنه كان قد فعل ذلك جيدا كأعزب ومع ذلك عندما يتزوج فلا شك أن تغييرات جديدة لابد من أن تتم، وخدمه القدامى لن يرغبوا في تلقي الأوامر مني وأنا لا ألومهم.

أزاحت السيدة "**مور**" شيش النافذة ونظرت للخارج لقد جمعت "**روني**" و"**عديلة**" معا بناء على رغبتهما المتبادلة، ولكنها لا تستطيع حقا أن تنصحهما أكثر من ذلك، لقد ازداد إحساسها رغم أن الناس مهمون فإن العلاقات بين الناس ليست مهمة. هل كان هذا حلما أم رؤية؟ وإنه بشكل خاص قد جرى حول الزواج الكثير من الفوضى منذ قرون من الحرج الشهواني؛ فإن الرجل لم يقترب بعد من فهم الرجل.. واليوم أحست ذلك بقوة لدرجة أنها برّرتْ لنفسها علاقة، وشخصا يحاول أن يأخذ بيدها.

- هل هناك أي شيء يمكن رؤيته على التلال؟

- فقط مختلف درجات الظل.

أخذت تحدّق في الشفق الذي لا نهاية له وقالت:

- لا يمكن أن نكون بعيدين عن مكان الضبع.

عبر القطار واديا صغيرا شديد الانحدار، وكان القطار يسير ببطء شديد على الجسر وبعد مائة ياردة جاء الوادي الثاني الصغير، ثم الثالث مما يوحي بأن الجوار أرض أكثر ارتفاعا. قالت "**عديلة**":

- ربما كان هذا جسري... على أيّة حال الطريق يسير موازيا للسكة الحديد.

لقد كان الحادث ذكرى سارة، وأحسّت ذلك بطريقتها الجافة الصادقة حيث إن الحادث أعطاها هزة، وعلمها القيمة الحقيقية لـ"**روني**". ثم عادت ثانية إلى خططها وهي خطط كانت مشاعر فياضة معها منذ صباها. ومن حين لآخر كانت تقدّم احترامها للحاضر وتقول كم هو ودود وذكي "**عزيز**". الذي كان يأكل ثمرة الجوافة. إنه لا يستطيع أن يأكل الحلوى المقلية. لقد تدربت على الأردية على الخادم. ولكن أفكارها انحرفت نحو الحياة الزوجية في المستقبل، وإلى الحياة "**الأنجلو هندية**" التي قدَّرتْ أن تتحملها. وبينما هي تقيمها مع آل "**تورتون**" و"**بيرتون**" استمر القطار في ضجيجه "بومبر... بومبر" لقد كان القطار شبه نائم ولن يذهب إلى مكان محدّد، وليس به راكب له أهمية في أي من عرباته.. لقد ضاع القطار الفرعي في مكان ما غير محدّد فوق جسر بين الحقول.. ورسالته جنبت "**كويستد**" من عقلها المرتب وخلفها بمسافة طويلة، هناك حركة تعني العمل بريد مستعجل يصل مدنا مهمة مثل "**كلكتا**" و"**لاهور**" حيث المزيد من الأحداث تقع، وتنمو شخصيات كبرى لقد فهمت ذلك. ولسوء الحظ فإن الهند بها القليل من المدن المهمّة. الهند هي الريف والحقول ثم الحقول، والتلال والغابة والتلال، والمزيد من الحقول. توقف الخط الفرعي، وأصبح الطريق عمليا فقط للعربات إلى نقطة ما.. وعربات الثيران تسير على جانب الطريق، وممرات ممتدة إلى المزارع، وتختفي بالقرب من بقعة من الطلاء الأحمر. كيف يمكن للعقل أن يلمّ بهذا البلد؟ لقد حاولت إجبارا من الغزاة أن تفعل ذلك، ولكنهم ظلوا في المنفى. والمدن المهمة التي بنوها ليست

سوى ملاجئ للانسحاب، ومعاركهم التي هي متاعب البشر الذين لا يستطيعون العودة إلى ديارهم. والهند كانت تعرف متاعبهم. إنها تعرف بكل متاعب العالم إلى أعمق أعماقه. إنها تنادي "تعالى" خلال أفواهها المائة عن أمور مثيرة للضحك والاستغراب والعظمة. ولكن تعالى إلى ماذا؟ إنها لم تكن أبدا محدّدة وهي ليست وعدا وإنما نداء.

استمرت الفتاة التي يمكن الاعتماد عليها:

- سأحضرك من "**سيملا**" عندما يصبح الجو باردا بما يكفي إنني سأفك جماحك في الحقيقة. وسترين وقتها بعضا من الخدم المغول، وكم سيكون مذهلا لو جعلناك تشتاقين "لتاج محل". وسأوصلك وقتها إلى "**بومباي**". إن آخر نظرة لك على هذا البلد ستكون مثيرة حقا.

ولكن السيدة "**مور**" كانت قد استغرقت في النوم. منهكة من القيام مبكرة. وعندما استيقظت كانت "**كويستد**" قد كفّت عن التخطيط ومالت خارج النافذة قائلة:

- إنها أكثر روعة.

كانت مدهشة حتى من ارتفاع المحطة المدنية.. تلك هناك "**ماربار**" الآلهة التي كانت الأرض شبحا لها. وكان أقربها "**كاوادول**" كان منتصبا فوق منحدر واحد على قمته حجر واحد متوازن، إذ كان كتلة عظيمة تسمى حجرا واحدا. وخلفه توجد التلال التي تحوي الكهوف الأخرى. كل كهف معزول عن الآخر بقنوات واسعة من السهل. والمجموع البالغ عدده عشرة يتغير وضعه قليلا والقطار يزحف متجاوزا لها، وكأنها تراقب وصوله، قالت الفتاة وقد بالغت في حماسها:

- ما كان يفوتني ذلك مقابل أي شيء.. انظروا الشمس تشرق وسيكون ذلك فاخرا جدا.. تعالوا بسرعة.. وانظروا ما كنت سأدع ذلك يفوتني لأي سبب. ما كنا سنشاهده لو التصقنا بآل "**تورتون**" وأفيالهم الخالدة.

بينما هي تتكلم تحول الجانب الأيسر من السماء إلى اللون البرتقالي. وكان اللون ينبض ويصعد خلف مجموعة من الأشجار، وقد نمت بكثافة، ولازالت لامعة بدرجة لا تصدق، وينسحب ضد كرة من الهواء . لقد انتظروا المعجزة. ولكن في اللحظة العظمى عندما يموت الليل ويحيا النهار، ولكن شيئا لم يحدث. بدا وكأن الفضيلة فشلت في الينبوع السماوي. لقد حالتْ الألوان في الشرق وبدت التلال أكثر قتامة، إنها في الحقيقة مضاءة أفضل ودخلت خيبة أمل عميقة مع نسيم الصباح. لماذا عندما أعدت الحجرة، لم يدخل العريس مع أصوات النفير، وآلة الشوم الخشبية كما تتوقع ذلك الإنسانية؟

- آه لابد أن هذا هو الفجر الزائف... ألم يحدث ذلك بسبب الطبقات العليا من الطقس التي لا تستطيع أن تهبط أثناء الليل؟ أعتقد أن الأستاذ "**جودبول**" قال ذلك. حسنا... لابد أن أعترف أن "**إنجلترا**" بها ذلك وهي تراقب شروق الشمس. هل تتذكر "**جراسمير**"؟ آه يا لـ"**جراسمير**" العزيزة! إنها بحيرات صغيرة وجبال كانت محبوبة منهم جميعا. رومانسية، ولكن يمكن التعامل معها وهي تنبع من كوكب أكثر رقّة. هنا سهل غير نظيف يمتدّ إلى كعوب "**ماربار**". صاح "**عزيز**" من نهاية القطار:

- صباح الخير... صباح الخير.. ضعوا أغطية رؤوسكم في الحال فإن الشمس المبكرة خطيرة جدا على الرؤوس وأتكلم بصفتي طبيبا.

- صباح الخير.. صباح الخير ضع غطاء رأسك أنت!

- ليس من أجل رأسي السميك.

ضحك وهو يضرب رأسه ويمسك بخصلة من شعره. همست "**عديلة**":

- إنه مخلوق لطيف. ما الذي حدث لتلالك يا دكتور "**عزيز**"؟ هل نسي القطار أن يقف؟

- ربما هو قطار دائري وسيعود إلى "**كاندرابور**" دون توقُّف.

- من يدري؟

بعد حوالي ميل أبطأ القطار أمام فيل. وكان هناك أيضا رصيف، ولكن بلا معنى. إنه فيل أخذ يحرك جبهته المطلية. صاحت السيدتان:

- أوه يا لها من مفاجأة.

لم يقل "**عزيز**" شيئا ولكنه تفجَّر تقريبا من الفخر والارتياح لقد كان الفيل هو أكبر مظهر من مظاهر الرحلة، والله وحده يعلم ما الذي مر به حتى يحصل على ذلك. إن الفيل هدية من البيجوم "**حميد الله**".

كان "**محمد لطيف**" سعيدا لأن اثنين من الضيوف فاتهما القطار، وبالتالي يمكنه أن يركب على الهودج بدلا من تتبعه بالعربة، والخدم كانوا سعداء لأن الفيل يزيد من اعتبارهم الشخصي، وألقوا بالأمتعة في التراب بالصياح وصوت سقوطها وهم يصدرون الأوامر كل منهم للآخر. قال "**عزيز**" وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

- سيستغرق الأمر ساعة للوصول إلى هناك وساعتين لزيارة الكهوف لنا نحن الثلاثة.

كان هناك شيء ما فخم ظهر فجأة فيه.

- قطار العودة سيكون في الحادية عشرة والنصف، وستجلسون إلى طعام الغداء في "**كاندرابور**" مع السيد "**هيسلوب**" في ساعتكم المعتادة بالضبط. أعني الواحدة وخمسين دقيقة.

أعرف كل شيء عنكم.. أربع ساعات هي رحلة صغيرة، وساعة زيادة في حالة سوء الحظ الذي يحدث باستمرار بين شعبي. وفكرتي هي أن أخطط لكل شيء دون استشارتكم، ولكن أنت يا سيدة "**مور**" ويا آنسة "**كويستد**" من حقكما أن تجريا أي تغييرات كما تحبان. حتى ولو كان التخلي عن رؤية الكهوف. هل توافقان؟ إذن امتطيا الحيوان.

كان الفيل قد ركع ولونه رمادي ومعزول كأنه تل آخر، صعدوا السّلم وألبسوه الزي الذي يمتدّ بداية من الكعب ثم إلى الجزء الخلفي من الذيل. وعندما تبعه "**محمد لطيف**" كان الخادم الذي يمسك نهاية الذيل، تركه طبقا للتعليمات المسبقة، بحيث ينزلق القريب الفقير وأن يتعلق بالشبكة الموجودة على كفلي الفيل. لقد كانت نوعا من التهريج الذي آلم فقط السيدتين اللتين كانتا تكرهان النكات العملية. ثم نهض الحيوان في حركتين اهتزازيتين ورفعهما عشرة أقدام فوق السهل. تحتهم مباشرة. كان هناك قشور الحياة التي كان الفيل دائما ما يجمعها تحت قدميه وهم أطفال عراة

وقرويون اندفع الخدم نحو عربات التونجا وربط "**حسن**" الحصان المخصص لـ"**عزيز**" وتحدى رجل "**محمود علي**" من مكانه العالي. والرجل البرهمي الذي استؤجر لطهي الطعام للأستاذ "**جودبول**" كان مزروعا تحت شجرة أكاسيا انتظارا لدوره. سار القطار وسط الحقول أملا في العودة. من الحركة الوحيدة المرئية وهي حركة الهوائي فوق القطار. كان المنظر لطيفا وسط هواء الصباح، ولكن كان هناك لون قليل فيه ولا توجد أي حيوية.

عندما تحرك الفيل نحو التلال حدثت صفة جديدة وهي السكون الروحي الذي غزا حواس أكثر من الأذن، واستمرّت الحياة كالمعتاد، ولكن ليس لها أي عواقب بمعنى أن الأصوات لم يتردد صداها والأفكار تطورت وكل شيء بدا وكأنه قطع من جذوره وبالتالي تلوّث بالوهم. مثلا هناك بعض الروابي عند نهاية المضمار منخفضة ومتلاصقة هل هي قبور أم ثديا الإلهة "**بارافاتي**"؟ أعطى القرويون هناك الإجابتين. وهنا أيضا حدث خلط حول حية لم تظهر أبدا. رأت الآنسة "**كويستد**" شيئا رفيعا داكنا تراجع حتى النهاية في آخر طرف لمجرى الماء وقالت:

- حيّة!

ووافقها القرويون وشرح "**عزيز**" أنها كوبرا سوداء انتقامية للغاية. تراجعت حتى تراقب مرور الفيل. ولكن عندما نظرت "**عديلة**" خلال نظارة "**روني**" المقرّبة وجدت أنها ليست حية وأنها جذْعُ نخلة ملتوٍ لذلك قالت إنها ليست حيّة. وعارضها القرويون وأدخلت الكلمة في عقولهم ،ولكنهم لم يرفضوا أن يتخلّوا عنها. اعترف "**عزيز**" أنها تشبه شجرة بعد أن نظر خلال النظارة المقربة، ولكنه أصرّ على أنها كوبرا سوداء حقًا. لا شيء تمّ تفسيره. وأشعّت هبات الحرارة من منحدرات "**كاوادول**" مما زاد من الحيرة، وكانت الهبات تأتي على فترات، وتتحرك على هواها. وقد تظهر بقعة حقل فجأة، وكأنها مقلية ثم تمتدّ في هدوء وعندما اقتربوا توقف الإشعاع.

سار الفيل مباشرة إلى "**كاوادول**" وكأنه سيطرق بابها مستئذنا السير للأمام، ثم انحرف وتبع ممرا حول قاعدة "**كاوادول**". كانت الأحجار مغمورة مباشرة في الأرض، وكأنها صخور في الماء، وبينما الآنسة "**كويستد**" تعلق على ذلك وتقول إن ذلك مذهل، اختفى السهل في هدوء، أو يمكن القول إنه انتزعت قشرته، ولم يعد هناك ما يُرى على جانبي المنحدر سوى الجرانيت الهادئ والميت تماما. كانت السماء تسيطر كالعادة، ولكن بدت قريبة بشكل ضار بالصحة مثل سقف من قمم المنحدرات. بدت وكأنها محتويات دهاليز لم تتغير أبدا. كان "**عزيز**" مشغولا بعظمته الخاصة. لم يلاحظ شيئا، بينما لاحظ ضيوفه القلائل. أنهم لم يحسّوا أنه مكان جذاب، أو على الأقل يستحق الزيارة، وتمنوا لو أنه تحول إلى بعض الأشياء الإسلامية مثل المسجد الذي كان من الممكن أن يقدّره مضيفهم ويشرحه. لقد بدا جهله واضحا وكان بمثابة تقهقر حقيقي. ورغم حديثه الواثق لم تكن لديه أية فكرة، كيف يعالج هذا المظهر الخاص من الهند. لقد تاه في ذلك مثلهم بدون الأستاذ "**جودبول**".

ضاق الدهليز ثم اتسع إلى نوع من الصينية. هنا يوجد هدفهم بشكل أو آخر. كان هناك خزان محطّم يحمل قليلا من الماء. قد يكون خاصا بالحيوانات، وقريبا من فوق الطين يوجد ثقب أسود،

هو أول الكهوف. ثلاثة تلال كانت تحيط بالصينية، اثنان منهم يضخان الحرارة بغزارة، ولكن الثالث كان ظلا وعنده نصبوا خيامهم. همهمت السيدة "**مور**" في نفسها: إنه مكان رهيب حقا وخانق.

صاحت الآنسة "**كويستد**":

- يا لسرعة حركة خدمكم!

حيث وضعوا بسرعة قطعة من القماش، وسطها فازة من الزهور الصناعية، وقدّم كبير خدم "**محمود علي**" بيضا مسلوقا وشايا للمرة الثانية.

- لقد ظننت أننا يمكن أن نأكل هذا أمام الكهوف وبعده نتناول الإفطار.

- أليس هذا إفطارا؟

- هذا إفطار؟ هل تظن أنني يمكن أن أعاملكم بغرابة؟

كان الآخرون قد حذّروه من أن الإنجليز لا يتوقفون عن الأكل أبدا وأنه من الأفضل له أن يغذيهم كل ساعتين إلى أن يقدم وجبة كاملة ودسمة.

- كم رتبت الأمور بشكل جيد!

- يجب أن تقولوا لي ذلك عندما أعود إلى "**كاندرابور**"، ياله من عار جلبته على نفسي؟ ستظلون ضيوفي.

كان يتحدث بجدّية الآن، لقد كانوا يعتمدون عليه لساعات قليلة وأحس بالامتنان لهم، لأنهم وضعوا أنفسهم في مثل هذا الوضع. كل شيء على ما يرام حتى الآن. كان الفيل يضع بين شفتيه أعشابا طازجة. كان عريش العربة التونجا مرتفعا في الهواء وصبي المطبخ يقشّر البطاطس. صاح "**حسن**" ووقف "**محمد لطيف**" كما اعتاد وغصن خال من الأوراق في يده. كانت البعثة ناجحة، وهي بعثة هندية، وشاب غامض سمح له أن يقدّم مظاهر اللياقة لزائرين من بلد آخر وهو ما يتوق كل الهنود لأن يفعلوه، ولكن لم تتح لهم الفرصة أبدا، كان "**عزيز**" مثل معظم الشرقيين يمجد الضيافة. ويسيء فهمها على أنها نوع من العلاقة الحميمة وألا ينظر إليها وهي ملوثة بذلك الإحساس الاحترافي.

فقط عندما تكون السيدة "**مور**" والآنسة "**كويستد**" قريبتين منه، فإنه يرى أكثر من ذلك، ويعرف أن النعمة أن يعطي الإنسان أكثر مما يتلّقى. تلك الاثنتان لهما تاثير غريب وجميل عليه. لقد كانتا صديقتيه للأبد وهو صديقهما أيضا. لقد أحبهما بشدة لدرجة أن الأخذ والعطاء أصبحا متساويين. لقد أحبهما حتى أكثر من آل "**حميد الله**" لأنه تخطّى عوائق من أجلهما، وهذا يحفّز عقله الكريم. وستظل صورتاهما في مكان ما من روحه لحين وفاته. نظر إلى السيدة "**مور**" وقال:

- ماذا أكثر يمكنني أن أفعله من أجلها؟

ها هو يعود ثانية إلي الدورة الغبية من الكرم، وقد امتلأت حدقتا عينيه بتعبير ناعم وقال لها:

- ألا تذكرين أبدا مسجدنا يا سيدة "**مور**"؟

قالت وقد أحست فجأة بالحيوية والشباب:

– أذكره... أذكره!

– وكم كنت أنا خشنا ووقحا وكم كنت أنت طيبة.

– وكم كنا سعيدين نحن الاثنين!

– الصداقة التي تبدأ هكذا تستمر أطول. هذا ما أظنه هل ستتاح لي الفرصة لأن أمتّع أطفالك الآخرين.

قالت الآنسة "**كويستد**":

– هل تعرف عنهما؟ إنها لم تكن ستحدثني عنهما أبدا.

– نعم... "**رالف**" و"**ستيلا**" أنا أعرف كل شيء عنهما. ولكن يجب ألا ننسى زيارة كهوفنا. وأحد أحلام عمري تحقّق عندما كنتما ضيفتين عليّ. لا يمكن أن تتصوروا مدى ما شرفتماني به. وأحس كانني مثل الإمبراطور "**بابور**".

سألته "**كويستد**" وهي تنهض:

– ولماذا مثله؟

– لأن أسلافي جاءوا معه من أفغانستان، وانضموا إليه في "**حرات**". وهو أيضا في العادة لم يكن لديه أكثر من فيل واحد، وأحيانا لا يكون لديه على الإطلاق، ولكنه لم يكف أبدا عن إظهار كرم الضيافة.

– لقد ظننت أن إمبراطورا آخر هو الذي يهمّك.. لقد ذكرته أمام السيد "**فيلدنغ**" وهو ما تسميه كتبي "**أورانغ زيبا**".

– "**تلجامير**"؟ أوه... نعم... لقد كان أكثر ورعا بالطبع، ولكن "**بابور**" لم يخن صديقا أبدا في حياته، لذلك لا أستطيع إلا أن أفكر فيه هو فقط هذا الصباح. وهل تعرفين كيف مات؟ لقد منح حياته لابنه. كان موته أصعب من القتال بكثير. لقد حاصرتهما الحرارة، وكان من الواجب عليهما أن يعودا إلى "**كابول**" بسبب الطقس السيئ، ولكن لأسباب لا يمكن ذكرها، سقط "**همايون**" ابنه مريضا في "**أرجا**" وظل "**بابور**" يسير حول سريره ثلاثة مرات وقال: لقد تحملتها بعيدا عنك، وفعلا تحمّل الحمى بدلا من ابنه. لقد تركت الحمى ابنه وانتقلت إليه ومات. لهذا أنا أفضّل "**بابور**" على "**تلجامير**" كان من المفروض ألا أفعل ذلك، ولكني فعلته على أية حال لا يجب أن أعطلك وأرى إنك مستعدة للبدء..

– لا على الإطلاق! نحن نستمتع بمثل هذا الحديث جدا ثم جلست "**كويستد**" بجوار السيدة "**مور**" مرة ثانية.

– إنني أسعد دائما بالحديث عن المغول، وهو السرور الوحيد الذي أعرفه. أترين... هؤلاء الأباطرة الستة، كلهم رجال رائعون، وما إن يذكر اسم واحد منهم ولا يهمّ من هو حتى أنسى كل شيء آخر في العالم سوى الخمسة الآخرين.

– اذكر لنا شيئا عن "**أكبر**".

– آه.. لقد سمعت عن اسم "**أكبر**"... حسنا... "**حميد الله**" الذي ستقابلانه قريبا،

سيخبركما أن "**أكبر**" رائع جدا، وهو أعظمهم جميعا، ولكنه نصف هندوكي، ولم يكن مسلما حقيقيا... وكذلك "**بابور**" لم يكن أقل منه، ولكن "**بابور**" تاب بعد ذلك، وهذا هو الفرق بينما "**أكبر**" لم يتم أبدا الدين الجديد الذي اخترعه بدلا من القرآن الكريم.

– ولكن ألم يكن دين "**أكبر**" الجديد لطيفا جدا؟ لقد كان سيضم كل الهند.

– لطيف، ولكن سخيف يا آنسة "**كويستد**". أنت تحتفظين بدينك وأنا أحتفظ بديني. لا شيء يمكن أن يضمّ كل الهند وهذه كانت غلطة "**أكبر**".

قالت وهي ساهمة تفكر:

– هل تشعر هكذا يا دكتور "**عزيز**"؟ أرجو أن تكون مخطئا. لابدّ أن هناك شيئا ما شاملا في هذا البلد، أنا لا أقول الدين لأنني لست متدينة، ولكن شيئا ما وإلا كيف يمكن هدم الحواجز؟

كانت تطلب فقط الأخوّة العالمية الذي حلم بها أحيانا، ولكن ما إن تصاغ في كلمات حتى تصبح غير حقيقية. استمرت:

– خذ حالتي مثلا.. لست أدري إن كنت قد سمعت أنني سأتزوج من السيد "**هيسلوب**".

– والتي أقدّم لك عليها أحرّ التهاني القلبية.

– هل يمكن يا سيدة "**مور**" أن أشرح متاعبنا للدكتور "**عزيز**"؟ أعني مشكلة كوننا أنجلو هنود؟

– إنها مشكلتك وليست مشكلتي يا **عزيز**تي.

– آه.. هذا صحيح.. حسنا بزواجي من السيد "**هيسلوب**" أصبح ما هو معروف بـ"أنجلو هندية".

رفع يده احتجاجا وقال:

– مستحيل... اسحبي هذه الملحوظة الرهيبة!

– ولكني سأصبح "أنجلو هندية"... إنني لا أستطيع تجنّب ذلك الشعار. ولكن ما آمل حقا أن أتجنّبه هو العقلية الذكية والنساء مثل.. السيدة "**تورتون**" و"**كاليندار**" من أسبوعين... حسنا... لسن كريمات ومتحذلقات تجاه الهنود. وكان علي أن أشعر بالعار الشديد التي أقولها ضدّهما، ولكن هذه هي متاعبي ولا شيء خاص بشأني، ولا شيء حسن أو قوي بشكل خاص يمكن أن يساعدني في مقاومة بيئتي، وتجنّب أن أصبح مثلهم. إن لديّ أكثر العيوب التي تستحق الرثاء. ولهذا أريد دين "**أكبر**" الكوني، أو ما يساويه ليجعلني دمثة وحسّاسة.. هل فهمت ما أعنيه؟

سرّته ملاحظتها، ولكن عقله انغلق بشدة لأنها أشارت إلى زواجها. إنه لم يكن يريد أن يتورط في هذا الجانب من الأمور. قال وهو ينحني انحناءة رسمية:

– من المؤكد أنك ستكونين سعيدة مع أيّ قريب للسيدة "**مور**".

– أوه... سعادتي.. هذه مشكلة أخرى بذاتها. أريد أن أستشيرك حول الصعوبة الأنجلو هندية هل يمكن أن تعطيني النصيحة؟

– أؤكد لك أنك لست مثل الآخرين. لن تكوني قاسية أبدا مع أهل بلدي.

- لقد قيل لي إننا نصبح قساة بعد عام.

- إذن لقد أخبروك بالكذب.

قال وهو يمدّ يديه لكل منهما:

- تعاليا معي!

نهضتا في بعض التردد ووجهتا نفسيهما ناحية المنظر.

كان الكهف الأول مريحا بدرجة معقولة. شمّرتا جونلتيهما وهما تعبران البركة، ثم صعدتا فوق بعض الأحجار غير الجذابة والشمس تلهب ظهريهما. اتّسعت فوهة الثقب الأسود، وأحنوا رؤوسهم وهم متفرقون داخل التلال. لقد شُفطوا بالداخل مثل الماء في البلاعة. ارتفعت المنحدرات بحدّة وبقوة، والسماء كانت ناعمة ولزجة، وهي تربط المنحدرات الصلبة والبيضاء. وحدأة براهمية كانت تتخبط بين الصخور في غباء عالمي ومثل البشر ولدت، ولديها الرغبة في أن تكون هكذا غبية، ولابد أن الكوكب نفسه بدا هكذا. طارت الحدأة بعيدا قبل الطيور ثم بعدها تجشأت الفجوة دخانا.

كان كهف "**ماربار**" رهيبا بقدر اهتمام السيدة "**مور**"، لأنها تقريبا أغمي عليها داخله، ووجدت بعض الصعوبة في منع نفسها من أن تقول ذلك فور خروجهم إلى الهواء مرة ثانية. لقد كان الأمر طبيعيا لأنها كانت تعاني دائما من الإغماء والكهف أصبح مملوءا أكثر من اللازم. ولأن البقية تبعوها. لقد كانت الحجرة الدائرية مزدحمة بالقرويين والخدم وبدأت رائحتها تفوح. ففقدت أثر "**عزيز**" وسط الظلام ولم تعرف من الذي لمسها، ولم تستطع التنفس، وشيء ما عار وكريه لمس وجهها واستقر على فمها كلبادة. صارعت لتصل إلى مدخل النفق، ولكن دفعة من القرويين أعادوها ثانية صدمت رأسها. وللحظة أصيبت بالجنون وهي تضرب وتتشبث كمن مسّه جنون. لم يكن الضغط السّاحق، والرائحة المقززة هو ما أخافها فحسب، وإنما أيضا صدى الصوت المرعب.

لم يذكر الأستاذ "**جودبول**" أبدا الصدى، ربما لم يؤثر فيه أبدا. لقد كان هناك همس دائري في قبة "**بيجابور**" وهناك أيضا العبارات الطويلة الصلبة التي تتجوّل وسط الهواء في "**ماندو**" وتعود مكسورة إلى خالقها. ولكن صدى الصوت في كهف "**ماربار**" لم يكن مثل تلك الأصداء، إنه مجرد تماما من أي تميز. ومهما قيل فإن نفس الضجة الرتيبة كانت ترد وتهتز لأعلى وأسفل الجدران، إلى أن يمنعها السقف. وإذا ما تحدّث العديد من الأشخاص في وقت، واحد فإن ضجّة صياح متداخل، تبدأ وينتج عنها الصدى ويختنق الكهف بحيّة مكونة من حيّات صغيرة تنجدل من تلقاء نفسها.

بعد السيدة "**مور**" انصبّ الجميع للخارج، وكأنها أعطت الإشارة بالتدفّق العكسي. وبرز "**عزيز**" و"**عديلة**" وهما يبتسمان، ولم ترغب السيدة "**مور**" أن تجعله يظن أن رحلته كانت فاشلة، لذلك ابتسمت هي أيضا. وبينما كل فرد يخرج، كانت تبحث عن الشرّير، ولكن لم يكن هناك واحد وأدركت أنها وسط أكثر الناس لطفا ودماثة، والذين كانت كل رغبتهم أن يدخلوا السرور عليها، وأن ذلك الشيء العاري اللبادي الذي حطّ على فمها ما هو إلا طفل مسكين صغير وعار أفلت من حجر أمه. لم يكن هناك شيء شرير في الكهف. إنها هي نفسها لم تستمتع به. لا إنها لم

تُمتّع نفسها وقررت ألا تزور كهفا ثانيا... سألتها "**عديلة**" :

- هل رأيت انعكاس عود ثقابه.. إنه جميل أليس كذلك؟

- لقد نسيت..

- ولكنه يقول إنه ليس كهفا جيدا. وإن الأفضل فوق "**كاوادول**".

- لا أعتقد أنني سأذهب إلى هناك. إنني أكره الصعود.

- حسنا دعينا نجلس ثانية في الظل إلى أن يُعد الإفطار.

- ولكن كل هذا سيخيب أمله.. لقد تحمّل كل تلك المصاعب. يجب عليك الاستمرار إذا سمحت.

قالت الفتاة غير مبالية بما فعلته، ولكنها راغبة في أن تكون لطيفة:

- ربما قد يكون من الواجب أن أفعل ذلك.

كان الخدم قد سارعوا عائدين للمخيّم. وجاء "**عــزيز**" لمساعدة ضيوفه وهو في قمة قواه وتواضعه، وهو واثق بنفسه، وقد سعد حقا عندما سمع بالتغيير.

- طبعا يا آنسة "**كويستد**". إذن أنا وأنت سنذهب معا، ونترك السيدة "**مور**" هنا، ولن نتأخر كثيرا، ومع ذلك فلن نسرع لأننا نعلم أن هذه رغبتها.

قالت السيدة "**مور**" :

- هذا فعلا صحيح. وأنا آسفة أيضا لعدم استطاعتي المجيء.

- يا سيدتي العزيزة "**مــور**". أنا سعيد جدا لأنك لن تأتي، وهذا يبدو قولا غريبا، ولكنك تعاملينني بمنتهى الصراحة كأصدقاء.

- نعم أنا صديقتك. لذلك هل تسمح لي أن أقدّم اقتراحا؟ لا تدع كثيرا من الناس يأتون معك لأن ذلك سيكون أكثر راحة.

- صحيح جدا.. صحيح جدا.

واندفع لتنفيذ الاقتراح بتطرف فمنع الجميع عدا دليل واحد ليصحب الآنسة "**كويستد**" وهو إلى "**كاوادول**".

- هذا ممتاز والآن متعا نفسيكما وعندما تعودان أخبراني عن كل شيء.

وصافحته وهي جالسة على الدكّة. أخرجت نوتة كتابتها وبدأت رسالة:

- **عزيزتي** "**ستيلا**".. **عزيزي** "**رالف**".

ثم توقفت ونظرت إلى الوادي الغريب وعن غزوهم الضعيف له.. وحتى الفيل أصبح لا شيء. رفعت عينيها من عليه إلى نفق الدّخول. لا.. إنها لم ترغب أن تعيد تلك التجربة. كان أشدّ ما أخافها هو صدى الصوت، والذي جاء في وقت كانت قد بدأت تُنهك لقد استطاعت أن تهمس: الشفقة والصلاح والشجاعة إنها كلمات موجودة، ولكنها متشابهة وهكذا تتشابه كلمات الفحش. كل شيء موجود ولا شيء له قيمة.

حاولت أن تستمر في خطابها وهي تذكّر نفسها أنها مجرد امرأة عجوز، وأن اليأس يزحف عليها

ما هو سوى يأس، وضعفها الخاص وحتى لو أصيبت بضربة شمس وجُنت فإن بقية العالم سيسير في طريقه. وعندما أحست بالرعب حول منطقة أوسع من الدين وهو الكون غير المفهوم إطلاقا بالنسبة لعقلها لم تجد أي راحة لروحها، واتخذ مزاجها الذي استمر لشهرين شكلا محددا، وأدركت أنها لا تريد الكتابة لابنيها، ولا تتصل بأحد.

جلست في رعب بلا حركة عندما جاء العجوز "**محمد لطيف**" رغم أنه لم يلاحظ أي اختلاف. ظلت فترة تفكر في أنها ستسقط مريضة وذلك لتطمئن نفسها، ثم استسلمت للرؤيا، وفقدت كل اهتمام حتى بـ"**عزيز**" حتى الكلمات العاطفية الحانية والمخلصة التي تكلمت بها له لم تبد بالنسبة لها سوى هراء

الفصل الخامس عشر

استمر "**عزيز**" والآنسة "**كويستد**" والدليل في الرحلة المتعبة بعض الشيء. لم يتكلما كثيرا لأن الشمس كانت ترتفع، والهواء مثل حمام دافئ يجري فيه تيار من الماء الأكثر حرارة باستمرار، وارتفعت الحرارة أكثر فأكثر. وبين الشقوق توجد بقايا نباتات. لقد قصدا الصعود إلى الصخرة المهتزة عند القمة، ولكنها كانت بعيدة جدا، واكتفيا بالمجموعة الكبيرة من الكهوف. وفي الطريق إليها قابلا العديد من الكهوف المعزولة، أغراهما الدليل بزيارتها، ولكن في الحقيقة لم يكن فيها ما يستحق الرؤية، وأشعلا عود ثقاب، وأعجبا بانعكاساته على الجدران اللامعة، واختبرا صدى الصوت، ثم خرجا ثانية. كان "**عزيز**" واثقا بأنهما سيعثران على بعض النقوش الجميلة القديمة، ولكنه كان يقصد أنه تمنى لو كانت هناك نقوش. كانت أفكاره الرئيسية تدور حول الإفطار. لقد بدت مظاهر عدم النظام عندما غادر المخيم. أعاد النظر في قائمة الطعام: إفطار انجليزي: شرائح ضأن وعصيدة، ولكن هناك بعض الأطباق الهندية لفتح الحديث. إنه لم يحب أبدا الآنسة "**كويستد**" مثلما أحب السيدة "**مور**" وكان لديه القليل ليقوله لها خاصة الآن وهي ستتزوج من رجل انجليزي.

ولم يكن لدى "**عديلة**" هي الأخرى الكثير لتقوله له. وإذا كان عقله مع الإفطار فإن عقلها كان أساسا مع زواجها، الذهاب إلى "**سيملا**" الأسبوع القادم، والتخلص من "**أنطوني**"، ومنظر التبت وأجراس الزفاف المزعجة. و"أجرا" في شهر أكتوبر (تشرين الأول) وتوديع السيدة "**مور**" من "**بومباي**". لقد مرّت العملية أمامها مرّة ثانية وقد طمستها الحرارة، ثم تحولت إلى أهم شؤونها الخاصة وهي حياتها في "**كاندرابور**". هناك حيث المتاعب الحقيقية، وحدود "**روني**" وحدودها هي، ولكنها تستمتع بمواجهة المتاعب، وقررت أنها لو استطاعت أن تتغلب على ميلها إلى إغضاب الآخرين، وهي نقطة ضعفها، فإن حياتهما الزوجية ستصبح سعيدة ومفيدة. لا يجب أن تكون نظرية أكثر من اللازم، وعليها أن تتعامل مع كل مشكلة وقت حدوثها، وأن تثق في حُسن تأني "**روني**" واتزانه واتزانها. ولحسن الحظ فإن لدى كل منهما وفرة في التعقل، والنية الحسنة.. ولكن ماذا عن الحب؟ هل هي و"**روني**" وقعا في الحب لا... لم يحب كل منهما الآخر! سألها "**عزيز**":

- هل أسير بك بسرعة كبيرة؟

اكتشفت ذلك فجأة وكأنها متسلق جبال انقطع حبله. ليس من الضروري أن تحب الرجل الذي ستتزوجه. إنها لم تكتشف ذلك إلا في هذه اللحظة. إنها حتى لم تسأل نفسها هذا السؤال حتى الآن. لقد كانت متضايقة أكثر منها مذهولة، فوقفت ساكنة وعيناها على الحجر اللامع البرّاق. لقد كان هناك بينهما تقدير واتصال شهواني، ولكن العاطفة التي تربطهما غير موجودة. هل يجب عليها أن تقطع ارتباطها؟ لم تكن ميّاله إلى ذلك، لأنه سيتسبب في العديد من المشاكل للآخرين، ثم إنها لم تكن مقتنعة بأن الحب ضروري للاتحاد الناجح. لو كان الحب حيويا للزواج، ما استمر سوى القليل من الزيجات حتى شهر العسل. ردّت على سؤاله:

- لا.. لا.. كل شيء على ما يرام.

استأنفت الصعود وأمسك "**عـزيز**" بيدها واندفع الدليل ملتصقا بسطح المنحدر وكأنه حيّة "**ليزار**" وأخذ يحبو عليه وكأن لديه جاذبية مغناطيسية مركزية. سألته:

- هل أنت متزوج يا دكتور "**عزيز**"؟

- نعم يمكنك الحضور ومشاهدة زوجتي.

كان يحس أنه من الناحية الفنية من الأفضل أن تكون زوجته حية للحظة. قالت وهي ساهمة:

- لا شكرا.

- إنها ليست في "**كاندرابور**" في الوقت الحالي.

- وهل لديك أطفال؟

ردّ بلهجة أكثر ثباتا:

- نعم.. فعلا.. ثلاثة.

- وهل هم متعة كبرى بالنسبة لك؟

- طبعا.. إنني أعبدهم.

- أعتقد ذلك.

ياله من شرقي ضئيل وأنيق.. ولا شك في أن زوجته وأطفاله يتمتعون بالجمال أيضا. إنها ليست معجبة به شخصيا، ولكن لابد أن هناك نساء معينات يجتذبهن.. وندمت لأنها لا هي ولا "**روني**" لديهما أي جاذبية جسدية. وهذا يحدث فرقا في العلاقات مثل الجمال، والشعر الكثيف، والبشرة الناعمة. ربما لهذا الرجل العديد من الزوجات، وبعض المسلمين يصرون على الزواج من أربع زوجات حسب أقوال السيدة "**تورتون**". كفت عن التفكير في موضوع الزواج وقالت بصدق وعفوية:

- هل لديك زوجة أم عدّة زوجات؟

هزّ السؤال الشاب بشدة. لو سألته إن كان يعبد أكثر من إله ما اعترض. ولكن أن تسأل مثقفا مسلما هنديا عن عدد زوجاته أمر مذهل وكريه. سيطر على حيرته بصعوبة.

- واحدة فقط وهي حالتي الخاصة.

ترك يدها، وعدد كبير من الكهوف على قمة الطريق. فكر في "اللعنة على الإنجليز! حتى في أحسن أحوالهم" وتوغّل في أحد الكهوف حتى يستردّ توازنه. تبعته على مهل وهي غير مدركة بأن ما قالته خطأ. ودخلت هي أيضا الكهف وهي لم تره كانت تفكر بنصف عقل "إن المناظر الطبيعية تملني" وتساءلت بالنصف الآخر من عقلها حول الزواج.

الفصل السادس عشر

انتظر "**عـزيز**" في كهفه دقيقة ثم أشعل سيجارة حتى يستطيع أن يقول معلقا قبل أن يلحق بها:

– لقد اندفعت حتى أنجو من الغرق.

وعندما عاد وجد الدليل بمفرده ورأسه على أحد الجوانب لقد سمع ضجة. وسمعها أيضا "**عزيز**"، ضجّة محرك سيارة. إنهم الآن على الكتف الخارجي لـ"**كاوادول**" وبتسلق عشرين ياردة ألقوا نظرة على السهل. كانت سيارة قادمة نحو التلال في نهاية طريق "**كـاندرابور**". ولكنهم لم يستطيعوا أن يتحققوا منها جيدا بسبب الانحدار الشديد في النتوء المقوّس في القمة، وبذلك لم يكن من السهل رؤية القاعدة. واختفت السيارة كلما اقتربت. جرى عائدا ليخبر ضيفته بالأخبار وشرح الدليل له بأنها دخلت الكهف. سأله:

– أي كهف؟

أشار إلى مجموعة الكهوف دون تحديد فقال له:

– كان من الواجب أن تضعها نصب عينيك.. هذا واجبك. هناك اثنا عشر كهفا على الأقل. كيف لي أن أعرف أي كهف به ضيفتي؟ أي كهف كنت فيه أنا نفسي؟

أتى الدليل بنفس الحركة المبهمة. ونظر "**عـزيز**" ثانية ولم يكن حتى متأكدا إن كان قد عاد لنفس المجموعة. لقد ظهرت الكهوف في كل مكان. قال في نفسه: يا الله يا رحيم! لقد ضاعت الآنسة "**كويستد**"!

تمالك شتات نفسه، وبدأ يبحث عنها في هدوء أمر الدليل أن يصيح مناديا وقاما بذلك لفترة، وشرح الدليل أنه لا جدوى من ذلك لأن كهف "**ماربار**" لا يسمع أي صوت سوى صوته. مسح "**عزيز**" على رأسه وقد بدأ العرق يسيل داخل ملابسه. لقد كان المكان محيّرا للغاية، فقد كان في جزء منه مثل الشرفة، وجزء آخر متعرج كالزجزاج، ومليء بالأكمات والأدغال التي تؤدي إلى هذا الطريق وإلى ذلك مثل آثار الحية. حاول الدخول في كل كهف ولكنه لم يعرف أبدا من أيها بدأ. نادى على الدليل في رقة:

– تعال هنا!

عندما أصبح الدليل في متناول يده لطمه على وجهه عقابا له. هرب الرجل وتركه بمفرده. فكر أن هذه نهاية مهنته.. لقد ضاعت ضيفته. ثم اكتشف التفسير الكافي والبسيط للغز.

الآنسة "**كويستد**" لم تضع. لقد انضمت إلى الناس في السيارة، وهم أصدقاء لها دون شكّ. ربما كان السيد "**هيسلوب**". لقد لمحها فجأة هناك بعيدا في الأخدود. مجرد لمحة، ولكن ها هي واضحة تماما محاطة بصخرتين وهي تتحدث مع امرأة أخرى. لقد أحسّ بالارتياح الشديد لدرجة أنه لم يظن أن مسلكها غريب.

بدأ بمفرده يتجه نحو المخيم. وفي الحال لمح شيئا كان من الممكن أن يثيره من لحظات من قبل... نظارة الآنسة "**كويستد**" المقربة.. كانت ملقاة على حافة أحد الكهوف في منتصف المسافة إلى مدخل النفق. حاول أن يعلقها على كتفه، ولكن الحزام الجلد كان مقطوعا، لذا وضعها بدلا من ذلك في جيبه. وبعد أن سار خطوات قليلة ظن أنه ربما أسقطت أشياء أخرى. لذا عاد ليبحث. ولكن الصعوبة السابقة حدثت ثانية وهي أنه لم يستطع أن يحدد الكهف. سمع أسفل السهل السيارة تبدأ في التحرك. لذلك هبط زاحفا على سفح التل المواجه للوادي نحو السيدة "**مور**". وهنا كان أكثر نجاحا لأنه سرعان ما ظهر لون وأنوار مخيمه، وفي وسطه رأى قبعة رجل إنجليزي وتحت القبعة... يا للسعادة ابتسم.. إنه ليس السيد "**هيسلوب**" وإنما "**فيلدنج**".

- "**فيلدنج**"! أوه.. لقد أردتك بكل حرقة!

لقد أسقط كلمة السيد لأول مرة.. ثم جرى صديقه لملاقاته وهو يصيح بالتفسيرات والاعتذارات بشأن القطار. وقد حضر في سيارة وصلت حديثا. سيارة الآنسة "**ديريك**"... أخذت السيدات يثرثرن، والخدم تركوا الطهي، وأخذوا ينصتون. إنها ممتازة الآنسة "**ديريك**". لقد قابلت السيد "**فيلدنج**" في مكتب البريد وسألته لماذا لم يذهب معهم إلى "**ماربار**"، وعرفت كيف فاته القطار، وعرضت عليه أن تنقله إلى هناك، هذه الإنجليزية لطيفة أخرى. أين كانت؟ لقد تركت بالسيارة هي والسائق عندما وجد "**فيلدنج**" المخيم. السيارة لم تستطع الوصول، لابد من مئات الأشخاص يذهبون لمرافقة الآنسة "**ديريك**" ويرونها الطريق. والفيل سيفعل ذلك بنفسه. سأل "**فيلدنج**":

- هل أستطيع أن أحصل على شراب يا "**عزيز**"؟

- طبعا.

طار ليحضر شرابا. نادت السيدة "**مور**" على "**فيلدنج**" من موقعها في الظل. لم يكونا قد تحدثا معا بعد لأن وصوله تصادف أن تزامن مع هبوط الفيضان من التل، صاح وقد شعر بالارتياح لأن كل شيء بخير:

- صباح الخير مرة ثانية.

- يا سيد "**فيلدنج**" هل رأيت الآنسة "**كويستد**"؟

- ولكنني وصلت لتوي... أين هي؟

- لست أدري.

- أين وضعت الآنسة "**كويستد**" يا "**عزيز**"؟

كان "**عزيز**" عائدا والمشروب في يده. كان عليه أن يفكر لحظة. لقد كان قلبه مفعما بسعادة

جديدة.

- أوه... إنها بخير لقد ذهبت هناك لتقابل الآنسة "**ديريك**". حسنا... هذا هو الحظ! وكثير من التحية!

ضحك "**فيلدنج**" الذي كان يكره تلك العبارة بالإنجليزية:

- أنا أقبل الحظ ولا أقبل "شن شن" في صحة الهند!

- ها هو الحظ وفي صحة انجلترا!

أوقف سائق الآنسة "**ديريك**" الموكب الذي بدأ يصحب سيدته وأخبرهم أنها عادت مع الآنسة الأخرى إلى "**كاندرابور**" وأرسلته ليقول ذلك. وإنها قادت السيارة بنفسها. قال "**عزيز**":

- أوه.. نعم هذا هو الأحرى أن يكون قد حدث. أعرف أنهما ذهبتا في جولة.

صاح السيد "**فيلدنج**":

- "**كاندرابور**" لقد ارتكب الرجل خطأ.

- أوه... لماذا؟

كان متضايقا، ولكنه جعل الأمر عاديا. لا شك أن الآنستين صديقتان حميمتان. كان يفضل لو قدم الإفطار للأربعة جميعا ومع ذلك من حق الضيوف أن يفعلوا ما يرغبون فيه وإلا أصبحوا مثل السجناء.

سأل "**فيلدنج**" الذي أحس أن هناك شيئا غريبا حدث :

- ما الذي حدث؟

طوال الطريق كانت الآنسة "**ديريك**" قد ثرثرت حول الرحلة وسمّتها متعة غير متوقعة، وقالت إنها تفضل الهنود الذين لم يدعوها إلى تسلياتهم ومتعهم أكثر ممَّن دعوها. وجلست السيدة "**مور**" وهي تطوح قدمها، وبدت غبية وعابسة الوجة. قالت:

- الآنسة "**ديريك**" أكثر الناس عدم رضا وغير مستقرة، ودائما متعجلة. وهي تريد باستمرار شيئا جديدا. إنها على استعداد لأن تفعل أي شيء في العالم عدا أن تعود إلى السيدة التي تدفع أجرها.

- لم تكن متعجلة عندما تركتها. لا جدال في عودتها إلى "**كاندرابور**". لقد بدا لي أن الآنسة "**كويستد**" هي المتعجلة. قالت السيدة العجوز في حدة:

- "عديلة"؟ إنها أبدا لم تكن متعجلة في حياتها. أعرف ذلك.

- لقد تحمل "**عزيز**" مشقة هائلة ليرتب رحلتنا وينجحها.

جاء "**عزيز**" ليأخذهما إلي الإفطار وقال معلّقا:

- هذا أمر طبيعي بالنسبة للآنسة "**كويستد**".

كان يفكر في الحادثة في ذهنه بعض الشيء ليتخلص من خشونته وقال "**عزيز**" مكملا حديثه:

- لقد كنا نجري حديثا شيقا مع دليلنا. عندئذ شوهدت السيارة. لذا قررت أن تهبط لصديقتها.

لم يكن هذا البيان صحيحا على الإطلاق، رغم أنه ظن بالفعل أن هذا ما حدث. لم يكن دقيقا لأنه حسّاس. لم يرد أن يتذكر تعليق الآنسة "**كويستد**" عن تعدّد الزوجات لأن هذا غير لائق، يضيف لذلك انتزع ذلك – من عقله – لقد كان غير دقيق حتى يشرفها. وقبل أن ينتهي الإفطار قال أكثر من أكذوبة جيدة ومتقنة. استمر قائلا وهو يبتسم:

– لقد جرت إلى صديقتها وأنا إلى صديقي. والآن أنا مع صديقي وهما مع بعضهما وهذه هي السعادة.

كان يتوقع أن يحب كل منهما الآخر مادام هو يحب كليهما.. بينما فكر "**فيلدنج**" في نفسه أن تلك السيدتين ستتسببان في المتاعب. وفكرت السيدة "**مور**" أن ذلك الرجل فاته القطار، ويحاول أن يلومهما. لقد اختفت الهند الرائعة بأسابيعها الافتتاحية ولياليها الباردة ولمحاتها المقبولة عن اللانهاية.

جرى "**فيلدنج**" لأعلى ليرى أحد الكهوف. لم يتأثر. ثم صعدا فوق الفيل، وبدأت الرحلة العكسية من الدهليز، وتسللوا تحت المنحدر نحو محطة السكك الحديدية يتبعهم طعنات الحرارة. وصلوا إلى المكان الذي تركوا فيه السيارة.

– أين بالضبط تركت الآنسة "**كويستد**" يا "**عزيز**"؟

أشار "**عزيز**" إلى قمة "**كاوادول**" في ابتهاج:

– هناك أعلى!

– ولكن كيف؟

ظهر أخدود أو شقّ بين الصخور في ذلك المكان.

– أعتقد أن الدليل ساعدها.

– فعلا.. إنه ميّال إلى المساعدة.

– هل هناك ممرّ فوق القمة؟

– ملايين الممرات يا صديقي العزيز.

لم يستطع "**فيلدنج**" أن يرى سوى الأخدود، وفي كل مكان كانت صخور الجرانيت مغروسة في الأرض.

– ولكن هل رأيتهما يهبطان من هناك في أمان؟

– نعم.. نعم.. هي والآنسة "**ديريك**" رحلتا بالسيارة.

– ثم عاد الدليل إليك ثانية؟

– بالضبط هل لديك سيجارة؟

– أتعشّم ألا تكون مريضة.

استمر الأخدود كمنحدر شديد عبر السهل والماء ينسحب منه في الطريق نحو نهر "**الجانجز**".

قال "**عزيز**":

– كانت ستحتاجني لو كانت مريضة.

– نعم هذا يبدو معقولا.

– أرى أنك قلق. دعنا نتحدّث في موضوع آخر. لقد كانت الآنسة "**كويستد**" تفعل دائما ما تريده وهذا هو اتفاقنا. أرى أنك تقلق بدلا مني، ولكني حقّا لا أهتم أنا دائما لا أهتم بالتوافه.

– إنني فعلا قلق بشأنك، وأعتبر أنهما كانتا غير مؤدبتين. ليس من حقِّها أن تندفع بعيدا عن حفلتك، وليس من حق الآنسة "**ديريك**" أن تحرضها.

لم يهتز "**عزيز**" وقبع فوق فيله وهو يرى تلال "**ماربار**" السهل المعتم غير المنسق وحركات الدلاء الضعيفة والمجنونة والمزارات المقدسة والقبور الضحلة والسماء الصلعاء المجردة والحيّة التي تشبه الشجرة. لقد منح ضيوفه أحسن ما باستطاعته من وقت، وإذا كانوا قد حضروا متأخرين، أو رحلوا مبكرين، فهذا ليس شأنه. لقد نعست السيدة "**مور**" وهي تتطوح على قضبان الهودج. جلس السيد "**فيلدنج**" بجوار "**محمد لطيف**" والذي قال:

– هل تخيلت يا "**عزيز**" كم ستكلفك هذه الرحلة؟

– آه يا أيها الرجل العزيز! لا داعي لأن تذكر ذلك. المئات والمئات من الروبيات، والحساب الكامل سيكون رهيبا، ولقد سرقني خدم أصدقائي باليمين والشمال، أما بالنسبة للفيل فمن الواضح أنه يلتهم ذهبا.. واثق بأنك لن تكرر ذلك و(م . ل). وأرجوك أن تستخدم الاختصارات "كان يقصد "**محمد لطيف**" لأنه يتصنّت ولأنه فاق الجميع.

– لقد أخبرتك أنه ليس بذي فائدة.

– إنه مليء بالطيبة نحوي، ولكن عدم أمانته ستفلسني.

– ياله من أمر مخيف يا "**عزيز**"!

– ولكني مبسوط منه حقا، فقد حقق الراحة لضيوفي، ثم من واجبي أن أستخدمه فإنه ابن عمي. وإذا ضاع المال فإنه يعود وإذا بقي المال بقيت الصحة. هل سمعت هذه الحكمة الأوردية؟ من المحتمل أنك لم تسمعها لأنني اخترعتها الآن.

– إن حكمتي تقول: "إن بنسا تقتصده هو بنس تربحه. عليك أن تنظر قبل أن تقفز. والإمبراطورية البريطانية ستظل على قلوبكم، ولن تستطيعوا أن تطردونا كما تعلم ما لم تكفّوا عن استخدام (م.ل) وأمثاله.

– أوه... أطردكم؟ ولماذا أزعج نفسي بهذه المهمة القذرة؟ سأتركها للسياسيين. عندما كنت طالبا كنت متحمسا لرجال وطنك الملاعين.

ولكن لو كانوا تركوني في حالي، في عملي، ولم يكونوا خشنين معي مهنيا ورسميا لما كنت قد طلبت أكثر من ذلك.

– ولكنك فعلت أكثر من ذلك. لقد اصطحبتهم في رحلة.

– هذه الرحلة لا علاقة لها بالإنجليز والهنود. إنها بعثة من الأصدقاء.

انتهت رحلة القافلة ،جزء منها ممتع، والآخر غير ممتع، وقد التقطوا الطاهي البرهمي ووصل القطار وهو يطلق من حلقه دخانا عبر السهل ،وعاد القرن العشرون ليسيطر على القرن السادس

عشر. دخلت السيدة "**مــور**" عربتها وذهب الرجال الثلاثة إلى عربتهم، وضبطوا شيش النافذة، وأداروا المروحة الكهربية وحاولوا، أن يحصلوا على بعض النوم. وفي الغسق كان كل شيء يشبه الجثث، وبدا القطار نفسه ميتا رغم أنه كان يتحرك. وعندما ترك كهوف "**مــاربار**" اختفى عالمهم الكريه، وحلّت محله مناظر "**ماربار**" عن بعد رومانسية ولا نهائية.. وقف القطار مرة تحت مضخة ليلتهم في بطنه مخزونا من الفحم. ثم انطلق مغادرا المحطة وعابرا التقاطع.. "**كـــــاندرابور**"! "**كاندرابور**"! لقد انتهت البعثة.

ولما انتهت وجلسوا في كآبة مستعدين لدخول الحياة العادية، فجأة ظهرت بشدة الغرابة الطويلة لهذا الصباح.. فتح السيد "**حق**" وهو مفتش الشرطة الباب بقوة وقال بلهجة ثائرة:

– يا سيد "**عزيز**". إن من واجبي المؤلم للغاية أن أقبض عليك.

قال "**فيلدنج**" وهو يتولى مسؤولية الموقف في الحال:

– أهلا! هناك خطأ ما.

– يا سيدي هذه هي التعليمات ولا أعرف شيئا.

– حسنا.. بأي تهمة تقبض عليه؟

– إن التعليمات تلزمني ألا أقول شيئا.

– لا تردّ عليّ هكذا وأبرز لي أمر القبض عليه.

– أرجوك يا سيدي أن تعذرني. ليس لدي أمر قبض فهو ليس ضروريا في هذه الظروف الخاصة، أرجوك أن ترجع إلى السيد "**ماك برايد**".

– حسنا جدا هذا ما سنفعله. تعال معي يا دكتور "**عــزيز**" لا شيء يزعجك فهو مجرّد خلط للأمور.

كانت فرقة بوليسية محيطة. قال السيد "**حق**":

– من فضلك يا دكتور "**عزيز**" تعال؟

أجهش الشاب بالبكاء وحاول أن يهرب من الباب العكسي للقطار، وناح السيد "**حق**" صارخا:

– هذا سيضطرني إلى استخدام القوة.

– بحق السماء!

كان هذا صوت السيد "**فــيلدنج**" الذي بدأت أعصابه تفلت وكأنه أصيب بالعدوى، وجذب "**عــزيز**" للخلف قبل أن تحدث فضيحة، ثم هزّه كالطفل. وبعد لحظة خرج والصفارة تنطلق.. إنها مطاردة رجل... قال "**فيلدنج**":

– يا سادة سنذهب معا إلى "**ماكبرايد**" ونسأل عما حدث خطأ.. إنه رفيق لطيف ودمث، وهو لا يقصد، وسيعتذر، إنه لا يتصرّف أبدا كمجرم.

شهق "**عزيز**" مكسور الجناح:

– أولادي واسمي!

– لا شيء من هذا وارتد قبعتك، وأمسك ذراعي وسأصحبك.

صاح المفتش:

- حمدا لله إنه سيأتي معنا.

خرجوا من المحطة وسط حرارة منتصف النهار ذراعهما متشابكان. كانت المحطة في فوضى، والمسافرون والحمالون يندفعون خارجين من جميع المخارج، والكثير من الموظفين الحكوميين، والمزيد من رجال الشرطة. استيقظت السيدة "**مور**". وبدأ "**محمد لطيف**" النواح، وقبل أن يشقّوا طريقهم وسط الفوضى، نادت السيدة "**تورتون**" بصوتها السلطوي المتسلط على "**فيلدنج**" ليبتعد وذهب "**عزيز**" إلى السجن بمفرده.

الفصل السابع عشر

كان المحصّل يراقب عملية القبض من داخل حجرة الانتظار ثم رفع أبوابها المصفحة بالزنك وبرز كإله فوق عرشه، وعندما دخل "**فيلدنج**" انصفقت الأبواب أيضا والتي كان يحرسها خادم. كان المحصل هو أول من تكلم، كان وجهه أبيض متعصبا وجميلا إلى حدّ كبير، وهو الوجه الذي كان لابد أن يظهر به كل الإنجليز في "**كاندرابور**" خلال أيام عديدة. كان عادة شجاعا، وغير أناني، ولكنه الآن يفح بحرارة بيضاء شديدة. لقد كان على استعداد لأن يقتل نفسه إذا ظن أن ذلك هو العمل الصحيح الذي لابد أن يفعله أخيرا تكلم:

- لقد أهينت الآنسة "**كويستد**" في أحد كهوف "**ماربار**".

شهق الآخر وهو يحسّ بالغثيان:

- لا.. لا..

- لقد أفلتت من رحمة الله.

- أوه.. لا.. ولكن "**عزيز**".. لا ليس "**عزيز**"! هذا شنيع.

- لقد استدعيتك لأجنّبك الخزي الذي قد يلحق بك إذا ما شوهدت تصاحبه إلى قسم الشرطة.

أخذ "**فيلدنج**" يكرر كالمجنون "لا...لا" لا يستطيع أن ينطق بكلمات أخرى. تمالك نفسه وسأل:

- من ألقى بهذه التهمة الشنيعة المخجلة؟

أوشك المحصل أن ينهار وهو يقول:

- الآنسة "**ديريك**" والصحبة نفسها...

- الآنسة "**كويستد**" بنفسها تتّهمه بـ... لابد أنها جُنَّت!

قال المحصل ثائرا، وقد تنّبه إلى حقيقة أنهما مختلفان:

- أنا لا أ ستطيع أن أفَوّت هذا التعليق الأخير! عليك أن تسحبها في الحال. إنها الملحوظة التي دأبت على ترديدها منذ أتيت إلى "**كاندرابور**".

- أنا آسف للغاية يا سيدي وأسحبها بالتأكيد وبلا شرط.

- أرجوك يا سيد "**فيلدنج**"! ما الذي دفعك لأن تتحدّث معي بمثل هذه اللهجة؟

- الأخبار كانت صدمة كبرى، ولذا طلب منك العفو. لا أستطيع أن أصدّق أن الدكتور "**عزيز**" مذنب!

جذب المحصل سطح المائدة:

- هذا تكرار لإهانتك في شكل أسوأ.

شحب وجه "**فيلدنج**" ولكنه استمر يقاوم:

- إذن عليّ أن أغامر وأقول لا. أنا لا ألقي ظلا على الثقة الحسنة بالسيدتين، ولكن التهمة التي تلقياها على الدكتور "**عزيز**" تقوم على بعض الخطأ وسيتّضح ذلك في خمس دقائق. إن سلوك الرجل طبيعي جدا، ثم أنا أعرفه غير قادر على الفضيحة.

جاء صوت الآخر الرفيع القاطع:

- إن ذلك يقوم فعلا على غلطة. إن هذا فعلا ما حدث. إن لي خبرة خمسة وعشرين عاما في هذا البلد، وخلالها لم أعرف شيئا سوى أن الكوارث تحدث عندما يحاول الهنود والإنجليز أن يوثّقوا علاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض علاقات مجاملة وتبادل الحديث نعم، لكن علاقات وثيقة لا.. على الإطلاق. إن كل ثقل سلطتي ضد ذلك. لقد كنت مسؤولا عن "**كاندرابور**" لمدة ست سنوات، وقد ساد النظام والاحترام، لأن كلا من الطرفين حافظ على هذا المبدأ والقادمون الجدد ينحون جانبا التقاليد، وهأنت ترى ماذا حدث خلال لحظات، ما بنيته في سنين قد تحطم لأجيال قادمة. أنا لا أستطيع أن أتصوّر نهاية هذا اليوم. يا سيد "**فيلدنج**". وأتمنى لو أنني لم أعش لأرى بداية الانهيار، تلك السيدة المخطوبة لأعلى مساعديّ.. لا .. لا أريد أن أعيش.

انهار متأثرا بانفعالاته الخاصة. كل ما قاله يستحقّ الرثاء والعطف، ولكن ما دخله بـ"**عزيز**"؟ لا شيء على الإطلاق إذا كان "**فيلدنج**" على حق. إنها مأساة من وجهة نظر مختلفة، ففي الوقت الذي يريد "**تورتون**" أن ينتقم لفتاة يريد "**فيلدنج**" أن ينقذ "**عزيز**" إنه يريد أن يخرج ويتحدث مع "**ماك برايد**" الذي كان دائما ودودا معه وهو متعقل وهادئ قال:

- لقد حضرت خصيصا من أجلك، بينما أخذ المسكين "**هيسلوب**" أمه بعيدا. لقد اعتبرت الأمر باعتباره أكثر الأمور الودّية التي أستطيع فعلها. لقد قصدت أن أخبرك أنه سيكون هناك اجتماع غير عادي في النادي هذا المساء لمناقشة الوضع، ولكنني أشك إن كنت ستهتم بالحضور لأن زيارتك هناك غير منتظمة.

رد عليه السيد "**فيلدنج**":

- بالتأكيد سأحضر يا سيدي. وأنا ممتنّ لك جدّا لكل المتاعب التي تكبدتها من أجلي. هل لي أن أغامر وأسأل أين الآنسة "**كويستد**"؟

ردّ عليه بحركة توضّح أنها مريضة. فقال بانفعال:

- الأمر يزداد سوءا أكثر فأكثر.

ولكن المحصل نظر إليه في جدّية وهو محتفظ برزانته ليس من المفروض أن يستشيط غضبا من

عبارة فتاة حضرت حديثا من "**إنجلترا**". إنه لا يجري وراء المسائل العرقية، وإنما يسعى وراء الحقائق. لا شيء يثير غضب الأنجلو هندي أكثر من نور العقل إذا تعرض للحظة قبل أن ينطفئ. في كل انحاء "**كاندرابور**". في هذا اليوم كان الأوروبيون ينحون جانبا شخصياتهم الخاصة العادية، ويغرقون أنفسهم في مجتمعهم. الشفقة والعطف والبطولة ملأتهم ولكن القدرة على حساب اثنين + اثنين اختفت.

أنهى المحصل اللقاء، وسار إلى رصيف المحطة. لقد كانت الحيرة منفّرة. كان أحد الحجاب الذين يعملون مع "**روني**" قد طلب منهم إحضار بعض الأشياء التافهه التي تخص السيدتين، وكان ينسب إلى نفسه بعض الأشياء المختلفة التي لم تكن من حقه. كان من أتباع معسكر الرجل الإنجليزي الغاضب، ولم يحاول "**محمد لطيف**" أن يقاومه. نزع "**حسن**" عمامته وأخذ يبكي. وبنظرة واحدة سيطر المحصل على الموقف واشتعل شعوره بالعدالة رغم أنه لم يكن عاقلا من الغضب. كان يتكلم بالكلمات الضرورية. وتوقف الهرج. ثم رحل بسيارته إلى بيته وكبح جماح انفعالاته ثانية. وعندما رأى الحمالين نائمين في الحفر أو أصحاب المحلات ينهضون لتحيته قال في نفسه:

– أعرف حقيقتكم فعلا أخيرا. وستدفعون الثمن على هذا وستصرخون.

الفصل الثامن عشر

كان السيد "**ماك برايد**" المشرف العام على شرطة المقاطعة الأكثر تفكيرا وتعليما في "**كاندرابور**" من بين كل المسؤولين قرأ وفكر كثيرا، وبسبب زواج غير سعيد تبنّى فلسفة كاملة للحياة، كان به الكثير من الوقاحة، ولكن لا شيء الاستئساد. ولم يفقد أبدا طبعه، أو أصبح خشنا، وقابل "**عزيز**" بلياقة وكان شديد الإيحاء بالاطمئنان.

– لابد أن أقبض عليك حتى تحصل على الكفالة. ولكن لاشك أن أصدقاءك يعملون على ذلك، وطبعا سيسمح لهم بزيارتك حسب التعليمات. لقد تلقّيت بعض المعلومات المعيّنة وعلي أن أتصرّف بناء عليها. أنا لست قاضيا.

كان "**عزيز**" قد حضر إليه باكيا وصدم السيد "**ماك برايد**" من سقطته، ولكن لم يدهشه أي هندي أبدا بأعماله، لأن لديه نظرية حول المناطق الجوّية، والتي تقول إن "كل وطني تعس مجرم في قلبه لسبب بسيط؛ وهو أنهم يعيشون تحت خط ٣٠، "وليسوا ملومين، فليس لديهم حظ كلب، ومن المؤكد أننا سنكون مثلهم لو استقرّ بنا المقام مكانهم. كان مولودا في "**كراتشي**" وبدأ بذلك يناقض نظريته، وهو ما يعترف به أحيانا مبتسما. أخذ يفكر في ذلك وهو مستمر في العمل على كتابة تقريره إلى القاضي. قاطعه وصول السيد "**فيلدنج**" وكشف عن كل ما يعرفه دون تحفظ. لقد قادت الآنسة "**ديريك**" بنفسها سيارة "**مودكول**" منذ ساعة تقريبا، وهي والآنسة "**كويستد**" في حالة رهيبة. لقد ذهبتا مباشرة إلى بنجاله وكان بالمصادفة موجودا هناك. وهناك وقتها تلقّى التهمة، ونظم عملية القبض في محطة السكك الحديدية.

- ما هي التّهمة بالتحديد؟

- أنه تبعها إلى داخل الكهف، وقام بمغازلات وقحة ومهينة، وأنها ضربته بنظارتها المكبرة التي شدَّها منها، وانقطع الحزام، وهكذا استطاعت الإفلات، وعندما فتّشنا عن النظارة الآن وجدناها في جيبه.

- أوه.. لا.. لا.. إن هذا الأمر سيتكشّف في خمس دقائق.

- انظر إليها.

- كان الحزام مقطوعا حديثا، وقد خرجت العدسة من مكانها، ومنطق الدليل يقول إنه مذنب!

- هل قالت أكثر من ذلك؟

- كان هناك صدى صوت أخافها. هل دخلت تلك الكهوف؟

- لقد شاهدت أحدها، وكان هناك صدى صوت. هل أثّر ذلك على أعصابها؟

- لم أكن أريد أن أفزعها أكثر بالأسئلة الكثيرة. وأمامها الكثير لتقوله عندما تذهب إلى حجرة التحقيق. إنهم لا يتحملون التفكير في ذلك في الأسابيع القادمة. أتمنَّى لو أن تلال "**ماربار**" وكل ما تحويه غارقة في البحر. مساء والمرء يراها من النادي... نعم لقد بدأنا بالفعل.

لقد وصلت بطاقة زيارة من وكيل "**محمود علي**" المستشار القانوني للسجين ليسمح له بالمقابلة. تنهّد "**ماك برايد**" وأعطى الإذن وهو يقول لـ"**فيلدنغ**":

- لقد سمعت المزيد من الآنسة "**ديريك**" وهي صديقة قديمة لنا وتتحدّث بحرية.. حسنا.. تفسيرها أنك عندما ذهبت مباشرة للبحث عن المخيم انهالت أحجار فوق "**كاوادول**"، ورأت الآنسة "**كويستد**" مباشرة على سفح المنحدر. صعدت نوعا من الأخدود نحوها ووجدتها شبه منهارة وخوذتها سقطت.

قاطعه "**فيلدنغ**":

- ألم يكن دليل معها؟

- لا.. لقد دخلت وسط بعض أشجار الكافور، وأنقذت الآنسة "**ديريك**" حياتها، عندما أوشكت أن تُلقي بنفسها من فوق المنحدر ساعدتها على الهبوط إلى السيارة، فلم تكن الآنسة "**كويستد**" تتحمّل السائق الهندي.

وهكذا علم الصديق بمجرى ما حدث. أكمل "**ماك برايد**":

- هذه هي الحكاية بقدر ما علمت بها.. لقد أرسلت السائق لينضم إليك. وأعتقد أنها تصرفت بمنتهى العقل.

سأله "**فيلدنغ**" فجأة:

- أفترض أنه ليس هناك إمكانية في رواية الآنسة "**كويستد**"؟

- لا أظن أن ذلك ممكن... بالتأكيد.

- كنت أخشى أن تقول ذلك فقد كنت أحب أن أفعل ذلك بشدة.

- إنها ليست في حالة تسمح لها بمقابلة أحد. ثم أنت لا تعرفها جيدا.

- بالكاد أعرفها. ولكنّي أعتقد أنها تحت تأثير أوهام غريبة وأن ذلك الولد المسكين بريء.

نظر رجل الشرطة إليه وهو مندهش ومرّ ظل على وجهه لأنه لم يكن يتحمّل أن تهتز سلطته قال:

- ليست لدي أي فكرة أن هذا يدور في رأسك.

- إن النظارة المقربة هذه تزعجني، ولكني فكرت أنه وقتها من المستحيل أنه لو كان قد اعتدى بها عليها لما حملها في جيبه.

- هذا محتمل جدا. أخشى أنه عندما يصبح هنديا سيئا فإنه لا يكون سيئا جدا فحسب وإنما أيضا غريبا.

- لست أفهم ذلك.

- وكيف تفهم؟ عندما تفكر في الجريمة، فإنك تفكر في الجريمة الإنجليزية. والحالة السيكولوجية هنا مختلفة، وأستطيع أن أتجرأ وأقول إنك ستخبرني بعد ذلك أنه كان طبيعيا جدا عندما هبط من التل لتحيتك، لا يوجد أي سبب يمنعه من أن يكون كذلك. اقرأ أي تقرير عن التمرد، والذي يجب أن يكون مثل الإنجيل عندك في هذا البلد. ولكن اعلم يا سيد "**فيلدنج**" كما سبق أن أخبرتك أنت ناظر مدرسة، وبالتالي أنت تقابل هؤلاء الناس في أحسن أحوالهم وهذا الذي يجعلك مخطئا. قد يكونون ساحرين كأولاد، ولكني أعرفهم على حقيقتهم عندما يكبرون إلى رجال.

رفع حافظة "**عزيز**" وقال:

- انظر إلى هذه... سأفتش في المحتويات وهي ليست تدل على الثقافة.. ها هو خطاب من صديق يدير بيتا للدعارة.

- أنا لا أريد أن أسمع خطاباته الخاصة.

- لابدّ أن يقرأ في المحكمة ليوضّح أخلاقه.. إنه كان يحدد موعدا للقاء نساء في "**كلكتا**".

- إنه سيؤثّر... سيؤثر!

كف "**ماكبرايد**" عن القراءة وقد احتار في سذاجة. كان واضحا أن الصاحبين لابد قد جمعا كل ما يعرفانه عن أي هندي ولا يستطيع الشرقي أن يعرف من أين جاءت معارضة "**فيلدنج**" له الذي قال:

- يمكنني أن أجرؤ أن أقول: من حقّك أن تلقي بالأحجار على الشاب إذا فعل ذلك، ولكني لا أفعل، وليس لي هذا الحق. لقد فعلت ما فعله وأنا في سنه.

وهكذا فعل أيضا المشرف العام على الشرطة، ولكنه اعتبر أن المحادثة قد تحولت إلى منحنى خطر، ولم تعجبه ملحوظة السيد "**فيلدنج**" التالية:

- هل حقا لا يمكن رؤية الآنسة "**كويستد**"؟ هل أنت واثق بذلك حقّا؟

- إنك لم تشرح لي أبدا ما يدور في ذهنك هنا. لماذا بحق السماء تريد أن نقابلها.

- قد يكون هناك فرصة أن تسحب كلامها قبل أن ترسل تقريرك، ويضطر للمثول أمام المحكمة ويسوء الأمر كله. لا تجادل في هذا، ولكن بدافع من طيبتك، أرجوك أن تتّصل تليفونيا بزوجتك،

أو الآنسة "**ديريك**" "لتسأل وتستفسر" هذا لن يكلفك شيئا.
ردّ وهو يمد يده نحو التليفون:
- لا فائدة من الاتصال بهما. ألم تسمع أنها مريضة جدا؟ و"**كاليندار**" يمكن أن يرتّب مثل هذا الأمر طبعا.
- من المؤكد أنه سيرفض. إن هذا هو كل ما يتمناه.
جاء الرد المتوقع بأن الميجور "**كاليندار**" لم يسمع بأن المريضة في متاعب. قال **فيلدنج**":
- كل ما أريده أن أسألها إن كانت متأكدة تمام التأكيد أن "**عزيز**" هو الذي تبعها إلى الكهف.
- ممكن أن تسألها زوجتي هذا السؤال.
- ولكني أريد أن أسألها بنفسي.. أريد شخصا يؤمن به وببراءته أن يسألها.
- وما الفرق الذي في ذلك؟
- زوجتك من بين الذين لا يصدّقون الهنود.
- حسنا.. ستخبرها بقصتها. هي أليس كذلك؟
- أعرف، ولكنها ستقولها لك.
رفع "**ماك برايد**" حاجبه وهمهم:
- خطّة محكمة.. على أية حال فإن "**كاليندار**" لن يسمح بأنك تقابلها. وأخشى أنه أعطى تقريرا سيئا عنه الآن، ويقول إنها بأي حال أصبحت خارج الخطر.
صمتا.. ووصلت بطاقة زيارة أخرى للمكتب:
- إنها بطاقة "**حميد الله**"... إن الجيش المضاد يتجمع.
- لابد أن أنتهي من هذا التقرير الآن يا "**فيلدنج**".
- أتمنى ألا تفعل.
- وكيف لي ألا أفعل؟
- إنني أحسّ بأن الأمور غير مرضية، فضلا عن أنها كارثة. نحن نتجه إلى أكثر الأمور عارا... أعتقد هل بإمكاني مقابلة سجيننا؟
تردّد المفتش العام:
- إن أهله يبدو أنهم على اتصال به.
- إذن عندما ينتهي منهم.
- لن أستطيع أن أعطلك.. يا إلهي! إن لك الأولوية على أي هندي طبعا. لقد قصدت ما هو أفضل... لماذا تورط نفسك في هذه المحنة؟
- أقول إنه بريء..
- بريء أم مذنب لماذا تورط نفسك؟ وما الفائدة؟
صرخ وكأن الأرض توقفت عن الدوران:
- أوه... حسنا... حسنا.. المرء عليه أن يتنفّس من حين لآخر. على الأقل هذه فرصة فقد لا

أراه ولا أراها لقد وعدته أن آتي إلى هنا معه إليك، ولكن "**تورتون**" ناداني بعيدا عنه قبل أن أخطو خطوتين.

همهم المشرف العام في عاطفة:

- إن محصّلنا على استعداد لعمل كل الأشياء البيضاء أراد ألا يبدو مسيطرا فمدّ يده فوق المائدة وقال:

- لابد لنا أن نتمسّك كل منا بالآخر أيها الرجل العجوز.. أنا أصغر منه في السنوات، ولكني أعلى منك بكثير في الخدمة، ولم تستطع أن تعرف هذا البلد السام مثلي ويجب أن تتقبل مني أن أقول إن الوضع العام سيكون سيئا في "**كاندرابور**" في الأسابيع القادمة بل مزعجا للغاية.

- هذا ما قلته لك في التو.

- ولكن في وقت كهذا لا مكان لوجهات النظر الفردية والرجل الذي لا يسير على الخط يتوه.

- لقد فهمت ماذا تعنيه.

- لا. أنت لا تفهم على الإطلاق. إنه لم يفقد نفسه فحسب، وإنما يضعف من أصدقائه وهؤلاء الضباع. أشار إلى بطاقات المحامين يبحثون بكل عيونهم عن ثغرة.

- هل يمكنني زيارة "**عزيز**"؟

- لا.

الآن وقد عرف مسلك "**تورتون**" لم يعد لديه أي شكوك.

- يمكنك أن تقابله بأمر من القاضي، ولكن على مسؤوليتي الخاصة لا أعتقد أن طلبك له ما يبرره وقد يؤدي إلى مزيد من التعقيدات.

- لمن أقدم الطلب لأحصل على الإذن؟

- لقاضي وحاكم المدينة.

- يبدو هذا مريحا.

- نعم المرء لا يستطيع أن يقلق المسكين "**هيسلوب**". ظهر المزيد من البراهين في تلك اللحظة.. جاء رقيب شرطة وبين ذراعيه درج من بنجالو "**عزيز**" وقال:

- آه.. صور نساء!

قال "**فيلدنج**" وهو يطرف بعينه:

- إنها صورة زوجته.

- وكيف عرفت ذلك؟

- لقد أخبرني.

ابتسم "**ماك برايد**" ابتسامة واهنة وبدأ يقلب في الدرج:

- زوجته فعلا! أعرف تلك الزوجات.. حسنا.. عليك أن تهرول من هنا أيها العجوز والله نأمل أن يساعدنا...

بدا وكأن دعوته أجيبت حيث انطلقت دقات صاخبة من ناقوس المعبد.

الفصل التاسع عشر

كان "**حميد الله**" هو المرحلة الثانية.. كان منتظرا بالخارج بمكتب المشرف، وقفز ناهضا احتراما عندما رأى "**فيلدنج**" وعندما قال الإنجليزي بانفعال: "إن الأمر كله غلطة". قال "**حميد الله**":

– آه.. آه.. هل ظهرت بعض الأدلة؟

قال "**فيلدنج**" وهو يمسك بيده:

– ستاتي.

– آه... نعم يا سيد "**فيلدنج**"، ولكن عندما يقبض على هندي مرة واحدة لا تعرف متى ينتهي ذلك. أنت طيب لأنك حيَّيتني علنا وأنا أقدِّر ذلك، ولكن يا سيد "**فيلدنج**" لا شيء يقنع القاضي سوى الدليل. هل أعطى السيد "**ماك برايد**" أي تعليق عندما وصلت بطاقتي له؟ هل تظن أن طلبي قد ضايقه، وسيجعله يتحامل عليّ وضد صديقي على أية حال؟ وإذا حدث ذلك فإنه يسعدني أن أنسحب.

– إنه لم يتضايق وإن فعل فما أهمية ذلك؟

– آه الأمر لا بأس به بالنسبة لك أن تقول ذلك. ولكن علينا أن نعيش في هذا البلد.

كان زعيم المحامين في "**كاندرابور**" بسلوكه المحترم ودرجته العلمية من "**كامبردج**" يثرثر. كان هو أيضا يحب "**عزيز**" وكان يعلم أنه تكبّد الكثير، ولكن الاعتقاد لا يمكن أن يحكم قلبه، وكان يثرثر عن السياسة والدليل بطريقة أحزنت الإنجليزي. كان "**فيلدنج**" هو الآخر لديه ما يقلقه، إنه لم يحب "النظّارة المقرِّبة" ولا تناقض أقوال الدليل، ولكنه وضعهما في حافة ذهنه، ولم يسمح لهما بأن يؤثِّرا على لب الموضوع "**عزيز**" بريء وكل الأفعال يجب أن تقوم على ذلك، والناس الذين قالوا إنه مذنب مخطئون، ولا أمل في إمكان تحييدهم. تذكر أنه كلما حاول التقريب من الفجوة بينه وبين الهنود ارتكبوا ما يخيب ظنه فيهم، لقد حاول "**عزيز**" الهروب من الشرطة. و"**محمد لطيف**" لم يسلّم المسروقات البسيطة. والآن "**حميد الله**" بدلا من الثّورة الغاضبة وإنكار التهمة يحاول مسايرة الظروف هل الهنود جبناء؟ لا... ولكنهم سيِّئو البدايات، وأحيانا ما يُعاندون ويَحْرُنُون. والخوف في كل مكان والحكم البريطاني يعتمد على ذلك الخوف. والاحترام واللياقة التي يتمتع بهما "**فيلدنج**" نفسه هي أفعال استرضاء غير واعية. لقد أخبر "**حميد الله**" أن يبتهج ويستبشر خيرا، وأن كل شيء سينتهي على خير، وقد ابتهج "**حميد الله**" وأصبح حساسا ومشاكسا. وألمح "**ماك برايد**" أنه لو ترك الخطّ فإنه سيترك فجوة فيه.

بادئ ذي بدء مسألة الكفالة.. لابد من تقديم الطلب بعد الظهر. من المؤكد أن "**فيلدنج**" أراد الوقوف بجانب "**عزيز**" وفكر "**حميد الله**" أنه يجب الاتصال بـ"**نواب بهادور**"، ولكن لماذا توريطه في الأمر؟ لقد كان هدف المحامي أن يجر الجميع في الأمر ثم اقترح أن يكون المحامي المسؤول عن القضية "**هندوكيا**"، والدفاع هنا سيكون له صدى أوسع، وذكر اثنين من مكان بعيد لن يخافا من الأموال المحلية، وأنه يفضل "**أمريترو**" وهو محام من "**كلكتا**" له شهرة عالية من الناحية المهنية

والشخصية، وهو أيضا ضد الحكم البريطاني بشكل شنيع. اعترض "**فيلدنج**" لأن ذلك سيقود إلى أقصى درجات التطرّف. لابد من تبرئة "**عزيز**" مع أقل تفرقة عنصرية و"**أمريترو**" مكروه من النادي، واستخدامه سينظر إليه على أنه تحد سياسي.

– أوه.. لا.. لابد أن نضرب بكل قوانا. عندما رأيت أوراق صديقي الخاصة يحملها ذلك الشرطي القذر بين يديه قلت في نفسي "**أمريترو**" هو الذي يزيل ذلك.

سادت فترة صمت رهيبة. استمر ناقوس المعبد في الدق بصوت خشن. لقد وصل ذلك اليوم الرهيب الذي لا نهاية له إلى فترة ما بعد الظهر بالكاد. نقلت رسالة من المشرف العام على الشرطة إلى القاضي عن طريق مرسال فوق الجواد مرفقا بها تقرير رسمي عن عملية القبض. قال "**فيلدنج**" وهو يراقب المرسال يختفي وسط الغبار:

– لا تعقّدوا الأمر، ودعوا ورق اللعب يلاعب نفسه، إنها لن تستطيع أبدا أن تثبت التهمة.

طمأن هذا "**حميد الله**" الذي علّق بإخلاص تام.

– في الكوارث لا يوجد من يعادل الإنجليز أبدا.

– إلى اللقاء إذن يا عزيزي "**حميد الله**"... وبلّغ "**عزيز**" حبي عندما تقابله، وأخبره أن يحتفظ بهدوئه. سأعود إلى الكلية الآن. وإذا أردتني اتصل بي تليفونيا لأنني سأكون مشغولا.

– إلى اللقاء يا "**فيلدنج**" العزيز وأنت فعلا الآن في جانبنا ضد شعبك؟

– نعم بالقطع!

توقع "**فيلدنج**" أنه بجانب المأساة، سيكون هناك اختلاط وخلط ورأى بالفعل بعض العقد الصغيرة المتعبة، وكلما عادت عيناه إليها فإنها تزداد حجما.. لقد ولد في حرية فإنه لم يكن يخشى الخلط والتشوش، ولكنه اعترف بوجوده.

انتهى هذا الجزء من اليوم بحديث غريب ومبهم مع الأستاذ "**جودبول**". لقد عاد التساؤل حول الموضوع الذي لا ينتهي حول أفعى "**روسيل**". فمنذ أسابيع قبل الآن، كان أحد أساتذة الكلية، وهو "**برسي**" غير محبوب قد عثر على أفعى "**روسيل**" تحوم حول الفصل. ربما تكون قد زحفت من تلقاء نفسها، ولكن ربما لم تفعل ولايزال أعضاء هيئة التدريس يقابلون ناظرهم بشأنها ويضيعون وقته بنظرياتهم. لقد كان الحيوان الزاحف شديد السمّية لدرجة أنه لم يرغب في أن يسكتهم في الحال وهو ما كانوا يعرفونه. وعليه بينما كان عقله يتفجّر بمتاعب أخرى، ويجادل عما إذا كان يكتب خطاب الناس للآنسة "**كويستد**"، كان مضطرا للإنصات لحديث ينقصه الأساس والغاية ويعوم في الهواء. وفي نهاية الحديث قال الأستاذ "**جودبول**":

– هل يمكنني الآن أن أستأذن في المغادرة؟

وهذه إشارة دائمة إلى أنه لم يصل إلى وجهة نظره بعد.

– الآن سأرحل ويجب أن أخبرك كم أنا سعيد لأسمع ذلك بعد أن نجحت في الوصول إلى "**ماربار**". لقد خشيت أن عدم دقّتي في المواعيد منعتك، ولكنك ذهبت في سيارة الآنسة "**ديريك**" وأتمنى أن تكون البعثة ناجحة.

- أرى أن الأخبار لم تصل إليك بعد.

- أوه... نعم.

- لا... لقد حدثت كارثة خاصة بـ"**عزيز**".

- أوه... نعم... الأمر منتشر في كل الكلية.

- حسنا.. إذن البعثة التي حدثت لا يمكن أن تسميها ناجحة.

- لا أستطيع أن أقول لأنني لم أكن حاضرا.

حدق "**فيلدنج**" في البرهمي وهو لا يستطيع أن يعرف ماذا في قاع عقله، ومع ذلك كان لديه عقل وقلب وهو جدير بالثقة.

- لقد تمزقت بطريقة رهيبة جدا.

قال "**جودبول**":

- هذا ما رأيته عندما دخلت مكتبك، لا يجب أن أعطّلك، ولكن لديَّ صعوبة خاصة صغيرة أريد مساعدتك فيها، أنا سأترك الخدمة قريبا كما تعلم.

- نعم واخسارتاه!

- أنا سأعود إلى مكان ميلادي في وسط الهند لأتولّى التعليم هناك. أريد أن أبدأ في المدرسة العليا هناك على خط إنجليزي سليم وأن يصبح ذلك مثل الكلية الحكومية.

زفر "**فيلدنج**" محاولا إبداء الاهتمام:

- حسنا؟

-حاليا لا يوجد سوى تعليم وطني في "**ماو**" وأشعر أنه من واجبي أن أغيّر كل ذلك. وسأشير على صاحب المقام الرفيع أن يصدر قانونا بإنشاء مدرسة عليا على الأقل في العاصمة وإذا أمكن واحدة في كل مدينة.

أسقط "**فيلدنج**" رأسه بين كفيه... حقا الهنود هم شيء لا يطاق استمر "**جودبول**":

- والنقطة التي أريد مساعدتك فيها هي: ما هو الاسم الذي يمكن إطلاقه على تلك المدرسة؟

قال وقد أحسّ بالغثيان فجأة كما فعل وهو في غرفة الانتظار:

- اسم؟ اسم للمدرسة؟

- نعم، اسم.. عنوان مناسب يمكن إطلاقه عليها وبه تصبح معروفة بشكل عام.

- الحقيقة أنه لا يوجد أسماء مدارس الآن في ذهني. أنا لا أستطيع التفكير إلا في عزيزنا المسكين "**عزيز**" الآن هل سمعت أنه حاليا في السجن؟

- أوه.. نعم.. أوه لا.. لا أتوقع أي إجابة عن سؤالي الآن وإنما كنت فقط أقصد عندما يكون لديك وقت فراغ قد تفكر في الموضوع وتقترح اثنين أو ثلاثة عناوين بديلة للمدرسة. لقد فكرت في "مدرسة السيد "**فيلدنج**"" أو في "**الإمبراطور الملك چورچ الخامس**".

- يا "**جودبول**"!

ضم الرفيق العجوز كفّيه وبدا أبله ومسليا:

– هل "**عزيز**" بريء أم مذنب؟

– يرجع ذلك للمحكمة أن تقرّر. والحكم سيكون حسب الدليل الدامغ ولا أشك في ذلك.

– نعم.. نعم.. ولكن رأيك الخاص. هذا هو رجل نُحبُّه كلانا ويحظى بالتقدير العام، ويعيش هنا في هدوء يؤدي عمله. حسنا.. ما هو رأيك في ذلك؟ هل يمكن أن يفعل شيئا كهذا أم لا؟

– آه هذا بالأحرى سؤال مختلف عن سؤالك السابق ، وأكثر صعوبة أيضا. وأقصد صعبا حسب فلسفتنا. لديّ تقدير عظيم له، ولكنني ظننت أنك تسألني عما إذا كان الفرد يستطيع أن يرتكب أعمالا طيبة أو شريرة، وهذا أكثر صعوبة بالنسبة لنا.

كان يتكلم دون انفعال وفي عبارات مطردة:

– أنا أسألك: هل فعلها أم لا؟ هل هذا واضح؟ أعرف أنه لم يفعلها، ومن هنا ابدأ. أقصد أن أصل إلى التفسير الحقيقي خلال يومين. إن آخر فكرة لدي هي: أنه الدليل الذي ذهب معهما، والحقد من جانب الآنسة "**كويستد**" لا يمكن أن يكون غير ذلك رغم أن "**حميد الله**" يظن ذلك.. من المؤكد أنها مرّت بمحنة مذهلة، ولكن أخبرني أنت.. أوه... لا... لأن الشر والخير متشابهان!

– لا... ليس بالضبط من فضلك حسب فلسفتنا. لأنه لا يمكن أن يحدث شيء في عزلة. ودعني أشرح ذلك في مثال: لقد علمْتُ أن عملا شرِّيرا وقع في تلال "**ماربار**"، وأن سيدة إنجليزية عالية المقام مريضة بدرجة خطيرة نتيجة لذلك. وإجابتي هي: ذلك العمل ارتكبه الدكتور "**عزيز**" أو ارتكبه الدليل. أو لقد ارتكبتُه أنتَ أو ارتكبتُه أنا، وبالنسبة لتلاميذي فإن السيدة ارتكبته بنفسها. عندما يقع الشر يعبّر عن عَالَم بأكمله وبالمثل عندما يقع الخير.

– وبالمثل عندما يقع العذاب والمعاناة وهلم جرّا وكل شيء في لا شيء ولا شيء في شيء..

كان متضايقا وهو يقول ذلك لأنه يحتاج إلى أرض صلبة.

– أرجو المعذرة! أنت الآن تغيّر مرة ثانية أساس المناقشة. لقد كنا نناقش الخير والشر. والمعاناة هي مجرَّد أمر يخص الفرد. لو أن سيدة شابة أصيبت بضربة شمس فهذا موضوع لا معنى له بالنسبة للكون.. أو... لا... لا... ليس على الإطلاق إنه شأن منفرد ومعزول ويخصّها شخصيا. وإذا ظنت أن رأسها لم يصبه الصداع، فإنها لن تكون مريضة، وهذا سينهي الموضوع، ولكن هذا أبعد من الناحية الأخرى بالنسبة لحالة الخير والشر. إنهما ليس ما تظنهما. وكل منا ساهم في كليهما.

– هل تنادي بأن الشرَّ والخير هما شيء واحد؟

– أوه.. لا، اعذرني مرة ثانية. الخير والشر مختلفان كما يوحي بذلك اسماهما. ولكن في رأيي المتواضع أن كليهما لهما من مظاهر الرب. فهو موجود في واحد وغائب في الثاني، والفرق ما بين الحضور والغياب كبير بقدر ما يستطيع عقلي المتواضع أن يلتقطه. ومع ذلك فإن الغياب يوحي بالحضور والغياب ليس عدم الوجود، وبذلك لنا الحق في أن نكرر: "تعال ،تعال، تعال، تعال"! وفي نفس الوقت وكأننا ألغينا أي جمال يمكن أن تحويه الكلمتان ولكن هل لديك وقت لزيارة أي من آثار "**ماربار**" المهمة؟

كان "**فيلدنغ**" صامتا يحاول أن يتأمل ويريح عقله:

– ألم تر حتى الخزان بجوار أرض المخيم المعتادة؟

أجاب وهو ساهم ويتساءل حول أشياء عديدة في آن واحد :

– نعم . . . نعم . . .

– هذا حسن إذن لقد رأيت خزان "**داجر**" "أي الخنجر" ثم ذكر الأسطورة التي كان من الممكن أن تكون مقبولة في حفل شاي من أسبوعين. وهي تخص "**راجا هندوكي**" الذي ذبح ابن أخته والخنجر الذي قام بالعمل به ظل ملتصقا بيده إلى أن جاء عبر السنين إلى تلال "**ماربار**" وكان عطشانا إلى أن رأى بقرة عطشى، فأمر أن يقدم لها الماء أولا وعندما فعل سقط الخنجر من يده، وتخيلدا للمعجزة بني الخزان.

كانت أحاديث الأستاذ "**جودبول**" تتركز دائما في البقرة.

حصل "**فيلدنج**" على الإذن وقابل "**عزيز**" ووجد أنه لا يمكن الاقتراب منه نظرا لبؤسه.. "لقد هجرتني" هي العبارة الوحيدة المفهومة. ابتعد ليكتب الخطاب إلى الآنسة "**كويستد**" وحتى لو وصلها فإنه لن يكون ذا فائدة وربما يمنعه آل "**ماك برايد**" عنها وقد توبخه. إنها فتاة جافة وحساسة جدا ودون أي مكر وهي آخر شخص في "**كاندرابور**" ظالم يتهم هنديا.

الفصل العشرون

رغم أن الآنسة "**كويستد**" لم تجعل نفسها محبوبة مع الإنجليز إلا أنها أظهرت كل ما هو لطيف في أخلاقهم. كانت الفكرة الوحيدة التي دارت في ذهن كل من السيدتين "**تورتون**" و"**ليزلي**" وهما تنتقلان بالسيارة وسط لهيب الحرارة القائظ لتسألا :

– ماذا يمكن أن نفعل لأختنا؟

كانت السيدة "**تورتون**" هي الوحيدة التي سمح لها بدخول حجرة المريضة. لقد خرجت بأسف نبيل وكانت كلماتها الوحيدة : "إنها ابنتي الوحيدة الغالية" ثم تذكرت أنها نعتتها بعدم الصدق وكرهتها، لأنها خطبت للشاب "**هيسلوب**" ثم بدأت تبكي. لم يسبق لأحد أن شاهد زوجة المحصّل تبكي.. لقد كانت قادرة على ذرف الدموع، ولكنها احتفظت بها لمناسبة مضبوطة، وها هي قد جاءت تلك المناسبة. إذا انتهى الأمر كله كما قال الميجور "**كاليندار**" فإن كل شيء لا يمكن عمله، ولكنهم يتحملون بعض المسؤولية عن حزنها وأساها. لو كانت غير واحدة منهم فلابد أن يجعلوها واحدة منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك الآن. زفرت الآنسة "**ديريك**" المحبة للمتعة والسرور :

– لماذا لا يفكر المرء أكثر في الناس الآخرين؟

كان هذا الأسف قد استمر لديهم في شكله النقي لمدة ساعات قليلة. وقبل غروب الشمس شغلتهم اعتبارات أخرى، وبدأ شعورهم بالذنب يذهب.

كان الناس يقودون عرباتهم إلى النادي في هدوء حريص. إن هرولة الناس النبلاء في الريف بين

خطوط النجيل الموارية للأسوار، يجب ألا يجعل الوطنيين يشكون في أنهم ثائرون. لقد تبادلوا المشروبات المعتادة، ولكن كل شيء كان له طعم مختلف. أدركوا أنهم على بعد آلاف الأميال من المناظر الطبيعية الحقّة. كان النادي ممتلئا أكثر من المعتاد، وأحضر العديد، من الوالدين أطفالهم إلى حجرات مخصصة للبالغين مما أوحى بجو المقر الرئاسي في "**لاكناو**".

جلست إحدى الأمهات الصغيرات وهي فتاة بلا عقل، ولكنها أجمل البنات على مقعد تركي منخفض في حجرة التدخين، وطفلها بين ذراعيها، وكان زوجها بعيدا في المقاطعة، ولم تجرؤ على العودة إلى بيتها خوفا من هجوم الزنوج، وهي زوجة موظف صغير بالسكك الحديدية عادة ما كانت مهملة. أصبحت اليوم بوجهها الضخم، وخصلات شعرها الكثيف الأشقر، تمثل كل ما يمكن أن يقاتل المرء من أجله، وربما كانت رمزا أكثر دواما من الآنسة "**كويستد**" المسكينة. وقد يقول الرجال لها:

- لا تقلقي يا سيدة "**بلاكستون**" فإن هذه الطبول تعلن عن شهر "**محرم**".. لقد بدأت.

تأوهت وضمّت الطفل إليها، وهي تتمنى ألا يخرج رغاوي من فمه على ذقنه. في مثل هذه اللحظات صفق المحصل يديه طلبا للسكوت. لقد كان أكثر هدوءا مما حدث عندما ثار على "**فيلدنج**" وقال:

- أريد أن أوجه حديثي بشكل خاص إلى السيدات، ولا أريد أن أسبّب أي قدر من القلق. عليكم بالهدوء، ولا تخرجوا إلا في حدود الضرورة، ولا تذهبوا إلى المدينة، ولا تتحدّثوا أمام الخدم.. هذا كل ما هناك.

سألته زوجته وهي واقفة بعيدة عنه بعض الشيء:

- "**هاري**" هل هناك أي أخبار من المدينة؟

- كل شيء عادي بالقطع.

- هذا ما خمنته. هل هذه طبول "**محرم**"؟

- مجرد الاستعدادات له، والعملية لن تتم قبل أسبوع.

- فعلا.. ليس قبل الاثنين.

قالت السيدة "**كاليندار**":

- السيد "**ماك برايد**" موجود هناك متخف كرجل دين؟

قال معلّقا وهو يشير إليها:

- هذا بالضبط الأمور التي لا يجب أن تقال يا سيدة "**كاليندار**"، كوني أكثر حذرا من ذلك من فضلك.

- سأفعل.. سأفعل.

لم تتضايق لأن قسوته تعني أمانها.

- هل هناك أسئلة أخرى؟

قالت السيدة "**ليزلي**" بصوت كنقنقة الدجاج:

- هل الـ . . . أين هو؟

- في السجن . . . لقد رفضت الكفالة.

تحدث "**فيلدنج**" بعد ذلك. كان يريد أن يعرف إن كانت هناك نشرة رسمية حول صحّة الآنسة "**كويستد**"، أم أن التقارير القاسية هي مجرد إشاعات. أحدث سؤاله تأثيرا سيئا، جزء منه بسبب نطقه لاسمها، حيث كان اسمها واسم "**عزيز**" يشار إليه بالتلميحات.

- أتمنى أن يستطيع "**كاليندار**" أن يدعنا نعرف كيف تسير الأمور دون تأخير.

صاح المحصل وهو يصفق يديه ثانية:

- هل تسمح السيدات بترك غرفة التدخين الآن؟ وتذكرن ما قلته. ونحن نطمع أن تساعدونا خلال الوقت الصعب، ويمكنكن أن تساعدونا بالتصرف وكان كل شيء عادي، وهذا كل ما أطلبه فهل يمكنني الاعتماد عليكن؟

خرجن والسيدة "**بلاكستون**" وسطهن كشعلة مقدّسة ذكرتهن كلماته بأنهن في أماكن بعيدة عن الإمبراطورية، وبجوار عاطفة الحب المتعاطف نحو "**عديلة**". برزت عاطفة أخرى، وكانت أولى علاماتها ما صرحت به السيدة "**تورتون**"، وهي أن عليهن أن يخنقن الآنسة "**كويستد**" بعد زمن. عندما خلت غرفة التدخين، جلس المحصل على طرف مائدة، بحيث يستطيع أن يسيطر دون رسميات كان عقله يدور باندفاعات متناقضة. لقد أراد أن ينتقم للآنسة "**كويستد**" ويعاقب السيد "**فيلدنج**"، وأن يظل عادلا. كان يود أن يجلد بالسياط كل وطني يقابله، ولكنه لا يريد إثارة الشغب الذي يستدعي التدخُّلَ العسكري. تنهّد المحصل وجد أنه ليس أمامه سوى الاعتدال والحلول الوسط. اشتاق للأيام القديمة الذهبية حيثما كان الرجل الإنجليزي يُرضي شرفه ولا يُسأل بعد ذلك. المسكين "**هيسلوب**" اتخذ خطوة نحو الحفاظ على شرفه برفض الكفالة، ولكن المحصل لم يستطع أن يحسّ أن ذلك من الحكمة من جانب المسكين "**هيسلوب**". لن يكون "**نواب بهادور**" والآخرون غاضبين فحسب، وإنما أيضا الحكومة الهندية ستراقب وخلفها البرلمان. كان عليه دائما أن يذّكر نفسه بأنه في نظر القانون "**عزيز**" ليس مذنبا وقد أرهقه ذلك. والآخرون كانوا أقل مسؤولية واستطاعوا التصرف بطريقة طبيعية. كان كل منهم يحس أن أكثر من يحبونهم وهم زوجاتهم وأطفالهم معرضون للخطر. وطالبوا بالانتقام وقد امتلأت رؤوسهم بوميض غير سار، فيه اختفت ملامح الآنسة "**كويستد**" الضحلة غير المعروفة. وحل محلها صور أحلى ما عندهم في الحياة الخاصة. كانوا يكررون "أنهم النساء والأطفال"، وكان المحصل يعلم أن عليه أن يمنع الرجال من تسميم أفكارهم، ولكن قلبه لم يطاوعه. لقد كان العديد من هؤلاء النساء والأطفال يرحلون إلى محطة التلّ خلال أيام قلائل، وقد اقترح أنه يمكن شحنهم جميعا في قطار خاص. صاح الملازم أول العسكري الموجود:

- هذا اقتراح جميل! لابد أن يحضر الجيش آجلا أو عاجلا هذا ما كان سيحدث لو كان تل "**باراباس**" تحت السيطرة العسكرية. وضع حفنة من الجنود في مدخل الكهف هو كلّ المطلوب.

علّق أحدهم:

- هل الـ... أين هو؟

- في السجن... لقد رفضت الكفالة.

تحدث "**فيلدنغ**" بعد ذلك. كان يريد أن يعرف إن كانت هناك نشرة رسمية حول صحّة الآنسة "**كويستد**"، أم أن التقارير القاسية هي مجرد إشاعات. أحدث سؤاله تأثيرا سيئا، جزء منه بسبب نطقه لاسمها، حيث كان اسمها واسم "**عزيز**" يشار إليه بالتلميحات.

- أتمنى أن يستطيع "**كاليندار**" أن يدعنا نعرف كيف تسير الأمور دون تأخير.

صاح المحصل وهو يصفق يديه ثانية:

- هل تسمح السيدات بترك غرفة التدخين الآن؟ وتذكرن ما قلته. ونحن نطمع أن تساعدونا خلال الوقت الصعب، ويمكنكن أن تساعدونا بالتصرف وكأن كل شيء عادي، وهذا كل ما أطلبه فهل يمكنني الاعتماد عليكن؟

خرجن والسيدة "**بلاكستون**" وسطهن كشعلة مقدّسة ذكرتهن كلماته بأنهن في أماكن بعيدة عن الإمبراطورية، وبجوار عاطفة الحب المتعاطف نحو "**عديلة**". برزت عاطفة أخرى، وكانت أولى علاماتها ما صرحت به السيدة "**تورتون**"، وهي أن عليهن أن يخنقن الآنسة "**كويستد**" بعد زمن. عندما خلت غرفة التدخين، جلس المحصل على طرف مائدة، بحيث يستطيع أن يسيطر دون رسميات كان عقله يدور باندفاعات متناقضة. لقد أراد أن ينتقم للآنسة"**كويستد**" ويعاقب السيد "**فيلدنغ**"، وأن يظل عادلا. كان يود أن يجلد بالسياط كل وطني يقابله، ولكنه لا يريد إثارة الشغب الذي يستدعي التدخُّلَ العسكري. تنهّد المحصل وجد أنه ليس أمامه سوى الاعتدال والحلول الوسط. اشتاق للأيام القديمة الذهبية حيثما كان الرجل الإنجليزي يُرضي شرفه ولا يُسأل بعد ذلك. المسكين "**هيسلوب**" اتخذ خطوة نحو الحفاظ على شرفه برفض الكفالة، ولكن المحصل لم يستطع أن يحسّ أن ذلك من الحكمة من جانب المسكين "**هيسلوب**". لن يكون "**نواب بهادور**" والآخرون غاضبين فحسب، وإنما أيضا الحكومة الهندية ستراقب وخلفها البرلمان. كان عليه دائما أن يذّكر نفسه بأنه في نظر القانون "**عزيز**" ليس مذنبا وقد أرهقه ذلك. والآخرون كانوا أقل مسؤولية واستطاعوا التصرف بطريقة طبيعية. كان كل منهم يحس أن أكثر من يحبونهم وهم زوجاتهم وأطفالهم معرضون للخطر. وطالبوا بالانتقام وقد امتلأت رؤوسهم بوميض غير سار، فيه اختفت ملامح الآنسة "**كويستد**" الضحلة غير المعروفة. وحل محلها صور أحلى ما عندهم في الحياة الخاصة. كانوا يكررون "أنهم النساء والأطفال"، وكان المحصل يعلم أن عليه أن يمنع الرجال من تسميم أفكارهم، ولكن قلبه لم يطاوعه. لقد كان العديد من هؤلاء النساء والأطفال يرحلون إلى محطة التلّ خلال أيام قلائل، وقد اقترح أنه يمكن شحنهم جميعا في قطار خاص. صاح الملازم أول العسكري الموجود:

- هذا اقتراح جميل! لابد أن يحضر الجيش آجلا أو عاجلا هذا ما كان سيحدث لو كان تل "**باراباس**" تحت السيطرة العسكرية. وضع حفنة من الجنود في مدخل الكهف هو كلّ المطلوب.

علّق أحدهم:

- السيدة "**بلاكستون**" تقول: لو كان هناك عدد ولو قليل من الجنود البريطانيين!

- علّق الملازم صارخا:

- أعطني جنودا من الهنود الجوركا أو السيخ أو البنغال أيّ نوع من الجنود.. المهمّ أن نحسن إدارتهم.

أومأ إليه المحصل مبتسما وقال لبني جلدته:

- لا تبدأوا المناداة بالسّلاح وأريد أن يسير كل شيء بالضبط كالمعتاد إلى أن يحدث ما يستدعي العكس. خذوا النساء إلى التلال ولكن افعلوا ذلك بهدوء وبحق السماء لا أريد أحاديث أخرى عن القطار الخاص. لا تهتمّوا بما تقولون أو تفكرون فيه فلديّ أيضا مشاعر. لقد حاول هندي بمفرده وهو متهم بمحاولة ارتكاب جريمة. ضرب جبينه بطرف أصبعه وأحسّ الجميع أنه يشعر مثلهم وأحبّوه وصمموا ألا يزيدوا من متاعبه.

- تعرفوا على هذه الحقيقة إلى أن تظهر حقائق أكثر. افترضوا أن كل هندي ملاك.

همهموا:

- الحقّ معك وسنفعل... ملائكة... بالضبط..

وجاء من الملازم قوله:

- هذا ما قلته بالضبط. إن الوطني لا بأس به إذا عزلته. هل تذكر يا "**ليزلي**" الشخص الذي لاعبته البولو في الأسبوع الماضي في الميدان. لقد كان لا بأس به. أي وطني يلعب البولو لا بأس به. إن ما يجب أن تتمسكوا بهم هم المثقفون، واهتموا بما أقوله لكم الآن. انفتح باب غرفة التدخين، ودخل هرج حريمي وصاحت السيدة "**تورتون**": "إنها بخير!" وارتفعت صيحات الارتياح من كلا الجانبين. كان الجرّاح المدني الذي جاء بالأخبار قد دخل، وبدا وجهه المرهق الشاحب يبدو معتل المزاج. فحص المجموعة ورأى "**فيلدنج**" جلس فوق مقعد عثماني وقال:

- آه... لا أحد بعيد عن الخطر في هذا البلد طالما كانت الحرارة تسيطر عليه.

بدا أنه كره شفاء مريضته وقد دهش من ذلك كل شخص لا يعرف الميجور العجوز وأساليبه. قال أحدهم:

- قرفص واجلس يا "**كاليندار**" وأخبرنا بكل شيء.

- امنحوني بعض الوقت لأفعل ذلك.

- كيف حال السيدة؟

- الحرارة..

- لقد سمعت زوجتي أنها في تدهور.

- ربما تكون كذلك فأنا لا أضمن شيئا... لا أستطيع حقا أن أغرق وسط الأسئلة يا "**ليزلي**".

- عفوا يا أيها الرجل العجوز!

- "**هيسلوب**" ورائي مباشرة.

عند ذكر اسم "**هيسلوب**" عاد تعبير جميل يعلو الوجوه. الآنسة "**كويستد**" كانت الضحية،

بينما "**هيسلوب**" هو الشَّهيد، وهو المتلقِّي لكل الشرور الموجهة ضدّهم من هذا البلد الذي حاولوا أن يخدموه. لقد كانوا يغلون بداخلهم لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا له، وأحسّوا بأنهم جبناء يجلسون في قهوة منتظرين إجراءات القانون. قال "**كاليندار**":

– أتمنى لو أنني لم أمنح مساعدي إجازة. كان لابد أن أقطع لساني قبل أن أوافق. أن أرفض ثم أستسلم تحت الضغط. هذا هو ما فعلته يا أبنائي... هذا ما فعلته!

أخذ "**فيلدنج**" غليونه من فمه، ونظر إليه في تفكير. ظن "**كاليندار**" أنه خائف فاستمر:

– لقد فهمت أن رجلا إنجليزيا في صحبة البعثة ولهذا استسلمت له.

قال المحصل وهو يخفِّض بصره:

– لا أحد يلومك يا عزيزي "**كاليندار**" نحن جميعا الملومون بمعنى أنه كان من الواجب علينا أن نكتشف أن البعثة ليست مضمونة بالقدر الكافي ومنعناها. كنت أعلم عنها أنا نفسي، وأعرنا سيارتنا في ذلك الصباح لنقل السيدتين إلى المحطة. كلنا مشتركون في هذا ولا يمكن أن نلصق ذرّة لوم بك شخصيا.

– أنا لا أشعر بذلك وأتمنى لو فعلت. المسؤولية أمر جلل ورهيب ولا فائدة عندي للرجل الذي لا يتحمّلها.

اتجهت عيناه نحو "**فيلدنج**" هؤلاء الذين كانوا يعرفون أن "**فيلدنج**" كان قد أخذ على عاتقه مسؤولية مصاحبتهم، وفاته القطار المبكر. كانوا يشعرون بالأسف له، وهذا هو المتوقع عندما يحشر الرجل نفسه مع الوطنيين وينتهي دائما إلى المهانة. والمحصل الذي كان يعلم أكثر، ظل صامتا لأن شعوره الرسمي بداخله لايزال يأمل أن ينضم "**فيلدنج**" إلى الصف. تحول الحديث بعد ذلك إلى النساء والأطفال ثانية، وتحت هذا الستار تملك الميجور "**كاليندار**" من الملازم العسكري وأطلقه طعما لاصطياد ناظر المدرسة. تظاهر أنه سكران أكثر من الحقيقة، وبدأ يقول ملحوظات شبه وقحة... دعّمه الميجور:

– هل سمعت خادم الآنسة "**كويستد**"؟

– لا.. ماذا عنه؟

– لقد أنذر "**هيسلوب**" خادم الآنسة "**كويستد**" الليلة الماضية ألا تغيب عن أنظاره. تمكن السجين منه واستطاع أن يجعلها تتركه خلفهم. لقد رشاه. لقد اكتشف "**هيسلوب**" ذلك في التو بالأسماء والمبالغ. لقد أُعْطي هذا المال لقوّاد معروف لهؤلاء الناس باسم "**محمد لطيف**". ماذا عن صديقنا الإنجليزي... صديقنا هنا؟ كيف استطاعوا التخلص منه هو أيضا؟ بالمال..

نهض "**فيلدنج**" وحوله الهمسات والتمتمات والصيحات، لأن أحدا لم يشكَّ فيه حتى الآن في مدى نزاهته قال الميجور بطريقة متضايقة.

– أوه.. لقد أسيء فهمي وأعتذر لم أقصد أنهم رشوا "**فيلدنج**".

– إذن ماذا تقصد؟

– إنهم دفعوا للهندي الآخر ليؤخّرك.. "**جودبول**" لقد كان يؤدي صلاته وأعرف تلك

الصلوات.

- هذا أمر سخيف!

جلس مرة ثانية وهو يرتجف من الغضب. لقد جروا شخصا وراء الآخر في الوحل. بعد أن أطلق الميجور رصاصته، استعدّ، لإطلاق التالية:

- لقد اكتشف "**هيسلوب**" أيضا شيئا من الأم. لقد دفع "**عزيز**" لقطيع من الوطنيين لخنقها في الكهف، وكان ذلك سيكون نهايتها، لولا أنها خرجت من الكهف، ترتيب لطيف أليس كذلك؟ بعدها استطاع الذهاب مع الفتاة. هو وهي ودليل وفّره أيضا "**محمد لطيف**"، ولا يمكن العثور على الدليل الآن. صرخ عاليا:

- ليس هذا وقت الجلوس وإنما وقت العمل.. يجب استدعاء القوات وإخلاء الأسواق.

لم تكن ثورات الميجور بذات قيمة، ولكنها جعلت كل فرد يشعر بعدم الارتياح. لقد أصبحت الجريمة أسوأ مما يُفترض: منتهى الوقاحة التي لا توصف. منذ عام ١٨٥٧ نسي "**فيلدنج**" غضبه أمام مسألة المسكين "**جودبول**" وأخذ يفكر. إن الشر ينتشر في كل مكان وكأن له وجود خاص به فضلا عن الشرور التي ارتكبها الأفراد بأنفسهم. وفهم لماذا "**عزيز**" و"**حميد الله**" كانا يميلان إلى الرقود والموت. رأى غريمه في مأزق فغامر بالقول:

- أفترض أن شيئا مما قيل لن يخرج من النادي؟

غمز إلى "**ليزلي**" الذي ردّ:

- ولماذا يحدث ذلك؟

- أوه.. لا شيء لقد سمعت فقط إشاعة أن عضوا ما هنا حاضر قابل السجين بعد الظهر.

- هل هناك شخص حاضر هنا يريد ذلك؟

كان "**فيلدنج**" مصمما على ألا ينساق وراءهم. لديه شيء يريد أن يقوله، ولكن في لحظته المناسبة. لم يفلح الهجوم لأن المحصّل لم يدعمه، وتحول الاهتمام بعيدا عنه فترة. ثم ارتفع ضجيج النساء ثانية عندما فتح "**روني**" الباب:

بدا الشاب منهكا ومأساويا وأكثر لطفا عن المعتاد، كان دائما ما يبدي اهتماما برؤسائه، ولكن هذه المرة جاء الاهتمام من صميم قلبه. بدا وكأنه يلتمس الحماية من الإهانة التي لحقت به وبهم، ونهضوا على أقدامهم احتراما له وتعاطفا معه. ولكن أي عمل إنساني في الشرق يكون مشوبا بالصبغة الرسمية، وبينما هم يشرفونه حكموا على "**عزيز**" والهند. أدرك "**فيلدنج**" ذلك وظل جالسا. كان عملا مشينا يفعله، ولكنه أحس بأنه كان سلبيا أكثر من اللازم، وأنه قد يجرفه التيار الخاطئ إذا لم يقم بوقفه. وكان "**روني**" الذي شاهده قد قال بصوت متحشرج:

- أوه أرجوكم أن تجلسوا جميعا. أريد فقط أن أسمع ما تقرّر.

قال المحصل معتذرا:

- يا "**هيسلوب**" لقد كنت أخبرهم أنني ضدً أي مظهر للقوة. لست أدري إن كنت تحس ما أحس به، ولكن هذا هو موقفي. عندما يحدث الحكم فإن ذلك موضوع آخر.

- لا شك أنك تعلم أفضل وأستطيع أن أرى ذلك.

- كيف حال أمك يا ولدي العزيز؟

- أفضل وشكرا لك.. أود لو أن الجميع يجلسون.

قال الملازم الشاب:

- بعضهم لم ينهض أصلا.

استمر "**تورتون**" قائلا:

- وقد أحضر لنا الميجور تقريرا ممتازا عن الآنسة "**كويستد**".

- نعم.. نعم وأنا راض.

قال "**روني**":

- لقد كنت تظن أنها في حالة سيئة قبل ذلك يا "**ميجور**"، ولهذا رفضت الكفالة.

ضحك "**كاليندار**" وقال:

- "**هيسلوب**"! في المرّة القادمة التي يطلب فيها الكفالة، عليك أن تتصل تليفونيا بالعجوز الطبيب قبل أن تمنحها. أوه.. ولكن له أحد الأصدقاء هنا.

صاح الملازم العسكري:

- انهض أيها الخنزير!

قال المحصل وقد دخل المعركة أخيرا:

- يا سيد "**فيلدنج**" لماذا لا تقف؟

لقد كانت هذه هي المعركة التي انتظرها "**فيلدنج**" ولابد أن يردّ عليها:

- هل يمكنني أن ألقي بيانا يا سيدي؟

- بالطبع!

كان "**فيلدنج**" متمالكا لأعصابه، وقد تخلّص من حمّى الوطنية، أو الشباب، وفَعَل ناظر المدرسة الذي كان بالنسبة له أمرا سهلا نهض وقال:

- أعتقد أن الدكتور "**عزيز**" بريء!

- من حقك أن تتمسك بهذا الرأي إذا أردت، ولكن عفوا. ما هو السبب الذي يجعلك تهين السيد "**هيسلوب**"؟

- هل يمكن لي أن أنهي بياني؟

- طبعا.

- أنا أنتظر حكم المحكمة. إذا كان مذنبا فإنني أستقيل من كل خدماتي وأغادر "**الهند**". وأنا مستقيل من النادي الآن.

قالت أصوات ليست كلها عدائية لأنهم أحبوا الرجل لأنه صرّح بذلك.

- اسمعوا.. اسمعوا!

- إنك لم ترد على أيّ سؤال! لماذا لم تقف عندما دخل "**هيسلوب**"؟

– أنا لست هنا للردّ على الأسئلة مع كل احترامي وإنما لأقدّم بيانا شخصيا وقد انتهيت منه.

– هل يمكن أن اسأل؟ هل توليت مسؤولية هذه المقاطعة؟

تحرك "**فيلدنج**" نحو الباب.

– لحظة يا سيد "**فيلدنج**"، غير مسموح لك بالرحيل بعد. قبل أن تغادر النادي والذي أحسنت صنعا بالاستقالة منه عليك أن تقدّم بعض الاحتقار للجريمة وأن تعتذر للسيد "**هيسلوب**".

– هل تتحدث معي رسميا يا سيدي؟

كان المحصل الذي لم يكن يتحدَّث إلا رسميا ثار غضبا لدرجة أنه فقد صوابه وأخذ يصرخ:

– اترك هذه الغرفة في الحال، وأنا آسف عميق الأسف. إنني حقّرت نفسي بمقابلتك في المحطة. لقد انحططت إلى **فيلدنج** معاونيك وأنت ضعيف ضعيف وهذا هو الخطأ فيك.

قال "**فيلدنج**" باستخفاف عندما وقف الملازم في طريقه:

– أريد أن أغادر الغرفة. ولكني لا أستطيع لأن هذا السيد المهذب يمنعني.

قال "**روني**" والدموع توشك أن تطفر من عينيه:

– دعه يذهب.

– هذا هو الالتماس الوحيد الذي أمكن أن ينقذ الموقف. أي شيء يرغبه "**هيسلوب**" لابد من تنفيذه.

حدث هرج عند الباب الذي اندفع "**فيلدنج**" خلاله أسرع من المعتاد متجها إلى الحجرة التي كانت النساء يلعبن الورق فيها.

فكر في نفسه. "تصور إذا سقطت أو ثرت" أن أقرانه لم يستعملوا معه العنف أو ينعتوه بالضعف أبدا من قبل. فضلا عن أن "**هيسلوب**" كوم الفحم المشتعل فوق رأسه. ودّ لو أنه لم يشعل الشجار مع المسكين المعذب "**هيسلوب**" في الوقت الذي كانت تحت يده طرق أنظف. على أي حال، لقد حدث الأمر وورّط نفسه. وحتى يستطيع أن يبرد أعصابه ويستعيد توازنه الذهبي، ذهب إلى الشرفة العليا لفترة، حيث كان أول شيء رآه هو تلال "**ماربار**". وعلى هذه المسافة والساعة ظهرت في جمال "**مونسالفا**" و"**دالهالا**" وهي أبراج الكاتدرائية الممتلئة بالقديسين والأبطال والمغطاة بالزهور. أي كافر يقبع بداخلها حاليا ويمكن اكتشافه بقوة القانون؟ وما هو ذلك الصدى الذي شكت منه الفتاة؟ إنه لا يعرف ولكنه حاليا قد يعرف المعلومة عظيمة وهي التي ستنتصر. إنها آخر لحظة من الضوء. وبينما هو يحدّق إلى تلال "**ماربار**" بدت له وهي تتحرك في رشاقة نحوه كالملكة وسحرها أصبح كسحر السماء. وفي اللحظة التي اختفت فيها كانوا في كل مكان.. البركة الباردة لليل هبطت. ولمعت النجوم وأصبح الكون كله تلا. لحظة محبوبة وساحرة، ولكن مرور الرجل الإنجليزي بها كان على أجنحة سريعة. إنه لم يحس بشيء.. لقد كان الأمر وكأن أحدا أخبره بأن هناك مثل تلك اللحظات. وأنه اضطر لتصديقه. وأحس بالشك وسخط فجأة. وتساءل إن كان هو حقا ناجحا كإنسان بعد أربعين عاما من الخبرة. لقد تعلم أن يتصرَّف في حياته. وأن يصنع منها أحسن شيء ممكن على الخط الأوروبي وأنه طور شخصيته واكتشف حدوده وسيطر على عواطفه، وقد فعل ذلك

ونجح دون أن يصبح مدعيا أو دنيويا. إنه إنجاز يستحق التقدير، ولكن عندما مرّت اللحظة أحس أنه كان من الواجب عليه أن يعمل في شيء آخر طوال الوقت. إنه لم يعرف ما هو. ولن يعرف أبدا. ولن يستطيع أن يعرف ولهذا السبب أحس بالحزن.

الفصل الواحد والعشرون

طرد "**فيلدنج**" ندمه وأسفه باعتباره غير مناسب للأمر الذي بين يديه. وأكمل الجزء الأخير من نهاره بالذهاب على صهوة الجواد إلى حلفائه الجدد. كان سعيدا لأنه قطع صلته بالنادي، لأنه لو استمر به لجمع نفايات الإشاعات من هناك ونقلها إلى المدينة، وسعد لأنه حرم من تلك الفرصة. قد يشتاق إلى ممارسة البلياردو ولعب التنس أحيانا. وأحاديثه مع "**ماك برايد**"، ولكن ذلك كان كل شيء وأصبح الآن يتحرك خفيفا. وعند مدخل السوق وجد صبيا مرتديا زي النمر. لقد بدأ الاحتفال بشهر "**محرم**" – رأس السنة الهجرية– كانت المدينة تقرع العديد من الطبول. ولكن بدت هادئة الطبع. دعي لزيارة ضريح. وكان الأطفال متحمسين وهم يلصقون قصاصات الورق الملون على جوانبه. وقضى بقية الأمسية مع "**نواب بهادور**" و"**حميد الله**" و"**محمود علي**" وآخرين. كانت الحملة أيضا ناجحة. لقد أرسلت برقية إلى المحامي الشهير "**أمريتو**" ووصل الرد بقبوله. كان لابد من تحديد طلب الكفالة، ولم يكن من المتوقع رفضها الآن. والآنسة "**كويستد**" قد تجاوزت مرحلة الخطر. كان المؤتمر جادا وحساسا. ولكن أزعجه مجموعة من الموسيقيين الرحالة الذين سمح لهم بالعزف في المجمع السكني. كانوا شاردين من الضجة فاقترح طردهم. ولكن "**نواب بهادور**" عارضه وقال: إن الموسيقيين الذين قطعوا عدة أميال على أقدامهم قد يجلبون الحظ.

وفي وقت متأخر من الليل مال لأن يخبر الأستاذ "**جودبول**" عن الغلطة التكتيكية والأخلاقية التي ارتكبها عندما كان خشنا مع السيد "**هيسلوب**" ويسمع ما يمكن أن يقوله. ولكنّ الرفيق العجوز كان قد أوى إلى الفراش وقد غرق في وظيفته الجديدة. لقد كان لديه برود الأعصاب لأن ينسحب دائما.

الفصل الثاني والعشرون

رقدت "**عديلة**" لأيام عديدة في بنجالو آل "**ماكبرايد**". كانت قد أصيبت بلفحة من الشمس. وكذلك آلاف أشواك الصبار قد انتزعت من لحمها. ساعة بعد ساعة كانت كل من الآنسة "**ديريك**" والسيدة "**ماك برايد**" يفحصانها بعدسة مكبرة. كانت تستلقي سلبية تحت أصابعهما. وزادت سلبيتها منذ الصدمة التي تلقتها عند الكهف، وبناء عليه، لم تهتم كثيرا إن كانت لمست أم لا.

فإن حواسها جامدة بشكل غير عادي. والاتصال الوحيد الذي توقعته كان اتصال عقلها. كل شيء الآن تحول إلى سطح جسدها الذي بدأ ينتقم من نفسه. أخذت تكرر في نفسها: «إنه من الفضاء حيث الأشياء تتلامس. وفي الزمن الأشياء تفترق». كانت الأشواك تنتزع. وذهنها ضعيف جدا لدرجة أنها لم تستطع أن تقرِّر أي العبارات هي فلسفية. وأيها تلاعب بالألفاظ، لقد كانوا طيبين معها. بل الحقيقة مبالغين للغاية. في حين أن السيدة "**مور**" التي كانت الزائرة الوحيدة التي تريدها كانت تبتعد. لم يفهم أحد متاعبها. أو يعلم لماذا هي تتأرجح ما بين الهيستريا والتعقل. إنها قد تبدأ حديثا، وكأن شيئا محددا لم يحدث وقد تقول بجفاء:

– لقد ذهبت إلى ذلك الكهف الكريه. وأتذكّر أنني خدشت الجدار بظفر إصبعي ليبدأ الصدى العادي. ثم بعد ذلك كما قلت كان هناك ذلك الظل، أو ما يشبهه في نهاية مدخل النفق ثم يحاصرني. لقد بدا لي وكأنه دهر مضى. ولكني أفترض أن الأمر كله لم يستغرق سوى ثلاثين ثانية حقا. لقد ضربته بنظارتي المقربة وسحبني حول الكهف من حزام النظارة فانقطع. هربت، هذا هو كل شيء. إنه في الحقيقة لم يلمسني مرة واحدة. وبدا كل شيء مجرد هراء. طبعا تضايقت ولكني سأتغلب على ذلك.

ثم تنهار تماما. وتحس المرأتان أنها واحدة منهن. وتبكيان هما أيضا، ويهمس الرجال في الحجرة المجاورة.

– يا إلهي يا عظيم! ولم يدرك أحد أنها تظن الدموع شيئا حقيرا وإذلالا أكثر مما عانته في كهف "**ماربار**". وإنكارا لنظرتها المتقدمة وصدق عقلها الطبيعي. لقد كانت "**عديلة**" تحاول دائما أن تخرج الحادث من ذهنها. وهي تذكر نفسها بأن شيئا لم يحدث. لقد كانت هناك الصدمة، ولكن ما هي؟ في وقت كان منطقها يقنعها ثم تسمع الصدى ثانية. وتبكي وتعلن أنها لا تستحق "**روني**" وتأمل أن المعتدي عليها يحصل على أقصى عقوبة. وبعد إحدى تلك النوبات كانت تتوق إلى الخروج إلى السوق. وتطلب السماح من كل شخص تقابله. لأنها أحسَّت بطريقة مبهمة أنها ستترك العالم أسوأ مما وجدته. أحست أنها جريمتها إلى أن يشير عقلها الباطن عندما يستيقظ أنها ليست دقيقة في ذلك ويضعها ثانية على أرضها الجدباء. آه فقط لو استطاعت أن تقابل السيدة "**مور**"! والسيدة العجوز لم تكن هي أيضا بخير وهي عازمة على ألا تخرج. هكذا قال "**روني**".

ازداد الصدى ظهورا وهو يثور لأعلى وأسفل كعصب في غريزة سمعها. والضجة في الكهف التي لم تكن مهمة من الناحية الفكرية تعمّق في سطح حياتها، لقد صدمت الجدار اللامع بلا سبب. وقبل أن يضيع التعليق تبعها، وكانت ذروة الإثارة سقوط نظارتها المقربة. لقد انطلق الصوت وراءها عندما هربت. ثم ثبت مثل النهر الذي يفيض بالتدريج على السهول. السيدة "**مور**" فقط هي التي تستطيع أن تعيده إلى مصدره. وتغلق الخزان المكسور لقد عاد الشر حرا.. وهي تستطيع أن تسمع الشرّ وهو يدخل حياة الآخرين... وقضت "**عديلة**" أياما في جو من الحزن والأسى والإحباط، وكان أصدقاؤها يحافظون على روحها المعنوية عالية، وهم يطلبون إقامة المحارق للوطنيين، ولكنها كانت قلقة للغاية وضعيفة لأن تفعل ذلك.

عندما تم انتزاع كل أشواك الصبار. وهبطت حرارتها جاء "**روني**" ليصحبها بعيدا. لقد هلكت من الشعور بالمهانة، وتمنت لو استطاعت إراحته. ولكن الحديث العملي هو أقل إيلاما وقد أخبرها هو و"**ماك برايد**" الآن شيئا أو اثنين كانا قد كشفا عنهما. منها أثناء الأزمة بناء على تعليمات الطبيب. عرفت لأول مرة باضطرابات شهر "محرم" التي أصبحت تقريبا شغبا. وآخر يوم من الاحتفال ترك الموكب الاحتفالي الطريق الرسمي، وحاول دخول المحطة المدنية. وإنه قطع خطا تليفونيا بسبب دخول أحد الأبراج الورقية الضخمة. وقد نزع "**ماك برايد**" وشرطته ذلك الشيء. لقد كان قطعة فنية. ثم انتقلا بعد ذلك إلى موضوع آخر مؤلم للغاية وهو المحاكمة. لابد أن تظهر أمام المحكمة وتتعرف على السجين. وتخضع للاستجواب من محام هندي. كان كل ما قالته:

– هل يمكن أن تكون السيدة "**مور**" معي؟

ردّ "**روني**":

– بالتأكيد وسأكون أنا موجودا. إن القضية لن تعرض عليّ. فقد اعترضوا عليّ لأسباب شخصية وستقام في "**كاندرابور**". لقد ظننا أنها قد تنقل إلى مكان آخر.

قال "ماك برايد" في حزن:

– إن الآنسة "**كويستد**" تدرك أن ذلك له معنى.

والقضية ستعرض على "**داس**".

كان "**داس**" مساعد "**روني**" وهو شقيق "**بهاتا شاريا**" التي لعبت سيارتها دورا زائفا في الشهر الماضي. كان مجاملا وذكيا. وبالدليل أمامه لا يستطيع أن ينتهي إلى قرار واحد. ولكنه سيجب عليه أن يحكم في قضية فتاة إنجليزية زلزلت المحطة بالعار. وأن بعض النساء أرسلن برقيات بشأنها إلى زرجة الحاكم السيدة "**ميلانبي**".

– لابد أن أقف أمام أحد.

– هذه هي الطريقة لمواجهة الأمر. لديك الشجاعة يا آنسة "**كويستد**".

زادت مرارته حول الإجراءات التي سمّاها ثمرة الديمقراطية. في الأيام الخوالي المرأة الإنجليزية لم تكن مضطرة للظهور. ولا أي هندي يجرؤ على مناقشة شؤونها الخاصة. اعتذر لها عن فوضى البلد. ونتج عن ذلك أزمة جديدة من الدموع.

تجوّل "**روني**" في بؤس في الحجرة بينما هي تبكي وقالت:

– أنا أفعل ذلك في كل يوم وسأصبح هادئة حالا. إن ما أحتاجه هو شيء ما أفعله ولهذا أنا مستمرة في ذلك البكاء السخيف.

قال رجل الشرطة في صدق تام:

– إنه ليس سخيفا ونظنُّ أنك رائعة. إن كل ما يشغلنا هو أننا لا نستطيع مساعدتك أكثر من ذلك. إن توقفك هنا في مثل هذا الوقت كان أعظم شرف للبيت. وبالمناسبة لقد جاء خطاب إلى هنا لك وأنت مريضة وقد فتحته، وهذا اعتراف غريب لابد أن أقدمه ،فهل تسامحينني؟ الظروف خاصة.. إنه من "**فيلدنج**".

- ولماذا يكتب لي؟

- لقد حدث شيء يُعدّ من أكثر الأمور إثارة للحزن.. لقد تمكّن الدفاع من السيطرة عليه.

قال "**روني**" باستخفاف:

- إنه مهووس.. مهووس!

- هذه طريقتك لوصف الأمر. ولكن الرجل يمكن أن يكون مهووسا دون أن يكون نذلا. ومن الأفضل أن تعلم الآنسة "**كويستد**" الآن كيف تتصرف معك. وإذا لم تخبرها فإن شخصا آخر سيخبرها.. إنه الآن يا آنسة "**كويستد**" عصب الدفاع ولا أحتاج أن أضيف: إنه رجل إنجليزي صلب الرأس وسط قطيع من الطغاة، إنه يتلقى وفودا من الأسواق ومن الصعب الدخول في رأس مثل هذا الرجل. وتلاميذه مضربون حماسا من أجله. لقد سبَّب تعطلا خطيرا في كل المجتمع، والخطاب موجود هنا من يومين انتظارا إلى أن تتحسّني بالقدر الكافي. وبعدها سيصبح الموقف خطيرا جدا، لدرجة أنني قررت أن أفتحه في حالة ما إذا كان مفيدا لنا.

قالت في ضعف:

- هل هو كذلك؟

- لا، على الإطلاق. كل ما يقترحه هو أنك ارتكبت خطأ.

نظرت في الخطاب والذي كان حريصا ورسميا في صياغته:

- هل يمكن أن أكون قد فعلت ذلك؟

قرأت "الدكتور "**عزيز**" بريء" وبدأ صوتها يرتجف ثانية:

- ولكن، فكر في سلوكه معك يا "**روني**" بينما كان عليك أن تتحمّل الكثير جدا من أجلي! لقد كان أمرا مذهلا من جانبه. يا عزيزي كيف أعوضك؟

وكيف للمرء أن يعوِّض عندما لا يكون لديه ما يمنحه؟ وما فائدة العلاقات الشخصية عندما يجلب كل شخص أقلّ القليل لهم؟ أشعر بان علينا جميعا أن نعود إلى الصحراء منذ قرون ونحاول أن نصبح أحسن. أريد أن أبدأ من البداية. وكل الأمور التي ظننت أنني تعلمتها هي مجرد عوائق، وهي ليست المعرفة على الإطلاق. أنا غير صالحة للعلاقات الشخصية. حسنا.. دعنا نذهب! طبعا خطاب السيد "**فيلدنج**" لا حساب له. يمكنه أن يظن ويكتب ما يحلو له فقط. لم يكن من الواجب عليه أن يكون وقحا معك في الوقت الذي لديك الكثير لتتحمّله. هذا هو المهم... أنا لا أريد ذراعك فأنا ممن يسيرون بشكل رائع؛ لذا لا تلمسني من فضلك.

تمنّت لها السيدة "**ماك برايد**" وداعا عاطفيا وهي امرأة ليس بها ما هو مشترك معها والتي ودُّها ثقل عليها. لقد حاولت "**كويستد**" أن تتخذ لنفسها خطا خاصا. كانت متواضعة ولكن متمردة. شكرتها فقالت السيدة "**ماك برايد**":

- أوه.. لابد أن يساعد كل منا الآخر.

كانت الآنسة "**ديريك**" موجودة هناك أيضا وهي لاتزال تطلق النِّكات حول مهرانتها ورانبتها المضحكتين. كانت مطلوبة كشاهدة في المحاكمة فرفضت أن تعيد سيارة مهرانتها إلى "**موكول**".

قبلتها كل من الآنسة "**ديريك**" والسيدة "**ماك برايد**" ونادياها باسمها المسيحي. ثم صحبها "**روني**" بالسيارة عائدين. كان الوقت في الصباح المبكر. والجو الحار بدأ يتقدم متورما مثل وحش رهيب تاركا مكانا أقل فأقل للحركة.

وعندما اقتربا من البنجالو قال:

– إن أمي تتطلع شوقا لرؤيتك. ولكنها بالطبع عجوز. ولابد للمرء أن يغفر لها. والناس العجائز. لا يأخذون الأمور كما نتوقّع من رأي.

بدا وكأنه يحذرها من خيبة أمل قريبة. لقد كانت صداقتها مع السيدة "**مور**" عميقة مهما يحدث غير ذلك. زفرت:

– ما الذي أستطيع أن أفعله لأجعل الأمور أيسر بالنسبة لك؟

– ما الذي تقولينه أيتها الفتاة الغالية؟

بكت وصاحت:

– أيها الولد الغالي. هل هي مريضة أيضا؟

طمأنها، ولم يكن الميجور "كاليندار" راضيا. قال "**روني**":

– ولكنك ستجدينها متوترة. نحن عائلة متوترة وسترين بنفسك، ولا شك في أن أعصابي أفلت منها الزمام، وتوقعت أكثر من ذلك من أمي عندما حضرت من المكتب أكثر مما كانت عليه عندما تركتها. وأنا متأكد من أنها ستبذل مجهودا أكثر من أجلك، ومع ذلك لا أزال أتمنى ألا تكون عودتك للبيت مخيّبة لأحد. ولا تتوقعي أكثر من اللازم.

ظهر البيت وكان صورة طبق الأصل من البنجالو الذي غادرته. كان وجه السيدة "**مور**" أحمر ويبدو جامدا ومتورما بشكل مثير للدهشة، وقد تمددت فوق أريكة. لم تنهض عندما دخلا وبدت الدهشة على "**عديلة**" وسط اضطرابها. كانت التحية الوحيدة هي:

– هاأنتما قد عدتما!

جلست "**عديلة**" وأخذت يدها بين يديها، ولكنها سحبتها وأحسَّت بأنها نفرت منها كما خجل الباقون، وبالتالي هي أيضا نفرت من السيدة "**مور**". قال "**روني**":

– هل أنت بخير؟ لقد كنت بخير عندما رحلت.

الحقيقة أنه كان قد شدد على أمه أن تستقبل الفتاة بحرارة ولم يستطع إلا أن يتضايق من تصرفها. قالت بثقل:

– أنا بخير. والحقيقة أنني كنت أنظر في تذكرة عودتي أنها قابلة للتغيير؛ ولذلك فإن لديّ اختيارا أوسع للسفن العائدة للوطن أكثر مما كنت أتوقّع.

– يمكننا أن نعود إلى ذلك فيما بعد. أليس ذلك ممكنا؟

– ربما يريد "**رالف**" و"**ستيلا**" أن يعرفا موعد وصولي.

– هناك فسحة من الوقت لكل هذه الخطط. ما رأيك فيما تبدو عليه "**عديلة**" العزيزة؟

قالت الفتاة بسرعة:

- أنا أعتمد عليك في مساعدتي للخروج من هذا، ومن البركة أن أكون معك ثانية لأن أي أحد غيرك يعدّ غريبا.

ولكن السيدة "**مور**" لم تظهر أي علامات على استعدادها للمساعدة. انبعث منها نوع من الكراهية، وبدا وكأنها تقول في نفسها هل عليها أن تهتم للأبد؟ لقد ذهب حنانها المسيحي. أو تطور إلى قسوة وتوتر وملل ضد الجنس البشري. لم تهتم بموضوع القبض على الجاني. ولم تسأل تقريبا أي سؤال. ورفضت أن تترك سريرها في ليلة "**محرم**" الرهيبة عندما كان من المتوقع هجوم على البنجالو. استمرت "**عديلة**":

- أعرف أنه لا جدوى من أي شيء، ولابد أن يكون لديّ إحساس.. إنني أحاول فعلا.. لم يكن من الضروري عليّ أن أهتم لو حدث ذلك في مكان آخر. على الأقل أنا لا أعرف حقا أين وقع ذلك.

كان "**روني**" مهتمّا بضرورة تحديدها للكهف. لأن الدفاع سيبني أدلته على هذه النقطة بالذات. طمأنها بأن كهوف "**ماربار**" معروف عنها أنها متشابهة.

- نعم هذا ما أقصده ولكن كان هناك صدى صوت أظل أسمعه.

سألت السيدة "**مور**" وهي تهتم بها لأول مرة:

- أي صدى صوت؟

- أنا لا أستطيع التخلّص منه.

- لا أعتقد أنك ستتخلصين منه.

- ما هو هذا الصوت يا سيدة "**مور**"؟

- ألا تعرفين؟

- كلا.. ما هو؟ أرجوك أن تقولي! لقد شعرت بأنك قادرة على شرحه وهذا سيطمئنني..

- إذا لم تكوني تعرفين فلن تعرفي ولن أخبرك.

- أعتقد أنك قاسية لدرجة تمنعك من القول.

قالت المرأة العجوز في مرارة:

- أقول.. أقول.. أقول.. وكان هناك ما يقال! لقد قضيت حياتي في القول أو الاستماع إلى ما يقال. لقد سمعت أكثر من اللازم وحان الوقت لأن أترك في حالي، ليس لأموت.. لا شك في أنك تتوقعين أن أموت، ولكن عندما رأيتكما أنت و"**روني**" متزوجين وأرى الآخرين أيضا عما إذا كانا يريدان الزواج، فإنني سأعتزل في كهف خاص بي في مكان ما حيث لن يحضر شبان ليسألوا أسئلة ويتوقعوا إجابات.. إنه نوع من الرف.

قال لها ابنها بعداء:

- لا بأس بذلك. ولكن في نفس الوقت هناك محاكمة قادمة. وقناعة معظمنا أنه من الأفضل أن نتكاتف معا، ويساعد كل منا الآخر خلال ذلك. بدلا من أن نكون غير لطفاء.. هل ستتحدثين هكذا على منصة الشهود؟

- ولماذا يجب أن أكون على منصة الشهود؟

- لتأكيد بعض النقاط في دليلنا.

- لا صلة لي بمحاكمك القذرة.. لن تجرني إلى هناك!

صاحت "**عديلة**" وأمسكت بيد العجوز التي سحبتها ثانية:

- إنني لن أسمح يجرها إلى هناك أنا أيضا.. لا أريد أي متاعب أخرى بسببي. ودليلها أقلها ضرورة.

- لقد ظننت أنها تريد أن تقدم شهادتها. ولا أحد يلومك يا أمي، ولكن الحقيقة تبقى وهي أنك تخلفت بعد أول كهف وشجعت "**عديلة**" على الذهاب معه بمفردها. في حين أنك لو كنت في حالة جيدة تسمح لك بمواصلة الرحلة لما حدث أي شيء. لقد خطط لذلك. وهذا ما أعرفه. ومع ذلك وقعت في فخه هكذا ببساطة. ووقع فيه من قبلك "**فيلدنج**" و"**أنطوني**".. أرجو أن تسامحيني على الحديث بهذا الوضوح ولكن لا داعي لأن تتخذي هذا الموقف المتعالي ضد محاكم القضاء. إذا كنت مريضة فالأمر يختلف، ولكنك تقولين إنك بخير وهذا ما يبدو عليك، وفي هذه الحالة ظننت أنه من الواجب عليك أن تقومي بدورك فعلا.

قالت "عديلة" وهي تغادر الأريكة وتمسك بذراعه:

- إنني لن أسمح لك بأن تزعجها سواء أكانت سليمة أم مريضة.

ثم تركت ذراعه وهي تزفر وجلست ثانية. ولكن كان سعيدا أنها ثارت في وجهه. ونظر إلى أمه نظرة متسلطة لم يسبق له أن أحس بأنه على راحته معها. لقد كانت أمام الأغراب الأم العزيزة الغالية بتأوهاتها. وقد كشفتها "**الهند**" على حقيقتها. أخبرتهما وهي تضرب على ركبتها:

- سأحضر زواجكما، وليس محاكمتك وبعدها أذهب إلى "**إنجلترا**".

- أنت لا تستطيعين العودة إلى "**إنجلترا**" في شهر مايو (أيار) كما وافقت.

- لقد بدَّلت رأيي.

قال الشاب وهو يذرع الغرفة:

- حسنا.. من الأفضل أن تنهي هذا الشجار غير المتوقع، يبدو أنك ترغبين في أن تتخلي عن كل شيء.

- يا لجسدي المسكين.. لماذا لم يكن قويا؟ لماذا لا أستطيع أن أذهب وينتهي كل شيء؟ لماذا لا أستطيع أن أنهي كل واجباتي وأنتهي؟ لماذا أصاب بالصداع والانتفاخ عندما أسير؟ وكل الأوقات عليَّ أن أفعل هذا وذاك بطريقتها. وأن كل شيء بتعاطف ويختلط ويثقل على أكتاف الآخرين. ولماذا لابد من فعل أي شيء؟ أنا لا أستطيع أن أفهم.. ولماذا هذا الزواج؟ إن الجنس البشري كان من الممكن أن يكون شخصا واحدا من قرون لو كان الزواج بلا فائدة.. وكان هذا الهراء عن الحب..

قال وقد فاض به الكيل:

- ما الذي تريدينه؟ هل يمكن أن توضحيه بلغة سهلة؟

- أريد أوراق اللعب الفردية.

- حسنا خذيها!

وجد الفتاة المسكينة تبكي. وهناك هندي كالعادة ملتصق بالنافذة يتنصَّت. تضايق جدا وجلس في صمت لحظة، وهو يفكر في أمه وتدخُّلها. تمنى لو أنه لم يطلب منها زيارة "**الهند**" أو ألا يصبح ملتزما نحوها بأي التزام.

- حسنا يا فتاتي العزيزة.. إن هذا ليس حنينا للوطن.. لم أكن أتوقع أن تكون قد أخفت ذلك في كمها!

كفّت "**عديلة**" عن البكاء وقد ظهر على وجهها تعبير غير عادي شبه ارتياح وشبه رعب. كررت: "**عزيز**"! "**عزيز**"!

كان الجميع يتجنبون ذكر هذا الاسم. لقد أصبح مرادفا لقوة الشر. لقد كانوا ينادونه بالسجين والشخص المعنى والدفاع، ورنين اسمه الآن بدا وكأنه أول حركة في معزوفة.

- "**عزيز**"! هل ارتكبت خطأ؟

صاح وهو غير مندهش كثيرا:

- أنت مرهقة فوق اللازم.

- "**روني**"، إنه بريء.. لقد ارتكبت غلطة شنيعة!

-حسنا.. على أية حال اجلسي.

نظر حول الغرفة ولم يشاهد سوى ببغاوين يطارد كل منهما الآخر. أطاعته وأمسكت بيده. ربَّتها، وابتسم، وشهقت وكأنها صعدت على سطح الماء ثم لمست أذنها:

- إن صدى صوتي أحسن!

- هذا حسن.. وستكونين على أحسن حال خلال أيام قليلة، ولكن عليك أن توفِّري جهدك للمحاكمة. "**داس**" زميل ممتاز وجميعنا سنكون معك.

- ولكن يا عزيزي "**روني**" ربما من الأفضل ألا تكون هناك محاكمة!

- لست أعرف بالضبط ماذا تقولين. ولا أظنك تعرفين أيضا.

- إذا كان الدكتور "**عزيز**" لم يفعلها يجب إطلاق سراحه.

أحسّ "**روني**" برجفة مثل رجفة الاحتضار تسري في جسده:

- لقد أطلق سراحه من أول "**محرم**" حيث الشغب وقع وكان لابد من إعادته للسجن ثانية.

قص عليها الحكاية المسلية ليسري عنها حول أن "**نور الدين**" سرق سيارة "**نواب بهادور**" وسقط هو و"**عزيز**" في حفرة في الظلام وسقط كلاهما وأصيب "**نور الدين**" بقطع في وجهه. وقد غرق صراخهما وسط صيحات المؤمنين. ومرّ وقت طويل قبل إنقاذهما بواسطة الشرطة. نقل "**نور الدين**" إلى مستشفى "**مينتو**" وأعيد "**عزيز**" إلى السجن بتهمة إضافية وهي الإخلال بالنظام العام. استأذن منها دقيقة. وذهب إلى التليفون ليسأل الدكتور "**كاليندار**" بالحضور بأسرع ما يمكن، لأنها لم تتحمل المشوار من المستشفى إلى البيت. وعندما عاد كانت في أزمة عصبية، ولكن في شكل جديد. تعلقت به وهي تنتحب:

- ساعدني على أداء ما يجب عليّ.. "**عزيز**" طيب، وأنت سمعت أمك تقول ذلك؟

- سمعت ماذا؟
- أنه طيب.. ولقد أخطأت خطأ شنيعا باتهامه.
- أمي لم تقل هذا قط.
- ألم تفعل؟
- إنها لم تذكر هذا الاسم قط.
- ولكن يا "**روني**" لقد سمعتها.
- مجرد خيال ووهم. إنك لا يمكن أن تكوني بخير. لماذا تخلطي الأمور هكذا؟
- أظن أنني لن أخلط بين الأمور.. يا له من شيء مذهل!
- لقد كنت أنصت لكل ما تقوله إن كان من الممكن الإنصات إليها، إنها أصبحت غير مفهومة جدا.

عندما انخفض صوتها قالتها في النهاية عندما تحدثت عن الحب.. لا أستطيع أن أتابع، ولكن وقتها قالت: «"**عزيز**" لم يفعلها قط».

- هل هذه هي كلماتها؟
- الفكرة أهم من الكلمات.
- إطلاقا يا فتاة.. إنه وهم تام.. إن اسمه لم يذكر بأي حال من أحد. انظري هنا.. أنت تخلطين ذلك مع خطاب "**فيلدنج**".

صاحت وهي تشعر بالارتياح التام:

- هذا هو.. هذا هو! أعرف أنني سمعت الاسم في مكان ما. وأنا ممتنة جدا لك لتوضيح ذلك. إنه نوع الغلطة التي أقلقتني وأثبتت أنني عصبية.
- إذن لن تقولي إنه بريء مرة أخرى أليس كذلك؟ لأن كل خادم عندي جاسوس.

ذهب إلى النافذة.. كان الخادم من طائفة "المالي" قد ذهب أو بالأحرى استدار نحو طفلين صغيرين ومن المستحيل أنهم يفهمون الإنجليزية، ولكنه طردهم وشرح قائلا:

- إنهم جميعا يكرهوننا، سيكون الأمر كله على ما يرام لأنني سأقول لهم إنهم يصدقون الحقيقة الكاملة.

عادت السيدة "**مور**" وعلى وجهها نفس تعبير المزاج المعتل وجلست بعنف إلى مائدة اللعب. أراد "**روني**" أن يزيل الحيرة والفوضى. سألها إن كانت قد ذكرت السجين. لم تستطع أن تفهم السؤال، وكان لابد من شرح السبب فردّت:

- أنا لم أذكر اسمه قط.
- لقد ظننت أنك قلت إن "**عزيزا بريء**" ولكن كان ذلك في خطاب السيد "**فيلدنج**".

ردّت بلا اكتراث، وكانت هذه أول مرة تعبّر فيها عن رأيها حول القضية:

- طبعا هو بريء.

قالت الفتاة:

- أترى يا "**روني**" ! لقد كنت على حق.

- لست على حق.. إنها لم تقل ذلك قط.

- ولكنها تظن ذلك.

- ومن يهتم بما تقوله؟ إنها تستطيع أن تظن وكذلك "**فيلدنج**"، ولكن هناك شيئا اسمه الدليل.

- أعرف ولكن..

سألت السيدة "**مور**" وهي ترفع عينيها نحوهما:

- مرة ثانية، هل من واجبي أن أتكلّم؟

- واضح أنك ستظلين تقاطعينني. تكلمي فقط لو كان عندك شيء معقول.

- أوه.. يا له من أمر مملّ وتافه!

بدا وكأنها كمن استهزأت بالحب. كان عقلها يتحرك نحوهم من مكان بعيد جدا ومن خارج الظلام:

- لماذا كل شيء من واجبي؟ متى سأصبح حرّة من فوضاكم؟ هل كان هو في الكهف؟ وهل كنت أنت في الكهف؟ وهكذا دواليك.. وهل نحن ولد لنا طفل؟ وهل نحن وهبنا طفلا.. وهل أنا طيّبة، وهل هو شرير، وهل أنقذنا؟ والذي ينهي كل شيء هو الصدى.

قالت "**عديلة**" وهي تتحرك نحوها:

- أنا لا أسمعها جيدا.. عليك أن نرسلها بعيدا، وأنت لا تفعلين سوى الخير، أنت طيبة جدا.

تحدثت السيدة "**مور**" بهدوء وهي تستأنف لعب الورق:

- أنا لست طيبة ولا شريرة. أنا امرأة عجوز سيّئة وكريهة. لقد كنت طيبة مع الأطفال وهم يكبرون. وكذلك قابلت ذلك الشاب في مسجده وأردته أن يكون سعيدا. طيبا وسعيدا.. الناس الصغار الطيبون لا وجود لهم وهم مجرد حلم.. ولكني لن أساعدك لتعذيبه لما لم يفعله أبدا. هناك مختلف الطرق للشر وأنا أفضل طريقتي عن طريقتك.

قال "**روني**" بلهجة رسمية:

- هل لديك أي دليل في صالح السجين؟ إذا كان الأمر كذلك. فمن واجبك الثقيل أن تذهبي إلى منصة الشهود من أجله بدلا من أجلنا، ولن يمنعك أحد.

ردت عليه بحدة واحتقار:

- المرء يعرف أخلاق الناس كما تقول. لقد سمعت الإنجليز والهنود معا يتحدّثون حديثا جيدا. وأحسست أنه ليس نوع الشيء الذي يمكن أن يفعله السجين.

- ضعيف.. ضعيف يا أمي!

- أكثر ضعفا.

- وعدم تقدير على الإطلاق من "**عديلة**"!

قالت "**عديلة**":

- سيكون الأمر مذهلا للغاية لو كنت على خطأ وعليَّ أن أتخلّص من حياتي.

استدار نحوها:

– ما الذي كنت أحذرك منه؟ أنت تعرفين أنك على حق وكل المحكمة تعرف ذلك.

– نعم.. نعم.. لقد كان رهيبا. أنا متأكدة من أنه تبعني، ولكن أليس من الممكن أن تسحب القضية؟ أنا مرعوبة من فكرة تقديم الدليل. وأنتم جميعا طيبون مع النساء هنا. ولديكم قوة أكثر مما لديكم في "**إنجلترا**". انظر إلى سيارة الآنسة "**ديريك**".. أوه أنا آسفة لذكر ذلك.

– لا بأس بذلك.. طبعا نسيتكم كما تقولين. ولكن لقد عرضت القضية أمام القاضي الآن. ولابد أن تبدأ آليا.

مالت "**عديلة**" نحو البكاء نتيجة هذه الملحوظة القاسية والتقط "**روني**" قائمة سفن السفر البخارية، ولديه فكرة ممتازة في رأسه: "لابد لأمه أن تغادر "**الهند**" في الحال إنها تضر نفسها أو تضر أحدا آخر هناك".

الفصل الثالث والعشرون

سعدت السيدة" **ميلاني**" زوجة نائب حاكم المقاطعة من الالتماس الموجه إليها من سيدات "**كاندرابور**". إنها لا تستطيع أن تفعل شيئا. ثم إنها كانت ستبحر إلى "**إنجلترا**"، ولكنها رغبت أن تخطر إن كان باستطاعتها إظهار أي تعاطف بأي طريقة أخرى، وأجابت السيدة "**تورتون**" بأن أم السيد "**هيسلوب**" تحاول أن تحصل على رحلة، ولكنها تأخرت أكثر من اللازم، وأن كل السفن ممتلئة. فهل كان باستطاعة السيدة "**ميلاني**" أن تستخدم نفوذها؟ كانت السيدة "**ميلاني**" سيدة لطيفة للغاية، وأرسلت برقية تعرض الإقامة والإعاشة للسيدة الغامضة العجوز في مقصورتها المحجوزة. لقد بدا الأمر أنه هبة من السماء. ولم يستطع "**روني**" المتواضع والشاكر إلا أن يفكر في أن هناك تعويضات لكل محنة. كان اسمه معروفا في مقر الحكومة بفضل المسكينة "عديلة". والآن السيدة "**مور**" ستطبعه في ذاكرة السيدة "**ميلاني**" عندما ترحلان معا عبر المحيط الهندي. ومنه إلى البحر الأحمر. وبذلك حصلت السيدة "**مور**" على كل ما تتمناه. لقد أفلتت من المحاكمة والزواج والجو الحار. وستعود إلى "إنجلترا" في راحة وتميز وترى طفليها الآخرين. وبناء على اقتراح ابنها وبرغبتها الخاصة رحلت. ولكنها تقبلت حسن حظها بلا حماس. لقد أتت إلى هذه الولاية حيث كل أهوال الكون وحيث كل صغرها.. كلاهما ظاهر في وقت واحد. إنه الشغف للرؤية المزدوجة التي يصاب بها بعض كبار السن. وإذا كان هذا العالم ليس على ذوقنا.. حسنا فإنه في كل الأحداث هناك السماء والجحيم والفناء، وواحد أو آخر من تلك الأمور الضخمة هي الخلفية الضخمة للنجوم أو الحرائق أو الزرقة أو الهواء الأسود. وكل تلك المعاناة البطولية. وكل ما هو معروف بأنه فن يفترض أن هناك خلفية تماما. مثل كل أنواع المعاناة العملية عندما يكون العالم على ذوقنا، ويفترض أن العالم كل لا يتجزأ.

ولكن من شغف الرؤية المزدوجة فإنه ينشأ تشوش وخلط روحي، لا يمكن العثور على كلمات

واضحة المعنى لوصفه. ولا نستطيع أن نتصرف ولا أن نكبح جماحنا عن التصرف. ولا نستطيع أن نتجاهل ولا نحترم الفناء. لقد كانت السيدة "**مور**" دائما تميل إلى التصميم. ما إن رست على بر "**الهند**" حتى بدت لها أنها جيدة، وعندما رأت الماء يفيض في خزان المسجد. أو أن نهر "الجانجز" أو القمر وسط وشاح الليل مع كل النجوم الأخرى بدت رحلتها هدفا جميلا وسهلا، وأن تكون واحدة من هذا العالم! لقد كانت وقورا وبسيطة للغاية. ولكن كان هناك دائما واجب صغير لابد من القيام به أولا. أوراق جديدة لابد أن تقلب على ظهرها من بين مجموعة الأوراق المتناقصة في لعبة الصبر. وبينما هي تتمتع بوجودها إذا بناقوس "**ماربار**" يدق.

ما الذي قيل لها في ذلك الفراغ المحيط داخل الجرانيت؟ ما الذي تردَّد في أول الكهوف؟ إنه شيء صغير جدا وعجوز جدا. قبل الزمن وقبل الفضاء أيضا. شيء ما أفطس الأنف وغير قادر على الكرم، إنه الدودة التي لا تموِّت نفسها. ومنذ أن سمعت صوته لم تستطع أن تمارس أي فكر كامل. وهي في الحقيقة تجسد "عديلة" كل هذه الضوضاء حول فتاة مرعوبة! لم يحدث شيء. وماذا إذا حدث؟ وجدت نفسها تفكر في وقاحة كاهنة ساحرة شريرة. وإذا كان قد حدث فإن ذلك أسوأ شرورا من الحب. إن المحاولة غير المفهومة قدمت نفسها إليها في صورة الحب في كهف. أو في كنيسة. إنها قنبلة ترتقي إلى نفس المستوى. إن الرؤى من المفروض أنها تتضمن السعة والوفرة في الخيال ولكن... انتظر- عزيزي القارئ- حتى تحصل على إحدى هذه الرؤى! قد تكون جهنم هي أيضا جميلة، وثعبان الأبدية المصنوع من النزوات! لقد كان تفكير السيدة "مور" المستمر هو: «أقل انتباه لابد أن يعطى إلى زوجة ابني المستقبلة والأكثر لي. لا يوجد أسف مثل أسفي». ورغم أنه عندما أعطي لها كل الاهتمام رفضته في ملل وضيق.

لم يستطع ابنها أن يصحبها إلى "**بومباي**" لأن الوضع المحلي استمر حادا. وكان على كل المسؤولين أن يبقوا في مواقعهم. ولم يستطع "أنطوني" أن يذهب معها أيضا خوفا من ألا يعود ليقدم شهادته؛ لذلك سافرت دون أحد يمكن أن يذكرها بالماضي. لقد كان هذا نوعا من الخلاص. كانت الحرارة قد انخفضت قبل الموجة الحارة التالية، والرحلة كانت لا بأس بها. غادرت "**كاندرابور**" والقمر بدر يضيء سطح "الجانجز" في خطوط فضية. ثم ينحرف ليدخل نافذتها. لقد كان قطار البريد السريع والمريح يجري مع أفكارها عبر الليل. وطوال اليوم التالي كان يندفع خلال وسط "**الهند**". عبر المناظر الطبيعية. راقبت حياة الإنسان التي لا يمكن تحطيمها. ووجوهها المتغيرة. والمنازل التي بناها لنفسه ولله، والتي بدت لها، ليس في إطار مشاكلها الخاصة وإنما كأشياء ترى. كان هناك مثلا مكان يسمى "**أسيرجار**" مرت به عند غروب الشمس، وحددته على الخريطة وهو غابة هائلة بين التلال المشجرة. لم يذكر أحد لها قط "**أسيرجار**" هذه، ولكن كان لها بساتين فخمة، ونبيلة، وضخمة وعلى يمينها يوجد مسجد. لقد نسيته، ولكن بعد دقائق ظهرت "**أسيرجار**" مرة ثانية. والمسجد الآن عن يسار البساتين. كان القطار أثناء هبوطه عبر "**فينداس**" قد دار نصف دورة حول "**أسيرجار**". ما الذي يمكن أن تربطه بها سوى اسمها؟ لا شيء، فهي لا تعرف أحدا يعيش هناك. استيقظت وسط الليل فزعة لأن القطار كان يهبط فوق صخرة شرقية. اندفعت

ذرا تلال مضيئة من القمر نحوها وكأنها شراشيب البحر. بعدها ظهر جزء من السهل والبحر الحقيقي وفجر "بومباي" كثيف الضباب. فكرت في أنها لم تشاهد الأماكن الصحيحة عندما وجدت نفسها على أرصفة المحطة النهائية "**فيكتوريا**" ونهاية خطوط السكك الحديدية التي حملتها عبر القارة. ولا يمكن أن تعيدها ثانية. إنها لن تزور "**أسيرجار**" أو أي أماكن أخرى لم تمسسها، ولا مدن الكهوف؟ إنه شيء صغير جدا وعجوز جدا. قبل الزمن وقبل الفضاء أيضا. شيء ما أفطس الأنف وغير قادر على الكرم إنه الدودة التي لا تموت نفسها. ومنذ أن سمعت صوته لم تستطع أن تمارس أي فكر كامل. وهي في الحقيقة تحسد "**عديلة**" كل هذه الضوضاء حول فتاة مرعوبة! لم يحدث شيء. وماذا إذا حدث؟ وجدت نفسها تفكر في وقاحة كاهنة ساحرة شريرة. وإذا كان قد حدث فإن ذلك أسوأ شرورا من الحب. إن المحاولة غير المفهومة قدمت نفسها إليها في صورة الحب في كهف. أو في كنيسة. إنها قنبلة ترتقي إلى نفس المستوى. إن الرؤى من المفروض أنها تتضمن السعة والوفرة في الخيال ولكن... انتظر- عزيزي القارئ- حتى تحصل على إحدى هذه الرؤى! قد تكون جهنم هي أيضا جميلة، وثعبان الأبدية المصنوع من النزوات! لقد كان تفكير السيدة "**مور**" المستمر هو: «أقل انتباه لابد أن يعطي إلى زوجة ابني المستقبلة والأكثر لي. لا يوجد أسف مثل أسفي». ورغم أنه عندما أعطي لها كل الاهتمام رفضته في ملل وضيق.

لم يستطع ابنها أن يصحبها إلى "**بومباي**" لأن الوضع المحلي استمر حادا. وكان على كل المسؤولين أن يبقوا في مواقعهم ولم يستطع "أنطوني" أن يذهب معها أيضا خوفا من ألا يعود ليقدم شهادته. لذلك سافرت دون أحد يمكن أن يذكرها بالماضي. لقد كان هذا نوعا من الخلاص. كانت الحرارة قد انخفضت قبل الموجة الحارة التالية والرحلة كانت لا بأس بها. غادرت "**كاندرابور**" والقمر بدر يضيء سطح "**الجانجز**" في خطوط فضية. ثم ينحرف ليدخل نافذتها. لقد كان قطار البريد السريع والمريح يجري مع أفكارها عبر الليل. وطوال اليوم التالي كان يندفع خلال وسط "**الهند**". عبر المناظر الطبيعية. راقبت حياة الإنسان التي لا يمكن تحيطمها. ووجوهها المتغيرة. والمنازل التي بناها لنفسه وله. والتي بدت لها. ليس في إطار مشاكلها الخاصة وإنما كأشياء ترى. كان هناك مثلا مكان يسمى "**أسيرجار**" مرت به عند غروب الشمس، وحددته على الخريطة وهو غابة هائلة بين التلال المشجرة لم يذكر أحد لها أبدا "**أسيرجار**" هذه، ولكن كان لها بساتين فخمة، ونبيلة، وضخمة وعلى يمينها يوجد مسجد. لقد نسيته، ولكن بعد دقائق ظهرت "أسيرجار" مرة ثانية. والمسجد الآن عن يسار البساتين. كان القطار أثناء هبوطه غير "**فينداس**" قد دار نصف دورة حول "أسيرجار" ما الذي يمكن أن تربطه بها سوى اسمها؟ لا شيء فهي لا تعرف أحدا يعيش هناك. استيقظت وسط الليل فزعة لأن القطار كان يهبط فوق صخرة شرقية. اندفعت ذرا تلال مضيئة من القمر نحوها وكأنها شراشيب البحر. بعدها ظهر جزء من السهل والبحر الحقيقي وفجر "بومباي" كثيف الضباب. فكرت أنها لم تشاهد الأماكن الصحيحة عندما وجدت نفسها في أرصفة المحطة النهائية "**فيكتوريا**" ونهاية خطوط السكك الحديدية التي حملتها عبر القارة. ولا يمكن أن تعيدها ثانية إنها لن تزور "**أسيرجار**" أو أي أماكن أخرى لم تمسها ولا مدن "**دلهي**" ولا "**أجرا**" ولا

"**راجبونانا**" . ولا تمثال "شير بيلجولا" ولا أنقاض "**ماندو**" و"**هامبي**" ولا معابد "خاجراها" ولا حدائق "**شاليمار**" . وبينما هي تسير بالعربة خلال المدينة الضخمة التي بناها الغرب ثم هجرها في حركة يأس اشتاقت إلى أن تقف رغم أنها مجرَّد "**بومباي**"، وأن تختلط بمئات الهنود الذين يمرون في الشوارع. تحركت أقدام جياد العربة إلى الأمام. والآن تبحر السفينة، وتظهر آلاف نخيل جوز الهند حول المرسى. وتصعد التلال لتلوح وداعا. ضحكت وهي تقول في نفسها: "إذن لقد ظننت أن "**الهند**" صدى! فهل اعتبرت كهوف "**ماربار**" نهاية؟ ما هو المشترك بيننا وبينهم أو بينهم وبين "**أسيرجار**"؟ وداعا!"

ثم دارت السفينة البخارية حول "**كولوبا**" . ودارت القارة حولها وصخرة "**غاتز**" ذابت وسط غمام البحر الاستوائي.

استدارت السيدة "**ميلاني**"نحوها ونصحتها بالا تقف تحت أشعة الشمس قالت السيدة "**ميلاني**" :

- أنت في أماكن خارج قدر القلي.. ولا يجب أبدا أن تسقطي وسط النار.

الفصل الرابع والعشرون

زادت سرعة ارتفاع درجة الحرارة بعد رحيل السيدة "**مور**" لدرجة عانى منها الوجود. والمراوح الكهربائية أخذت تهمهم، والمياه ترش على المسطحات، وبالخارج ما بين السماء الرمادية والأرض المصفرّة هناك سحابات من الغبار تتحرك في تردد. أما في "**أوربا**" فإن الحياة انسحبت من البرد الذي ينتج عن الجلوس أثناءه بجوار النيران أساطير، ولكن الانسحاب هنا هو انسحاب من مصدر الحياة ومن الشمس الخادعة. وليس هناك أشعار تزيِّنها بسبب أن الوهم لا يمكن أن يكون جميلا. والرجال يحنُّون إلى الشعر رغم أنهم قد لا يستطيعون الاعتراف بذلك. إنهم يرغبون أن تكون البهجة حلوة والأسف مهيبا. وأن تكون الأبدية لها شكل. وأن تفشل "**الهند**" في أقلمتهم وفوضى إبريل (نيسان). السنوية التي تنتشر بطريقة قذرة ومثيرة للضجر مثل القرحة هي إحدى التفسيرات حول الآمال القديمة للإنسانية والسمك يتصرف أفضل، والسمك مثل الخزانات التي تجف وتتكرمش إلى طين وتنتظر الأمطار لتحليلها. ولكن الرجال يحاولون أن يكونوا منسجمين طوال العام، والنتائج من حين لآخر كارثة. وماكينة الحضارة المنتصرة قد تفسد فجأة، وتتوقف وتتحول إلى عربة من الحجارة. وفي مثل تلك اللحظات فإن مصير الإنجليز يشبه مصير أسلافهم الذين دخلوا أيضا البلاد بهدف تحديثها، ولكنهم في النهاية عملوا وسط حضارتهم وترابهم.

و"**عديلة**" بعد سنوات من التعليم والثقافة استأنفت ركوعها المسيحي الصباحي. لا يبدو أن هناك أي ضرر في ذلك. لقد كان ذلك أقصر وأسهل طريق مختصر إلى المجهول، ويمكنها أن تلقي بمتاعبها عليه تماما كما طالب الكتبة الهندوس "**لاكشمي**" بأن يزيد من مرتباتهم، فإنها هي أيضا توسلت

إلى الرب أن يصدر حكما رحيما.

والرب الذي ينقذ الملك لابد أنه سيساند الشرطة. إن معبودها سيجيب بالدعم. ولكن لمسات يدها على وجهها أصدرت حرارة قائظة. وبدت وكأنها تبتلع وتخرج نفس كتلة الهواء التي لا طعم لها التي ثقلت على رئتيها. كما أزعجها صوت السيدة "**تورتون**" الذي انبعث من الغرفة المجاورة.

– هل أنت مستعدة أيتها السيدة الشابة؟

– نصف دقيقة.

كان آل "**تورتون**" قد استقبلوها بعد رحيل السيدة "**مور**"، كانت رقتهما غير معقولة. ولكن وضعها وليس أخلاقها هو الذي حرك مشاعرهم. إنها الفتاة الإنجليزية التي مرت بالمحنة الرهيبة والتي لا يمكن فعل الكثير من أجلها. لا أحد سوى "**روني**" كان لديه فكرة بما يمر في عقلها. وهو وحده الذي عرف بشكل غير واضح؛ لأنه عندما يكون هناك رسميات فإن أي علاقة إنسانية تعاني.

قالت له وهي حزينة:

– أنا لم أجلب عليك سوى المتاعب. لقد كنت بخير ونحن في الميدان. ومن الأفضل لو أصبحنا صديقين فقط.

ولكنه كان يحتج لأنه كلما زادت معاناتها ارتفعت قيمتها عنده. هل تحبه؟ كان هذا السؤال يسحب للخارج مع "**ماربار**". لقد كان في ذهنها وهي تدخل إلى الكهف المحتوم. هل هي قادرة على حب أحد؟

– يا آنسة "**كويستد**" أو "**عديلة**" كما تحبين أن أناديك.. إنها السابعة والنصف. ويجب أن نفكر في أن نبدأ التحرك للمحكمة عندما تحبين.

جاء صوت المحصل:

– إنها تصلي.

– آسفة يا عزيزتي.. خذي الوقت الكافي. هل أعجبك الطعام؟

– أنا لا أستطيع أن آكل. هل يمكنني أن أحصل على بعض الشراب؟

تركت عبادتها وعندما جاء "الشراب" ارتجفت وقالت إنها مستعدة للذهاب.

– اشربيه فهو ليس سيئا.

– لا أعتقد أنه سيفيدني حقا.

– هل أرسلت "الشراب" هناك إلى المحكمة يا "**ماري**"؟

– كان لابد أن أتذكر أن أفعل ذلك، و"شمبانيا" أيضا؟

قالت "**عديلة**":

– سأشكرك هذا المساء وأنا الآن محطمة إربا.

كانت تنطق كل مقطع بعناية. وكانت متاعبها ستنتهي لو حددت كلامها بدقة. كانت تخشى من التردد في حالة ما إذا ظهر شيء لم تتوقعه. وقد تمزقت مع السيد "**ماك برايد**" بطريقته الغريبة الدقيقة على وصف مغامراتها في الكهف. وكيف أن الرجل في الحقيقة لم يلمسها. وإنما جرّها إلى

داخله وهكذا. . كان هدفها هذا الصباح أن تعلن بمنتهى الدقة أن التوتُّر مذهل. وأنها من المحتمل أن تنهار تحت استجواب الأستاذ "**أمريترو**" وتجلب العار على أصدقائها قالت لهم:

- لقد عاد إليّ صدى الصوت مرة ثانية.

لم تكن قادرة على طرد الطنين من أذنيها. وقد شخَّص الميجور "**كاليندار**" ذلك بأنه وهم، والذي لا يجب تشجيعه؛ لذلك غيّر آل "**تورتون**" الموضوع. كانت موجة باردة صغيرة مرّت على سطح الأرض. وتفصل الليل عن النهار. وقد تذهب بعد عشر دقائق ولكن يمكنهم الاستفادة بها للمشوار إلى المدينة. كررت "**عديلة**":

- أنا متأكدة من أنني سأنهار.

قال المحصل وصوته مليء بالحنان:

- إنك لن تفعلي.

- ولكن يا سيدة "**تورتون**".

- نعم يا طفلتي العزيزة.

- إذا انهرت فلن يكون لذلك تبعات. كان يهم لو أن بعض المحاكمات وليست هذه المحاكمة حدث فيها ذلك. أنا أفسر الأمر لنفسي على هذا النحو: أستطيع حقا أن أتصرف كما أرغب وأن أصرخ، وأن أكون غريبة الأطوار، وأنا واثقة بأنني سأحصل على حكمي ما لم يكن السيد "**داس**" ظالما بدرجة فظيعة.

- من المفترض أنك ستفوزين.

لم يذكرها السيد "**تورتون**" بأنه سيكون هناك استئناف. لقد موّل "**نواب بهادور**" الدفاع وهو على استعداد لإفلاس نفسه ولا يهلك مسلم بريء. وهناك مصالح أخرى أقل شهرة في الخلفية أيضا. ربما تنتقل القضية من محكمة إلى أخرى مع مواقف لا يمكن لأي مسؤول أن يتنبأ بها. وعندما دارت السيارة خارج المجمع السكني. كان هناك شريط غاضب فوق طلائه. وألقى أحد الأطفال بحصاة، بينما سقطت أحجار أكبر بالقرب من المسجد. وفي الميدان قامت فرقة من الشرطة الوطنية على الدراجات البخارية بالانتظار لترافقهم عبر الأسواق. كان المحصل متوترا. قالت السيدة "**تورتون**":

- بعد احتفالات "محرم" لا مانع من استعراض للقوة، ومن السخرية أن تدعي أنهم لا يكرهوننا.

رد عليها زوجها بصوت غريب وحزين:

- أنا لا أكرههم. لست أدري لماذا. على أية حال فإن نساءنا هن اللاتي يجعلن كل شيء صعبا هنا.

لمح بعض العبارات الفاحشة على جدار عريض خال فاشتعل حقده تحت قناع اللياقة والفروسية نحو الآنسة "**كويستد**" انتظارا ليوم انفجاره. وتجمع بعض الطلبة أمام محكمة قضاء المدينة. أولاد مهووسون كان من الممكن أن يواجههم لو كان بمفرده. ولكنه أخبر السائق أن يسير حول المبنى إلى خلفه. بينما صاح "**رافي**" المختفي وسط زملائه حتى لا يتعرف إليه أحد ناعتا الإنجليز بالجبن.

وصلوا إلى غرفة "**روني**" الخاصة حيث تجمع مجموعة من أعماله هناك. وبدأت التقارير تتدفّق تباعا. لقد أضرب الكناسون لتوّهم، والكناسون من المقاطعة الذين كانوا أقل اقتناعا ببراءة "**عزيز**" قد يحضرون بعد الظهر وينهون الإضراب، ولكن لماذا يحدث الحادث الفاحش؟

وعدد من النساء المسلمات أقسمن ألا يأخذن أي طعام إلى أن يتم براءة السجين، وموتهن لن يشكل سوى اختلاف بسيط. ولأنهن غير مرئيات فإنهن بالفعل موتى، ومع ذلك فإن قرارهن يسبب القلق. هناك ميل إلى مشاهدة "**فيلدنج**" وراء تلك الروح خارج المحكمة والتي لا يستطيع أي رجل أبيض تفسيرها. لقد انتهت فكرة أنه ضعيف ونذل. لقد بخسوا "**فيلدنج**" حقه.. ولقد شوهد بصحبة المستشارين "**أمريترو**" و"**محمود علي**". لقد شجّع حركة الكشافة لأسباب تحريضية... ولقد تلقى أخبارا عليها طوابع أجنبية من المحتمل أنها من جاسوس ياباني. إن حكم هذا الصباح يمكن أن يحطّم هذا المرتد. ولكنه أدى لبلده وللإمبراطورية إساءات لا تعدُّ ولا تحصى.

وعندما وجهوا له الاتهام. كانت الآنسة "**كويستد**" جالسة ويداها على مستوى مقعدها، وقد أغلقت عينيها تحاول توفير قوتها. قالت الآنسة "**ديريك**":

- ألا نستطيع أن نفعل شيئا لك؟

- لا أظن ذلك يا "**نانسي**" ويبدو أنني لا أستطيع أن أفعل شيئا لنفسي.

- ولكنك ممنوعة تماما من الكلام هكذا.. أنت رائعة!

قال "**روني**" وهو يبدأ موضوعا جديدا بلهجة منخفضة:

- إن صديقي "**داس**" على ما يرام.

ناقضه الميجور "**كاليندار**":

- ولا واحد منهم على ما يرام.

- بل "**داس**" حقا على ما يرام.

قالت "**ليزلي**" وهي تضحك:

- أتعني أنه أكثر خوفا من منح البراءة عن الإدانة؛ لأنه إذا برّأه فإنه سيخسر وظيفته؟

كان "**روني**" في الحقيقة يحب أن صديقه "**داس**" يمتلك حقا الشجاعة الأدبية، وقد أوضح ذلك من وجهة نظر واحدة. إنه من الخير أن يتولى هندي القضية. الإدانة كان لابد منها؛ لذا كان من الأفضل أن ينطقها هندي، وبالتالي لن تحدث فوضى على المدى الطويل. قالت السيدة "**تورتون**" بحرارة واضحة:

- الحقيقة أنت لا توافق على الالتماس الذي رفعته إلى السيدة "**ميلاني**". أرجوك لا تعتذر يا سيد "**هيسلوب**" أنا معتادة أن أكون في الجانب الخطأ.

- أنا لم أقصد هذا.

- حسنا.. لقد قلت لك ألا تعتذر.

قال "**ليزلي**" مساندا للسيدة "**تورتون**":

- هؤلاء الخنازير هم دائما منتظرون للشكوى.

قال الميجور "**كاليندار**" مؤيدا:

- خنازير. هذا هو ظني وما هو أكثر أن ما حدث هو شيء جيد وملعون. وإذا ما عزلناه عن التطبيق على الشلّة الحالية فإنه سيجعلهم يصرخون، وهذا هو الوقت الذي يجب فيه أن يصرخوا. لقد زرعت الخوف الرهيب فيهم في المستشفى على أية حال. كان الأحرى أن تشاهدوا حفيد ذلك المدعو زعيم الموالين. إنه يقهقه سخرية في وحشية، وهو يصف مظهر المسكين "**نور الدين**".

- لقد ذهب جماله، فقد خمس أسنان سفلى واثنتين علويتين وإحدى فتحتي أنفه. لقد أحضره العجوز "**بانالال**" أمام المرآة بالأمس وقد انتفخ وجهه. لقد ضحكت عليه وظننته تعفن.. لعنة الله عليه وعلى روحه.. إنني أعتقد أنه بلا أخلاق بدرجة لا توصف. أتمنى لو أنني أستطيع أن أطرد مساعدي الآخر.

بكت السيدة "**تورتون**" وأحس زوجها بعدم الارتياح:

- أخيرا سمعنا كلاما معقولا.

- هذا ما أقوله.. أقول ليس هناك شيء مثل القسوة بعد عمل كهذا.

- بالضبط، وتذكر ذلك فيما بعد أيها الرجل.. أنتم ضعفاء.. ضعفاء لماذا؟ إنهم كانوا لابد أن يزحفوا على أيديهم وركبهم إلى الكهوف عندما تكون أي امرأة أمام أنظارهم، ولا يجب الحديث إليهم، ويجب البصق عليهم، ويجب أن يُمرَّغوا في التراب. لقد كنا رحيمين بهم أكثر من اللازم في حفلاتنا "البريدج" وخلافه.. ضعاف! ضعاف! والعملية تكررت. والقضية التي أثارتها الآنسة "**كويستد**" أكثر أهمية بكثير منها هي شخصيا والتي سينساها الناس.

نودي للنظر في القضية.

كانت المقاعد قد دفعتهم إلى داخل القاعة؛ لأنه كان من المهم أن يظهروا مكرمين. وعندما أعد الحجاب والسعاة كل شيء دخلوا الحجرة المتداعية ذات الهواء اللطيف، وكأنها كبينة في معرض. قال المحصل نكتة رسمية وهو يجلس. ابتسم لها المحيطون به والهنود الذين لم يستطيعوا سماعها، أحسوا بنوع من القسوة وإلا لما قهقه الصحاب.

كانت المحكمة مزدحمة وبالطبع شديدة الحرارة، وكان أول شخص لاحظته "**عديلة**" كان أكثرهم تواضعا، وهو شخص لا ثقل له رسمي في المحكمة، وهو الذي يهز المروحة السقفية، كان شبه عار وجسده رائع، وجلس على منصة عالية بالقرب من الخلف في وسط الممشى الركزي، وقد أثار انتباهها عندما دخلت، وبدا وكأنه يتحكم في الإجراءات. كان لديه القوة والجمال الموجودين في الزهور الهندية ذات المولد الوضيع. وعندما يقترب ذلك الجنس من التراب ويحكم عليه بأنه منبوذ، فإن الطبيعة تتذكر الكمال الجسدي الذي تكمله في مكان آخر، وتلقيه على واحد هنا وواحد هناك لتثبت للمجتمع كيف أن أصنافها القليلة يمكن أن تؤثر فيها. ذلك الشخص كان من الممكن أن يكون مرموقا في مكان آخر بين حقراء "**كاندرابور**" ذوي الصدور الضحلة والأجساد ذات الجلد على عظم، ويقف بينهم كشيء مقدس، رغم أنه من المدينة.. لقد غذته قمامتها وقد ينتهي فوق أكوامها. كان يشدُّ حبل المروحة نحوه، ويرخيه بطريقة منتظمة، ويرسل تيارات من الهواء للآخرين

ولا يستقبل هو شيئا منه. وبدا أنه كان منعزلا عن مصائر البشر الآخرين. وفي الجهة المقابلة له جلس على منصة أخرى مساعد قاض ضئيل مثقف يحس بذاته ومنتبه. كان محرك مروحة السقف بدون أي من تلك الصفات، وكان بالكاد يدرك أنه موجود، ولا يفهم لماذا المحكمة ممتلئة أكثر من المعتاد. والحقيقة أنه لم يكن يعرف أنها مملوءة أكثر من المعتاد، ولا حتى يعرف أنه يشغل المروحة رغم أنه كان يشد الحبل. شيء ما في عزلته أثر في الفتاة التي من الطبقة الوسطى الإنجليزية: هل بسبب أنها جمعت كل هذا الحشد من الناس؟ بأي حق تدعي هي ورفاقها كل هذه الأهمية في العالم ويستحقون لقب المتحضرين؟ والسيدة "**مور**".. ولكن السيدة "**مور**" كانت بعيدة فوق البحر.. إنه نوع السؤال الذي كان من الممكن مناقشته وهم بعيدون في البحر قبل أن تتحول السيدة العجوز إلى شخص غريب الأطوار وغير لطيف.

بينما "**عديلة**" تفكر في السيدة "**مور**" سمعت أصواتا أصبحت بالتدريج مميزة. لقد بدت محاكمة العصر، وكان المشرف العام على الشرطة قد فتح القضية أمام الادعاء. وجد السيد "**ماك برايد**" صعوبة في أن يصبح محدثا مهما، وترك البلاغة للدفاع التي قد يحتاج إليها، وكان مسلكه هو أن كل فرد يعرف أن الرجل مذنب. وأنه ليس مضطرا إلى أن يقول ذلك علنا. إنه لم يحدث أي انفعال أخلاقي أو عاطفي. لقد وصف بنشاط وقائع الرحلة. لقد قابل السجين الآنسة "**كويستد**" في حفل سمر أقامه ناظر المدرسة الحكومية، ومن هناك تولدت نياته نحوها.. لقد كان السجين رجلا له حياة متحررة منفلتة حسب المستندات التي وجدت معه وقت القبض عليه والتي تشهد بذلك. وكذلك زميله المساعد الدكتور "**بانالال**" كان في وضع يسمح له بإلقاء الضوء على أخلاقه. وأن الميجور "**كاليندار**" نفسه يمكن أن يتحدث عنها. وهنا توقف السيد "**ماك برايد**" لقد أراد أن تكون الإجراءات نظيفة قدر الإمكان. سيطر على مستمعيه كعادته قبل النطق بالحقيقة العامة ونظر إليهم في حزن. ولكن سمع تعليقا من مكان غير محدَّد.

– حتى عندما تكون السيدة أكثر قبحا من الرجل بدرجة كبيرة؟

ربما جاء التعليق من السقف، وكان هذا أقل مقاطعة ووجد القاضي نفسه مضطرا لإلغائها من المحضر وقال:

– أخرجوا هذا الرجل!

أمسك أحد رجال الشرطة الوطنية بخناق رجل لم يقل شيئا وطردوه إلى الخارج بخشونة. واستأنف السيد "**ماك برايد**" استعراضه ولكن التعليق أزعج الآنسة "**كويستد**" ورفضت أن يوصف جسدها بالقبح فارتجفت. سألتها الآنسة "**ديريك**" التي كانت ترعاها:

– هل توشكين على الإغماء يا "**عديلة**"؟

– أنا لا أحس بأي شيء يا "**نانسي**".. سأتغلب على ذلك، ولكنه رهيب.. رهيب!

أدى ذلك إلى سلسلة من المشاهد. بدأ أصدقاؤها يحدثون جلبة حولها وصاح الميجور:

– كان لابد أن أعد ترتيبات أحسن من هذه لمريضتي. لماذا لم تمنح مقعدا فوق المنصة؟ إنها لا تحصل على أي هواء.

بدا السيد "**داس**" متضايقا وقال:

- سيسعدني لو زودت الآنسة "**كويستد**" بمقعد هنا نظرا لظروفها الصحية الخاصة.

نقل الحجاب ليس مقعدا واحدا فحسب وإنما عدة مقاعد وتبعت كل الفرقة "**عديلة**" إلى المنصة. وكان السيد "**فيلدنج**" هو الأوربي الوحيد الذي بقي وسط القاعة.

قالت السيدة "**تورتون**" معلقة وهي تجلس:

- هذا أفضل.

رد الميجور:

- بالقطع هذا تغيير مهم ومرغوب لأسباب عدة.

عرف القاضي أن عليه أن يتجاهل هذا التعليق، ولكنه لم يجرؤ ورأى "**كاليندار**" أنه خائف فنادى بسلطة:

- حسنا يا "**ماك برايد**" استمر الآن وآسف للمقاطعة.

سأل المشرف العام:

- هل أنتم أنفسكم بخير؟

- لا بأس.

قال المحصل في تسلط:

- هيا استمر يا سيد "**داس**". لسنا هنا لإزعاجك.

بينما المحاكمة مستمرة فحصت الآنسة "**كويستد**" القاعة في خجل في البداية. وكأنها تحقّر من عينيها. لاحظت على اليسار واليمين بجانب مروحة "**البونكا**" العديد من الوجوه شبه المعروفة بينما تجمّع أسفل منها كل حطام محاولتها البلهاء لرؤية حقيقة "**الهند**". الناس الذين قابلتهم من حقل "**البريدج**"، والرجل وزوجته اللذين لم يرسلا عربتهما، والرجل العجوز الذي أراد أن يعيرها سيارته، والعديد من الخدم والقرويين والموظفين الرسميين والسجين نفسه. ها هو جالس هناك قويا ونظيفا.. هنديا ضئيل الحجم وشعره فاحم السواد وقد ضم يديه. منذ آخر مرة التقيا فيها رفعته إلى مرتبة الشر، ولكنه الآن بدا لها كما كان مثل ذلك مجرد معرفة خفيفة. لقد كان لا يستحق الذكر، وخاليا من المعنى وجافا كالعظمة. ورغم أنه كان مذنبا فإنه لم يحط به أي جو من الخطيئة. فكرت في أنها تفترض أنه مذنب.. ولكن هل ممكن أن تكون قد ارتكبت غلطة؟ لقد ظل هذا السؤال يتردد على ذهنها رغم أنه منذ رحيل السيدة "**مور**" كف ذلك السؤال عن إزعاج ضميرها.

نهض المحامي "**محمود علي**" الآن وسأل بسخرية سافرة إن كان عميله يمكن أن يجلس على المنصة أيضا. قالت الآنسة "**ديريك**":

- هذا مثل آخر لروح الدعابة عندهم.

نظر "**روني**" إلى "**داس**" ليرى كيف سيعالج الموقف وأصبح السيد "**داس**" ثائرا ووبخ المحامي بعنف.

جاء دور المحامي الشهير من "كلكتا" والذي كان رجلا أنيق المظهر، عريض الصدر، ونحيفا له شعر

أشيب.

– أرجو المعذرة.. إننا نعترض على حضور كل هذا العدد الكبير من السيدات الإنجليزيات والسادة على المنصة. إنه سيكون لهم تأثير في إخافة شهودنا. إن مكانهم مع الجمهور وسط القاعة. لا اعتراض لنا على الآنسة "**كويستد**" أن تظل على المنصة نظرا لأنها ليست على ما يرام. وسنقدم لها كل احتراماتنا وتقديرنا رغم الحقائق العلمية التي قدمها لنا المشرف العام على شرطة المقاطعة، ولكننا نعترض على الآخرين.

زمجر الميجور:

– اقطع هذه الثرثرة وأصدر الحكم!

حدق الزائر المرموق إلى القاضي في احترام. قال السيد "**داس**" وهو يخفي وجهه يأسا في بعض الأوراق:

– أوافق على ذلك. لقد أعطيت الموافقة للآنسة "**كويستد**" فقط أن تجلس هنا. وليتفضل أصدقاؤها بالنزول.

قال "روني" بصدق مذهل:

أحسنت العمل يا "**داس**".. عمل رائع!

صاحت السيدة "**تورتون**":

– نهبط حقا.. يا لها من قحة لا تصدق!

همهم زوجها:

– تعالي بهدوء يا "**ماري**"!

– إن مريضتي لا يمكن تركها بلا رعاية.

– هل تعترض على الجراح المدني أن يبقى على المنصَّة يا سيد "**أمريترو**"؟

– لابد أن أعترض فالمنصة توحي بالسلطة.

قال المحصل وهو يحاول أن يضحك:

– حتى وإن كان المرء مرتفعا بقدر قدم.. هيا بنا جميعا.

قال السيد "**داس**" وقد شعر بالارتياح:

– أشكرك كثيرا يا سيدي. شكرا لك يا سيد "**هيسلوب**" شكرا لكن أيتها السيدات جميعا.

وهبطت الفرقة بما فيها الآنسة "**كويستد**" من عليائهم وانتشرت أخبار إذلالهم سريعا، وهتف الناس بالخارج، اعترض "**محمود علي**" بسذاجة على وجود المقاعد المميزة وتساءل لماذا لم يمنح السيد "**نواب بهادور**" مقعدا مميزا مثلهم؟ بدأ الناس يتكلمون داخل الحجرة كلها عن المقاعد العادية والممتازة وشرائط السجاد والمنصة بارتفاع قدم. ولكن الرحلة القصيرة إلى ومن المنصة كان لها تأثير حسن على أعصاب الآنسة "**كويستد**". أحست بالارتياح أكثر الآن. لأنها استطاعت أن ترى كل الناس في القاعة. كانت وكأنها عرفت الأسوأ وأنها متأكدة أنها ستمر إلى الأحسن دون عار روحي ومرَّرت الخبر إلى "**روني**" والسيدة "**تورتون**" لقد كانوا متوترين للغاية بهزيمة المكانة

البريطانية. ومن المكان الذي جلست فيه تستطيع أن ترى "**فيلدنج**" المرتد. لقد كانت تراه أفضل من فوق المنصة وعرفت أن طفلا هنديا جلس على ركبته. كان يراقب المحاكمة ويراقبها هي، وعندما التقت عيونهما أشاح بعيدا وكأنها غير مهمة.

كان القاضي أيضا أكثر سعادة. لقد كسب المعركة الخاصة بالمنصَّة واسترد ثقته بنفسه. كان ذكيا وغير متميِّز، واستمر يستمع إلى الدليل، وحاول أن ينسى. إنه فيما بعد لابد له أن ينطق بالحكم وفقا للدليل. تقدم المشرف العام على الشرطة في ثبات إلى الأمام.. لقد توقع مثل هذه الوقاحة والاعتراضات وهي الحركات الطبيعية للطبقات الدُّنيا، ولم يظهر أي كراهية لـ"**عزيز**" وإنما مجرد احتقار.

تعامل الحديث طويلا مع ما أسماه "المخدوعون بالسجين" وهم السيد "**فيلدنج**" والخادم "أنطوني" و"**نواب بهادور**". كانت هذه المظاهر في القضية دائما مما تنظر إليها الآنسة "**كويستد**" على أنها خادعة، وأنها طلبت من الشرطة ألا تتمادى فيها. ولكنهم كانوا يلعبون على الوتر الحسَّاس. ويحاولون أن يثبتوا أن الاعتداء كان عن عمد وترصُّد. ومن أجل أن يوضحوا الاستراتيجية وضعوا خريطة لتلال "**ماربار**" موضحين الطريق الذي اتخذته الصحبة، وخزان "داجر" الذي عسكروا عنده.

أظهر القاضي اهتماما بعلم الآثار. سأل "**محمود علي**" وهو يتظاهر بالكشف عن مؤامرة:

- في أي كهف ادعت وقوع الاعتداء؟ وكهف "بوذا" أم "جين"؟
- كل كهوف "**ماربار**" "جين".
- حسنا يا سيدي وفي أي كهف "جين" حدث؟
- سيتاح لك الفرصة لأن توجِّه هذا السؤال فيما بعد.

ابتسم السيد "**ماك برايد**" أمام حماقتهم. الهنود لا يختلفون في انهيارهم على مثل هذه النقاط. وكان يعرف أن الدفاع لديه أمل متوحش في وجود حجة غياب، وأنهم حاولوا وفشلوا في التعرف إلى المرشد، وأن "**فيلدنج**" و"**حميد الله**" ذهبا إلى "**كاوادول**" وقاسوا كل خطوة على ضوء القمر.

- إن السيد "**ليزلي**" يقول إن الكهوف "بوذية" ولكن كان عليه أن يعرف بالتأكيد قبل أن يقول، ولكن هل يمكنني أن أسترعي الانتباه للشكل؟

ثم شرح ما حدث هناك، ثم تحدث عن وصول الآنسة "**ديريك**". وعن التزحلق لأسفل الخليج، وعن عودة السيدتين إلى "**كاندرابور**" وعن المستند الذي وقعته الآنسة "**كويستد**" عند وصولها، والذي فيه ذكرت النظارة المقرَّبة ثم جاء الدليل الدامغ وهو اكتشاف النظارة المقربة، مع السجين وختم بيانه وهو يخلع نظارته قائلا:

- ليس لدي ما أضيفه حاليا. والآن سأنادي الشهود والحقائق ستتحدث عن نفسها، والسجين هو واحد من الأفراد الذين عاشوا حياة مزدوجة. وأستطيع أن أقول إن انحلاله قد سيطر عليه تدريجيا. لقد كان شديد المكر والتخفي. وهذه عادة هذا النوع، وتظاهر بأنه عضو محترم في المجتمع لدرجة أنه حصل حتى على وظيفة رسمية. إنه الآن شرير تماما وغير قابل للإصلاح. هذا ما أخشاه. لقد تصرَّف بمنتهى الوحشية والقسوة مع إحدى ضيوفه، سيدة إنجليزية أخرى، بهدف التخلص منها،

وأن تتركه حرا لارتكاب الجريمة عندما سمعتها في الكهف بين خدمه، وعلى أي حال، هذا أمر أذكره بالمناسبة.

ولكن كلماته الأخيرة أحدثت عاصفة أخرى وفجأة انطلق اسم آخر في المحكمة كدوامة هوائية هو السيدة "**مور**" وغضب "**محمود علي**" وانفجرت أعصابه وأخذ يصيح كالمجنون. وسأل إن كان زبونه متهم بجريمة قتل، بالإضافة إلى الاغتصاب، ومن هي السيدة الإنجليزية الثانية؟

- أنا لا أعتقد أنه يجب استدعاؤها.

- أنت لا تريد لأنك لا تستطيع.. لقد هربتها خارج البلاد.. إنها السيدة "**مور**" وهي التي كان من الممكن أن تثبت براءته فهي في جانبنا إنها صديقة للهندي المسكين.

صاح القاضي:

- كان باستطاعتك أن تستدعيها بنفسك. لم يستدعها أي من الطرفين ولم يذكرها أحد كشاهد.

- لقد أبعدت عنا حتى فات الوقت.. لقد عرفت بذلك بعد فوات الأوان. هذه هي العدالة الإنجليزية وهذا هو الحكم البريطاني. أعد إلينا السيدة "**مور**" لمدة خمس دقائق فقط وهي ستنقذ صديقي وستنقذ أسماء أبنائه. خذ هذه الكلمات يا سيد "**داس**" باعتبارك أنت نفسك أبا وأخبرني أين وضعوا السيدة "**مور**".

قال "**روني**" بجفاء:

-إنه ما كان سيتدخل، ولكن الهجوم بدأ، وأنه إذا كان من المهم أن يعرفوا فإن والدته الآن وصلت إلى "**عدن**".

كان "**محمود علي**" قد فقد صوابه تقريبا وهو يصيح:

- لقد سجنتها هناك لأنها تعرف الحقيقة.. إنني لا أهتم بتحطيم مهنتي ونحن نتحطم واحدا بعد الآخر..

نصحه القاضي:

- هذه ليست الطريقة التي تدافع بها عن قضيتك.

- أنا لا أدافع عن قضية ولا أنت تحاكم قضية. إن كلينا عبد.

- يا سيد "**محمود علي**" لقد سبق أنني حذَّرتك بالفعل وما لم تجلس فإنني سأمارس سلطاتي.

- افعل ذلك، فإن هذه المحاكمة مهزلة. وأنا ذاهب..

ثم ناول أوراقه لـ"**أمريترو**" ورحل وهو يصيح عند الباب في هيستيريا وبعاطفة وانفعال بالغ:

- "**عزيز**".. "**عزيز**"... وداعا للأبد.

زاد الهرج والفوضى وكان ذكر السيدة "**مور**" قد استمر، والناس الذين لم يكونوا قد عرفوا معنى المقاطع اللفظية كانوا يرددونها في انبهار. حاول القاضي أن يهدد دون جدوى إلى أن استهلك سحر اللحظة نفسه. علق "**تورتون**":

- أمر غير متوقع!

قدم "**روني**" التفسير: قبل أن تبحر أمه قد أخذت تتحدث عن "**ماربار**" في نومها خاصة بعد الظهر عندما كان الخدم فوق الشرفة. ولا شك في أن كلماتها غير المترابطة بيعت لـ"**محمود علي**" مقابل مبالغ زهيدة (ملاليم).. وأن هذا النوع من **الأمور** لن ينتهي من الشرق.

نظر في أفواههم المفتوحة على آخرها:

- لقد ظننت أنهم سيحاولون مثل هذا الشيء.. سذاجة، وهم يحصلون على ذلك من دينهم.. ابدأ ولن تتوقف، وأنا آسف بالنسبة لك أيها العزيز "**داس**".. إنه لن يحصل على شيء من هذا العرض.

قالت الآنسة "**ديريك**" وهي تميل إلى الأمام:

- يا سيد "**هيسلوب**" إنه لعار أن يجر باسم أمك العزيزة.

- إنها مجرد خدعة وحدث أنهم فجروها والآن ستكتشف لماذا استخدموا "**محمود علي**".. لمجرد أن يقدِّم مشهدا مثيرا. إنه تخصصه، ولكنه يكره ذلك أكثر مما يظهر. إنه أمر منفر أن يسمع أمه وقد تحولت إلى "**اسمس أسمور**" وهي إلهة هندوكية.

- "**روني**"!

- نعم أيتها الفتاة العزيزة.

- أخشى أن الأمر مزعج جدا لك.

- لا، على الإطلاق فإنه لا يهمني.

- حسنا.. هذا جيد.

كانت "**عديلة**" تتحدث معه بطريقة طبيعية وصحية أكثر من المعتاد. مالت وسط صديقاتها وقالت:

- لا تقلقوا بشأني.. أنا أحسن بكثير مما كنت. وشكرا لكم على كل عطفكم.

كان عليها أن ترفع صوتها لدرجة الصياح لأن أغنية "**اسمس أسمور**" استمرت تتردد، وفجأة توقفت. قال السيد "**أمريترو**" أمام دهشة الجميع.

- أعتذر نيابة عن زميلي فهو صديق حميم لعميلنا ومشاعره جرفته بعيدا.

قال القاضي:

- على السيد "**محمود علي**" أن يعتذر شخصيا.

- بالضبط يا سيدي، ولكننا عرفنا فقط الآن أن السيدة "**مور**" لديها دليل مهم أرادت أن تقدمه. لقد استعجلوا خروجها من البلاد بواسطة ابنها قبل أن تدلى بشهادتها، وهذا السيد "**محمود علي**" الذي لم يمكن أن نكبح جماحه. تصور أن ذلك كان محاولة لإخافة شاهدنا الأوربي الوحيد السيد "**فيلدنج**". وما كان السيد "**فيلدنج**" ولا "**محمود علي**" ليقولا شيئا لو أن السيدة "**مور**" استدعيت بواسطة الشرطة كشاهدة.

جلس المحامي وقال القاضي:

- لقد أدخل عنصر غريب وغير مهم في القضية. ويجب أن أكرر أن السيدة "**مور**" غير موجودة

كشاهد. وليس من حقك أنت يا سيد "**أمريترو**" ولا السيد "**ماك برايد**" أن يخمن ما يمكن أن تكون السيدة "**مور**" قالته. إنها ليست موجودة هنا وبالتالي لا تستطيع أن تقول شيئا.

قال المشرف العام بطريقة غريبة:

- حسنا، أسحب إشارتي لها، وكنت على استعداد أن أفعل ذلك من ربع ساعة لو أتيحت لي الفرصة. ليس لها أهمية على الإطلاق بالنسبة لي.

وأضاف في مرح ساخر:

- ولقد سحبتها بالفعل من الدفاع. وربما يمكنه أن يقنع السادة بالخارج أن يسحبوها هم أيضا.

كان اللحن في الخارج مستمرا. قال "**داس**" مبتسما:

- أخشى أن سلطاتي لا تمتد إلى هذا البعد.

وبذلك أعيد الحفاظ على السلام، وعندما أتى دور "**عديلة**" لتدلي بشهادتها كان المناخ أهدأ مما كان عليه عند بدء المحاكمة، ولكن الأزمة على وشك الحدوث.

لقد كانت "**عديلة**" تنوي دائما أن تقول الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة وتمرنت على ذلك باعتبارها مهمة شاقة. شاقة لأنها مرتبطة بكارثتها في الكهف وبجزء من حياتها بخيط رفيع. ذلك الجزء هو خطبتها للزواج من "**روني**". فكرت في الحب قبل أن تدخل المحكمة مباشرة وسألت "**روني**" ببراءة عن حال الزواج، وافترضت أن السؤال أثار الشر بداخله. وإعادة حساباتها بشأن ذلك كان مؤلما بشكل لا يصدق.. إنها النقطة الوحيدة التي تريدها غامضة. كانت على استعداد للإدلاء بتفاصيل يمكن أن تدخل اليأس في قلوب الفتيات الأخريات، ولكن حكاية فشلها الخاص لم تجرؤ أن تشير إليها، وكانت تخشى أن تعرض علنا في حالة حدوث شيء ما. ولكن ما إن نهضت لترد وسمعت صوتها حتى لم تعد تخشى ذلك. حماها إحساس جديد وغير معروف وكأنه حب عظيم. لم تفكر فيما حدث أو حتى تذكرت بالطريقة العادية وإنما عادت بذاكرتها إلى تلال "**ماربار**"، وتحدثت خلالها عبر نوع من الظلام إلى السيد "**ماك برايد**". لقد عاد اليوم المحتوم ثانية بكل تفاصيله. ولكنها الآن خارجه، وليست خارجه في آن واحد، وتلك العلاقة المزدوجة منحتها روعة لا توصف. لماذا ظنت أن البعثة كانت كئيبة؟ الآن أشرقت الشمس ثانية وانتظر الفيل وكتل الصخر الباهتة برزت حولها وقدمت أول كهف، ودخلته، وانعكس ضوء ثقاب على الجدران اللامعة، وكلها جميلة وذات مغزى رغم أنها كانت عمياء عن رؤيتها هكذا في المرة السابقة. طرحت الأسئلة ووجدت الرد على كل منها بالضبط. نعم.. لقد لاحظت خزان "داجر" ولكنها لم تعرف اسمه.. نعم السيدة "**مور**" تعبت بعد أول كهف وجلست تحت الظل بجوار صخرة كبرى بالقرب من الطين الجاف.

استمر الصوت البعيد في التقدم برقة يقودها بين ممرات الحقيقة والهواء من مروحة "**البونكا**" يندفع خلفها.

- لقد صحبك السجين والدليل إلى "**كاوادول**"... ألم يكن هناك أحد حاضرا؟

- نعم أحسن أشكال تلك الكهوف..

بينما هي تتكلم خلقت صورة لـ"**كاوادول**" ورأت التجاويف عند منحنى الصخرة وأحست بالحرارة تصدم وجهها وشيئا تسبب في أن تقول:

- لا أحد آخر كان موجودا حسب معلوماتي ويبدو أننا كنا بمفردنا.

- حسنا جدا.. هناك شبه طريق واسع صاعد إلى التل أو بالأحرى. أرض غير ممهدة بها كهوف مبعثرة بالقرب من الوادي الصغير شديد الانحدار.

- أعرف ماذا تقصد.

- هل ذهبت بمفردك إلى أحد هذه الكهوف؟

- هذا صحيح فعلا.

- وتبعك السجين؟

قال الميجور:

- الآن حاصرناه.

كانت صامتة والمحكمة تنتظر ردها، ولكنها لم تستطع أن تعطيه إلى أن دخل "**عزيز**" مكان الاستجواب. كرر المشرف العام سؤاله في لهجة رتيبة مستخدما كلمات متَّفقا عليها مسبقا حتى لا يحمل هذا الجزء من المحاكمة أي مفاجآت.

- هل يمكنني أن أنال نصف دقيقة لأفكر يا سيد "**ماك برايد**"؟

- طبعا!

كانت الصورة التي استحضرتها لعدة كهوف ورأت نفسها في أحدها وهي في نفس الوقت خارجه تراقب مدخله. كان الشك دائما هو الذي يساورها كثيرا، ولكنه شك صلب وجذاب مثل التلال.. لقد كان الحديث أصعب من الرؤية.

- لست متأكدة.. لست كذلك..

قال المشرف العام على الشرطة:

- أرجو المعذرة.

- لا أستطيع أن أكون متأكدة..

بدا المشرف العام على الشرطة خائفا:

- أنا لا أستطيع أن أفهم هذا الرد. لقد كنت فوق تلك الأرض، أو أي اسم تسمِّينها، ودخلت الكهف، وأنا أقترح عليك أن السجين تبعك...

هزت رأسها:

- ماذا تعني من فضلك؟

- لا..

قالتها بلهجة مسطحة وبدأت أصوات خفيفة ترتفع في مختلف أماكن القاعة، ولكن أحدا لم يفهم ماذا يجري سوى "**فيلدنج**"، رأى أنها على وشك أن تصاب بانهيار عصبي، وأن صديقه قد أنقذ. مال القاضي إلى الأمام:

- ما هذا.. ما الذي تقولينه؟ ارفعي صوتك من فضلك؟

- أخشى أن أكون قد ارتكبت غلطة.

- ما طبيعة هذه الغلطة؟

- لم يتبعني الدكتور "**عزيز**" إلى الكهف قط.

ألقى المشرف العام أوراقه بعنف ثم التقطها وقال بهدوء:

- الآن يا آنسة "**كويستد**" دعينا نستمر. سأقرأ عليك أقوال البلاغ الذي وقعته بعد ساعتين من الحادث في بيتي.

قال القاضي:

- من فضلك يا سيد "**ماك برايد**"، أنت لا تستطيع الاستمرار، أنا أتكلم مع الشاهدة بنفسي وعلى الجمهور أن يصمت. وإذا استمر الجمهور في الكلام فسأضطر إلى إخلاء القاعة... يا آنسة "**كويستد**"عليك بتوجيه الحديث لي، أنا القاضي المكلف بالقضية. وعليك أن تدركي مدى خطورة أقوالك، وتذكري أنك لازلت تحت القسم.

- لم يحدث قط أن الدكتور "**عزيز**"..

صاح الميجور بتوجيه من السيد "**تورتون**":

- أنا أمنع الاستمرار في هذه المحاكمة لأسباب صحية..

نهض كل الإنجليز من فوق مقاعدهم في الحال واختفى القاضي خلف ستارة من الوجوه البيضاء. نهض الهنود أيضا وحدثت مئات الأمور في وقت واحد بحيث إن كل واحد بعد ذلك أعطي حسابا مختلفا للكارثة.

صاح ممثل العدالة صارخا:

- هل تسحبين التهمة؟ أجيبي عليّ!

تملك الفتاة شيء لم تفهمه وسحبها إليه، ورغم أن الرؤية انتهت وعادت إلى تفاهة العالم فإنها تذكرت ما عرفته. دهشة وارتباك.. كان عليهم أن ينتظروا. قالت بلهجة منثورة:

- أنا أسحب كل شيء.

- هذا يكفي! وأنت يا "**ماك برايد**" هل ستستمر على ضوء هذه الحقيقة الجديدة؟

حدق المشرف العام إلى شاهدته وكأنها آلة معطلة وقال:

- هل أنت مجنونة؟

- لا تستجوبها يا سيدي.. لم يعد ذلك من حقك.

- أعطها الوقت لإعادة التفكير..

- يا صاحبي.. لابد أن تنسحب... لقد أصبح الأمر فضيحة.

كان هذا صوت "**نواب بهادور**" الرنان الذي جاء من نهاية المحكمة. صاحت السيدة "**تورتون**" أمام الفوضى المتجمعة:

- إنه لن يفعل. استدع الشهود الآخرين.. ليس منا من هو في أمان.

حاول "**روني**" أن يهزها ولطمته لطمة مؤلمة وأخذت تصرخ بالسباب في وجه "**عديلة**".

تحرك المشرف العام لمساندة أصدقائه وقال بلا اهتمام للقاضي وهو يفعل ذلك:

– حسنا.. أنا أنسحب!

كان السيد "**داس**" ميتا من التوتر. لقد تحكم في المحاكمة مجرد تحكم وأظهر أن الهندي يستطيع أن يرأس المحكمة. قال لهؤلاء الذين يمكنهم سماعه.

– يطلق سراح السجين دون أي لطخة تصيب أخلاقه. أما مسألة التعويض فسيتقرر في مكان آخر.

بعدها تحطم إطار العمل الواهن في المحكمة، وتصاعدت صيحات الكراهية والغضب، وصرخ الناس. ولعنوا وقبّل كل منهم الآخر وأخذوا يبكون انفعالا. وها هم الإنجليز يجمعهم خدمهم أما "**عزيز**" فقد أغمي عليه بين ذراعي "**حميد الله**". نصر على هذا الجانب وهزيمة على الجانب الآخر لقد حدث التناقض كاملا في وقت واحد. ثم عادت الحياة إلى تعقيداتها، وسارع كل شخص بعد الآخر للخروج من القاعة إلى أهدافهم المختلفة، وقبل مضي وقت طويل لم يتذكر المشهد الخرافي إلا مشهد العامل الهندي العاري الذي لم يكن مدركا أن شيئا غير عادي وقع. واستمر في شد حبل مروحته "**البونكا**" محملقا إلى الفضاء نحو المنصة الخالية، ثم يستدير نحو المقاعد الخالية وهو يحرك بطريقة آلية الغبار الهابط.

الفصل الخامس والعشرون

تخلت الآنسة "**كويستد**" عن أهلها. لقد أعطتهم ظهرها وانجذبت نحو كتلة من الهنود من طبقة أصحاب المحلات وحملوها إلى المخرج العام للمحكمة. كانت رائحة الأسواق الخفيفة والتي لا توصف قد غزتها وهي أحلى من رائحة أحياء "**لندن**" الفقيرة، ومع ذلك ليست مهدئة. خليط من روائح العطور والزيوت.. رائحة الشرق التقليدية، ولكن مختلطة بعرق البشر.. وكأنها ملك عظيم تورط في عمل مخز لا يستطيع الفكاك منه، أو كأن الحرارة من الشمس قد غلت وشوت كل الأمجاد الأرضية إلى فوضى واحدة. لم يولوها أي انتباه. وكانوا يتصافحون فوق أكتافها ويصرخون عبر جسدها لأنه عندما يتجاهل الهندي حاكميه فإنه يصبح غير مدرك بصدق لوجودهم. دُفعت نحو السيد "**فيلدنغ**" الذي قال:

– ماذا تريدين هنا؟

كانت تعرفه عدوا لها هي التي خلفته فتركته نحو الشمس دون كلام. صاح وراءها:

– إلى أين تذهبين يا آنسة "**كويستد**"؟

– لا أعرف.

– إنك لا ستطيعين التسكع هكذا. أين السيارة التي أتيت فيها؟

- سأسير على قدمي.

- أي جنون هذا؟ من المتوقع أن يقع شغب.. لقد ضربت الشرطة ولا أحد يعلم ما الذي سيحدث بعد ذلك.

- لماذا لا تظلين مع أهلك وناسك؟

قالت بلا عاطفة:

- وهل لابد أن أنضم إليهم؟

- لا تستطيعين، فقد فات الأوان الآن.. ما رأيك في أن تذهبي إلى الخلف عند المدخل الخاص الآن؟ تعالي معي من هذا الطريق بسرعة سأضعك في عربتي.

نادى "**عزيز**" بصوته المتحشرج:

- "**سيريل**".. "**سيريل**"! لا تتركني.

قبض "**فيلدنج**" على ذراعها وقال لها:

- أنا عائد.. من هذا الطريق ولا تجادليني.. أرجو أن تعذري تصرفي؛ لأنني لا أعرف مكانه كل شخص. وأعيدي العربة ثانية إليّ غدا من فضلك.

- ولكن إلى أين أذهب بها؟

- إلى المكان الذي تحبينه.. كيف لي أن أعرف ترتيباتك؟

كانت العربة المكشوفة المسماة "**فيكتوريا**" آمنة على طريق جانبي هادئ، ولكن لا توجد جياد، لأن السائس لم يكن يتوقع أن تنتهي المحاكمة فجأة هكذا فأخذها في زيارة لصديق. ركبت العربة في طاعة. الرجل لا يستطيع أن يتركها لأن الارتباك زاد وبعض أجزائه أصبح مميتا، والطريق الرئيسي عبر الأسواق كان مسدودا، والإنجليز كانوا يصلون إلى المحطة المدنية من الطرق الجانبية. كانا محاصرين، وكان من السهل أن يقتلا.. صاح فجأة:

- ما الذي.. ما الذي كنت تفعلينه؟ أتلعبين لعبة أم تدرسين الحياة أم ماذا؟

قاطعه تلميذ كان يجري نحو نهاية الطريق مع إكليل من الياسمين على ذراعه.

- لقد صنعت هذه من أجلك يا سيدي.

- لا أريد هذه القمامة.. ابتعد عني!

صاح تلميذ آخر وهو يرفع عريش العربة الفيكتوريا:

- يا سيدي أنا جوادك.. سنكون جيادك.

- أحضر سائسي يا "**رافي**" أنا أعرف أنه رجل طيب.

- لا يا سيدي، هذا شرف عظيم لنا.

استغرب "**فيلدنج**" من تلاميذه.. كلما ازداد احترامهم له قلت طاعتهم له. لقد كرموه بالياسمين والورد وأخذوا يتلون شعرا مما ملأ الطريق بالجمهور.

- أسرع يا سيدي... إننا سنجر العربة بالتتابع.

حملوه كالطرد مع نوع من العاطفة وعدم الحذر في آن واحد وقال "**رافي**":

- لست أدري إن كان هذا يناسبك ولكنك في أمان.

اندفعت العربة إلى السوق الرئيسي حيث خلقت بعض الإثارة. لقد كانت الآنسة "**كويستد**" مكروهه للغاية في "**كاندرابور**" لدرجة أن اعترافها العلني غير مصدق. وسرت الإشاعة بأنها عوقبت من الآلهة وسط أكاذيبها، ولكنهم هتفوا لها عندما رأوها جالسة بجوار الناظر البطل.. ووجّه البعض إليها الحديث على أنها السيدة "**مسور**"، وأحاطوها بالأكاليل حتى تناسبه، سُحب الاثنان والزهور حول عنقيهما إلى عربة "**عزيز**" الحنطور المنتصرة، ووسط التصفيق الذي استقبلهما كان دائما هناك نشاز.. الإنجليز دائما ما يلتصقون ببعضهم، وهنا كان النقد وإن كان ظلما. وكان "**فيلدنج**" يشارك في هذا ويعرف أنه لو حدث بعض سوء الفهم وحدث هجوم على الفتاة من جانب حلفائه، فإنه سيضطر إلى الدفاع عنها حتى الموت، وهو لا يرغب في الموت من أجلها وإنما يريد الاستمتاع مع "**عزيز**".

إلى أين سيذهب الموكب؟ إلى أصدقاء أم أعداء أم إلى بنجالو "**عزيز**" أم إلى بنجالو المحصل أم إلى مرضى مستشفى "**مينتو**" حيث الجراح المدني على استعداد أن يأكل التراب والمرضى من أجل أن يطلق سراحه إلى "**دلهي**" أو "**سيملا**". ظن الطلبة أن الموكب متجه إلى الكلية الحكومية. وعندما وصلوا إلى ناصية أداروا العربة الفيكتوريا إلى اليمين، وجروا بها على الطرق الجانبية لأسفل التل، وخلال بوابة حديقة إلى مزرعة مانجو، أما بالنسبة لـ"**فيلدنج**" والآنسة "**كويستد**" فإن الأمور كانت هادئة وسالمة. كانت الأشجار مليئة بأوراق لامعة، وفواكه خضراء صغيرة والخزان في حالة نعاس، ووراءه ارتفعت الأقواس الزرقاء الساحرة لبيت الحديقة. قالوا:

- يا سيدي سنحضر الآخرين.. يا سيدي إنه حمل ثقيل بعض الشيء على أذرعتنا.

احتمى "**فيلدنج**" بمكتبه وحاول أن يتصل تليفونيا بـ"**ماك برايد**"، ولكن كان هذا مستحيلا لأن الأسلاك مقطوعة وهجر كل خدمه المكان، ومرة ثانية أصبح عاجزا عن تركها. خصص لها حجرتين ووفر لها الثلج والمشروبات والبسكويت، ونصحها بأن تستلقي. ثم استلقى هو نفسه، لم يعد هناك شيء آخر يفعله. أحس بعدم الارتياح وبإحباط وهو ينصت لأصوات الموكب تنسحب، وقد فسدت بهجته من الذهول والارتباك. لقد كان انتصارا ولكن يا له من انتصار غريب.

كان "**عزيز**" في تلك اللحظة يصيح "**سيريل**".. "**سيريل**" وهو مكوم في عربة مع "**نواب بهادور**" و"**حميد الله**" و"**محمود علي**" وابنه الصغير وكومة من الزهور. لم يكن راضيا، النصر لا يعطي أي مسرة فلقد تعذب كثيرا جدا. ومنذ لحظة القبض عليه كان قد انتهى وسقط كحيوان جريح. إنه يائس ليس خلال الجبن، ولكن لأنه يعرف أن كلمة من امرأة إنجليزية دائما ما تتفوق على كلمته. قال إنه القدر المحتوم وقالها عندما سجن لثاني مرة بعد شغب شهر "محرم". تساءل لماذا لا يتبعه "**سيريل**"؟ وطلب العودة ولكن الموكب ما كان ليعود. وكان مثل ثعبان في بالوعة يتقدم إلى نهاية السوق الضيق نحو حوض الميدان. صاح "**محمود علي**":

- إلى الأمام.. إلى الأمام.. ليسقط المحصل، ليسقط المشرف العام على الشرطة.

تدخل "**نواب بهادور**":

- يا سيد "**محمود علي**" هذا ليس أمرا عاقلا.

كان يعلم أنه لا يمكن الفوز بأي شيء من مهاجمة الإنجليز الذين وقعوا في الحفرة التي حفروها، ومن الأفضل تركهم هناك فيها فضلا عن الاستحواذ العظيم وفوضى الاستنكار. صاح "**عزيز**":

- هل هجرتنا مرة ثانية يا "**سيريل**"؟

قال "**حميد الله**":

- إن بعض المظاهرات المنظمة أمر لازم وإلا فإنهم سيظلون يظنون أننا خائفون.

- يسقط الجراح المدني.. انقذوا "**نور الدين**".

- "**نور الدين**"؟

- آه.. يا إلهي.. إنه صديق.. لقد عذبوه.

احتج الرجل العجوز قائلا:

- إنهم ليسوا أصدقاءنا.. إنني لن أجعل حفيدي يجد عذرا للهجوم على المستشفى.

- إنهم أعداؤنا، و"**كاليندار**" تمادى قبل المستشفى في أعماله. وسمعته يقول وسط الفوضى: «لقد عذبت ذلك الزنجي».

- أوه يا إلهي! لقد نعته بالزنجي.. هل فعل؟

- لقد وضعوا فلفلا أسود بدلا من مضاد التلوث على الجروح.

- مستحيل يا سيد "**محمود علي**"... بعض الخشونة لن تضر الولد. إنه يحتاج للتأديب.

- فلفل أسود... هل قال الجراح المدني ذلك؟ إنهم يأملون أن يحطمونا واحدا بعد الآخر ولكنهم سيفشلون.

أججت الإصابة الجديدة غضب الجمهور. وعندما وصلوا الميدان رأوا بواكي مستشفى "**مينتو**" واندفعوا نحوها وهم يصيحون. كان الوقت منتصف النهار تقريبا وكانت الأرض والجو في منتهى السوء. وهرولت روح الشر، وحاربها "**نواب بهادور**" بمفرده وقال في نفسه: "إن الإشاعة لابد أن تكون غير صحيحة. لقد شاهد حفيده في العنبر من أسبوع فقط. اندفع نحو الهاوية الجديدة: أن ينقذ الميجور ثم يسيء معاملته انتقاما، سيأتي دور المحطة المدنية بوجه عام، ولكنه أمكن تجنب الكارثة. والذي فعل ذلك هو الدكتور "**بانالال**". وعد الدكتور "**بانالال**" أن يقدم دليلا للادعاء أملا في نيل سرور الإنجليز. وأيضا لأنه كان يكره "**عزيزا**" وعندما فشلت القضية كان في وضع مؤلم للغاية. ورأى أن الصدام قادم حالا، وقد تسلل من المحكمة قبل أن ينتهي السيد "**داس**". وقاد عربته عبر السوق هربا من الصخب القادم. لابد من أن ينقذ الميجور "**كاليندار**" ويحميه، ولكن الميجور لم يحضر، والآن أصبحت الأمور أسوأ من ذي قبل؛ لأن هناك الغوغاء وهم عطشى لدمائه، ورجال الحراسة صم وبكم ولن يساعدوه وهو يفر من الجدار الخلفي. بل إنهم منعوه ودفعوه ثانية أمام رضاء المرضى وصرخ وهو شبه محتضر:

- الرجل لا يموت إلا مرة واحدة.

ثم أخذ يتهادى في مشيته عبر المجمع ليقابل الغزو وهو يحيي بإحدى يديه ويحمل مظلته

بالأخرى. أخذ ينتحب وهو يقترب من الخنطور المنتصر:

- أوه سامحني!.. أرجوك أن تسامحني على كذبي النذل.

لم يرد عليه "**عزيز**" بينما الآخرون نفخوا رقابهم ورفعوا ذقونهم في احتقار بينما استمر المتوسل:

- لقد كنت خائفا ومخدوعا. لقد خدعت هنا وهناك وفي كل مكان بالنسبة لأخلاقك.. أوه سامحني... سامح الحكيم (الطبيب) العجوز الذي أعطاك الحليب وأنت مريض. أوه يا "**نواب بهادور**" الرحيم هل تريد مستوصفي ومخزن أدويتي؟ خذ كل زجاجة ملعونة.

كان متوترا ولكن يقظا، ورآهم يضحكون من إنجليزيته، وفجأة بدا يلعب دور المهرج ففتح مظلته. ثم سار فوقها وخيط أنفه بها. كان يعرف ماذا يفعل وكذلك هم كانوا يعرفون. لا شيء محزن أو دائم في الحد من قدر هذا الرجل وأمثاله. إنه من أصل وضيع، والدكتور "**بانالال**" لا يملك شيئا يمكن أن يشينه، وقرر في حكمة أن يجعل الآخرين يشعرون وكأنهم ملوك لأن ذلك سيجعل حالتهم المعنوية أفضل. وعندما علم أنهم يريدون "**نور الدين**" أخذ يمأمئ كالماعز ويقرقر كالدجاجة وينفذ أمرهم. وبذلك أنقذ المستشفى. وحتى نهاية حياته لم يستطع أن يفهم لماذا لم يحصل على ترقية على عمله الصباحي.

عندما ظهر "**نور الدين**" كان كل وجهه مغطى بالأربطة. وسرى هدير من الارتياح، وكأن سجن "**الباستيل**" سقط. استطاع "**نور الدين**" أن يمسك بزمام الأمور. احتضن الشاب علنا، وبدأ الحديث عن العدالة والشجاعة والحرية واليقظة. واستطاع أن يبرد من حماس الجماهير، وبعد ذلك أعلن أنه سيتنازل عن لقبه الإنجليزي. ويعيش كرجل محترم صغير وواضح. وكان السيد "**ذو الفقار**" الذي بسببه كان يسعى في الحال إلى مقعده في البرلمان.

استدارت العربة الخنطور وصحبها الجمهور وانتهت الأزمة. لقد كانت كهوف "**ماربار**" عبئا ثقيلا على الإدارة المحلية. وقد حولت العديد من حياة الناس وحطمت العديد من المهن ولكنها لم تحطم قارة أو حتى تعزل مقاطعة. قال الرجل العجوز:

- إننا سنستمتع الليلة. أنا أنبئك يا سيد "**حميد الله**" أن تحضر صديقينا "**فيلدنج**" و"**أمريترو**" وأن تكتشف ما إذا كان الأخير سيطلب طعاما خاصا. وسيبقى الباقون معي ولن تذهب إلى "ديلكوشا" إلا بعد أن يبرد الليل طبعا. إن لدي صداعا خفيفا. وكم كنت أتمنى لو سألت صاحبنا الطبيب "**بانالال**" عن أسبرين. ظل هؤلاء الذين في المحطة المدنية يراقبون خوفا من الهجوم، ولكنهم كانوا قد دخلوا في عالم الأحلام الذي يقضي فيه المرء ثلث عمره والذي يظن المتشائمون أنه مقدمة للفناء.

الفصل السادس والعشرون

اقترب المساء عندما تقابل "**فيلدنج**" والآنسة "**كويستد**"، وبدأ أول أحاديثهما العديدة الغريبة. لقد تمنى عندما استيقظ أن يكون أحد قد صحبها بعيدا، ولكن الكلية الحكومية ظلت معزولة عن

بقية العالم. سألت إن كانت تستطيع الحصول على نوع من المقابلة وعندما لم يرد. قالت:

– هل لديك أي تفسير لسلوكي غير العادي؟

قال باقتضاب وخشونة:

– لا.. لماذا توجِّهين مثل هذه التهمة وأنت ستسحبينها؟

– لماذا فعلا؟

– كان من الواجب أن أشعر بالامتنان لك.. أفترض ذلك ولكن..

– أنا لا أتوقع امتنانا، وأنا فقط ظننت أنك قد تهتم بالاستماع إلى ما لابد أن أقوله.

– أوه... حسنا.. لا أظن أن مناقشة بيننا مرغوبة. وأقولها صراحة أنا أنتمي للجانب الآخر من الموضوع الكريه.

– ألا يهمك أن تسمع جانبي؟

– ليس كثيرا.

– لم يكن لي أن أقول لك في سرية طبعا؛ ولذلك يمكنك أن تنقل ملاحظاتي إلى جانبك. لأن هناك رحمة كبرى نتجت عن كل بؤس اليوم. لم يعد لدي بعد الآن أي أسرار. لقد ذهب صداي.. أنا أسمي صوت الطنين في أذني صدى. أترى أنني لم أكن بخير منذ تلك البعثة إلى الكهوف ومن الممكن أن يكون ذلك قبلها؟

أثارت الملحوظة اهتمامه أكثر وكانت هي ما كان أحيانا يظنه سألها:

– هل هو نوع من المرض؟

لمست جانب رأسها ثم هزته فقال:

– هذه كانت فكرتي الأولى يوم القبض: هلوسة!

– هل تظن أن الأمر كذلك؟ ولكن ما الذي حدث وجعلني أهلوس؟

قال وقد جرته في مناقشة ضد إرادته:

– أحد ثلاثة أشياء بالتأكيد حدثت في "**ماربار**". واحد من أربعة :إما أن "**عزيزا**" مذنب وهو ما يظنه أصدقاؤك، أم أنك اخترعت التهمة بدافع المكر وهو ما يظنه أصدقائي، أم أنك أصبت بالهلوسة، وأنا أميل جدا..

نهض وأخذ يذرع المكان.

– والآن تقولين لي إنك لم تشعري بأنك بصحة جيدة قبل البعثة، وهذا دليل مهم. وأعتقد أنك بنفسك قطعت الإبزيم الخاص بالنظارة المقربة، وأنك كنت بمفردك في ذلك الكهف طوال الوقت.

– ربما!

– هل يمكن أن تتذكري متى كنت معتلّة المزاج؟

– عندما حضرت إلى حفل الشاي إياه في بيت الحديقة.

– إنها حفلة غير محظوظة. "**عزيز**" والعجوز "جودبول" كان كلاهما مريضين بعدها.

– لم أكن مريضة.. وإنه أمر مبهم لا أعرف كيف أذكره.. إنه مختلط كله مع شؤوني الخاصة..

لقد تمتعت بالغناء.. ولكن حوالي ذلك الوقت بدأ نوع من الحزن لم أستطع أن أكتشفه وقتها.. إنه ليس شيئا ملموسا مثل الحزن المعروف وربما يعبر عنه أحسن تعبير عبارة: «العيش تحت شبه ضغط»- شبه ضغط- أتذكر أنني ذهبت إلى البولو مع السيد "**هيسلوب**" في الميدان. وأشياء أخرى متنوعة حدثت، ولا يهم ما هي ولكنني كنت تحت الضغط خلالها جميعا. وأنا كنت بالتأكيد في تلك الحالة عندما شاهدت الكهوف، وأنت تقترح أنني أصبت بالهلوسة- ولن يزعجني هذا- وقد حدث لي ذلك الشيء رغم أنه كان في شكل رهيب، وهو ما يخيل إلى بعض النساء أنه عرض عليهن الزواج وهو ما لم يحدث.

- أنت تقولينها بأمانة على أية حال.

- لقد تربيت لأكون أمينة. والمشكلة أن الأمانة لا توصلني لشيء.

بدأ يعجب بها أكثر وابتسم وقال:

- إن الأمانة ستوصلنا إلى السماء.

- أحقا ذلك؟

- لا أعتقد.

- ألا تؤمن بالسماء يا سيد "**فيلدنج**".. وهل لي أن أسأل؟

- كلا.. ومع ذلك أعتقد أن الأمانة هي التي توصلنا إلى هناك.

- وكيف يمكن أن يحدث ذلك؟

- دعينا نعود إلى الهلوسة. لقد كنت أراقبك بعناية أثناء شهادتك هذا الصباح. وإذا كنت على صواب فإن الهلوسة- التي تسمينها شبه ضغط- اختفت فجأة.

حاولت أن تتذكر الذي حدث في المحكمة، ولكنها لم تستطع. لقد اختفت الرؤيا في حين أنها كانت تود أن تفسرها. قالت:

- لقد قدمت الأحداث نفسها إليّ في تتابعها المنطقي، ولكن ذلك لم يكن ما حدث على الإطلاق.

- إن اعتقادي... وطبعا أنا كنت أنصت بانتباه أملا في أن ترتكبي أي زلة.. اعتقادي أن المسكين "**ماك برايد**" أثر فيك نفسيا. فقرر أن يسألك سؤالا مباشرا وكنت تعطين إجابة مباشرة ثم انهرت.

- هل هذا معنى تأثير نفسي.. ظننت أنك تعني أنني رأيت شبحا؟

- أنا لا أصل إلى هذا المدى.

قالت في شبه حدة:

- الناس الذين أحترمهم جدا يؤمنون بالأشباح. وصديقتي السيدة "**مور**" منهم.

- أعتقد أنك لست في حاجة لأن تكوني غير مؤدبة معها ولا مع ابنها.

- لم أقصد أن أكون خشنة. وإنما قصدت فقط أنه من الصعب الاستمرار في الحياة. ونقاوم ما فوق الطبيعة. لقد أحسست بأنه يحدث لي شخصيا. ولازلت أسير دونها، ولكن أي إغراء في سن

الخامسة والأربعين أن تدَّعي هي أن الميت يحيا ثانية. ميت الشخص نفسه ولا أحد غيره يهم.

– لأن الميت لا يعيش ثانية.

– أخشى عكس ذلك.

– وأنا كذلك أخشى عكسك.

ساد لحظات صمت كما يحدث دائما بعد انتصار الفكر العقلاني. ثم اعتذر في لباقة عن مسلكه تجاه "**هيسلوب**" في النادي. سألته بعد فترة صمت أخرى:

– ماذا يقول "**عزيز**" عني؟

– إنه طبعا لم يكن قادرا على التفكير وسط بؤسه. لقد كان يشعر بالمرارة الشديدة.

استغرب "**فيلدنج**" بعض الشيء من تلك الملحوظة، لأن "**عزيزا**" لم يكن يشعر بالمرارة فحسب وإنما بالبؤس، والفكرة الواضحة هي عند "**عزيز**": «يصيبني بالعار أن أذكر أن لي صلة بتلك الشيطانة العجوز». وقد أثار حفيظته وغيظه أن يتهم من امرأة ليس بها أي جمال شخصي وجنسي.

لقد حير ذلك "**فيلدنج**" وأقلقه.. قال ليغير الموضوع:

– ولكن دعيني أنهي تحليلي.. لقد اتفقنا على أنه ليس شريرا نذلا، وأنك لست كذلك، وأننا لسنا واثقين حقا بأن الأمر هو هلوسة فهناك احتمال رابع لابد أن نلمسه... هل كان شخصا آخر؟

– الدليل المرشد.

– بالضبط! الدليل، لقد فكرت في ذلك باستمرار ولسوء الحظ أن "**عزيزا**" لكمه في وجهه وخاف واختفى. إنه احتمال غير مرض. وليس عندنا الشرطة لتساعدنا، فالرجل لا أهمية له عندهم.

قالت في هدوء وقد فقدت اهتمامها بالسؤال فجأة:

– ربما كان الدليل.

– أو ربما كان واحدا من عصابة الأفغان البهتانيين الذين يحطون على المقاطعة.

– شخص ما كان في كهف آخر وتبعني عندما كان الدليل ينظر بعيدا عني؟ ممكن!

في تلك اللحظة انضم إليهما "**حميد الله**" وبدا غير مسرور عندما وجد أنهما متقاربان. كان قد سمع ملحوظتها الأخيرة:

– هالو عزيزي "**فيلدنج**"، هل يمكنك أن تأتي فورا إلى "**دلكاشا**"؟

– فورا؟

قالت "**عديلة**":

– أتعشم أن أرحل خلال دقيقة فلا تدعاني أقاطعكما.

– التليفون معطل! وآنسة "**كويستد**" لا تستطيع الاتصال بأصدقائها.

قال الآخر:

– الكثير جدا من الأمور تعطلت، وأكثرها لا يمكن إصلاحه، ومع ذلك لابد أن هناك طريقة ما

لنقل هذه السيدة إلى خطوط الحضارة. إن مصادر الحضارة عديدة.

كان يتحدث دون أن ينظر إلى "**عديلة**". وتجاهل حركة يدها الخفيفة عندما مدتها نحو يده.

ظن "**فيلدنج**" أن اللقاء سيكون وديا فقال:

– لقد كانت الآنسة "**كويستد**" تشرح قليلا عن مسلكها.

– ربما عاد عصر المعجزات، وعلى الإنسان أن يستعد لكل شيء كما يقول فلاسفتنا.

ردت عليه بعصبية:

– لابد أنني بدوت معجزة بالنسبة للفضوليين، والحقيقة أنني أدركت قبل فوات الأوان أنني ارتكبت غلطة. وكان لدي حضور ذهني كاف لأقول ذلك. وهذا ما يرقى إليه سلوكي غير العادي.

كان يرتجف غضبا ولكنه تحكم في نفسه لأنه أحس بأنه ينصب فخا آخر. قال:

– كل شيء يرقى إلى ذلك في الحقيقة. وأتحدث كفرد خاص في محادثة غير رسمية تماما فإني أعجب بسلوكك وقد أسعدني عندما قام تلاميذنا طيبو القلب بوضع الأكاليل حول رقبتك. ولكن مثل السيد "**فيلدنج**" أنا مندهش وأنا أراك تجرين أحسن أصدقائي في الوحل. وتحطمين صحته وسمعته بطريقة لا تستطيعين فهمها نتيجة جهلك لمجتمعنا وديننا. ثم تستيقظين فجأة على منصة الشهادة. لتقولي: "أوه يا سيد "**ماك برايد**" أنا لست متأكدة تماما وقد يمكنك أن تطلق سراحه". هل أنا مجنون؟ إنني أظل أسأل نفسي.. هل هو حلم. وإذا كان كذلك فمتى بدأ؟ ولا شك أنه حلم لم ينته بعد. لأنني واثق بأنك لم تنته منا بعد. وها هو الآن جاء دور الدليل المسكين الذي أرشدك في الكهوف.

تدخل "**فيلدنج**":

– أوه.. لا.. لقد كنا فقط نناقش الاحتمالات.

– إنها طريقة لقطع الوقت.. هناك مائة وسبعون مليون هندي في شبه الجزيرة الهندية، وبالطبع واحد أو آخر دخل الكهف. طبعا هندي لابد أن يكون المذنب. ولا يجب أن تشك في ذلك. وما دامت تلك الاحتمالات يا عزيزي "**فيلدنج**" ستأخذ منك بعض الوقت ألا تظن أنه من الأفضل أن تخرج إلى منزل "**نواب بهادور**" أو أن عليّ أن أقول إلى منزل "**ذو الفقار**"؛ لأن ذلك هو الاسم الذي يطالبنا أن نناديه به.

– بكل سرور.. دقيقة واحدة.

قالت الآنسة "**كويستد**":

– لقد استقررت حالا على تحركاتي.. سأذهب إلى بنجالو "**داك**".

قال "**حميد الله**" وقد التمعت عيناه:

– وليس إلى آل "**تورتون**"؟ لقد ظننت أنك ضيفتهم.

كان بنجالو "**داك**" تحت المستوى المتوسط وبلا خدم. كان "**فيلدنج**" يفكر في خطوط مستقلة وقال بعد لحظة:

– لدي فكرة أحسن من ذلك يا آنسة "**كويستد**"، يجب أن تتوقفي هنا في الكلية وسأكون

خارجها على الأقل لمدة يومين، ويمكن أن يكون المكان لك كلية وتضعين خططك على راحتك.

قال "**حميد الله**" وعليه أعراض الضيق الشديد:

– لا أوافق على ذلك إطلاقا والفكرة كلها سيئة. ومن المحتمل جدا أن تحدث هناك مظاهرة الليلة. وأفترض هجوما على المدرسة وستكون مسؤولا عن سلامة هذه السيدة.

– ومن المحتمل أيضا أن يهاجموا بنجالو "**داك**".

– بالضبط، ولكن المسؤولية لن تقع عليك.

– هكذا الأمر إذن. لقد سببت ما يكفي من المتاعب.

– هل تسمع؟ السيدة نفسها تعترف. إنه لن يكون هجوما من أهلنا، ويجب عليك أن تشاهد مسلكهم المنتظم في المستشفى. إن ما يجب أن نخشاه هو هجوم منظم سري من الشرطة من أجل تحطيم الثقة بك. إن لدى "**مـاك برايد**" العديد من الأفكار الخشنة من أجل هذا الغرض وهذه ستكون المناسبة والفرصة له.

– لا يهم.. إنها لن تذهب إلى بنجالو "**داك**".

كان مصمما ألا يترك الفتاة المسكينة في مركزها الحرج. كما أنه تولد لديه احترام جديد نحوها نتيجة لحديثهما. ورغم أن سلوكها الجاف الذي يشبه سلوك ناظرة المدرسة لا يزال موجودا فإنها لم تعد تمتحن الحياة، وإنما الحياة هي التي تمتحنها.. لقد أصبحت إنسانة بحق.

قال "**فيلدنج**":

– إذن إلى أين سنذهب؟ ولكن أين ستتناول غداءها، وأين ستنام؟ أقول هنا. وإذا كانت ستصاب من أعمال العنف فلتصب.. هذه هي مساهمة يا آنسة "**كويستد**".

– أنت عطوف جدا وكان علي أن أقول نعم. أعتقد أنني أوافق السيد "**حميد الله**". لا يجب أن أسبب المزيد من المتاعب لك. أعتقد أن أحسن خطة هي أن أعود إلى آل "**تورتون**"، وأكشف إن كانوا سيسمحون لي بالمبيت. وإذا ما صدوني فلابد أن أذهب إلى "**داك**" إن المحصل سيسمح لي بدخوله. أعلم ذلك، ولكن السيدة "**تورتون**" قالت هذا الصباح إنها لن تقبل رؤيتي ثانية.

كانت تتكلم في مرارة أو كما اعتقد "**حميد الله**" بدون كرامة. لقد كان هدفها أن تسبب أقل قدر من المضايقة.

– من الأفضل كثيرا أن تظلي هنا من أن تعرضي نفسك إلى إهانات تلك المرأة غير الطبيعية.

– هل تعتبرها غير طبيعية؟ أنا كنت أعتقد ذلك أما الآن فلا أظن.

قال المحامي وهو يذهب الهوينى إلى النافذة:

– حسنا.. هذا هو حلنا.. هذا هو قاضي المدينة قد حضر!

قالت "عديلة" بحدة استرعت انتباه "**فيلدنج**" ودهشته:

– أخيرا!

– إنه حضر.. حضر.. حضر.. حضر... متخفيا وذليلا.

– هل يمكن أن تسأله ماذا يريد يا سيد "**فيلدنج**"؟

- إنه يريدك بالطبع.

- ولكنه حتى لا يعرف أنني هنا؟

- سأقابله أولا إذا فضلت ذلك.

عندما ذهب قال "حميد الله" بلهجة لاذعة:

- هل كان من الضروري أن تعرضي السيد "**فيلدنج**" إلى هذه المضايقة الأخرى؟ إنه رجل مهتم أكثر من اللازم.

لم ترد عليه وساد الصمت التام إلى أن عاد مضيفهما:

- هناك بعض الأخبار لك. وستجدينه على الشرفة، وهو يفضل ألا يدخل.

- هل طلب أن أخرج لمقابلته؟

قال "حميد الله":

- سواء طلب ذلك أم لا يجب أن تذهبي!

- هذا صحيح تماما!

ثم قالت بعض عبارات الشكر المقتضبة للناظر على لطفه وعطفه عليها طوال اليوم. قال "**حميد الله**" بعد ذهابها:

- إنها إهانة منه أن يحضر.

- إنه لم يستطع فعلا بعد إهانتي له في النادي. إن السيد "**هيسلوب**" في الحقيقة لم يأت بطريقة سيئة. ثم إن القدر كان قاسيا معه اليوم جدا. لقد تلقى برقية حول وفاة أمه.. يا للروح المسكينة!

- أو.. حقا.. السيدة "**مور**".. أنا آسف.

كان هذا تعليق "**حميد الله**" بلا اكتراث.

- ماتت في البحر.

- من الحرارة على ما أعتقد.. إن شهر مايو (أيار) ليس الشهر المناسب للسفر. وما كان على "**هيسلوب**" أن يدعها تفعل.

قال "حميد الله" لضيفه:

- دعنا ننتظر حتى يترك الزوجان السعيدان المجمع السكني. إنهما حقا لا يطاقان وهما يضيعان الوقت سدى هنا.

- آه.. حسنا يا "**فيلدنج**". إنك لم تكن تؤمن بالعناية الإلهية على ما أتذكر. ولكني أفعل. إن هذا عقاب "**هيسلوب**" لتهريبه شاهدتنا حتى لا تستطيع الحصول على حجة غياب.

- الأحرى أنك تماديت في هذا. إن شهادة السيدة العجوز المسكينة يمكن ألا يكون لها أي قيمة، وليصحْ ويصرخ "**محمود علي**" ما شاء له. إنها لم تكن تستطيع أن ترى خلال "**كاوادول**" حتى لو أرادت ذلك. فقط الآنسة "**كويستد**" هي التي كان باستطاعتها إنقاذه.

- لقد قال "**عزيز**" إنها أحبته وأحبت "**الهند**" وأحبتها هي.

- الحب لا قيمة له في الشهادة. أرى يا عزيزي "**حميد الله**" أن هناك أسطورة الإلهة "**اسمس**

أسمور" في "**كاندرابور**" ولن أعوق انتشارها.

ابتسم الآخر ونظر في ساعته. لقد أسف كلاهما على موت العجوز، ولكنهما رجلان في منتصف العمر عليهما أن يستثمرا عواطفهما في مكان آخر، وأن أزمات الحزن والأسى لا يمكن توقعها منهما على معرفة سطحية. إن موت الشخص نفسه هو المهم لقد قابل "**فيلدنج**" السيدة المتوفاة مرتين أو ثلاث فقط، و"**حميد الله**" رآها عن بعد مرة واحدة وهما مشغولان جدا بالتجمع القادم في "**ديلكوشا**" وهو خاص بعشاء الانتصار. لقد اتفقا على ألا يخبرا "**عزيز**" بشأن السيدة "**مور**" إلى الغد لأنه كان مغرما بها وقد يفسد الخبر السيئ المتعة.

قال "**حميد الله**" مهمهما لأن الآنسة "**كويستد**" عادت:

- هذا أمر لا يحتمل.

- يا سيد "**فيلدنج**"، هل أخبرك "**روني**" عن هذا الخبر السيئ؟

أومأ بالإيجاب فجلست وبدت متصلبة للحظات.

- أوه..

- هل السيد "**هيسلوب**" ينتظرك؟

- إنني أشتاق لأن أكون بمفردي. لقد كانت أعز صديقاتي ولا أتحمل أن أكون مع "**روني**".. ولا أستطيع الشرح.. هل يمكن أن تتفضل بأن تسمح لي بالبقاء بعد كل ذلك؟

شتم "**حميد الله**" باللهجة العامية الهندية. قال الناظر:

- سيسعدني ذلك. ولكن هل يرغب السيد "**هيسلوب**" في ذلك؟

- لم أسأله وهو مرتبك للغاية والأمر معقد جدا وليس في الحزن المفروض أن يكون عليه. على كل منا أن يكون بمفرده حتى يستطيع أن يفكر. هل يمكن أن تذهب وتقابله ثانية؟

قال "**فيلدنج**" وهو يحس أن الأمر يمس كرامته:

- أعتقد أن عليه أن يأتي هذه المرة.. اطلبي منه أن يدخل.

عادت مع "**هيسلوب**" وهو نصف يائس ونصف مغرور والحقيقة إنه خليط عجيب. ثم انطلق في حديث غير متزن.

- لقد حضرت لآخذ الآنسة "**كويستد**" بعيدا، ولكن زيارتها لعائلة "**تورتون**" قد انتهت، وليست هناك ترتيبات أخرى حتى الآن وأنا الآن عزب.

منعه "**فيلدنج**" في كياسة:

- لا تقل المزيد فإن الآنسة "**كويستد**" ستبقى هنا. ولكني أردت فقط أن أتأكد من موافقتك. وأنت يا آنسة "**كويستد**" من الأفضل أن تستدعي خادمك إذا أمكن العثور عليه، ولكني سأترك تعليمات مع خادمي أن يبذل كل جهده من أجلك. كما أنني سأعلم الكشافة بذلك. لقد حرسوا الكلية منذ إغلاقها وأعتقد حقا أنك ستكونين آمنة هنا وسأعود يوم الخميس.

في نفس الوقت أراد "**حميد الله**" مصمما ألا يجنب العدو أي فرصة للألم فقال لـ"**روني**":

- لقد سمعنا أن أمك ماتت. هل يمكن أن أسأل من أين جاءت البرقية؟

- عدن.

- آه.. لقد توقعنا أنها كانت في عدن أثناء المحاكمة.

تدخلت "**عديلة**":

- ولكنها ماتت عند مغادرتها "بومباي" لقد ماتت عندما نادوها هذا الصباح ولابد أن تكون قد دفنت في البحر.

بطريقة ما منع ذلك "**حميد الله**" من مواصلة قسوته التي صدمت "**فيلدنج**" أكثر من أي شخص آخر، وظل صامتا. بينما تفاصيل احتلال الآنسة "كويستد" لمدرسة الكلية الحكومية تنظم وهو يعلق بالكاد لـ"**روني**":

- من الواضح أن تفهم يا سيدي أنه لا السيد "**فيلدنج**" ولا أي منا مسؤول عن سلامة هذه السيدة في مدرسة الكلية الحكومية.

ووافق "**روني**" على ذلك. بعد ذلك راقب المحامي السلوك شبه النبيل للإنجليز الثلاثة بنوع من الاستمتاع وظن أن "**فيلدنج**" ضعيف وأحمق لدرجة لا تصدق. وعندما كانا بالعربة عائدين من "ديلكوشا" قال لـ"**أمريترو**":

- يا سيد "**أمريترو**"، هل فكرت في مبلغ التعويض الذي يجب أن تدفعه الآنسة "**كويستد**"؟

- عشرون ألف روبية.

لم يقل شيئا آخر بعد ذلك، ولكن الملحوظة أرعبت "**فيلدنج**". إنه لم يكن يتصور أن تفقد الفتاة الصريحة الصادقة نقودها. ومن المحتمل أن تفقد الشاب الذي ستتزوجه أيضا. لقد تعب من هذا اليوم القاسي الضخم ففقد رؤيته السليمة للإنسانية وعلاقاتها المتبادلة، وأحس أن البشر غير موجودين في حد أنفسهم، وإنما في إطار شروط عقول الآخرين. وهي فكرة لا يقدم منطقها أي مساندة بعد الكارثة. عندما شاهد من شرفة النادي قبضات وأصابع "**ماربار**" تنتفخ إلى أن شملت كل السماء.

الفصل السابع والعشرون

- هل أنت مستيقظ يا "**عزيز**"؟

- لا.. إذن دعنا نتحدث ونحلم بخطط المستقبل.

- أنا لا أنفع في الأحلام.

كانت وليمة "**فيكتوريا**" قد انتهت، واستلقى الصاخبون على سطح بيت السيد "**ذو الفقار**" الريفي الفاخر، وهم نائمون، أو يحدقون إلى النجوم خلال الناموسيات. وفوق رءوسهم بالضبط تقلصت مجرة الأسد. استمر الصوت عن يساره:

- هل أنت راض عن عمل اليوم يا "**سيريل**"؟

- وهل أنت راض؟

- فيما عدا أنني أكلت كثيرا.. كيف حال المعدة والرأس؟

- أقول إن "**بانالال**" و"**كاليندار**" سيطردان من العمل.

- ستكون هناك حركة عامة في "كاندرابور".

- وستحصل أنت على ترقية.

- إنهم لا يستطيعون أن ينزلوا برتبتي على أية حال مهما كانت مشاعرهم.

- على أية حال لقد قضينا إجازتنا معا وزرنا "**كشمير**"، ومن المحتمل أن نزور "**بيرزيا**" لأنه سيكون معي الكثير من المال الذي دفع لي على حساب الإصابة التي لحقت بأخلاقي.

- عندما تكون معي لن تنفق مليما واحدا.. وهذا ما كنت دائما أتمناه، ونتيجة لسوء حظي حانت اللحظة لتحقيق الأمنية.

قال "**فيلدنج**":

- لقد نلت انتصارا باهرا.

- أعرف ذلك أيها الرجل العزيز.. لم يكن بك حاجة لأن يصبح صوتك هادئا ورزينا هكذا. أعلم ما ستقوله بعد ذلك. أعفي الآنسة "كويستد" من الدفع حتى يقول الإنجليز: "هذا وطني تصرف حقا كرجل مهذب... ولولا سواد وجهه لسمحنا له بالانضمام إلى نادينا". إن موافقة مواطنيك لم تعد تهمني. لقد أصبحت معاديا للبريطانيين، ومن الواجب أن أفعل ذلك حالا، فقد كان من الممكن أن يكون قد جنبني العديد من سوء الحظ.

- بما في ذلك معرفتك بي.

- أقول.. هل نذهب ونصب الماء على وجه "**محمد لطيف**"؟ إنه سيكون مضحكا جدا عندما نفعل به ذلك وهو نعسان.

لم تكن الملحوظة سؤالا وإنما علامة وقوف. قبل "**فيلدنج**" وساد الصمت. سرد خلاله ريح خفيفة مست سطح البيت كانت الوليمة رغم صخبها مقبولة وسارة، وحان الآن وقت التمتع بالفراغ غير المعروف. في الغرب يهبط على الصحبة. كانت الحضارة تتسلل هنا كالشبح، تزور مرة ثانية أنقاض الإمبراطورية والتي لا توجد في الأعمال الفنية العظيمة أو الخالدة، وإنما في حركات الهنود ممن تلقوا تربية عالية، والتي يؤدونها في جلوسهم ووقوفهم. كان "**فيلدنج**" الذي ارتدى الملابس الوطنية قد عرف من غرابة حركاته فيها أنها حركات بديلة مصطنعة في حين أنه عندما يمر "**نواب بهادور**" للطعام أو يصفق "**نور الدين**" لأغنية فإنهما ينجزان شيئا جميلا لا يحتاج إلى تطوير. إن استقرار الحركة التام هي مماثلة لحركة "اليوجا" وعندما تنتهي الحركة تكشف عن حضارة يمكن أن يضايقها الغرب، ولكن لا يمكنه الحصول عليها. إن اليد تمتد للأبد، والركبة ترفع بطريقة تدل على الأبدية ليست أبدية القبر. لقد كان "**عزيز**" مملوءا بالمدنية والحضارة الكاملة هذه الليلة، وهو وقور ويميل إلى القسوة. قال "**فيلدنج**" باهتمام:

- نعم، من المؤكد أنك ستطلق سراح الآنسة "**كويستد**" بسهولة. إنها فقط ستدفع ما تكلفته كله وهذا هو العدل، ولكن لا تعاملها كعدو مهزوم.

- هل هي ثرية؟ أنا أنبيك في هذا لتكتشف الأمر.

- إن المبالغ التي ذكرت أثناء العشاء عندما تحمستم جميعا يمكن أن تفلسها، إنها مستحيلة فعلا.. انظر هنا.

- أنا أنظر رغم أن الجو يزداد سوادا.. أرى "**سيريل فيلدنج**" رجلا لطيفا جدا وهو في الحقيقة أحسن أصدقائي، ولكن بطريقة ما هو ساذج. هل تظن أنني بإطلاق سراح الآنسة "**كويستد**" سأضع لنفسي سمعة أحسن وللهنود بشكل عام؟ لا.. لا... إن ذلك سيفسر على أنه ضعف ومحاولة للحصول على ترقبة وظيفية. لقد قررت ألا أفعل شيئا له صلة بعد الآن بـ"**الهند**" البريطانية. سأبحث عن عمل في ولاية مسلمة مثل "**حيدر أباد**" أو "**بوبال**" حيث لن يستطيع الإنجليز أن يهينوني ولا تنصحني بغير ذلك.

وخلال حديث طويل مع الآنسة "**كويستد**"..

- لا أريد أن أسمع أحاديثكم الطويلة.

- اهدأ.. فخلال حديث طويل مع الآنسة "**كويستد**" بدأت أفهم أخلاقها. إنها ليست سهلة فهي متزمتة، ولكنها صادقة حقا وشجاعة جدا.. وعندما وجدت أنها مخطئة انتفضت وقالت الحقيقة، أريد منك أن تدرك معنى ذلك. كل أصحابها من حولها والمجتمع الإنجليزي كله يدفعونها إلى الأمام، ولكنها وقفت وحطمت كل شيء إربا. وأصبحت تقريبا بطلة وطنية، ولكن تلاميذي جروا بنا إلى طريق جانبي قبل أن يحرقوها. عليك أن تعاملها على هذا الاعتبار. لا يجب حقا أن تنال الأسوأ من كلا العالمين. أعرف كل ما يريده هؤلاء فوق السطح، ولكن لا تنصت إليهم. كن رحيما وتصرف وكأنه واحد من الأباطرة المغول الستة، أو الستة كلهم في شخص واحد.

- حتى الأباطرة المغول لم يظهروا الرحمة إلا بعد أن تلقوا الاعتذار.

صاح وهو ينتصب جالسا:

- إنها ستعتذر له، إن هذه هي المشكلة. انظر، سأقدم لك عرضا. أمل علي أي صيغة من الكلام تحبها، وفي مثل هذا الوقت، من الغد سأحضره لك موقعا منها، وهذا بدلا من أي اعتذار علني تقدمه قانونا وهو إضافة..

- هل ستوقع هذا؟ «عزيزي الدكتور "**عزيز**"... أتمنى لو أنك دخلت الكهف. أنا شيطانة شريرة وهذه آخر فرصة لي».

قال "**فيلدنج**":

- حسنا.. تصبح على خير.. لقد حان وقت النوم بعد ذلك.

- تصبح على خير. أعتقد ذلك.. أوه.. كم أتمنى لو أنك لم تقل هذا التعليق.. إنه الشيء الوحيد الذي لا أستطيع تحمله.

- أنا تحملت كل شيء فيك فماذا يمكن أن أفعل؟

رد "**عزيز**":

- لقد آلمتني بقولك تصبح على خير.

ساد الصمت ثم قال صوت "**عزيز**" الحالم عميق التأثر:

- "**سيريل**"! لقد واتتني فكرة سترج عقله الرخو، سأستشير السيدة "**مور**".

فتح "**فيلدنج**" عينيه لتقع على آلاف النجوم ولم يستطع أن يرد. لقد أسكتتهما النجوم ثم استمر "**عزيز**":

- إن رأيها هو الذي سيحل كل شيء. أستطيع أن أثق بها.. أقصد السيدة "**مور**" فإذا نصحتني أن أسامح تلك الفتاة فإنني سأفعل ذلك: لأنها لن تنصحني بأي شيء ضد شرفي الحقيقي كما ستفعل أنت.

-دعنا نناقش هذا صباح الغد.

- الأمر ليس غريبا. أليس كذلك؟ إنني سأظل أنسى أنها غادرت "**الهند**". وأثناء الصياح باسمها في المحكمة تخيلت أنها حاضرة. لابد أن أغمض عيني. أنا أشوش على نفسي عن عمد لأميت الألم. والآن في هذه اللحظة بالذات نسيت مرة ثانية وسأضطر إلى الكتابة. إنها الآن بعيدة جدا في طريقها إلى "**رالف**" و"**ستيلا**".

- إلى من؟

- لطفليها الآخرين.

- لم أسمع عن أطفال آخرين.

- مثلي تماما، فالسيدة "**مور**" عندها ولدان وبنت. لقد أخبرتني بذلك في المسجد.

- أنا لا أعرفها جيدا.

- أنا لم أقابلها سوى ثلاث مرات، ولكنني أعلم أنها شرقية.

- أنت خرافي.. والآنسة "**كويستد**" لن تعاملها بكرم. بينما سنتوسع في مجاملاتك مع السيدة "**مور**". على أية حال لقد تصرفت الآنسة "**كويستد**" تصرفا راقيا هذا الصباح. بينما المرأة العجوز لم تفعل لك أي شيء على الإطلاق.. ومن الوهن الحقيقي أن تظن أنها كانت ستقف في صفك. إنها تعتمد على ثرثرة الخدم. إن عواطفك لا تبدو أبدا تناسب أهدافها.

- هل العواطف جوال من البطاطس يمكن وزنها؟ هل أنا آلة؟ هل عليّ أن أتلقى الإذن باستخدامها؟

- كان علي أن أفكر في أنك تستطيع؛ لأن ذلك يبدو معقولا. إنك لا تستطيع أن تأكل كعكتك وتحتفظ بها في نفس الوقت حتى ولو كان ذلك في عالم الأرواح.

- لو كنت على حق فلا معنى إذن في الصداقة. وكل شيء ينحدر إلى عملية خذ وهات، أو خذ واعد. وهو أمر مقزز. ومن الأفضل لنا جميعا أن نقفز من فوق هذا السقف ونقتل أنفسنا. هل هناك شيء خطأ معك هذا المساء يجعلك تصبح ماديا جدا.

- إن ظلمك أسوأ من ماديتي.

- فهمت.. هل لديك شيء آخر تشكو منه؟

كان حسن الطباع ومتعاطفا ورائعا. لقد جعل السجن قنوات إلى أخلاقه التي لن تتأرجح أبدا كما

هي الآن بهذه الدرجة من الاتساع. قال مستأنفا الكلام:

- لأنه من الأفضل أن تطرح كل مصاعبك أمامي إذا كان ولابد أن تظل صديقين للأبد. أنت لا تحب السيدة "**مور**" ومتضايق لأنني أحبها وعلى أية حال ستحبها مع الوقت.

- أنا آسف لأن أقول لك إن السيدة "**مور**" ماتت.

ولكن "**حميد الله**" الذي كان ينصت لكل حديثهما ولم يرغب في إفساد احتفال المساء صاح من سرير قريب:

- "**عزيز**"! إنه يحاول أن يجذب ساقيك فلا تنصت لهذا النذل.

قال "**عزيز**" المتعود على النكات العملية مثل هذه:

- أنا لا أصدقه.

لم يقل "**فيلدنج**" المزيد. الحقائق هي الحقائق. وكل فرد سيعلم بوفاة السيدة "**مور**" هذا الصباح، ولكن صدمة أن الناس ليسوا ميتين حقا في نظرهم إلا إذا أحسوا هم بأنهم ميتون.. وطالما كان هناك سوء فهم حولهم فإنهم يملكون نوعا من الخلود. وتجربة خاصة به أكدت ذلك. من سنوات عديدة مضت فقد صديقا عزيزا عليه، كانت امرأة. كانت تؤمن بالسماء المسيحية، وأكدت له أنه بعد التغييرات والفرص في حياتها بعد الوفاة فإنهما قد يتقابلان مرة ثانية في السماء. كان "**فيلدنج**" ملحدا صريحا، ولكنه كان يحترم كل رأي تعتقده صديقته وهو أمر أساسي في الصداقة. بدا له لفترة من الوقت أن الميتة في انتظاره، وعندما بهت الوهم ترك له فراغا يشبه كثيرا الشعور بالذنب. فكر: هذه حقا هي النهاية ولقد أعطيتها الضربة النهائية. لقد حاول أن يقتل السيدة "**مور**" الليلة على سقف بيت "**نواب بهادور**"، ولكنها لازالت تراوغه. وظل الجو هادئا. ظهر القمر وبعده بقليل سيبدأ الرجال والثيران عملهم الذي لا نهاية له. والاستهلاك اللطيف الذي حاول أن يختصره وصل إلى نهايته الطبيعية.

الفصل الثامن والعشرون

ماتت.. لقد ألقي بها إلى الأعماق بينما لايزال على الممر نحو الجنوب. لا تستطيع العديد من السفن من "**بومباي**". التوجه إلى "**أوربا**" إلا بعد الدوران حول شبه الجزيرة العربية. لقد أصبحت في المناطق الاستوائية عندما لمستها الشمس لآخر مرة. وأنزل جسدها في هند أخرى.. المحيط الهندي.. لقد تركت وراءها عدم راحتها المؤلمة لأن الموت يعطي السفينة سمعة سيئة. من هي السيدة "**مور**"؟ عندما وصلوا "**عدن**" أبرقت السيدة "**ميلاني**" وكتبت فيها كل عبارات العطف، ولكن زوجة نائب الحاكم لا يمكن أن تراهن على مثل هذه التجربة وكررت:

- لقد رأيت المخلوقة المسكينة فقط لساعات قليلة عندما سقطت مريضة.. لقد كان الأمر حقا ميؤوسا منه بدرجة لا لزوم لها.. لقد أفسد ذلك العودة للوطن.

تبع شبح السفينة حتى البحر الأحمر، ولكنه فشل في دخول البحر الأبيض المتوسط. في مكان ما

من قناة السويس هناك نوع من التغير الاجتماعي: تضعف إجراءات "**آسيا**"، ويبدأ الإحساس بالإجراءات الأوربية. وخلال فترة الانتقال نسيت السيدة "**مور**". وفي "**بورسعيد**" بدأ الشمال الأغبر. لقد كان الجو باردا جدا ومحبطا لدرجة أن المسافرين أحسوا أنه انفجر من الأرض التي غادروها، ولكنه بدأ يرتفع تدريجيا. بدأ الموت يأخذ أشكالا أرق وأكثر دواما في "**كاندرابور**". وانتشرت أسطورة أن الرجل الإنجليزي قتل أمه، لأنها حاولت إنقاذ حياة هندي. وكان بها من الحقيقة ما يكفي أن يسبب الضيق للسلطات. وأحيانا ما تقتل بقرة أو تمساح بأنياب خنزير بري زحف من مياه "**الجانجز**" إن هراء من هذا النوع أصعب في هزيمته من كذبة واضحة. وفي فترة واحدة نقل رفات "**اسمس أسمور**" إلى قبرين أحدهما بالقرب من المدبغة، والآخر من محطة البضائع. وزار السيد "**ماكبرايد**" القبرين، ورأى بداية طقوس عبادة من أدوات وأطباق من الفخار وغيرها وباعتباره ليس خبيرا رسميا لم يفعل شيئا يزعج تلك الطائفة، وبعد أسبوع انتهت أحداث الاندفاع الديني.

وقال وهو ينسى أنه من مئات السنين عندما كان الأوربيون يبنون بيوتهم في أوطانهم ولجأوا إلى الخيال أصبحوا، من حين لآخر أبالسة محليين بعد الموت.. ليسوا آلهة كاملة وإنما نصف آلهة. وأضافوا حركة إلى ما هو موجود وهو ما يشبه تماما ما حدث في الفلسفة البرهمية.

ذكر "**روني**" أن أمه غادرت "**الهند**" بمحض إرادتها، ولكن ضميره لايزال غير خال. لقد تصرّف تصرفا سيئا معها. وهذا يعني أن يكفِّر عما فعله عقليا على الأقل. أو أن يقاوم وأن يستمر في قسوته عليها، وقد اتخذ المسار الأخير. كم كانت متعبة معه في رعايتها لـ"**عزيز**"! ويا له من تأثير سيئ على "**عديلة**". والآن لاتزال تسبب المتاعب بخلطها بين القبور بطريقة مثيرة للسخرية واختلاطها بالوطنيين. إنه في ذلك لا حول له ولا قوة طبعا، ولكنها حاولت القيام بمثل تلك الرحلات التي تثير الضيق في حياتها واعتبرها ضدها. كان الشاب لديه الكثير ليقلقه كالحرارة والتوتر المحلي. والزيارة المرتقبة لنائب الحاكم العام، ومشكلة "**عديلة**" وقد ربطها كلها بحبل مع الإكليل المثير للسخرية لحالات التحوّل الهندي للسيدة "**مور**". ما الذي يحدث لأم المرء عندما تموت؟ المفترض أن تصعد روحها إلى السماء. وعلى أية حال فإنها تنصرف بمتاعبها. لقد كان دين "**روني**" هو جزء مرشح ومعقم من نمط المدرسة العامة، والذي لا يمكن أن يصبح سيئا حتى في المناطق الاستوائية. أينما دخل مسجدا. أو كهفا، أو معبدا. فإنه يحتفظ دائما بالنظرة العامة للعرف الخامس ويحكم بالضعف أي محاولة في فهمهم. تمالك رباط نفسه وطرد الموضوع من ذهنه. وفي الوقت الواجب سيضع هو وأخوه وأخته غير الشقيقين لوحة لها في كنيسة "**نورث هامبتون شاير**" حيث كانت تتعبد. مسجلين تاريخين لميلادها ووفاتها، وأنها دفنت في البحر. وهذا سيكفي.

و"**عديلة**".. عليها أن ترحل هي أيضا وأمل لو أنها قالت هذا الاقتراح بنفسها. إنه حقا لا يستطيع الزواج بها لأن معنى ذلك نهاية مهنته.. يا للمسكينة المعذبة "**عديلة**"! لقد بقيت في مبنى مدرسة الكلية الحكومية بفضل كياسة "**فيلدنج**" وهو أمر غير لائق ومهين، ولكنه لا يستطيع أن يستقبلها في المحطة المدنية. لقد أجل كل الحديث معها إلى أن يتقرر التعويض الذي ستدفعه.

لقد كان "**عزيز**" يقاضيها على الخسائر في المحكمة الثانوية. وبعدها قد يطلب منها أن تحله من ارتباطه. لقد قتلت حبهما، وهو في حبه لم يكن صلبا. إنهما لن يستطيعا أن يحققا الزواج. ولكن بالنسبة لحادثة سيارة "**نواب شريف**" فإنها تنتمي إلى الفترة الأكاديمية الضحلة وبلا خبرة من حياته والتي كبر عليها: إنها فترة "**جراسمير**" حيث الكلام والثرثرة ومثل تلك الأمور.

الفصل التاسع والعشرون

كانت زيارة نائب الحاكم للولاية هي الخطوة التالية في انحلال "**ماربار**" ورغم أن السيد "**جيلبرت**" ليس بالرجل المستنير كان يحمل أفكارا مستنيرة. كان محروما من الاتصال الشخصي بالشعب الهندي بسبب مهنة طويلة في السكرتارية وأمانة السر. وكان قادرا على الحديث إليهم بطريقة حضارية، وأن يشجب التحيز العنصري. لقد صفق لنتائج المحاكمة، وهنأ "**فيلدنج**" لأنه كان في جانب الرأي الحساس والواسع الأفق، والوحيد الذي يتّسم بالشفقة من أول الأمر كان يتحدث في ثقة، واستمر في حديثه. وكان "**فيلدنج**" يستنكر الأسرار، ولكن السيد "**جيلبرت**" أصر على كشفها.

- لقد أسيء تداول القضية من بعض أصدقائنا هناك فوق التل الذين لم يدركوا أن عقربي الساعة يسيران إلى الأمام وليس إلى الخلف.. إلخ وأمر واحد يستطيع أن يضمنه، وهو أن الناظر لابد أن يتلقى دعوة ودية للانضمام إلى النادي.

وقد توسل نائب المحافظ إلى "**فيلدنج**" ولم يأمره أن يتقبلها. وعاد إلى مكانه فوق مرتفعات الهيمالايا راضيا تماما. والقدر من المال الذي على الآنسة "**كويستد**" أن تدفعه، والطبيعة الدقيقة لما حدث في الكهوف فهي تفاصيل محلية لا تعنيه في شيء.

وجد "**فيلدنج**" نفسه منساقا أكثر فأكثر في شؤون الآنسة "**كويستد**". ظلت المدرسة مغلقة، وكان ينام، ويأكل. في بيت "**حميد الله**"؛ لذا لم يكن هناك سبب يمنعها من أن تبقى هناك إذا رغبت في ذلك. لو كان مكانها لرحل بدلا من الخضوع لتصرفات "**روني**" شبه الحضارية، ولكنها كانت تنتظر أن تنتهي ساعة إقامتها. بيت تعيش فيه، وحديقة تتمشى فيها أثناء لحظات البرودة النادرة. كان ذلك هو كل ما تطلبه وكان قادرا على توفيره لها. لقد أظهرت الكارثة لها حدودها. وأدرك هو الآن كم هي على أخلاق لطيفة ومخلصة. لقد كان إذلالها يمس القلب. إنها لم تشك أبدا من حصولها على أسوأ ما في العالمين، ونظرت إلى أن ذلك راجع إلى عقابها على غبائها، وعندما ألمح لها أن اعتذارا شخصيا لـ"**عزيز**" قد يكون محتملا قالت في حزن:

- طبعا. وكان لابد أن أفكر فيه بنفسي، ولكن غريزتي لم تساعدني قط. لماذا لم أندفع نحوه بعد المحاكمة؟ نعم بالطبع سأكتب إليه اعتذارا. ولكن هل تتفضل بإملائه عليّ؟

فيما بينهما كتبا خطابا صادقا ومليئا بالعبارات المؤثرة. قالت له مستفسرة:

- هل علي أن أكتب خطابا آخر؟ لا شيء يهم. لو كان بإمكاني إزالة الضرر الذي تسببت فيه.

أستطيع أن أفعل ذلك بالطريقة الصحيحة، ولكن كلا الخطابين لو وضعا معا لأصبح الأمر خطأ هذا هو عيب أخلاقي أنا لم أدركه إلا الآن. لقد ظننت أنني فقط لو سئلت أسئلة أستطيع. أن أخرج من أي مصاعب.

رد عليها:

- إن خطابنا فاشل لسبب بسيط وهو أنه من الأفضل أن نواجه الحقيقة وهي أنك لا تكنيِّن أي مشاعر نحو "**عزيز**" أو الهنود بصفة عامة.

وافقته فاستمر:

- أول مرة رأيتك فيها كنت تريدين أن تشاهدي "**الهند**" وليس الهنود وخطر على بالي: آه إن هذا لن يأخذنا بعيدا. الهنود يعرفون إن كانوا محبوبين أم لا، ولا يمكن خداعهم هنا. والعدالة لا ترضيهم أبدا؛ ولهذا تقوم الإمبراطورية البريطانية على الرمال..

قالت:

- ومع ذلك هل أحب أحدا؟

من المفروض أنها تحب "**هيسلوب**"، فغيَّر الموضوع لأن هذا الجانب من حياتها لا يهمه.

وعلى الجانب الآخر كان أصدقاؤه الهنود مغرورين، والنصر الذي يمكن أن يجعل الإنجليز يتظاهرون بالتقوى جعل الهنود عدوانيين. لقد أرادوا أن يقدموا مزيدا من المضايقات. وحاولوا ذلك باكتشاف شكاوى جديدة وأخطاء، والعديد منها قد لا يكون موجودا. لقد كانوا يعانون الوهم الذي يصل إلى حد الصداع، وأهداف المعركة وثمار الغزو ليست متساوية أبدا. فالثمار الأخيرة لها قيمتها التي يرفضها فقط القديسون، ولكن اللمحة القليلة من سوء أخلاقهم تختفي فور أن يقعوا في القبضة، ورغم أن السيد "**جيلبرت**" كان كيسا ولائقا وشبه خنوع فإن القماشة التي يمثلها ليس بها حكمة. لقد بقيت لديه الروح الرسمية البريطانية ظاهرة ظهور الشمس. وأن ما يمكن أن يفعل ضد تلك الروح لم يكن واضحا تماما حتى لـ"**محمود علي**". جرت أحاديث عالية ومحاولات غير قانونية مبتذلة وخلفها جرت رغبة حقيقية ولكن مبهمة في نشر التعليم عندما قال:

- يا سيد "**فيلدنج**"، لابد أن نكون جميعا متعلمين وبسرعة.

كان "**عزيز**" ودودا وميالا للاستبداد. كان يود من "**فيلدنج**" أن يستسلم للشرق ويعيش في حالة اعتماد عاطفي عليه. وأن عليه أن يثق به وهو أمر لا شك فيه، و"**فيلدنج**" ليس لديه جذور بين شعبه ومع ذلك لن يستطيع أن يكون شخصا مثل "**محمد لطيف**". وعندما تجادلا حول ذلك تدخل شيء ما عنصري ليس بحرارة، ولكن لا يمكن تجنبه مثل لون بشرتهما: لون القهوة مقابل الرمادي الوردي وقد ينتهي "**عزيز**" إلى أن يقول له:

- ألا ترى أنني ممتن لك بمساعدتك ورغبتك في مكافاتي؟

وقد يرد عليه بحدة:

- إذا أردت أن أكافئك فاعف الآنسة "**كويستد**" من الدفع.

كان عدم الحساسية نحو "**عديلة**" لا يسعده. قد يكون حسب كل وجهات النظر من الصحيح

معاملتها بكرم، وأنه في يوم ما قد يخطر على باله أن يستدعي ذكرى السيدة "**مور**". لقد كنّ "**عزيز**" هذا التقدير العالي للسيدة "**مور**". لقد كان موتها حزنا حقيقيا لقلبه الدافئ. لقد بكى كالطفل وأمر أطفاله الثلاثة أن يبكوا أيضا. لم يكن هناك شك في أنه كان يحترمها ويحبها. لقد كانت أولى محاولات "**فيلدنج**" فاشلة وكان الرد أنه يعرف حيلته، وأنه يريد الانتقام منهم.

- لماذا كان عليَّ أن أهان وأتعذب وتقرأ محتويات جيبي علنا، وتؤخذ صورة زوجتي للشرطة؟ ثم إنني أريد النقود لأعلم أبنائي الصغار كما شرحت لها.

ولكنه بعد ذلك بدأ يضعف ولم يخجل "**فيلدنج**" من ممارسة القليل من استحضار الأرواح. وكلما ورد موضوع التعويض كان يدس اسم المرأة الميتة ويوقظ صورتها في قلبه. فجأة استسلم "**عزيز**" وأحس أنها رغبة السيدة "**مور**" أن يرحم المرأة التي كانت ستزوجها لابنها، وهو الشرف الوحيد الذي يمكن أن يقدمه لها، وتنازل في دفعة من العاطفة عن كل مبلغ التعويض مطالبا فقط بالتكاليف. كان هذا لطيفا منه، وكما توقع فإنه لم يكسب من ذلك أي ثقة عند الإنجليز: لأنهم ظلوا يؤمنون بأنه مذنب حتى نهاية وظائفهم، وكان الأنجلو هنود في "**تانبروج ويلز**" أو "**شلتنهام**" لايزالون يتهامسون، كل منهم للآخر.

- قضية "**ماربار**" تلك التي تحطمت؛ لأن البنت المسكينة لم تستطع مواجهة إعطاء شهادتها... وهذا جانب سيئ آخر من القضية.

وهكذا عندما انتهى الموضوع رسميا كان "**روني**" على وشك أن ينقل إلى مكان آخر من الولاية، وقد اقترب من "**فيلدنج**" بتوتره المعهود وقال:

- أريد أن أشكرك على المساعدة التي قدمتها للآنسة "**كويستد**". إنها طبعا لا تستطيع أن تتطفل على كرمك أكثر من هذا، وهي في الحقيقة قررت العودة إلى "**إنجلترا**"، وقد أتممت إجراءات رحلتها، وأفهم أنها تود رؤيتك.

- سأذهب إلى هناك في الحال.

عندما وصل "**فيلدنج**" المدرسة وجدها متضايقة إلى حد ما، وعلم أن خطبتها مع "**روني**" فسخت وقالت في حزن:

- لقد كان حكمة منه، وكنت على وشك أن أقول ذلك بنفسي، ولكنني انهمكت في التساؤل عما يمكن أن يحدث. لقد كان من المؤكد أنني سأستمر في إفساد حياته. فليس لدي ما أفعله ولا أنتمي لأي مكان. وأصبحت مضايقة عامة دون أن أدرك ذلك. أنا أتحدث فقط عن "**الهند**" فاطمئن. أنا لست متشردة في "**إنجلترا**". إنها ملائمة لي هناك.. لا.. لا تظن أنني سأرتكب ضررا في "**إنجلترا**" وعندما أضطر للعودة إلى هناك: فإنني سأستقر في مهنة ما. ولدي ما يكفي من المال لأبدأ حياتي، وكذلك كومة من الأصدقاء من نوعي. وسأكون بخير تماما، ولكن.. أوه المشكلة أنني ورطت كل فرد هنا ولا أستطيع التغلب على ذلك. وحرصي على ما إذا كنا سنتزوج أم لا.. وفي النهاية افترقنا أنا و"**روني**" ولست نادمة. لم يكن من الواجب أصلا أن نفكر في الزواج. ألم تدهش عندما أعلنت خطبتنا؟

- ليس كثيرا. لأن الفرد في سني نادرا ما يدهش. الزواج أمر غريب جدا بالنسبة لحالتي. إنه يبدأ ويستمر لأسباب واهية. والعمل الاجتماعي يبرزه من جانب، والعمل المدني على الجانب الآخر، ولكن كلا العملين ليس زواجا أليس كذلك؟ لدي أصدقاء لا يستطيعون تذكر السبب في زواجهم. لا هم ولا زوجاتهم. وأشك وأعتقد أن معظم الزيجات تحدث بالمصادفة رغم أنه فيما بعد ذلك تخترع أسباب نبيلة له. وأنا وقح ومتهكم بالنسبة للزواج.

- أنا لست كذلك. إن كل تلك البداية المزيفة هي غلطتي لم أحضر لـ"**روني**" أي شيء من الواجب إحضاره. وهذا هو السبب الحقيقي لأنه رفضني، لقد دخلت ذلك الكهف وأنا أفكر: "هل أنا مغرمة به؟" أنا لم أكن قد قلت ذلك لك بعد يا سيد "**فيلدنغ**" ولم أشعر بأن لدي المبرر الكافي.. الحنان والاحترام والعلاقات.. لقد حاولت أن أجعلها تحل محل..

قال وكأنه يزودها بالكلمة:

- لم أعد أريد الحب.

- ولا أنا.. إن تجربتي هنا شفتني. ولكني أريد من الآخرين أن يريدوه.

- ولكن لنعد ثانية إلى حديثنا الأول.. عندما دخلت الكهف، من الذي تبعك، أم لم يتبعك أحد؟ هل يمكنك أن تعرفي؟ لا أريد أن يظل الأمر معلقا في الهواء.

قالت بلا اكتراث:

- دعنا نقول إنه الدليل المرشد. إن ذلك لن يعرف أبدا.. أنا وراء شيء وأنت كذلك، ولكن السيدة "**مور**" تعرف.

- كيف يمكن لها أن تعرف ما لا نعرفه؟

- ربما بالتخاطر.

سقطت الكلمة الضائعة الحقيرة على الأرض: التخاطر؟ يا له من تفسير! من الأفضل سحبها وهكذا فعلت "**عديلة**". هل هناك عوالم لا يمكن أن تصل إليها أيديهما، أم هل كل ما هو ممكن يدخل إدراكهما؟ إنهما لا يستطيعان أن يعرفا. فقط، أدركا أن نظرتهما العامة متشابهة بطريقة أو بأخرى، ووجدا في ذلك نوعا من الرضا، ربما تكون الحياة سرا غامضا وليس خلطا لأمور، ولكنهما لا يستطيعان أن يعرفا. ربما كان المائة هندي الذين يصخبون ويضجُّون بطريقة مزعجة للغاية هم رجل واحد، والعالم الذي يعكسونه عالم واحد وليس لديهم جهاز للقياس.

- اكتبي لي عندما تصلين "**إنجلترا**".

- سأفعل كثيرا. لقد كنت وافر الطيبة. الآن وأنا راحلة أدرك ذلك. أتمنى لو أفعل شيئا لك مقابل ذلك، ولكني أرى أن لديك كل ما تريد.

رد بعد فترة صمت:

- أعتقد هذا. لم أشعر قبل الآن بمثل ما أشعر به من أمان وسعادة. إنني حقا انسجمت مع الهنود وهم يثقون بي فعلا. إنني سأظل هكذا حتى الهزَّة الأرضية القادمة.

- بالطبع فإن موت السيدة "**مور**" قد أزعجني.

- لقد كان "**عزيز**" مغرما بها هو أيضا.

- ولكنها جعلتني أتذكر أن جميعنا لابد أن يموت، وكل تلك العلاقات الشخصية التي نحاول أن نعيشها هي مؤقتة. لقد تعودت أن أشعر بأن الموت يختار الناس، وهو ظاهرة نحصل عليها من الروايات؛ لأن بعض الشخصيات تظل في الرواية تتكلم حتى النهاية. والآن الموت لا يعفي أحدا وبدأ يصبح حقيقة.

- لا تدعه يصبح حقيقة أكثر من اللازم وإلا مت أنت نفسك، وهذا هو الاعتراض على التفكير في الموت. إننا نخضع لما نعمل فيه. وقد شعرت بنفس الإغراء وكان عليّ أن أبتهج.. إنني أريد أن أستمر في الحياة.

- وأنا كذلك.

بدت صداقة تظهر في الجو.. لقد كان كل من الرجل والمرأة عند أعلى قوتهما. كلاهما حساس وصادق ورقيق. ومع ذلك لازالا غير راضيين رغم أنهما يتشاركان في نفس الأفكار واللغة. واختلاف السن والجنس لم يفرقا بينهما. وعندما اتفقا على فكرة الاستمرار في الحياة- وأنا لا أؤمن بالإله- فإن تلك الكلمات كانت تتبعها آثار غريبة، وكأن العالم قد غير من موضعه ليملأ فراغا ضئيلا. أو كأنهما رأيا حركاتهما الخاصة من ارتفاع مهول، والأقزام يتكلمون ويتصافحون بالأيدي، ويطمئن كل منهم للآخر. إنه وافق على نفس الارتفاع، والمستوى المنظور. لم يظنا أنهما على خطأ؛ لأنه لا يظن الناس الصادقون أنهم مخطئون. فإن عدم الاستقرار يحدث لهم ويستمر الظل من الحلم يسود مصالحهم الواضحة المحددة، ولا تبدو الأشياء أبدا مرئية ثانية كرسائل من العالم الآخر.

قال لها مؤكدا:

- أنا معجب بك شديد الإعجاب إذا جاز لي أن أقول.

- أنا سعيدة وأعجب بك أيضا.. دعنا نتقابل ثانية.

- سنفعل في "**إنجلترا**" لأنني لا أحصل أبدا على إجازة لقضائها في الوطن.

- ولكني أفترض أنك لن تفعل ذلك بعد.

- هذه فرصة. ولدي خطة الآن أدرسها في الحقيقة.

- أوه.. إن ذلك سيكون لطيفا جدا.

وهكذا تلاشت الخطة. بعد عشرة أيام رحلت "**عديلة**" بنفس الطريق الذي ذهبت عبره صديقتها المتوفاة. كانت آخر نوة من الرياح الموسمية قد أتت. وقد خربت البلاد وأصبحت غائمة. وبيوتها وأشجارها وحقولها كانت على نمط واحد من عجينة رمادية. والبحر في "**بومباي**" اندفع نحو الأرصفة. لقد كان آخر مغامراتها الهندية مع الخادم "**أنطوني**" الذي تبعها إلى السفينة وحاول أن يبتزها. قال "**أنطوني**" إنها عشيقة "**فيلدنج**". ربما لم يرض "**أنطوني**" عن إكراميته "بقشيشه".

رن جرس السفينة وجعلتهم يقبضون عليه، ولكن بيانه خلق المزيد من الفضيحة، ولم يتحدث إليها الناس كثيرا أثناء الجزء الأول من الرحلة وعبر المحيط الهندي والبحر الأحمر، تركوها في حالها. تغير الجو عند "**مصر**". كانت الرمال النظيفة مكومة على جانبي القناة، وبدت وكأنها تمسح كل

شيء. كان صعبا ومتناقضا، وحتى "**بورسعيد**" بدت صافية وساحرة على ضوء الصباح الوردي المائل للرمادي. نزلت الشاطئ هناك مع مبشر أمريكي. وسارا في الخارج حتى تمثال "**ديليسبس**" وعبّا من الهواء المقوي للشرق. سألها المبشر:

- ما هي الالتزامات التي جعلتك تعودين إلى وطنك يا آنسة "**كويستد**" بعد أن تذوقت طعم المناطق الاستوائية؟ولاحظي أنني لم أقل لأي شيء تديرين ظهرك إنما تعودين، وهذا الرائد الشهير "**ديليسبس**" سيجعل سؤالي واضحا. إنه يتحول عن الشرق ويعود إلى الغرب، ويمكنك أن تري ذلك بوضوح شديد من وضع يديه الساحرتين وإحداهما تمسك حبلا من النقانق.

نظر إليها في مرح حتى يغطي فراغ عقله. لم يكن لديه أي فكرة عن كلمتي يتحول ويعود. ولكنه دائما يستخدم الكلمات المزدوجة. فجأة رأت في صفاء البحر المتوسط: عند عودتها إلى "**إنجلترا**" أن تعنى بالطفلين الآخرين للسيدة "**مور**" "**رالف**" و"**ستيلا**". ثم قد تعود إلى مهنتها. لقد حاولت السيدة "**مور**" أن تهتم بنتاج زيجتيها كل على حدة و"**عديلة**" لم تلتق بعد بالفرع الأصغر حتى الآن.

الفصل الثلاثون

تبعة محلية أخرى من تبعات المحاكمة هي تحالف إسلامي هندوسي. تبودلت صيحات الصداقة بين المواطنين البارزين ومعها رغبة صادقة لحسن التفاهم. وعندما كان "**عزيز**" في المستشفى في يوم ما تلقى زيارة من وجه لطيف جدا: السيد "**داس**".. لقد طلب القاضي معروفين منه: علاجا لداء القوبة وقطعة شعرية لشقيق زوجته من أجل مجلته الشهرية وقد منحه كليهما.

- يا عزيزي "**داس**".. لماذا عندما حاولت أن تضعني في السجن.

أرسل إليّ السيد "**بهاتا شاريا**" شعرا؟ آه؟ هذه طبعا نكتة تماما. سأكتب له أحسن ما عندي. ولكني ظننت أن ملته تخص الهندوس.

قال في خجل:

- إنها ليست للهندوس وإنما للهنود جميعا.

- لا يوجد في الوجود شخص هندي عام.

- لا يوجد فعلا. ولكنه قد يوجد عندما نكتب الشعر. أنت بطلنا والمدينة كلها خلفك بغض النظر عن العقيدة.

- أعرف هذا، ولكن هل ستدوم؟

قال "**داس**" الذي كان يتميز بمزيد من الوضوح العقلي:

- أخشى ذلك.. ولهذا السبب -إذا جاز لي القول- لا تدخل الكثير جدا من التعبيرات الفارسية في قطعة الشعر ولا عن البلبل.

قال "**عزيز**" وهو يعض على قلمه:

-كان يكتب على روشتة.

- نصف ونصف. هأنذا.. أليس هذا أفضل من الشعر؟

- سعيد الرجل الذي يستطيع أن يكتب كليهما: الشعر والروشتة!

- أنت كلك مجاملات اليوم.

قال الآخر وهو يمد يده بطريقة غريزية:

- أعلم أنك تحمل لي ضغينة لقيامي بتلك المحاكمة. أنت لطيف وودود. ولكني أحس دائما السخرية في سلوكك.

- لا.. لا.. هذا هراء.

تصافحنا في شبه عناق. وبين الناس من ذوي المناحي المختلفة، هناك دائما نوع من الرومانسية، ولكن مختلف فروع الهنود يعرفون جيدا كلا عن الآخر بحيث يمكن التغلب على المجهول بسهولة.

قال "**عزيز**" وهو يربت كتف القاضي العريضة وهو يفكر في أنه يتمنى لو أنهم لا يذكرونه بروث البقر.. في حين فكر "**داس**" أن بعض المسلمين شديدو العنف.. ابتسما وكل منهما يود أن يتجسس على ما في قلب الآخر. قال "**داس**":

- أرجو أن تغفر لي أخطائي وتدرك حدودي الضيقة. الحياة ليست سهلة كما تعرفها على الأرض.

- أوه.. حسنا.. بالنسبة لهذه القطعة الشعرية كيف سمعت أنني أحيانا أقرض الشعر؟

- الأستاذ "**جودبول**" يذكر ذلك دائما قبل رحيله إلى "**ماو**".

- وكيف عرف؟

- إنه هو أيضا شاعر... كيف لم يعرف كل منكما ذلك؟

كان يحس بالفخر لهذه الدعوة، وأخذ يعمل في ذلك المساء. كان إحساسه بالقلم بين يديه قد ولد عنده إلهامات في الحال. كان شعره حول انهيار أحوال المسلمين وشجاعة الحب وقد ملأه بالحزن والحلاوة قدر استطاعته ولكن ليس من نبع تجاربه الخاصة. ولا يهم الهندوس. أحس بعدم الرضا. اندفع نحو الطرف الأقصى الآخر، وكتب هجاء، كان مفزعا بدرجة لا تسمح بنشره. إنه لم يستطع أن يعبر إلا عن الحقد والرثاء رغم أنه معظم حياته لم يهتم بأيهما. لقد أحب الشعر، والآن اشتاق إلى تأليف أغنية جديدة التي يجب أن تطلبها الأعداد الهائلة، ويمكن أن تغنى حتى في الحقول. بأي لغة لابد أن تكتب؟ وما الذي يجب أن تعلن عنه؟ لقد تعهد بأن يرى المزيد من الهنود الذين ليسوا من أتباع السنة المحمدية وألا ينظر إلى الخلف أبدا وهذا هو المنهج الصحي. ما الذي يمكن أن تقدمه أمجاد قرطبة وسمرقند لهذا السمو الروحي؟ لقد ذهبت تلك الأمجاد وبينما نأسى عليها يحتل الإنجليز "**دلهي**" ويطردوننا من شرق "**إفريقيا**". والإسلام نفسه يلقي أضواء متعامدة على ممر الحرية. وأغنية المستقبل يجب أن تكون عقيدة سامية.

لم يتم كتابة قطعة الشعر الخاصة بالسيد "**بهاتا شاريا**" قط. ولكن كان لها تأثير. لقد قادته إلى

وجه أرضه الأم الغامضة والضخمة. لم يكن لديه عاطفة نحو أرض مولده، ولكن تلال "**ماربار**" جذبته إليها. ضاقت عيناه، وحاول أن يحب "**الهند**". لابد أن تقلد "**اليابان**" ليس قبل أن تصبح وطنا وأمة واحدة يُعامل أبناؤها باحترام. لقد زاد قسوة، وأصبح من الصعب التعامل معه. وكان الإنجليزي الذي كان يضحك عليه أو يتجاهله، أصبح الآن يطارده في كل مكان. بل إنهم ألقوا شبكة على أحلامه. قال لـ"**حميد الله**" في اليوم التالي:

– إن غلطتي الكبرى أنني اعتبرت حكامنا نكتة.

وقد رد عليه "**حميد الله**" وهو يزفر:

– إنها أكثر الطرق حكمة للتعامل معهم، ولكنها غير ممكنة على المدى الطويل. وستحدث كارثة مثل كارثتك إن عاجلا أو آجلا، وتكشف أفكارهم السرية حول أخلاقنا ولو نزل نبي من السماء وقال لهم إنك بريء لما صدقوه. والآن تراني أنا و"**محمود علي**" نضيع وقتا طويلا حول المؤامرات، ونتحالف مع مخلوقات مثل "**رام شاند**".

– أنا لا أتحمل اللجان وسأرحل حالا.

– إلى أين؟ "**تورتون**" و"**بيرتون**" كلهم متشابهون. ولكن ليس في ولاية هندية.

– أعتقد أن السياسيين مضطرون للسلوك سلوكا أفضل لا أكثر.

– أنا لا أريد أن أبتعد عن "**الهند**" البريطانية حتى ولو لوظيفة فقيرة. أعتقد أنني أستطيع أن أكتب الشعر هناك وأتمنى لو أنني عشت في زمن "**بابور**"، وحاربت وكتبت من أجله. وكلمة ذهب... ذهب تضعفنا عندما نقولها. نحن في حاجة إلى ملك يا "**حميد الله**"، فإن ذلك سيسهل علينا حياتنا. أما والأمر هكذا فإن علينا أن نحاول أن نستوعي ونقدِّر هؤلاء الهندوس اللطفاء. وعقيدتي الآن أن أحاول الحصول على وظيفة دكتور في إحدى ولاياتهم.

– أوه.. إن هذا تجاوز أكثر من اللازم.

– إنه ليس أبعد مما وصل إليه السيد "**رام شاند**".

– ولكن المال.. المال.. إنهم لن يدفعوا الأجر المضبوط هؤلاء الراجاوات المتوحشين.

– لن أكون غنيا في أي مكان؛ فهذا خارج أخلاقي.

– لو كنت عاقلا وجعلت الآنسة "**كويستد**" تدفع..

– لقد اخترت ألا أفعل، والنقاش في الماضي غير مجد. لقد سمحت لها بالاحتفاظ بثروتها. وأن تشتري لنفسها زوجا في "**لندن**". والذي من الضروري أن تحصل عليه، لا تذكر الموضوع مرة ثانية.

– حسنا، ولكن حياتك لابد أن تستمر كحياة رجل فقير. لا يوجد إجازات في "**كشمير**" من أجلك بعد، ويجب عليك أن تتمسك بمهنتك وترتفع إلى وظيفة مرتفعة الأجر، وليس للتقاعد والانسحاب إلى غابة حكومية، وتكتب أشعارا، علم أطفالك، واقرأ آخر الدوريات العلمية، وأجبر الأطباء الأوربيين على احترامك، وتقبل عواقب أعمالك كرجل.

غمز "**عزيز**" له وهو يقول:

- نحن لسنا في قاعات المحاكم. هناك طرق عديدة لتصبح رجلا، وطريقتي هي أن أعبر عما هو في أعماق قلبي.

قال "**حميد الله**" متأثرا:

- على مثل هذه الملحوظة لابد من وجود رد. هل سمعت الإشاعة المؤسفة. إنه تم الإمساك بـ"**محمد لطيف**"؟

- أي إشاعة؟

- عندما بقيت الآنسة "**كويستد**" في الكلية اعتاد "**فيلدنج**" أن يزورها في وقت متأخر من المساء كما قال الخدم:

قال "**عزيز**" وهو ينظر بطريقة غريبة:

- إنه تغيير سار بالنسبة لها.

- ولكن هل تفهم المعنى الذي أقصده؟

- بالضبط، ومع ذلك لايزال معناك لا يساعدني على الخروج من مصاعبي. أنا مصمم على مغادرة "**كاندرابور**"، والمشكلة هي إلى أين؟ أنت لا تقدم لي أي مساعدة، ولكن من يعطيني المساعدة؟ لا أحد صديق لي. كلهم خونة حتى أطفالي. لقد فاض بي الكيل من الأطفال.

- لقد كنت على وشك أن أقترح أن نذهب وراء البردة، ولكن أبناءك الثلاثة الخادعين هناك؛ لذلك فإنك لن تريد ذلك.

- أنا آسف أنه منذ أن كنت في السجن فإن طبعي غريب وأرجوك أن تغفر لي.

- إن أم "**نور الدين**" تزور زوجتي الآن. وأعتقد أن هذا لا بأس به. إنهن يأتين أمامي فرادى ولسن معا حتى الآن. وعليك أن تعدهن للصدمة الموحدة لوجهي.

- لا.. دعنا نفاجئهن دون تحذير. كان الكثير من الهراء لايزال يدور بين سيداتنا. لقد كن يتظاهرن أثناء المحاكمة بأنهن سيتخلين عن البردة، والحقيقة أن من تستطيع منهن الكتابة عدُّوني مستندا في هذا الصدد وهو الآن سينتهي إلى هراء. وأنت تعرف مدى احترامهن لـ"**فيلدنج**". ولكن لم تشاهده واحدة منهن. وتقول زوجتي إنها ستفعل، ولكن عندما يزورنا دائما يكون هناك عذر أنها لا تحس بالصحة، أو أنها خجول من الحجرة، أو ليس لديها حلويات تقدمها له سوى حلوى "أذن الفيل"، وعندما أقول إن السيد "**فيلدنج**" يحب حلوى "أذن الفيل" فإنها تجيب بأنها تعرف كم هي رديئة حلواها. ولمدة خمسة عشر عاما يا ولدي العزيز قد جادلت حرمي "البيجوم" ولم أستطع أبدا أن أكسب نقطة واحد، ومع ذلك فإن المبشرين يخبروننا بأن نساءنا مضطهدات، وإذا أردت موضوعا لأشعارك فالسيدة الهندية هي كما المفروض أن تكون عليه أو لا تكون عليه.

الفصل الواحد والثلاثون

لم يكن لدى "**عزيز**" أي إحساس بالدليل. وتتابع عواطفه تقرر عقائده وقناعاته، وتؤدي إلى البرودة المأساوية بين نفسه وصديقه الإنجليزي. لقد غزوا ولكنهما لم يتوجا. كان "**فيلدنج**" بعيدا في مؤتمر. وبعد الإشاعة حول الآنسة "**كويستد**" وكونها معه ظل دون إزعاج لأيام قلائل وافترض أنها صحيحة. لم يكن لديه أي اعتراض على أسس أخلاقية بأن أصدقاءه كانوا يتسلون. وكون "**سيريل فيلدنج**" في منتصف العمر لم يعد يتوقع بعد الآن أن ينال أول قطفة من سوق النساء. وأن عليه أن يمنع نفسه أينما وجدها، ولكنه كره منه أن ينحدر إلى تلك المرأة التي لايزال يعتبرها عدوة، ثم لماذا لم يخبره؟ ما هي الصداقة دون ثقة؟ وهو نفسه قال أشياء تعتبر أحيانا صدمة وقد أنصت الرجل الإنجليزي في تسامح. ولكنه لم يقدم شيئا في المقابل.

لقد قابل "**فيلدنج**" في محطة القطار عند عودته، ووافق على الغداء معه. ثم بدأ يرهقه بالطريقة الملتوية والتي ظاهرها المرح. ثم اعترف بفضيحة أوربية: السيد "**ماك برايد**" والآنسة "**ديريك**". إن ارتباط الآنسة "**ديريك**" الصادق بـ"**كاندرابور**" أصبح له تفسير الآن. لقد ضبط السيد "**ماك برايد**" في حجرتها، وزوجته تطلقه. وهذا الرفيق صافي العقل! على أية حال فإنه سيلوم الجو الهندي. كل شيء هو غلطتنا حقا. والآن، ألم أكتشف خبرا مهما بالنسبة لك يا "**سيريل**"؟

قال "**فيلدنج**" الذي لم يكن يهتم بالخطايا البعيدة:

– ليس كثيرا. أنصت إلى خطيئتي يا "**عزيز**".. لقد أطلقت في المؤتمر.

– هذا المساء سيكون من أجل النظارة. ويجب أن أذهب إلى "**مينتو**" الآن. فإن الكوليرا تبدو سيئة. وقد بدأنا نتلقى حالات محلية وكذلك مستوردة.. والحقيقة أن الحياة كلها أحيانا محزنة. والجراح المدني الجديد هو مشابه تماما للسابق، ولكنه لم يجرؤ بعد على أن يكون مثله، وهذا ما تنتهي إليه كل التغييرات الإدارية. كل معاناتي لم تكسب لنا شيئا، ولكن انظر هنا يا "**سيريل**" عندما أتذكرها.. هناك إشاعة عنك مثل إشاعة "**ماك برايد**". إنهم يقولون إنك والآنسة "**كويستد**" قد أصبحتما أكثر من صديقين حميمين. وإذا تحدثنا بصراحة وأمانة فإنهم يقولون إنكما مذنبان بعدم الاحتشام.

– أيقولون ذلك؟

– إنه ينتشر عبر كل المدينة، وقد يسيء إلى سمعتك. وأنت تعلم أن الجميع يساندونك بطريقة أو بأخرى.. وقد حاولت بكل الطرق أن أسكت الحكاية.

– لا تهتم فإن الآنسة "**كويستد**" قد تركت الميدان على الأقل.

– إن هذه الحكاية تضر هؤلاء الذين يبقون في البلاد وليس من يتركونها، تصور ضيقي وقلقي. إنني لا أكاد أحصل على غفوة نوم. أولا.. اسمي ارتبط بها والآن اسمك.

– لا تستخدم مثل هذه الكلمات المبالغ فيها.

– مثل ماذا؟

- مثل ضيق وقلق.

- ألم أعش كل حياتي في "**الهند**"؟ ألا أعرف ماذا يمكن أن يحدثه ذلك من تأثير سيء؟

- نعم، ولكن الميزان... الميزان.. أنت دائما ما يكون ميزانك خطأ. ولسوء الحظ أن هناك تلك الإشاعة وهي من الصغر بحيث علينا أن نتحدث في أمر آخر.

- أنت تهتم بالآنسة "**كويستد**" رغم ذلك. وأنا أستطيع أن أرى ذلك في عينيك.

- بقدر ما أنا مهتم هكذا فإنني أفضل السفر خفيفا.

- إن التوسع في الحديث يا "**سيريل**" عن السفر خفيفا سيكون هو أسباب تحطيمك. إنه يثير الأعداء ضدك على كل الجبهات، وهذا يجعلني لا أشعر بالارتياح بشكل بالغ.

- أي أعداء؟

- لماذا كان "**عزيز**" ليس في ذهنه سوى نفسه فلم يستطع أن يرد. وعندما أحس بأنه أحمق ازداد غضبا؟

- لقد أعطيتك قائمة بعد أخرى من الناس الذين لا يمكن الثقة بهم بالمدينة. ولو كنت مكانك لكان لدي العقل الذي يجعلني أحس بأنني محاط بالأعداء. أنت تلاحظ ما أقوله بصوت منخفض. إن هذا بسبب.. ألاحظ أن سائس جوادك جديد. كيف لي أن أعرف أنه ليس جاسوسا؟ كل خادم من الدرجة الثالثة جاسوس.

سأله "**فيلدنج**":

- والآن ما هو الأمر؟

- هل تعارض ملحوظتي الأخيرة؟

- إنها ببساطة لا تؤثر فيّ الجواسيس في كثافة الناموس. ولكن أمامي سنوات حتى ألتقي بالناموسة التي ستقتلني. هل في ذهنك شيء آخر؟

- ليس لدي.. إنه أمر غريب.

- فعلا.. لأنك تستجوبني عن شيء أو آخر.

كل هجوم مباشر كان يعجزه عن رد الفعل. قال:

- إذن أنت والآنسة "**عديلة**" كان كل منكما يمتع الآخر في المساء أيها الولد الشقي؟

كان "**فيلدنج**" مذهولا من أن الحكاية كانت مأخوذة مأخذ الجد. وكره أن يناديه بالولد الشقي لدرجة أنه فقد صوابه:

- أنت أيها الفاسد الصغير.. حسنا.. لعنة الله عليك! نستمتع حقا! وهل كان الوقت مناسبا لذلك؟

- أرجو عفوك أنا متأكد أن الخيال الشرقي في حالة عمل.

- أترى! الظروف يا "**عزيز**".. كذلك الفتاة لازالت مخطوبة لـ"**هيسلوب**" كما أنني لم أحس أبدا..

- نعم.. نعم.. ولكنك لم تعترض على ما قلته؛ لذا فإنني اعتقدت أنه حقيقي.. يا إلهي..

الشرق والغرب... إنه الخداع بعينه.. هل يمكن أن توصل فاسدك الصغير المستشفى؟

- لا تقل لي إنك غاضب.

- بالتأكيد إنني لست غاضبا.

- إذا كنت كذلك فلابد أن أزيل غضبك فيما بعد.

رد عليه في وقار:

- لقد تم ذلك. أنا أعتقد تماما ما تقوله، وبناء عليه فلن يكون هناك المزيد من الأسئلة.

- ولكن الطريقة التي قلتها بها تحتاج إلى إيضاح. لقد كنت خشنا دون قصد. أسفي بلا حدود.

- الغلطة غلطتي كلية.

مناوشات مثل هذه كانت تعترض العلاقة... صمت في اللحظة غير المناسبة.. تنويع في اللهجة يساء فهمه. وهكذا سارت المحادثة كلها وهي تتخبط في فوضى. لقد ذهل "**فيلدنج**" ولم يصدم ولكن ماقيمة الفرق؟ هناك دائما مشاكل عندما لا يفكر شخصان في الجنس في وقت واحد، ويحدث دائما حقد ودهشة متبادلة، حتى لو كان الشخصان من نفس الجنس. بدا يعيد التفكير في علاقته بالآنسة "**كويستد**". وقد قطع "**عزيز**" عليه التفكير:

- ولكنني أصدِّقك. وأعتقد أنه يجب عقاب "**محمد لطيف**" بقسوة لاختراعه تلك الإشاعة.

- أوه أهملها مثل بقية الإشاعات ولا تهتم، فإنها ستختفي مثل المسكينة السيدة "**مور**" في قبرها.

- قد تورط "**محمد لطيف**" في التآمر، ولكننا غير راضين عنه فعلا. أيرضيك أن نعيده لأسرته دون هدية؟

- سنناقش مسألة "م. ل" بعد الغداء.

- الغداء.. أوه لقد وعدت "**داس**" أن أتغدى معه.

- أحضر "**داس**" إليّ.

- إنه سيدعو أصدقاء آخرين.

قال "**فيلدنج**" وهو يشيح بوجهه:

- أنت ستحضر للغداء معي كما سبق الاتفاق عليه. أنا لا أستطيع أن أتحمل ذلك. ستحضر للغداء معي.

وصلا إلى المستشفى. واستمر "**فيلدنج**" يسير حول الميدان بمفرده. كان متضايقا من نفسه، ولكنه اعتمد على الغداء حتى يلم شتات نفسه. رأى في مكتب البريد المحصل والسيد "تورتون" وقد ركنا عربتيهما جنبا إلى جنب. بينما يتنافس خادماهما بداخل المبنى. قال "**تورتون**" في لهجة مثلجة:

- صباح الخير.. لقد عدت إذن. كم كان يسعدني لو أنك ظهرت في النادي هذا المساء.

- لقد قبلت إعادة انتخابي يا سيدي. هل تعتبر أنه من الضروري أن أحضر؟ سيسعدني في الحقيقة لو أعفيتني لأنني في الواقع لدي ارتباطات غداء هذا المساء.

- إنه ليس مسألة مشاعرك. وإنما هي رغبة نائب الحاكم. ربما ستسألني إن كنت أتحدث رسميا. فعلا أنا أفعل ذلك. أتوقع حضورك في السادسة مساء، ولن تتدخل في خططك التالية بعد ذلك.

حضر المهمة الكئيبة بالطريقة الواجبة وقد توالت الهياكل العظيمة للحفاوة. تحدث خمس دقائق مع السيدة "**بلاكستون**". وتحدث مع السيد "**ماك برايد**" والذي تحدى طلاقه. وأنه ارتكب خطيئة. وتحدث إلى الميجور "**روبرت**" الجراح المدنى الجديد وإلى الشاب "**ميلز**" قاضي المدينة الجديد، ولكن كلما زاد التغيير في النادي زاد شبهه بالماضي. فكر في أن الأمر ليس بخير. مر بجوار المسجد وقال في نفسه: "نحن نبني مزيدا من قصور من الرمال. وكلما زادت حداثة المدينة ساءت السقطة. ثم إن كل شيء له صدى الآن. والصوت الأصلي لا ضرر منه، ولكن الصدى دائما شرير".

كان التفكير في الصدى خامدا في هامش ذهن "**فيلدنج**". إنه لا يستطيع أن ينميه وهو ينتمي إلى الكون الذي رفضه أو فاته. وقد فات ذلك المسجد أيضا. لقد كانت تلك البواكي الضحلة مثله موجودة ولكنه هرم مقدس محدود.

وجد "**عزيز**" منهكا وروحه المعنوية منحطة حتى نهاية المساء. وبعدها قد يكون مقبولا. اعترف بكل شيء عن النادي. وقال إنه ذهب فقط مضطرا. وإنه لن يذهب مرة ثانية ما لم يعد الأمر له ثانية وقال:

- بمعنى آخر إنني ربما لن أذهب أبدا لأنني عائد حالا إلى "إنجلترا".

قال "**عزيز**" بهدوء:

- لقد فكرت فعلا في أن الأمر سينتهي بك في "**إنجلترا**".

ثم غير موضوع الحديث. تناولا عشاءهما في شكل غريب ثم خرجا ليجلسا في حديقة بيت المغولي. قال "**فيلدنج**":

- أنا ذاهب إلى هناك لوقت قصير في عمل رسمي. إن إدارتي متلهفة على إخراجي بسرعة من "**كاندرابور**" لفترة. لقد اضطرت لتقديري تقديرا عاليا، ولكنها لا تهتم بي والوضع فكاهي بشكل ما.

- ما هي طبيعة العمل؟ هل سيتيح لك مزيدا من الوقت؟

- ما يكفي لمقابلة أصدقائي.

- لقد توقعت هذا الرد منك. أنت صديق وفيّ.. هل نستطيع أن نتحدث في موضوع آخر؟

- بكل سرور.. أي موضوع؟

قال والدموع في عينيه:

- الشعر، دعنا نناقش لماذا فقد الشعر قوة أن يجعل الرجال شجعانا؟ لقد كان والد أمي أيضا شاعرا، وحارب ضدكم في التمرد. وأنا كنت سأكون مثله لو حدث تمرد، ولكن كما هو الحال أنا طبيب فاز في قضية ولديه ثلاثة أطفال يعولهم، وهدفه الأول من الحديث هو خطط رسمية. أخذ يدير في رأسه موضوعا غير ضار.

- دعنا نتحدث عن الشعر.. أنتم أيها الناس تعيشون حسب الظروف. ما هو الذي يمكن أن

تكتب عنه؟ أنت لا تستطيع أن تقول: «الوردة ذبلت»، ومع ذلك لا تستطيع أن يكون لديك شعر وطني عن "**الهند**" من نمط "هندي أنا" عندما لا تكون هند أحد.

– أنا أحب هذه المحادثة التي قد تؤدي إلى شيء ما.

– الحق معك في التفكير في أن الشعر لابد أن يمس الحياة. عندما عرفتك لأول مرة استخدمت هذه العبارة كتعويذة.

– لقد كنت طفلا عندما عرفتني لأول مرة... وكل شخص كان صديقي وقتها.. والصديق هو تعبير فارسي للإله، ولكنني لا أريد حتى أن أصبح شاعرا دينيا.

– لقد تمنيت أن تكون كذلك.

– لماذا وأنت نفسك ملحد؟

– هناك شيء ما في الدين قد لا يكون حقيقيا، ولكنه لم ينغنَّ به أحد بعد.

– فسر ذلك بالتفصيل.

– شيء ما ربما وجده الهندوس.

– دعهم يغنونه.

– الهندوس غير قادرين على الغناء.

– أنت أحيانا ما تقول ملحوظة حساسة. يكفي هذا بالنسبة للشعر حتى الآن.. ودعنا نعود إلى زيارتك الإنجليزية.

قال الآخر مبتسما:

– إننا لم نناقش الشعر أكثر من دقيقتين.

احتفظ "**عزيز**" بالحديث القليل عن الشعر في يده، وأنه يلخص مشكلته، فقد تذكر للحظات زوجته، وكما يحدث عندما تتوق للذكرى فإن الماضي يصبح مستقبلا. وقد رآها معه في غاية هندوكية بولاية وطنية بعيدا عن الأجانب قال:

– أعتقد أنك ستزور الآنسة "**كويستد**".

– إذا كان لدي وقت. فسيكون غريبا أن أراها في "**هامبستر**".

– ما هي "**هامبستر**"؟

– إنها ضاحية صغيرة من ضواحي "**لندن**".

– وهناك تعيش في راحة. وستستمتع برؤيتها.. يا إلهي! لقد أصابني صداع هذا المساء. ربما سأصاب بالكوليرا. بعد إذنك سأرحل مبكرا.

– متى تريد العربة؟

– لا تزعج نفسك فسأستخدم الدراجة.

– ولكنك لم تحضر دراجتك. لقد أحضرتك عربتي ويجب أن تعيدك.

قال محاولا أن يكون مرحا:

– يبدو ذلك معقولا. لم أحضر دراجتي. ولكنهم شاهدوني كثيرا في عربتك. وسيظن السيد

"**رام شاند**" أنني استغللت كرمك أكثر من اللازم.

كان يشعر بعدم الارتياح وقد قفز الحديث من موضوع إلى موضوع عاطفي وودي. ولكن لا ارتباط بينهما.

- هل غفرت لي التعليق الغبي الذي قلته هذا الصباح يا "**عزيز**"؟

- عندما قلت لي إنني فاسد صغير؟

- نعم مع شديد اضطرابي. أنت تعلم كم أنا مغرم بك.

- لا شيء في هذا طبعا. كلنا يرتكب أخطاء. وفي صداقة مثل صداقتنا فإن زلات قليلة ليس لها تبعات.

ولكن عندما استمر في طريقه أحس "**عزيز**" بأن شيئا ما يحبطه.

- ألم غامض بالجسد أو العقل ينتظر أن يصعد إلى السطح وعندما وصل البنجالو، وأراد العودة، وأن يقول شيئا عاطفيا جدا فإنه أعطى السائس بدلا من ذلك بقشيشا كبيرا، وجلس في اكتئاب على السرير، وأخذ "**حسن**" يدلكه بلا مهارة، كانت مجموعات الذباب قد تجمعت على رأس الدولاب، والبقع الحمراء زادت كثافة؛ لأن "**محمد لطيف**" نام هناك أثناء فترة سجنه، وأخذ يبصق كثيرا، وكان درج المائدة مفتوحا بسبب الشرطة التي فتحته عنوة. لقد استهلك كل شيء في "**كاندرابور**" بما في ذلك الهواء. صعدت المشاكل على السطح الآن.. لقد كان متشككا في أن صديقه قد يتزوج الآنسة "**كويستد**" من أجل أموالها، وأنه ذاهب إلى "**إنجلترا**" لهذا الغرض.

- أيها الخادم. لماذا لم تبعد هذا الذباب الذي في السقف؟

- للأسف لقد عاد.

- مثل كل الأمور الشريرة.

وحتى يشتته "**حسن**" عن الحديث حكى كيف أن صبي المطبخ قتل حية، ولكنها قتلت مرتين لأنها أصبحت حيتين.

- عندما يكسر طبقا هل يصبح طبقين؟

- ستحتاج إلى أكواب وإبريق شاي جديد وأنا أحتاج لمعطف.

زفر "**عزيز**".. أحد الرجال يحتاج معطفا، وآخر يريد زوجة غنية، وكل منهما يتعامل مع هدفه بطريقة ذكية. لقد وفر "**فيلدنج**" على الفتاة غرامة عشرين ألف روبية والآن يتبعها إلى "**إنجلترا**". إذا أراد أن يتزوجها فإن ذلك يفسر كل شيء؛ لأنها ستجلب له دوطة ضخمة. لم يكن "**عزيز**" يصدق شكوكه، وكان من الأفضل لو فعل لأنه كان سيكشف ويوضح الموقف. الشك في الشرق هو ورم خبيث.. ومرض عقلي يجعله مدركا لذاته وغير ودود فجأة.. إنه ينفجر ولا يثق في نفس الوقت بطريقة لا يستطيع فهمها الغربي. شك في أن الفتاة كانت دون شك عشيقة صديقه عندما بقيت في الكلية. و"**محمد لطيف**" على حق. ولكن هل هذا كل شيء؟ ربما كان "**سيريل**" هو الذي تبعها إلى الكهف.. لا.... مستحيل.. لم يكن "**سيريل**" أو "**كاوادول**" على الإطلاق. إنه أمر مستحيل ومثير للسخرية، ومع ذلك تركه الوهم يرتجف من البؤس. هذه الخيانة إذا كانت حقيقية

فقد تكون أسوأ ما في تاريخ "**الهند**" . لا شيء أكثر منها وضاعة حتى مصرع "**حفظ الخان**" على يد "**سيفاجي**" . لقد اهتز وكأنه اكتشف الحقيقة وطلب من "**حسن**" أن يتركه.

في اليوم التالي قرر أن يصحب أطفاله عائدا إلى "**موسوري**" لقد حضروا من أجل المحاكمة، ولكنه ودعهم. واستمر عند "**حميد الله**" كان الميجور "**روبرت**" على استعداد لمنحه إجازة، وخلال غيابه قد يذهب "**فيلدنج**" إلى "**إنجلترا**" . والفكرة ناسبت معتقداته وشكوكه، والأحداث ستثبت من منهما كان على حق ويحافظ في نفس الوقت على وقاره.

كان "**فيلدنج**" يحس بشيء عدائي، ولأنه كان مغرما حقا بـ"**عزيز**" فإن تفاؤله خانه. كتب خطابا مطولا بالطريقة الحديثة أفضل.

– في ذهني أنك تظنني محتشما بشأن النساء. وكنت أفضل لو فكرت في شيء آخر عني. وإذا كنت أعيش بلا خطيئة الآن، فإن ذلك فقط لأنني في الأربعينات من عمري وهي فترة المراجعة. وفي سن الثمانين سأعيد المراجعة مرة أخرى، وقبل أن أصل إلى التسعين يجب أن أعيد المراجعة أيضا، ولكنني محروم من الأخلاق حيا أو ميتا. أرجوك أن تعرف هذا عني.

كان يحب البوح بأسراره مهما كانت شنيعة، ولكن التعميم والمقارنات تنفره. إن الحياة ليست كتابا علميا. رد ببرود نادما على عودة "**عزيز**" إلى "**موسوري**" قبل أن يرحل صديقه:

– لابد أن أحصل على عطلتي الفقيرة الصغيرة عندما أستطيع ذلك. وكل شيء لابد أن يكون مقتصدا للأبد. وعندما تعود سأكون عبدا في وظيفة أخرى بعيدا.

ورحل "**فيلدنج**" . لقد تأكدت أوهام الهنود في "**كاندرابور**" وقد ساعد على ذلك أصدقاؤه الذين رغم إعجابهم بالناظر أحسوا بعدم الارتياح لتدخلهم أكثر من اللازم في شؤونه الخاصة. وأعلن "**محمود علي**" أن الخيانة قادمة وهمهم "**حميد الله**" :

– بالتأكيد مؤخرا لم يخاطبنا بصراحته المعهودة.

وحذر "**عزيز**" ألا يتوقع الكثير. فهي وهو على أية حال من جنس آخر. فكر "**عزيز**" : أين هي؟ أين روبياتي العشرون ألفا؟ لازالت تلك الروبيات تطارد عقله لأنه خدع فيها، وسمح لهما أن يهربا عبر البحار تماما مثل معظم ثروات "**الهند**" . لابد أن "**سيريل**" سيتزوج "**كويستد**" . وأصبح متأكدا من ذلك. وكل مخلفات "**ماربار**" غير المفهومة ساهمت في ذلك. إنها النتيجة الطبيعية للرحلة التي لا معنى لها. ولن يمر وقت طويل إلا وأقنع نفسه بأن الزواج قد تم بالفعل.

الفصل الثاني والثلاثون

"**مصر**" كانت ساحرة.. شريط من سجادة خضراء، يسير عليها ذهابا وإيابا أربعة أنواع من الحيوانات ورجل واحد. لقد نقله عمله إلى هناك لأيام قلائل، ثم عاد وأبحر من الأسكندرية حيث السماء الزرقاء المضيئة، والريح الثابتة، وخط الشاطئ المنخفض والنظيف على عكس فوضى وتعقيدات "**بومباي**" . استقبلته بعد ذلك جزيرة "**كريت**" بحافة حبالها الطويلة الثلجية. ثم أتت

"**فينيس**" بعدها. كانت مباني" **فينيس**"البندقية مثلها مثل جبال "**كريت**" وحقول "**مصر**" موجودة في المكان المضبوط، بينما في "**الهند**" الفقيرة كل شيء موجود في غير المكان المناسب. كان قد فقد جمال الشكل بين المعابد الوثنية والتلال الكسيحة التي هي في الحقيقة بلا شكل فكيف يكون لها جمال؟ برز أمامه الآن شيء أكثر قيمة من الفسيفساء والرخام: الانسجام ما بين عمل الرجل والأرض التي تحمله والحضارة التي أفلتت من الخلط والغموض. إنه الروح في شكل معقول مجسدا لحما ودما. كتب على صور وبطاقات بريدية لأصدقائه الهنود. أحس بأن جميعهم قد يفوتهم متع ومباهج الشكل، وهذا يشكل حاجزا خطيرا. إنهم قد يروا فخامة "البندقية" وليس شكلها ورغم أن "البندقية" ليست أوربية فإنها جزء من انسجام البحر المتوسط. إن البحر المتوسط هو العنصر الإنساني، وعندما يغادر الناس هذه البحيرة العظيمة الساحرة، ومضيق البوسفور، وأعمدة "هرقل"، فإنهم يقتربون من المخيف وغير العادي والمدخل الجنوبي يؤدي إلى أغرب التجارب. عندما يدير ظهره للجنوب مرة ثانية فإنك تستقل القطار نحو الشمال، وعندئذ فإن الخيالات الرومانسية التي ظن أنها ماتت للأبد إذا بها تزدهر عندما شاهد زهور الحوذان البصلي واللولي الصغير والذي يزدهر في شهر يونيو (حزيران).

الجزء الثالث

المعبد

الفصل الثالث والثلاثون

على بعد بضعة مئات الأميال نحو الغرب من تلال "**ماربار**" وبعد مرور عامين وقف الأستاذ "**ناريان جودبول**" في حضرة الرب. لم يكن الرب قد ولد بعد، وهو سيحدث في منتصف الليل (حسب العقيدة الهندوكية) لقد ولد أيضا من قرون مضت، ولا يمكن أيضا أن يولد لأنه هو إله الكون الذي يسمو على العملية البشرية إنه كان وإنه لم يكن. كان الإله يقف هو والأستاذ "**جودبول**" على طرفي شريط السجادة يرددان:

– ذو الكرم.. ذو الكرم.

أنت أبي وأمي وكل شخص.

ذو الكرم.. ذو الكرم.

أنت أبي وأمي وكل شخص.

كان ذلك الدهليز في قصر "**ماو**" مفتوحا على دهاليز أخرى إلى الفناء. كان مصنوعا من المصيص الصلب الأبيض الجميل، ولكن أعمدته وقبابه من الصعب رؤيتها من السجاد السميك الملون والكرات المضيئة، والثريا من الزجاج الوردي غير الشفاف، وصورا فوتوغرافية معتمة وضبابية في إطارات، وفي نهاية الدهليز كان هناك المزار المقدس الشهير والصغير للسلالة الحاكمة الدينية، والإله الذي كان سيولد عبارة عن صورة فضية في حجم ملعقة الشاي. كان الهندوس يجلسون على طرفي السجادة في المكان الذي يجدون فيه مكانا، أو يفيضون إلى الدهاليز الملحقة وإلى الفناء. الهندوس فقط وهم رجال ناعمو الملامح، ومعظمهم قرويون، والذين يعتبرون أي شيء يجري خارج قراهم بمثابة حلم. الفلاحون الكادحون الذين يطلق عليهم البعض صفة الهنود الحقيقيين. اختلط بهم وجلس بينهم القليل من التجار من خارج المدينة الصغيرة، والموظفون، والسماسرة وسليلو البيت الحاكم. لم يحافظ التلاميذ على النظام. وكان الاجتماع في حالة رقيقة غير معروفة بين الجمهور الإنجليزي ويفور بجرعة مباركة.. وعندما تخطى القرويون الخط المحيط من أجل نظرة على الصورة الفضية، كان على وجوههم أجمل تعبير مشرق، وهو جمال لا يوجد فيه شيء شخصي، لأنه تسبب في أن يشبه كل منهم الآخر أثناء لحظة تحركها وظهورها، وعندما تُسحب يتحولون ثانية إلى أشخاص عاديين. وهكذا الأمر في الموسيقى. الموسيقى كانت موجودة، ولكن تصدُر من مصادر عديدة ثم تذوب في كتلة واحدة. والتي تنسحب حول القصر قبل أن تنضم إلى الرعد. والمطر يسقط على فترات عبر الليل.

جاء دور كورال الأستاذ "**جودبول**". لقد نال هذا الشرف باعتباره مدير التعليم. وعندما تفرق المغنون السابقون وسط الجمهور تقدم من الخلف إلى الأمام، وقد وصل صوته إلى أعلى درجاته حتى

لا يقاطع سلسلة الأصوات المقدسة. كان حافي القدمين، مرتديا الزي الأبيض، وعمامة لونها أزرق فاتح، وعويناته الذهبية اشتبكت بإكليل من الياسمين، وقد هبطت على طرف أنفه بانحراف جانبي، كان هو والزملاء الستة الذين يساندونه قد أمسكوا بآلاتهم "الصنج" المصنوعة من أقراص من النحاس، ويقرعون طبولا صغيرة، ومال هو على أرغن محمول وغنى:

ذو الكرم.. ذو الكرم.

أنت أبي وأمي وكل شخص

ذو الكرم.. ذو الكرم.

أنت أبي وأمي وكل شخص

إنهم لم يغنوا حتى للإله الذي في مواجهتهم وإنما إلى قديس. لم يفعلوا شيئا واحدا يمكن لغير الهندوكي أن يحس بأنه صحيح دراميا. وهذا الانتصار الذي يقترب إلى "**الهند**" كان لغزا حسب ما تسميه وإحباطا للعقل والشكل. أين هو الإله نفسه الذي من أجل تمجيده اجتمع المجتمعون؟ إنه غير مميز وسط الخلط واللخبطة في مذبحه، لقد اختلط بعيدا عن الأنظار وسط صور الهبوط التي اختنقت تحت أوراق الورد، وعلقت فوقها لوحات زيتية، ولوحات تمثل أسلاف الراجاوات، وقد اختفت تماما عندما هبت الرياح فقذفت بأوراق الموز ومئات المصابيح الكهربائية التي أضيئت تمجيدا للإله، مع ذلك لم يمكن رؤية وجهه بعد. ومئات من أطباقه الفضية تكومت حوله بأقل عمل وتأثير، والكتابات التي ألفها شعراء الدولة، كانت معلقة، بحيث لا يمكن قراءتها. بينما أحد تلك الأشعار لمؤلف بالإنجليزية لبيان كونية الإله، يتكون نتيجة غلطة من الكاتب على عبارة "الله وهب الحب بدلا من الله هو الحب"، وهل هذه هي الرسالة الأخيرة لـ"**الهند**"؟ دو الكرم.. ذو الكرم! استمر الكورال في ترديدها يدعمها صياح رقيق آت من خلف الحجاب (البردة) حيث حاولت أمَّان أن تدفعا أطفالهما في نفس الوقت إلى المقدمة. برزت ساق فتاة صغيرة من خلف الحجاب مثل ساق الوعل. وفي الفناء الذي غرق في المطر كانت الفرقة الصغيرة الموسيقية التي تقلد الأوربيين تتخبط في عزف مقطوعة "فالس" اسمها "ليالي السرور"، والمغنون لم ينزعجوا من هذا المنافس، وعاشوا فيما وراء المنافسة. ومر وقت طويل قبل أن تصل شظايا الأستاذ "**جودبول**" إلى خارج الأشياء، وقررت أن عويناته أصبحت في خطر، وأنه لن يستطيع أن يختار الترتيلة الجديدة ما لم يضبط وضع العوينات على أنفه، وضع أرضا أحد الصنجين، وبيده الحرة أخذ يدس أصابعه في الزهور حول رقبته، ساعده أحد زملائه واستطاعا أن يخلصا السلسلة من بهرجتها التي غاصت فيها. نظر "**جودبول**" في كتاب الموسيقى. ثم أصدر هديرا صوتيا سميكا وأخرج لحنا جديدا كان أكثر إثارة، والصور الداخلية برزت أكثر تحديدا، وأصبحت تعبيرات المغنين حمقاء وواهنة. لقد أحبوا كل الناس. وكل الكون، وبرزت شذرات من ماضيهم رفيعة التفاصيل للحظات لتذوب في الدفء المعتاد. وبناء عليه فإنه رغم أن الأمر لم يكن مهما بالنسبة لـ"**جودبول**" فإنه تذكر امرأة عجوزا قابلها أيام وجوده في "**كاندرابور**". وقد أحضرتها المصادفة إلى ذهنه عندما كان ذلك في الولاية الحارة. وهو لم يخترها، وحدث أن ظهرت وسط حشد الصور كشظية رفيعة، ودفعها بقوته الروحية

إلى ذلك المكان الذي يمكن العثور فيه على الكمال. الكمال وليس إعادة التشييد. زادت حواسه رقة. وتذكر أيضا دبورا ودفعه مثلها. لقد كان يقلد الإله، ويحاول ذلك مع الصخرة التي تعلق بها الدبور، ولكنه لم يستطع، وحاول أن يغريها بالمنطق والجهود الواعية، ثم عاد إلى شريط السجاد الأحمر، واكتشف أنه كان يرقص عليه ذهابا وإيابا مرة ثانية، وأمسك بالصنج وساقاه الصغيرتان تلتفان، ورفاقه يرقصون معه وكل مع الآخر. ضوضاء وضوضاء. أصبحت الفرقة شبه الأوربية أعلى صوتا، والبخور على المذبح، والعرق وبريق الأنوار المعمي، والرياح خلال أشجار الموز.. ضجيج! ورعد، وساعة يده تشير إلى الحادية عشرة وخمسين دقيقة.. رآها عندما ألقى بذراعه إلى أعلى. وأصوات أعلى وسط الجمهور. ظل يرقص والأولاد والرجال الجالسون القرفصاء في الممرات ارتفعوا بقوة وسقطوا -دون تغيير في أشكالهم- في حجور جيرانهم، وفي آخر الممر الذي خلا تقدمت محفّة.

كانت محفة الحاكم الكهل للولاية الذي حضر -رغم نصيحة الأطباء- ليحضر ويشهد احتفالات المولد.

لم يحيي أحد "**الراجا**" ولم يرغب هو أن يحييه أحد. ليست هذه لحظة المجد الإنساني. كما لم يمكن إنزال المحفة، رفع من فوقها بينما ظلت المحفة في الهواء، ووضع على الأرض بجوار المذبح وقد تسقت لحيته الضخمة البيضاء تنسيقا جيدا، ودس ساقيه تحته، ووضع في يده ورقة تحوي مسحوقا أحمر. جلس هناك وهو يستند على عمود، وقد أنهكه المرض. وتضخمت عيناه بدموع لم تجف. لم يكن مضطرا إلى أن ينتظر طويلا. وفي أرض فيها كل شيء غير مضبوط في المواعيد إلا أن ساعة الميلاد روعيت الدقة فيها زمنيا. وقبل حلولها بثلاث دقائق أحضر أحد البراهمة للإمام نموذجا لقرية "**جوكول**" ووضعها أمام المذبح. كان النموذج على صينية خشبية مساحتها حوالي ياردة مربعة وكان النموذج من الطين. لونه أزرق وأبيض مبهج بها رايات ورسومات. وهنا جلس الملك "**هبرود**" ملك "**كانزا**" على مقعد صغير جدا، ورأسه ضخم جدا. يباشر عملية قتل الأبرياء، وفي ركن من نموذج القرية وبنفس المساحة، وقف أبو وأم الإله وقد تلقيا أمرا ألا يرحلا من الحلم. لم يكن النموذج مقدسا ولكنه أكثر من زينة، لأنه خدع الناس وأبعدهم عن الصورة الحقيقية للإله وزاد من دهشتهم المقدسة. وظن بعض القرويين أن الميلاد حدث قائلين بصدق أن الإله لابدأن يكون قد ولد. وإلا لما استطاعوا أن يروه. ولكن دقت الساعة الثانية عشرة، وفي الحال، ولكن صوت المحارة الثاقب استمر يتبعه صوت الفيلة والتي ألقت من خراطيمها لفافات من المسحوق على المذبح، ووسط الغبار الوردي والبخور والصياح والتصفيق اتخذ "الحب الأبدي" لنفسه شكل "**شيري كريشنا**" وأنقذ العالم. وأزيل كل الأسى والندم ليس من الهنود فحسب وإنما من الأجانب والطيور والكهوف والسكك الحديدية والنجوم كل شيء أصبح بهجة وضحكا. ولم يعد هناك أي أمراض أو شكوك على الإطلاق، ولا أيضا سوء فهم، ولا قسوة ولا خوف. البعض قفز في الهواء، والبعض انبطح على وجهه وأخذ يحتضن أقدام "الحب الأبدي" العارية. أخذت النساء وراء الحجاب يصفقن ويرتجفن، وانسلت الفتاة الصغيرة خارج الحجاب، وأخذت ترقص مع نفسها وضفيرتاها تتطايران في الهواء. لا

طقوس جسدية معربدة لأن تقاليد هذا المزار المقدس تمنع ذلك، ولكن الروح الإنسانية حاولت بطريقة ملتوية يائسة أن تغتصب المجهول، ولكن هل نجحت؟ تقول الكتب التي ألفت فيما بعد نعم، ولكن كيف؟ إذا كان هناك مثل هذه الحادثة فهل يمكن أن تذكر فيما بعد؟ كيف يمكن أن يعبر عنها في أي شيء غير نفسها؟ إن غير المؤمن لا تخفى عنه هذه الحقائق فحسب، وإنما أيضا يؤقلم نفسه على أنه لن يستطيع الحصول عليها. ربما يمكنه أن يفكر إذا أراد أن يكون مع الإله، ولكن ما إن يفكر في ذلك حتى يصبح تاريخا ويخضع لقواعد الزمن.

ظهرت "كوبرا" من الورق المكرمش فوق السجادة، وكذلك مهد يتأرجح من إطار. اقترب الأستاذ "**جودبول**" من الإطار وبفوطة حمراء حريرية بين ذراعيه. كانت الفوطة هي الإله، وظلت الصورة غير واضحة في ضباب المذبح. إنها مجرد فوطة طويت على شكل يدل على أنها خاصة بطفل. هزها الأستاذ وأعطاها لـ"**الراجا**" الذي بذل جهدا رهيبا وهو يقول:

- أسمِّي هذا الطفل "**شيري كريشنا**".

ثم ألقى بالفوطة في المهد. انسابت الدموع من عينيه لأنه رأى خلاص الرب. لقد كان ضعيفا جدا لعرض الطفل الحريري على شعبه، ورفعه مرافقوه وأخلي ممر جديد وسط الجمهور، وحمل بعيدا إلى مكان من القصر أقل قداسة. وهناك في حجرة تؤدي إلى القسم العلمي الغربي بواسطة سلم خارجي حيث كان طبيبه الدكتور "**عزيز**" في انتظاره. وكان طبيبه الهندوكي الذي صحبه حتى المزار المقدس قد نقل في اختصار أعراض مرضه. وعندما اختفت النشوة أصبح الرجل العاجز مشاكسا، وكانت ماكينة مضخة النهر التي تشغل الدينامو قد أزعجته، وسأل لأي سبب أدخلت في بيته. وقد ردوا عليه بأنهم سيستعلمون عن ذلك وأعطوه عقارا منوما.

وهناك بالأسفل عند الدهاليز المقدسة كان المرح قد تحول إلى ضجة صاخبة وبهيجة. لقد كان من واجبه أن يلعبوا مختلف الألعاب ليمتعوا الإله المولود حديثا. وأن يحفزوا رياضاته مع خادمات مزرعة الألباب في "**برندايان**" وقد لعب الزبد دورا مهما في ذلك. وعندما سحب المهد تجمع النبلاء الرئيسيون للولاية معا ليسحبوا أنفه أسفل إلى فمه. وقبل أن يصل تسلل آخر إلى جواره. وانتزع اللقمة الذائبة، وابتلعها هو، ضحك الجميع بشدة عندما اكتشفوا المعنى المقدس لروح الفكاهة الذي تصادف مع روحهم. هناك مرح في السماء، والإله يستطيع أن يقدم نكتا عن نفسه. كان على كل الأرواح والأمور أن تشترك في الخلاص، وإذا ما منعت النكات العملية فإن الدائرة تصبح غير كاملة، أخذوا يلعبون العابا منوعة وغريبة دون ملل. إلى أن جاء وقت لعبة مثيرة. كانت هناك جرة معلقة في السقف مطلية بلطخات من اللون الأحمر. أخذوا يقفزون إلى أعلى ويضربون الجرة بعصيهم. إلى أن شرخت وتحطمت وانصب منها كتلة من الأرز المخلوط بالدهن على وجوههم. أخذو يأكلون ويلوثون وجوههم، ويقعون بين أرجل بعضهم البعض بحثا عما يكون قد سقط على السجادة. لم يحدث أي شجار بسبب طبيعة الهدية السماوية؛ لأن الشخص الذي يمنحها لغيره ينال البركة؛ لأنه يقلد الإله. وقد استمر ذلك بين الجمهور لساعات طويلة، ويوقظ في كل رجل حسب قدراته عاطفة لم يسبق أن نالها من قبل. لم تستمر صورة محددة، وعند الميلاد كان التساؤل حول ما إذا كانت

دمية فضية، أم نموذج لقرية، أم فوطة حريرية، أم روح غير ملموسة قد ولدت. ربما كانت كل تلك المواليد ما هي إلا مجازا واستعارة، ومع ذلك لايزال ذلك هو الحرث الرئيسي للعام الديني. كان الأستاذ "**جودبول**" مغطى بالدهن والتراب، وقد طور أكثر حياة روحه. لقد رأى مرة ثانية وبوضوح شديد السيدة "**مور**" وحولها أشكال ضعيفة من المتاعب. لقد كان برهميا وهي مسيحية، ولكن هذا لم يوجد أي فرق سواء كان ذلك خدعة من ذاكرته أم نداء تخاطريا. لقد كان واجبه وكذلك رغبته أن يضع نفسه في وضع الإله وأن يحبها.. وأن يضع نفسه في وضعها ويقول للإله: تعال.. تعال.. تعال... وهذا كل ما يستطيع فعله. يا له من أمر غير مضبوط! ولكن كل حسب قدراته الخاصة وكان يعرف أن قدراته صغيرة. فكر: «امرأة واحدة إنجليزية عجوز ودبور واحد صغير». خطا خارج المعبد إلى الصباح الكالح الرمادي وهو يقول:

«إن الأمر لا يبدو كثيرا ومع ذلك فإنه أكثر مما أكون».

الفصل الرابع والثلاثون

غادر الدكتور "**عزيز**" القصر في نفس الوقت. وعندما عاد إلى البيت المقام وسط حديقة جميلة بعيدة عن الطريق الرئيسي للمدينة. استطاع أن يشاهد رئيسه العجوز يسير بخطوات قصيرة. ويتراقص وسط الطين. نادى: "**هالو**". وكان تعبيرا خطأ لأن ذلك المؤمن أشار بحركات دائرية من ذراعه أنه لا يريد من أحد إزعاجه فأضاف "**عزيز**":

– آسف.

وهو التعبير الصحيح، لأن "**جودبول**" لوى رقبته إلى أن أصبحت لا تنتمي لجذعه وقال في صوت مشدود لا صلة له بعقله:

– لقد وصل إلى بيت الضيوف الأجانب.. ربما أو على الأقل ممكن.

– هل فعل؟ منذ متى؟

ولكن الوقت كان محدودا للغاية. لوح بذراعه ثم اختفى. كان "**عزيز**" يعرف من هو.. إنه "**فيلدنج**"، ولكنه رفض أن يفكر فيه لأن ذلك يزعج حياته، وكان لايزال واثقا بأن الفيضان سيمنعه من الوصول. خرج نهر صغير لطيف من حديقته ومنحه مزيدا من الأمل. كان مستحيلا أن يستطيع أحد أن يعبر نهر "**ديورا**" في مثل هذا الجو. كانت زيارة "**فيلدنج**" رسمية. لقد نقل من "**كاندرابور**" وأرسل في جولة عبر وسط "**الهند**" ليرى ماذا تفعل الولايات البعيدة فيما يتعلق بالتعليم الإنجليزي. كان قد تزوج وفعل المتوقع منه مع الآنسة "**كويستد**". ولم تكن لدى "**عزيز**" رغبة في رؤيته مرة ثانية. فكر في نفسه في العزيز العجوز "**جودبول**" وابتسم. لم يكن لديه فضول ديني ولم يحاول قط أن يكتشف معنى ذلك القداس السنوي العتيق، ولكنه كان متأكدا جدا أن "**جودبول**" هو رجل عجوز وعزيز عليه. كان قد أتى إلى "**ماو**" عن طريقه وظل على حسابه. وبدونه لم يكن ليستطيع أبدا أن تحدث له مشاكل مختلفة تماما عن تلك المشاكل في "**كاندرابور**"،

لأنه هنا كان الانفصال ما بين البرهمي وغير البرهمي، وبين المسلمين والإنجليز بعيد الحدوث، وأحيانا لم يكن مذكورا لأيام عديدة. ولما كان "**جودبول**" برهميا وكان "**عزيز**" أيضا واحدا من البراهمة لغرض تآمري من أجل المزاح حوله فإن الصدع في الأرض الهندية كان نهائيا. والهندوكية الصلبة عن بعد كانت تتصارع إلى ملل وعشائر. كانت تشع وتتواصل ثم تغيِّر من أسمائها حسب المظهر الذي يقتربون منه.. ودراسه ذلك عن طريق أحسن الأساتذة لسنوات طويلة، وعندما ترفع رأسك لا يقنعك شيء مما يقولونه. وفي اليوم الذي تولى فيه منصبه قال معلقا:

- أنا لا أدرس شيئا وأحترم أن يكون لي تأثير حسن.

كان ضده الآن أقل قدر من التحيز. عادة تحت رئاسة طبيب هندوكي كان "**عزيز**" بعد رجل الطب الأول أمام المحكمة. وكان عليه أن يسقط من ذهنه مثل تلك الأوهام الغريبة. ولكن حتى في "**كاندرابور**" كانت وظيفته لعبة تدور حول منضدة العمليات، ولكن هنا في الغابات السحيقة ترك أدواته تصدأ. وأدار مستشفاه الصغير بنصف طاقته وتسبب في إزالة الخوف.

كان دافعه إلى الهرب من الإنجليز واضحا. لقد أخافوه بشكل دائم. وهناك دائما رد فعلين فقط ضد الخوف. أن يركل ويصرخ في اللجان أو أن ينسحب إلى غابة بعيدة نادرا ما يأتي إليها الصحاب. لقد أراد صديقاه المحاميان السابقان منه أن يبقى في "**الهند**" البريطانية، وأن يساعد في تحريك نفسه. وربما استطاع أن يتفوق ويظهر، ولكن هناك خيانة "**فيلدنج**". لم تفاجئه الأخبار على الإطلاق. لقد حدثت فجوة بينهما بعد المحاكمة، عندما لم ينضم "**سيريل**" له أثناء العملية، وتأييداته للفتاة زادت. ثم أتت تلك البطاقات البريدية من البندقية باردة جدا وغير ودية لدرجة أن الجميع اتفقوا على أن هناك خطأ ما. وأخيرا بعد فترة صمت جاء الخطاب المتوقع من "**هامبستيد**". وكان "**محمود علي**" معه في ذلك الوقت وقال في الخطاب:

- بعض الأخبار ستدهشك.. أنا سأتزوج شخصا تعرفه.

لم يقرأ المزيد.. ها قد حدث وجاء الرد. ثم ألقى بالخطاب إلى "**محمود علي**". وجاءت بعده خطابات أخرى مزقها دون أن يفتحها. لقد كانت نهاية تجربة سخيفة.. ورغم أنه أحيانا كان يحس في خلفية عقله أن "**فيلدنج**" أدى تضحيات من أجله إلا أن كل الأمور اختلطت وتشوشت مع كراهيته الحقيقية للإنجليز. وفكر أنه هندي أخيرا ووقف بلا حركة بين الأمطار.

مرت الحياة بشكل سار وكان الجو صحيا، ومن الممكن أن يكون الأطفال معه طوال العام. وكان قد تزوج ثانية.. ليس بالضبط زواجا، ولكنه كان يحب أن يعتبره زواجا. وكان يقرأ الفارسية، ويقرض الشعر، ولديه جواده، ويمارس الصيد عندما لا يراقبه الهندوس. وكانت أشعاره تدور كلها حول موضوع واحد: المرأة الشرقية.. لقد كان عبء المرأة الشرقية هو إزالة الحجاب وإلا لن تصبح حرة. وأعلن أن "**الهند**" ما كانت ستنهزم لو أن المرأة حاربت إلى جانب الرجل في "**بلاسي**" وقال:

- ولكننا لا نكشف النساء أمام الأغراب.

ولكنه لم يشرح كيف يمكن معالجة ذلك. لأنه كان يكتب الشعر كانت موضوعات الورد والبلابل هي الغالبة بإلحاح. لقد كانت أشعارا غير منطقية مثل كاتبها، أراد صاحبه العجوز أن يترجم إلى

الهندية والسنسكريتية أحد أشعاره التي أعجبته والتي تدور حول فكرة أن "**الهند**" التي يبدو أنها لا تتحرك ستذهب مباشرة إلى الأمام. بينما بقية الشعوب ستظل ثابتة تضيع وقتها. وقال له إن كل أشعاره جيدة بالتأكيد ولكن هذه القطعة بالذات فلسفية مستنيرة وقال:

- إن صاحب المقام الرفيع كان يقول للكولونيل "**ماجز**" إن آخر مرة جاء فيها كان فخورا به.

كان الكولونيل "**ماجز**" هو العميل السياسي للجوار، وكان "**عزيز**" يعتبره منافسا مكروها. لقد ظلت إدارة التحقيقات الجنائية واضعة عينها على "**عزيز**" منذ المحاكمة. لم يكن لديهم أي شيء ملموس ضده. ولكن الهنود الذين هم تعساء لابد من مراقبتهم بفضل غلطة الآنسة "**كويستد**". كان الكولونيل "**ماجز**" قد علم باهتمام أن مشبوها قادما إلى "**ماو**" وقد تبنّى مسلكا متلاعبا. أنب "**الراجا**" العجوز على السماح لدكتور مسلم بالاقتراب من شخصه المقدس، ولو حدث ذلك من سنوات قليلة ماضية لتقبل "**الراجا**" ذلك التلميح ؛لأن العميل السياسي كان وقتها شخصية قوية قد هبط بكل قوة الإمبراطورية الراعدة دون مراعاة للياقة مطالبا بسيارة وصيد النمور وقطع الأشجار التي تمنع الرؤية أمام بيت ضيافة الأجانب وأن تحلب البقر في حضوره، وإدارة الشؤون الداخلية بغرور، ولكن حدث تغيير في السياسة من القيادات العليا. والثورات المحلية لم تعد تكتم، واكتشفت مجموعات الولايات الصغيرة ذلك، وبدأت ترسل المذكرات التي أتت بنتائج مثمرة. وأصبح الكولونيل "**ماجز**" لعبة محببة في "**ماو**" وفي كل الإدارات الحكومية، كان عليه أن يتحمل تعيين الدكتور "**عزيز**". ولم يعر "**الراجا**" التلميح أي انتباه وقال إن الهندوس أقل تعصبا عن ذي قبل بفضل التنوير الفكري. وإنه أحس من واجبه أن يتحرك مع الزمن.

نعم. لقد سار كل شيء على ما يرام بعد ذلك، ولكن الآن في الوقت الذي انهمكت بقية الولاية في الاحتفالات كانت مذكرة في انتظار "**عزيز**" في بيته. لا شك في أن "**فيلدنج**" وصل خلال الليل وأن "**جودبول**" يعلم بوصوله، لأن المذكرة كانت موجهة باسمه وقرأها قبل أن يرسلها إلى "**عزيز**" بعد أن كتب على الهامش.

- أليست هذه أخبار سارة، ولكن أن واجباتي الدينية تمنعني من اتخاذ أي إجراءات.

أعلن "**فيلدنج**" في مذكرته أنه فتش "**موكول**"، وأنه أوشك أن يغرق في نهر "**ديورا**". وأنه وصل إلى "**ماو**" حسب الجدول الموضوع ويأمل أن يبقى يومين فيها. ويدرس مختلف التحديثات التعليمية لصديقه العجوز "**جودبول**"، والأدهى من ذلك، أنه لم يحضر بمفرده، وإنما حضرت معه زوجته وشقيقها. ثم تحولت المذكرة إلى ما يجب أن يجده في بيت الضيافة: لا يوجد بيض، والناموسية ممزقة. ومتى سيقدمون احترامهم لصاحب السمو "**الراجا**"؟ هل صحيح أن احتفالات بالمشاعل ستقام الليلة؟ وإذا حدث فهل بإمكانهم أن يشاهدوها؟ إنهم لا يريدون أن يسببوا متاعب، ولكن لو وقفوا في الشرفة أو أن يخرجوا في قارب... مزق "**عزيز**" المذكرة. لقد فاض به الكيل من مساعدة الآنسة "**كويستد**" على مشاهدة الحياة الوطنية لـ"**الهند**". إنها عجوز شرسة خادعة وخائنة وبشعة. إنهم أشخاص سيئون معا. لقد تمنى لو تجنبهم رغم أن ذلك صعب، لأنهم دون شك

سيبقون في "مـــاو" أياما كثيرة. وفي الريف كانت الفيضانات أسوأ، والوجوه الرمادية الكالحة والشاحبة للبحيرات قد ظهرت في اتجاه محطة سكك حديد "**أسيرجار**".

الفصل الخامس والثلاثون

قبل أن تكتشف "**ماو**" كان قد لجأ إلى هناك شاب مسلم. كان شابا صالحا. قالت له أمه: حرر السجناء؛ لذا أخذ سيفا وذهب إلى القلعة. فتح بابا كان مغلقا وتدفق السجناء للخارج واستأنفوا أعمالهم السابقة، ولكن الشرطة تضايقت كثيرا، وأصابت رأس الشاب. إلا أنه استمر يقاومهم واتخذ طريقه فوق الصخور التي تفصل القلعة عن المدينة وهو يقتل رجال الشرطة عندما يقابلهم، وسقط خارج بيت أمه بعد أن أكمل تنفيذ أوامرها، وبالتالي أصبح له مزاران اليوم. واحد علوي خاص بالرأس والآخر سفليّ للجسد. وكان يتعبد عنده المسلمون القلائل الذين يعيشون بالقرب من المزارين، وكذلك كان يفعل الهندوس. كان الدعاء "لا إله إلا الله" هو الذي يذوب وسط هواء "**ماو**" الرقيق، وهو يمت إلى الحجاج والجامعات، وليس للإقطاع والفلاحين، وعندما وصل "**عـزيز**" ووجد الإسلام هنا وثني الطقوس شعر بالاحتقار، ورغب في تطوير المكان مثل "**ألامجير**" ولكن سرعان ما فقد الاهتمام مثله مثل "**أكبر**". على أية حال فإن هذا الولي قد حرر السجناء. وألقى هو بنفسه في السجن. كان مزار "مقام" الجسد موجودا في حديقته، وينتج محصولا أسبوعيا من الزهور، وعندما كان يراها يتذكر معاناته، ومقام الرأس كان له ممر قصير ولطيف للأطفال. كان "**عــــزيز**" خاليا من العمل بعد المولد العظيم. وقال لأولاده أن يأتوا. أمسكت ابنته جميلة بيده وجرى "**أحمد**" و"**كريم**" أمامهما يتجادلان حول شكل الجسد، وعما إذا كانا سيفزعان لو خرج يتخبط نحوهما. كان يريد لهما ألا يكبرا وهما يؤمنان بالخرافات؛ لذا وبخهما، وردا عليه بالإيجاب لأنهما حسنا التربية، ولكنهما كانا مثله يميلان إلى الجدال. وبعد فترة صمتا تأدبا ثم استمرا في قول ما دفعتهما طبيعتهما لقوله.

قام مبنى رفيع وطويل على قمة المنحدر وسط بعض الشجيرات. كان ذلك هو مقام الرأس. لم يكن له سقف، ولم يكن في الحقيقة سوى حاجز، وبداخله قبة متواضعة. ظهر من وراء شبكة قبر حجري مبتور ملفوف في قماش خام قطني. الزوايا الداخلية للحاجز كانت محشوة بأعشاش النحل. عرّف "**محمد لطيف**" "**أحمد**" بطبيعة النحل قائلا:

- إنها لن تؤذينا لأن أرواحنا طاهرة.

فتقدم في جسارة، ولكن أخته كانت أكثر حذرا. ومن المقام ذهبوا إلى المسجد الذي كان في حجمه وشكله مثل حاجب المدفأة، والبواكي التي في "**كـانـدرابور**" قد انكمشت هنا إلى قطعة مسطحة من المصيص. ولم يكن الشيء الصغير المضحك مقاما معتدلا لأن الصخرة المقام عليها كانت تنزلق نحو التل. تجولوا فوق القلعة القديمة المهجورة حاليا. وأعجبوا بمختلف المناظر. وكان

المنظر الطبيعي بالنسبة لمستوياتهم ممتعا. والسماء الرمادية والسوداء والسحب حبلى دائما بالمطر وتغطيها كلية، والأرض انتشرت فيها البرك من الماء والطين. والرياح الموسمية كانت لطيفة لأول مرة من ثلاث سنوات، والخزانات امتلأت، ومحاصيل وفيرة متوقعة. وهناك بالخارج نحو النهر وفي الطريق هرب "**فيلدنج**" ورفيقاه من الفيضان من "**ديورا**" إذ كان هطول المطر رهيبا. وكانوا يستطيعون أن يشاهدوا الفجوة وسط أشجار الغابة، والتي من خلالها جاء مدخل الحصن، والأحجار فوقها التي تحدد الموقع الخاص بمنجم الماس وهو زلج من البلل وتحته يوجد المقر الفاخر للرائي الأصغر، وهناك حاجز بينه وبين مقر صاحبة الجلالة يحجبها وهي تتمشى مع وصيفاتها في الحديقة، وهي تلوح بساريها للقرود الموجودة فوق السقف. ويقام خلف بيت الضيافة تلال أخرى رمادية خضراء فاتحة مغطاة بمعابد مثل شعلات صغيرة بيضاء. وهناك أكثر من مائتي إله في ذلك الاتجاه وحده. يزور كل منهم الآخر باستمرار ويمتلكون العديد من الأبقار، وكل صناعة ألياف نبات التامول المتسلق. إلى جانب حصة في أتوبيس "**أسيرجار**"، والعديد منهم موجودون في القصر في هذه اللحظة ليفوزوا بلحظة حياتهم. والآخرون وعددهم أكبر من أن يسافروا وأرسلوا رموزا تمثلهم. لقد كان الهواء ثقيلا بالطين والأمطار.

كانت تنوارتهما ترفرف. وجرى "**أحمد**" و"**كريم**" إلى القلعة وهما يصرخان فرحا. الآن دخلا خطا خاصا بالسجناء ينظران بلا هدف نحو بندقية برنزية قديمة. وسألا لأن هذه الليلة هي ليلة موكب الإله الأكبر.

- من منكم يحب أن ينال العفو؟

وعندما يترك الإله الأكبر القصر تصحبه كل سلطة الحكومة. ويمر بالسجن المقام حاليا وسط المدينة، وعندما يفعل ذلك معكرا مياه حضارتنا فإنه قد يطلق سراح أحد السجناء، وبعدها قد يستمر نحو خزان "**ماو**" العظيم الممتد حتى بيت الضيافة حيث قد يحدث شيء آخر: نوع ما من التأليه النهائي أو الجانبي الذي بعده قد يخضع لتجربة النوم. لم تدرك عائلة "**عزيز**" هذا القدر من الفهم لكونهم مسلمين، ولكن الزيارة إلى السجن كانت معلومات عامة. كان السجناء يبتسمون، وعيونهم منكسة، وهم يناقشون مع الطبقة الحاكمة فرص نجاتهم. إنهم يشبهون بقية الرجال فيما عدا قيود الحديد في سيقانهم. ولم يكونوا يحسون بأنهم مختلفون، وخمسة منهم لم يقدموا بعد للمحاكمة لا يتوقعون أي عفو، ولكن كل من أدينوا كان الأمل يملأ قلوبهم. لم يفرقوا ما بين الإله الأكبر و"**الراجا**". فكلاهما أعلى منهم بمراحل، ولكن الحارس كان أكثر منهم ثقافة وتعليما وتجرأ واستفسر عن صحة صاحب الجلالة، وقد رد عليه رجل الطب:

- إنه في تحسن مستمر.

والحقيقة أن "**الراجا**" كان ميتا فقد استنفد الاحتفال طوال الليل صحته وقوته. وقد أخفى موته حتى لا يخبو بريق مجد الاحتفال. وكان الطبيب الهندوكي، والسكرتير الخاص، وخادمه كاتم أسراره قد ظلوا مع الجثة. بينما تولى "**عزيز**" مهمة أن يظهر أمام الجمهور ويخدع الناس. كان قد أحب الحاكم كثيرا. وربما لن ينجح تحت حكم خليفته، ومع ذلك ما كان له أن يقلق بعد على مثل

هذه المشكلة. لأنه كان متورطا في الوهم الذي ساعد على حدوثه. استمر الأطفال في الجري في المنطقة يصطادون ضفدعة ليضعوها في سرير "**محمد لطيف**" الأبله. كانت مئات الضفادع تعيش في حديقتهم الخاصة. ولكن من الضروري أن يمسكوا واحدة من فوق القلعة. كان "**فيلدنج**" ونسيبه قد بدآ يصعدان المنحدر إلى قبر الولي بدلا من الراحة بعد الرحلة. سأل "**كريم**":

– أنلقي أحجارا؟

– هل نضع مسحوق الزجاج في بنطلونيهما؟

– تعالي هنا يا "**أحمد**" ولا داعي لهذه النذالة! وضع يده ليمنع ابنه البكر، ولكن الطفل قبلها. كم هو جميل أن يكون معه أبناؤه في هذه اللحظة. وأن يعرف أنهم عاطفيون وشجعان. أوضح لهم أن الرجلين الإنجليزيين هما ضيفا الولاية؛ ولذلك لا يجب تسميمهما وإنما استقبالهما كالعادة برقة وقد استسلما في حماس إلى طلبه.

دخل الزائران المبنى ثماني الأضلاع ولكنهما اندفعا خارجه في الحال يطاردهما بعض النحل. لم يقصد "**عزيز**" تحية صديقه السابق، ولكن حادثة النحل جعلته في روح معنوية عالية. أحس بنفسه متمالكا وقويا وصاح:

– هاللو أيها السيدان، هل أنتما في مشكلة؟

صرخ شقيق الزوجة وقد تمكنت منه نحلة. قال له:

– استلق في بركة ماء يا سيدي العزيز وهنا العديد من البرك. لا تقترب مني لأنني لا أستطيع التحكم فيه إنه نحل حكومي. وعليك أن تشكو لصاحب الجلالة عن مسلكه.

لم يكن هناك خطر حقيقي لأن المطر كان يتزايد، وانسحب النحل إلى المقام. ذهب "**عزيز**" إلى الرجل الغريب، وانتزع بعضا من الخيوط من حول رسغه وقال معلقا:

– هيا تمالك نفسك وكن رجلا.

ناداه "**فيلدنج**" ولكن ليس بلهجة ودية:

– كيف حالك يا "**عزيز**" بعد كل هذا الزمن؟ لقد سمعت أنك استقررت هنا. وأعتقد أن بعض الأمور لا معنى لها.

– لا على الإطلاق. سأرسل مرهما إلى بيت الضيافة. سأل "**فيلدنج**" وهو يدخل في الموضوع مباشرة.

– لماذا لم ترد على خطاباتي؟

ولكنه لم يصل إلى الهدف بسبب هطول المطر المدرار. ورفيقه الجديد على البلاد صاح بأن الأمطار تضرب فوق غطاء رأسه، وأن النحل يعاود هجومه. راجع "**فيلدنج**" نفسه ثم قال:

– هل هناك طريق مختصر لأسفل عند العربة؟ إن الجو مهلك.

– نعم من هذا الطريق.

– ألن تنزل أنت نفسك؟

أدى "**عزيز**" تحية كوميدية وكان مثل كل الهنود ماهرا في طريق الخروج عن الموضوع. قال:

- أنا أرتجف. أنا أطيع!

لم تفت الحركة على "**فيلدنج**". ساروا معا في ممر غير ممهد إلى الطريق والرجلان في المقدمة. ثم النسيب الذي كان يبدو صبيا أكثر منه رجلا في حالة يرثى لها؛ لأن ذراعه تؤلمه. وفي الخلف الأطفال الثلاثة الهنود في صخب. جميع الستة مبتلون. سأل "**فيلدنج**":

- كيف تسير الأمور يا "**عزيز**"؟

- أنا في حالتي الصحية العادية.

- هل تحقق شيئا من حياتك هنا؟

- كم تحقق أنت من حياتك؟

استسلم "**فيلدنج**" وترك مجادلاته محاولا أن يعيد صداقتهما الحميمة. وازداد سلوكه الرسمي شيئا فشيئا. وازداد زرانة وكبرا في السن.

- من المسؤول عن بيت الضيافة؟

- سكرتير صاحب الجلالة.. أظن ذلك.

- أين هو إذن؟

- لست أدري.

- لأن أحدا لم يكن قريبا منا منذ وصولنا.

- حقا؟

- لقد كتبت مسبقا إلى "**دوريار**" وسألته إن كانت الزيارة مريحة. وقال لي إنها كذلك، ونظمت جولتي بناء على ذلك، ولكن خدم بيت الضيافة يبدو أن لديهم تعليمات نهائية ومحددة. لا تستطيع الحصول على بيض، كما أن زوجتي تريد الخروج في قارب.

- هناك قاربان.

- بالضبط ولا يوجد مجاديف.

- لقد كسر الكولونيل "**ماجز**" المجاديف في آخر زيارة له هنا.

- المجاديف الأربعة؟

- إنه رجل قوي جدا.

- إذا تحسن الجو نريد أن نرى موكب المشاعل من فوق الماء هذا المساء.. لقد كتبت إلى "**جودبول**" بشأن ذلك. ولكنه لم يهتم. إنه مكان للموتى.

- ربما خطابك لم يصل إلى الوزير المختص.

- هل هناك أي اعتراض على الإنجليز في مشاهدة الموكب؟

- أنا لا أعرف أي شيء على الإطلاق عن الدين هنا. وأنا لم أفكر أبدا في رؤية الموكب بنفسي.

- لقد استقبلنا استقبالا مختلفا تماما في "**موكول**" و"**ديورا**" ولقد كانا مثالا للطيبة، فقد أراد كل من المهراجا والمهرانا أن نشاهد كل شيء.

- ما كان عليك أن تتركهما أبدا.

كانا قد وصلا إلى العربة. قال "**فيلدنج**" لنسيبه:

- اقفز يا "**رالف**" بالداخل.

- اقفز يا سيد "**كويستد**" ويا سيد "**فيلدنج**".

- من هو بحق السماء السيد "**كويستد**"؟

- هل أخطأت نطق هذا الاسم الشهير؟ أليس هو شقيق زوجتك؟

- من بحق السماء افترضت أنني تزوجت؟

قال الصبي وقد أحمر وجهه. وقد هطلت رخَّة أخرى من المطر.

- أنا أدعى فقط "**رالف مور**".

حاول "**عزيز**" أن يتراجع. ولكن الأوان فات. قال "**فيلدنج**":

- "**كويستد**"؟ "**كويستد**"؟ ألا تعرف أن زوجتي هي ابنة السيدة "**مور**"؟

ارتجف "**عزيز**" وصار لونه رماديا أرجوانيا. لقد كره الخبر وكره أن يسمع اسم السيدة "**مور**" قال "**فيلدنج**":

- هل ربما هذا يفسر مسلكك الغريب؟

- أرجوك أن تخبرني ما هو الخطأ في مسلكي؟

- ذلك الخطاب. الخطاب الغريب غير الطبيعي الذي سمحت لـ"**محمود علي**" بأن يكتبه لي بدلا منك.

- أظن أن هذه المحادثة لا فائدة من ورائها على الإطلاق.

قال "**فيلدنج**" بود أكثر، ولكن بسخرية واحتقار:

- ومع ذلك هل ارتكبت تلك الغلطة؟ إنه أمر لا أكاد أصدقه. لقد كتبت إليك نصف دستة خطابات وذكرت فيها زوجتي بالاسم. الآنسة "**كويستد**"؟ يا لها من فكرة غير عادية!

خمن "**عزيز**" من ابتسامته أن "**ستيلا مور**" جميلة:

- "**كويستد**" هي أفضل صديقة لنا وهي التي قدمتنا لبعض، ولكن يا لها من فكرة مذهلة يا "**عزيز**"! لابد أن تزيل سوء الفهم هذا، لا شك في أنها إحدى الحيل الشيطانية من "**محمود علي**". لقد كان يعلم جيدا أنني تزوجت من الآنسة "**مور**" وسماها أخت "**هيسلوب**" في خطاب وقح لي.

أيقظ الاسم شياطين الغضب بداخله فقال:

- هكذا إذن هي.. وهذا هو أخ "**هيسلوب**" غير الشقيق.

تحول الخجل عنده إلى غضب مما أعاد له احترامه لذاته.

- وماذا يهمني ممن تتزوج؟ لا تزعجني هنا في "**ماو**" وهذا كل ما أطلبه منك. أنا لا أريد أحدا منكم في حياتي الخاصة. وسأظل أقول هذا حتى آخر أنفاسي. نعم أنا متخبط سخيف وأبله، وظننت أنك تزوجت من عدوتي. أنا لم أقرأ أبدا خطابك. لقد خدعني "**محمود علي**". لقد ظننت أنك سرقت نقودي ولكن...

صفق بكفيه فتجمع أطفاله حوله واستأنف:

- إنه كما لو كنت قد سرقتني. أنا أسامح "**محمود علي**" على كل شيء لأنه يحبني. إن قلبي مع أهلي من الآن فصاعدا.

استدار مبتعدا فتبعه "**سيريل**" وسط الطين وهو يعتذر ويضحك قليلا. ويريد أن يجادل ويعيد بناء الصداقة، وأشار بمنطق معقول أنه تزوج ليس خطيبة "**هيسلوب**" وإنما أخته. ولكن أي فرق في هذا الوقت من اليوم؟ لقد بنى حياته على غلطة، ولكنه بناها على أية حال. تكلم بالأوردية حتى يفهم الأطفال:

- أرجوك ألا تتبعنا مهما يكن من تزوجتها، ولا أريد أي إنجليزي أو إنجليزية أن يكون صديقا لي.

عاد إلى البيت متحمسا وسعيدا. لقد كانت لحظة صعبة عندما ذكر اسم السيدة "**مور**" وحرك الذكريات...

القديسة "**اسمس أسمور**"... وكأنها أتت لتساعده. لقد كانت دائما طيبة جدا معه. وهذا الشاب الصغير الذي نظر إليه بلا اكتراث هو ابنها "**رالف مور**". "**ستيلا**" و"**رالف**" الذي وعد أن يكون طيبا معهما و"**ستيلا**" تزوجت من "**سيريل**".

الفصل السادس والثلاثون

لقد انتهى الوحي، ولكن تأثيره استمر، وتأثيره كان يجعل الناس يشعرون بأن الوحي لم ينزل بعد. الأمل موجود بالرغم من تحقيقه كما سيكون في السماء. ورغم أن الإله ولد فإن موكبه لم يتم وفي السنوات العادية فإن الساعات الوسطى من النهار كانت تتميز باحتفالات غاية في الجمال في الشقق الخاصة بـ"**الراجا**". لقد كان يمتلك عددا كبيرا من الرجال والصبية المخصصين له. واجبهم هو رقص حركات مختلفة. والتأملات في عقيدته أمامه وبدلا منه. كان جالسا على راحته واستطاع أن يشاهد "الخطوات الثلاث" التي بها صعد الإله المنقذ إلى الكون من أجل هزيمة "**الهند**"، وكذلك موت التنين، والجبال التي تحولت إلى شمسية والصادق الذي دعا الإله قبل العشاء. كل ذلك تجمع في رقصة حلابات الحليب أمام "**كريشنا**" وفي رقصة "**كريشنا**" العظيمة أمام حلابات الحليب عندما كان الموسيقيون يدورون في ملابس زرقاء، ويختلطون مع الممثلين وأصبح الكل واحدا. وقد ينسى "**الراجا**" وضيوفه أن هذا مجرد عرض تمثيلي، وقد يعبدون الممثلين، ولكن شيئا عن هذا لا يمكن أن يحدث اليوم؛ لأن الموت قطع ذلك. إنه يعطل هنا أقل مما يحدث في "**أوربا**"، لأن الرثاء أقل حدة هنا والغرابة أقل قسوة. كان هناك اثنان يطالبان بالعرش هما في القصر الآن لأن الدين هو قوة حية بالنسبة للهندوس، ويمكن في لحظات معينة أن يهدم كل شيء جميل ومؤقت في طبيعتهم. استمر الاحتفال بوحشية وصدق، وكل الرجال أحب كل منهم الآخر، وتجنب بالغريزة أي شيء قد يسبب إزعاجا أو ألما.

لم يستطع "**عزيز**" أن يفهم ذلك مثله في ذلك مثل أي مسيحي عادي. لقد كان متحيرا لأن "**ماو**" لابد أن تتطهر من الريبة والبحث عن الذات، ورغم أنه كان غريبا ومبعدا عن طقوسهم إلا أن

تلك الطقوس كانت ساحرة بالنسبة له في هذا الوقت. لقد كان يتلقى هو وأهل بيته مجاملات وهدايا صغيرة. لمجرد أنه من الخارج. لم يكن أمامه شيء يفعله طوال النهار غدا أن يرسل المرهم إلى بيت الضيافة، والذي تذكره قرب غروب الشمس، وبحث في بيته عن مُسكن لأن الصيدلية كانت مغلقة. وجد علبة من المرهم تخص "**محمد لطيف**" والذي لم يكن راغبا في تحريكها من مكانها بسبب الكلمات السحرية التي قرأها عليها عندما كان يغليها ويبردها ولكن وعده "**عزيز**" بأنه سيعدها له بعد استخدامها على اللسعات، لقد أراد عذرا حتى يذهب.

بدأ المركَّب يتكَّون وتجاوز "**عزيز**" القصر. راقب جمهور حاشد تحميل محفَّة الولاية والتي برزت مقدمتها في شكل رأس تنين فضي وكانت الآلهة كبارا وصغارا يصعدون فوقها، أشاح بوجهه لأنه لم يعرف أبدا مدى ما يجب عليه أن يشاهده، وأوشك أن يصطدم بوزير التعليم في الولاية الذي قال:

– آه.. ربما تسببت في تأخيري.

وكان يعني بهذا أن لمسه لغير الهندوكي يتطلب أن يستحم ثانية. لقد قيلت الكلمات دون حرارة. قال:

– أنا آسف.

ابتسم الآخر وذكر مرة ثانية بيت الضيافة.

وعندما سمع أن زوجة "**فيلدنج**" ليست الآنسة "**كويستد**" قال دون حرارة أيضا:

– أوه.. بالضبط.. لقد سمعت ذلك من عام وأكثر، وأن الآنسة "**كويستد**" ليست زوجة "**فيلدنج**". وإنما زوجته هي شقيقة "**هيسلوب**".

– لماذا لم تخبرني؟ إن صمتك أغرقني وأوقعني في حيص بيص (حيرة شديدة). كان وزير التعليم بالولاية "**جودبول**" معروفا عنه أنه لا يقول شيئا عن أي شيء. ابتسم وقال بلهجة محبطة:

– لا تغضب أبدا مني، فأنا بقدر ما تسمح به حدودي صديق عزيز وصادق. ثم إنه احتفالي المقدس.

كان "**عزيز**" يحس دائما بانه طفل في هذا الحضور الغريب. ابتسم أيضا وأدار جواده إلى الطريق لأن الزحام زاد. وصلت فرقة الكناسين يعزفون على مناخلهم وأدوات أخرى تخصُّ مهنتهم، وساروا مباشرة إلى البوابة الخاصة بالقصر وكأنهم جيش منتصر. سكتت كل أنواع الموسيقى الأخرى لأن تلك هي لحظة "المنبوذين والمحتقرين" والإله لا يمكن أن يبرز من معبده إلا بعد أن يعزف الكناسون القذرون لحنهم. إنهم نقطة تركيز القذارة التي بدونها الروح لا تستطيع أن تلتحم. للحظة كان المشهد فاخرا، وانفتحت الأبواب على مصاريعها، وشوهدت القاعة من الداخل بالكامل ووقف وسط الطريق "**فلك الرب**" عاري القدمين متشحا بثوب أبيض، ومغطى بقماشة من الذهب محاطا بريش الطاووس ورايات صلبة دائرية بلون قرمزي. وكان مليئا حتى الحواف بتماثيل صغيرة وزهور. وبينما يبرز من فوق الأرض على أكتاف حامليه فإن الشمس الصديقة للرياح الموسمية تستطع وتفيض على العالم بالألوان لدرجة أن النمور المرسومة على جدران القصر تبدو وكأنها تقفز، وخصلات من

السحب الخضراء تربط الأرض بالسماء. تحركت المحفة.. وامتلأ الطريق بأفيال الولاية التي تتبعها وهوادجها خالية من الرطوبة. لم يهتم "**عزيز**" بهذه المقدسات لأنها لا صلة لها بمقدساته، وأحس بالملل، وبعض الوقاحة مثل إمبراطوره العزيز "**بابور**" الذي أتى من أقصى الشمال ولم يجد في "**هندوستان**" أي ثمرة طيبة ولا ماء نقيا، ولا حديثا طليا، ولا حتى صديقا.

كان الطريق يؤدي بسرعة إلى خارج المدينة إلى صخور عالية وغابة. هناك شد لجام جواده.. وأخذ يدرس خزان "**ماو**" العظيم الممتد معروضا أمام عينيه حتى أبعد انحناءة له. وانعكست عليه سحب المساء وملأ العالم السفلي بروعة معقولة بحيث تميل الأرض والسماء كل نحو الأخرى، وتوشكان أن تصطدما في نشوة. بصق في وقاحة مرة ثانية. أكثر فأكثر وقاحة عن ذي قبل. لأنه وسط الدائرة اللامعة كانت تتقدم كتلة سوداء.. إنه زورق بيت الضيافة. لقد ابتكر الإنجليزي شيئا يحل محل المجاديف، وها هم يواصلون عملهم في مطاردة "**الهند**". كان المنظر يعزز الهندوس بالمقارنة، وعندما أعاد النظر إلى قبة القصر البيضاء بلون الحليب تمنى أن يستمتعوا بحمل وثنهم بعيدا، لأن كل الأحداث التي حدثت لا تتدخل في حياة الآخرين. وهذا العرض لرؤية "**الهند**" الذي سحر الآنسة "**كويستد**" في "**كاندرابور**". لم يكن سوى شكل من حكم "**الهند**"، ولا تعاطف خلفه. لقد كان يعرف جيدا ما يجري في القارب حيث الصحبة تحدق إلى أسفل الدرج، والتي قد يهبط إليها المنظر حاليا، ويتجادلون حول مدى القرب الذي يحدقون إليه دون الوقوع في مشاكل رسمية.

لم يتوقف عن سيره بالجواد، لأنه سيكون هناك خدم في بيت الضيافة ويستطيع أن يسألهم. اتخذ الممر بين القبور الملكية والتي كانت مثل القصر من المصيص، ناصع البياض، والتي تلمع من أنوارها الداخلية، ولكن إشعاعها كان يزداد كالأشباح مع تقدم الليل. وكان نتوء الجبل مغطى بأشجار باسقات. بينما الخفافيش معلقة من أرجلها لأسفل. تحملق إلى سطح الخزان طوال اليوم. وقد ازدادت عطشا. كانت علامات "**الهند**" الراضية في المساء قد تضاعفت. الضفادع في كل جانب، وروث البقر يحترق للأبد.. لقد كان الموت يلوح في الهواء، ولكن ليس هناك حزن، لقد حدثت تسوية ما بين القدر والرغبة. وحتى قلب الإنسان استسلم.

كان بيت الضيافة الأوربي مقاما على ارتفاع مائتي قدم فوق سطح الماء على صدر بزور صخري مغطى بالأشجار الممتدة من الغابة، وعندما وصل "**عزيز**" كان الماء قد شحب بطبقة رمادية بنفسجية وقد اختفى القارب تماما. كان خفير ينام على شرفة البيت الأمامية، ومصابيح مشتعلة في منتصف الغرف الخالية. انتقل من حجرة إلى حجرة في مكر وحذر. وجد خطابين على البيانو في استقباله فمال وقرأهما بسرعة. لم يخجل من فعل ذلك. إن قدسية البريد الخاص لم تحترم على الإطلاق في الشرق، والأدهى من ذلك أن "**ماك برايد**" قرأ كل خطاباته في الماضي ويعثر محتوياتها. وأحد الخطابين وهو أهمهما كان من "**هيسلوب**" إلى "**فيلدنج**" يلقي الضوء على عقلية صديقه السابق. وزاد من قسوته عليه، والكثير مما في الخطاب كان يخص "**رالف**" الذي بدا أنه أكثر بلاهة: «اعتن بأختي كما يروق لك». وأنا أكتب لك لأنه من المؤكد أنه سيصاب بثورات سيئة. أنا أوافق على أن الحياة أصغر من تبني الحزن والشكوى. وأيضا أشعر بالخلاص لأنك عدت إلى خط محتلي

"**الهند**" إلى حد ما. نحن في حاجة إلى كل الدعم الذي يمكن الحصول عليه. وأتعشم في المرة القادمة التي تمر فيها "**ستيلا**" على طريقي أن تحضرك معها، حيث أستطيع أن أقدم لك الراحة قدر استطاعتي كأعزب. لقد حان الوقت فعلا أن نتقابل. إن زواج أختي بك بعد وفاة أمي مباشرة وما عانيته من مصاعب كان قد ضايقني كثيرا، ولم أكن معقولا في تصرفاتي، وأعتقد أنه الوقت المناسب أن تصلح الأمر بالطريقة الصحيحة كما تقول. ودعنا نترك الأمر عند أخطائنا على الجانبين. وعندما يكتب أي منكم إلى "**عديلة**" فيما بعد أرجو أن تعطياها رسالة مني لأنني أود أن أحقق السلام معها أيضا. أنت محظوظ أن تكون خارج "**الهند**" البريطانية الآن. وحادث بعد حادث راجع إلى الدعاية. ولكننا لا نستطيع أن نضع أيدينا على بداية الخط.. وكلما زادت حياة المرء هنا زاد تأكده أن كل شيء معلق بالآخر، وفي رأيي أن السبب هم اليهود".

بهذا ينتهي خطاب الفتى ذي الأنف الأحمر. شرد "**عزيز**" للحظات بسبب الأصوات المختلطة الآتية من فوق الماء. إن المركب يتقدم في طريقه. والخطاب الثاني كان من الآنسة "**كويستد**" إلى "**فيلدنج**" وقد احتوى على لمسة أو اثنتين مهمتين. كانت الكاتبة تتمنى أن يتمتع "**رالف**" بـ"**الهند**" أكثر مما فعلت هي. وبدا أنها أعطته أموالا من أجل ذلك. إنه ديني الذي لن أستطيع أن أسدده شخصيا. تساءل أي دين تتصور الآنسة "**كويستد**" أنها مدينة به لهذا الوطن؟ إنه لم يهضم حديثها عن صحة "**رالف**". لقد حسدهم على العلاقة السهلة والممكنة فقط في بلاد المرأة المتحررة. لقد كان الأشخاص الخمسة هؤلاء يسوون مصاعبهم الصغيرة ويسدون الفجوات في صفوفهم ضد أعدائهم. حتى "**هيسلوب**" دخل معهم! ضرب البيانو في عصبية. قال صوت في احترام:

– أوه.. من هناك؟

لم يتذكر أين سمع هذه اللهجة من قبل. تحرك شيء في ضوء الغرفة المجاورة فرد:

– طبيب الولاية جاء راكبا للتحري. إنجليزيته ركيكة.

دس الخطابين في جيبه وحتى يظهر أن من حقه حرية الدخول إلى بيت الضيافة ضرب البيانو ثانية. ظهر "**رالف مور**" تحت الضوء.

يا له من شاب غريب المنظر: طويل وأكبر من سنه وقد بهتت عيناه الزرقاوان من القلق، وشعره أشعث ومجعد. ليس من النوع المستورد إمبراطوريا.

فكر الطبيب من ملامح "**عزيز**" "أنه مولود من أم عجوز جدا" ولكن حسّ الشاعر داخله اعتبره أكثر جمالا. قال بسلطة:

– لم أكن قادرا على الزيارة قبل الآن بسبب ضغط العمل. كيف حال لسعات النحل الشهيرة؟

– أنا.. أنا أستريح وهم يظنون أنني أحسن، وإن كانت بالأحرى تؤلمني.

كان خجله وحداثة سنه قد زادا من تعقيدات التأثير في عدم الرضا. قال مهددا:

– تعال هنا من فضلك ودعني أفحصك.

كانا تقريبا بمفردهما. وكان يستطيع أن يعامل المريض كما عامل "**كاليندار**" و"**نور الدين**". صرخ الصبي فسأله:

- ما الأمر من فضلك؟

- يداك غير رحيمتين.

نظر إلى يديه. كان الشاب غير العادي على حق. فوضع يديه خلف ظهره قبل أن يرد بغضب ظاهر:

- ماذا بحق السماء دخل يدي بك؟ هذا أغرب تعليق. أنا طبيب مؤهل لن يؤذيك.

- أنا لا يهمني الألم لأنه ليس هناك ألم.

- لا ألم؟

- في الحقيقة لا يوجد ألم.

قال "**عزيز**" بصوت كفحيح الأفعى:

- أخبار سارة.

- ولكن هناك قسوة.

- لقد أحضرت إليك بعض الملطفات، ولكن كيف أضعها عليك وحالتك العصبية أصبحت مشكلة؟

- أرجوك أن تتركه معي.

- لا بالتأكيد. يجب إعادته إلى الصيدلية حالا.

مد "**عزيز**" يده إلى الأمام أكثر وتراجع الآخر حتى آخر المائدة.

- الآن هل تريد معالجة لسعادتك، أم تفضل طبيبا إنجليزيا؟ هناك واحد من "**أسيرجار**". وهي على بعد أربعين ميلا من هنا وقد تحطم طوق الخزان، والآن أترى ما هو موقفك؟ وأعتقد أنه من الأفضل أن أقابل السيد "**فيلدنج**" بشأنك. إن هذا فعلا هراء.. هذا المسلك من جانبك.

رد الشاب وهو ينظر خلفه طلبا للمساندة:

- إنهما بالخارج في القارب.

تظاهر "**عزيز**" بالدهشة العميقة:

- أتعشم ألا يكونا قد ذهبا في اتجاه "**ماو**" في ليلة كهذه. الناس يصبحون شبه مجانين.

شهق "**عزيز**" وكأنه يحاول طمأنة نفسه لأن الموكب كان يقترب من السجن. قال الشاب في تحد:

- ليس من الواجب أن تعاملنا هكذا!

اهتز "**عزيز**" هذه المرة لأن الصوت رغم خوفه جاء قويا.

- مثل ماذا؟

- يا دكتور "**عزيز**".. نحن لم نسبب لك أي ضرر.

- آه.. أرى أنك تعرف اسمي. نعم أنا "**عزيز**" لا ولكن صديقتك العزيزة الآنسة "**كويستد**" آذتني في "**ماربار**".

انطلقت كل مدافع الولاية فاغرقت الجزء الأخير من كلامه. انطلق صاروخ من حديقة السجن

يعطي الإشارة. لقد أطلق سراح السجين. وكان يقبل أقدام المغنين، وسقطت أوراق الورد من المنازل، وقدمت التوابل المقدسة وجوز الهند. دخلت الهمهمات المختلطة حول الخلاص إلى بيت الضيافة. ذهلا وتحركا نحو الشرفة وقد جذبتهما الإضاءة المفاجئة. ظل المدفع البرنزي في القلعة يومض، وأصبحت المدينة كتلة من الضوء المبهر. بدت البيوت وسطها ترقص والقصر يحرك أجنحة صغيرة. أصبحت الأغنية مسموعة بعد تكرارها كثيرا حيث كان الكورال يردد ويعكس أسماء الآلهة:

"**رادا**" "**كريشنا**" .. "**كريشنا**" "**رادا**" ..

كانوا يغنون فاستيقظ خفير بيت الضيافة. قال "**عزيز**" :

- لابد أن أذهب الآن.

ومد يده وقد نسي أنهما ليسا صديقين، وركز قلبه على شيء أبعد من الكهوف بشيء جميل. تناول الشاب يده فتذكر "**عزيز**" كم كان كريها معه فقال:

- ألا تزال تظنني قاسيا بعد الآن؟

- كلا..

- وكيف تعرف ذلك أيها الرفيق الغريب؟

- ليس صعبا لأنه الشيء الوحيد الذي أعرفه.

- هل تستطيع دائما أن تعرف إن كان الغريب صديقا لك؟

- نعم.

- إذن أنت شرحت.

استرخى وهو يقول تلك الكلمات.. لقد قالها من قبل للسيدة "**مور**" في المسجد في بداية الدائرة التي خرج منها معاناة كثيرة.. لقد تحرر.. من يكون أبدا صديقا مع الإنجليز.. ولكن ها هو يبدأ مرة ثانية. ناوله المرهم العجيب وقال:

- خذ هذا وفكر فيّ عندما تستخدمه لأنني لن أحتاجه. لابد أن أقدم لك هدية صغيرة وهذا كل ما أملكه فأنت ابن السيدة "**مور**".

همهم الشاب في نفسه:

- أنا ابنها.

تحرك جزء من عقل "**عزيز**" إلى أعلى كان مختفيا:

- ولكنك أخ "**هيسلوب**" أيضا، وللأسف فإن الأمتين لا يمكن أن تتحدا

- أعرف. ليس بعد.

- هل تحدثت أمك عني؟

- نعم.. في خطاباتها.. في خطاباتها.. إنها تحبك.

- نعم.. لقد كانت أمك أحسن صديق لي في العالم.

سكت وهو حائر من عرفانه العظيم إلى أي حد تبلغ طيبة السيدة "**مور**" الأبدية، إلى لا شيء لو أحسن التفكير. إنها لم تتحمل الشهادة لصالحه ولم تزره في السجن، ومع ذلك سرقت

أعماق قلبه، وكان دائما يعشقها. قال وأنوار الموكب لاتزال تلوح خارج الظلام وكأنها ستارة مطرزة:

- هذه رياحنا الموسمية وهي أفضل جو في العام. كم كنت أتمنى لو أنها استطاعت أن تشاهد أمطارنا. الوقت الآن فيه كل شيء سعيد. والكل سعيد، سواء أكان عجوزا أم شابا. إنهم سعداء هناك بالخارج وسط ضوضائهم الوحشية، ورغم أننا لا نستطيع متابعتهم فإن الخزانات كلها مملوءة؛ ولذلك هم يرقصون وهذه هي "**الهند**". كم أتمنى لو لم تكن في الرسميين، إذن لأريتك "**الهند**" الحقيقية، ولكنني لا أستطيع. ربما أستطيع أن أصحبك إلى الخارج فوق الماء الآن لمدة نصف ساعة.

هل عادت الدورة مرة ثانية؟ لقد كان قلبا مفعما بالعواطف بدرجة تمنعه من الانسحاب. لابد أن ينسل في الظلام، وأن يفعل مرة أخرى عملا كريما مع ابن السيدة "**مور**". كان يعلم مكان المجاديف. لقد أخفيت حتى يمنع الزوار من الخروج. أحضر زوجين آخرين في حالة ما إذا قابلا القارب الآخر. لقد دفع الزوجان "**فيلدنج**" القارب بواسطة عمودين طويلين. وقد يقعان في المتاعب لأن الريح كانت تتصاعد.

ما إن أصبحا فوق الماء حتى صار "**عزيز**" سلسا. إن عملا طيبا واحدا دائما يكون بالنسبة له قناة لأعمال طيبة أخرى. وسرعان ما تدفق طوفان كرمه. وبدأ يشرح موكب "**ماو**". كانت الحاجة قليلة للتجديف لأن الهواء العليل دفعهما نحو الجهة التي يرغبان الذهاب إليها. خدشت الأشواك عارضة القارب واصطدما بجزيرة صغيرة وأفزعا بعض البجع.

كان القارب بلا دفة وهو رث وحقير.. تكوم الضيف في مؤخرة القارب وبين ذراعيه المجدافان الاحتياطيان. ولم يطرح أي أسئلة عن التفاصيل. حدث وميض من الضوء. تبعه وميض آخر محدثا شروخا صغيرة حمراء في السماء. سأل الفتى:

- هل كان هذا هو "**الراجا**"؟

- ماذا.. ماذا تعني؟

- جدّف للخلف.

- ولكن لا يوجد "**راجا**" لا شيء.

- جدّف إلى الخلف وسترى ماذا أعني..

وجد "**عزيز**" أن التجديف عمل شاق ضد الهواء المتدفق، ولكنه ركز عينيه على شعاع الضوء الذي يحدد بيت الضيافة. وعاد إلى الخلف بعدة تجديفات.

- هناك.

كان هناك وسط الظلام ملك يطفو. جلس تحت مظلة عرش في ملابس ملكية لامعة. وهمس:

- أستطيع أن أقول لك من هذا.. أنا متأكد.. أن صاحب الجلالة مات. وأعتقد أن علينا أن نعود في الحال.

لقد كانا قريبين من نتوء القبور، ونظرا إلى الأمام مباشرة إلى مقبرة والد "**الراجا**" خلال فتحة بين الأشجار. ما هو التفسير؟ لقد سمع عن الصورة التي صنعت لتقلد الحياة باتساعها الرهيب، ولكن لم تتح له فرصة رؤيتها من قبل. رغم أنه كثيرا ما كان يجدف عبر البحيرة. لقد كانت هناك بقعة واحدة يمكن منها أن تُرى وقد وجهه "**رالف**" إليها. جدف بسرعة مبتعدا وهو يحس أن رفيقه ليس ضيفا وإنما دليل مرشد. قال معلقا:

– هل يمكن أن تعود إلى البيت؟

– لا يزال هناك الموكب.

– أفضل ألا أقترب أكثر من هذا فإن لديهم عادات غريبة حقا وقد يؤذونك.

– اقترب بعض الشيء.

أطاعه "**عزيز**". كان يعلم من أعماق قلبه أن هذا هو ابن السيدة "**مور**"، والحقيقة أنه مادام قلبه قد تورط فهو لا يعرف شيئا. استمرت أغنية "**رادا كريشنا**" "**كريشنا رادا**". ثم تغيرت فجأة وفي فترة التغيير سمع بوضوح مقاطع من أغنية "الخلاص" التي سمعها أثناء المحاكمة في "**كاندرابور**".

– لا تخبر أحدا يا سيد "**مور**" بأن "**الراجا**" مات. إنه لايزال سرا. ومن المفروض ألا أخبرك به. إنه يتظاهر بأنه حي إلى حين انتهاء الاحتفال ليمنع التعاسة. ألازلت تريد الاقتراب أكثر؟

– نعم.

حاول "**عزيز**" أن يبعد القارب عن وميض المشاعل التي بدأت تضيء الضفة الأخرى من البحيرة، وكأنها نجوم. استمرت الصواريخ في الانطلاق وكذلك المدافع. فجأة وأقرب مما حسب ظهرت محفة "**كريشنا**" من وراء جدار متهدم. وهبطت الدرجات المنحوتة الزلجة نحو الماء. وعلى جانبيها تعثر المغنون. وامرأة بارزة هي قديسة جميلة ومتوحشة والزهور في شعرها. كانت تحمد الله بصفاته وبذلك تخافه. والبعض الآخر كانوا يمدحونه، ولكن ليس بصفاته وهم يرونه في هذا وذلك العضو من الجسد أو مظاهر السماء. اندفعوا نحو نهاية الشاطئ. ووقفوا في وسط الأمواج الصغيرة، حيث أعدت وليمة مقدسة. اشترك فيها من أحسوا أنهم يستحقون الشرف. اكتشف العجوز "**جودبول**" القارب الذي كان ينزلق نحو العاصفة ولوح بذراعيه سواء في مرح أم حقد.

لم يعرف "**عزيز**" الحقيقة. وهناك في أعلى وقفت "**ماو**" بقوتها: الأفيال والمدفعية والحشود، وأعلى منهم بدأت عاصفة وحشية تركزت في البداية على المناطق العليا من الهواء. وهبات من الرياح خلطت النور بالظلام. ورخات من المطر سقطت من الشمال، وتوقفت وسقطت من الجنوب. ثم بدأت ترتفع من أسفل. ووسطها صارع المغنون وهم يغنون أي ألحان إلا ألحان الرعب. وقد استعدوا لإلقاء الإله بعيدا وسط العاصفة. وهكذا كان يلقى به عاما بعد عام. كما ألقي آلهة أخر، هم صور مصغرة لـ"**جامباتي**"، وسلال ذرة لمدة عشرة أيام، ومختلف الأشياء من جلد الماعز والقرون، وشعارات الرحلة التي ليست سهلة لا في الوقت ولا في المكان، والتي لا يخشى منها إلا إذا لم تصبح في متناول اليد والإله الذي سيلقى به هو شعار لذلك.

ظهرت قرية "**جوكول**" على صينيتها، وكانت بديلا للصورة الفضية التي لم تخرج من زهورها التي أخفتها، وكان لابد أن تغني ممثلة لشعار آخر. أخذها خادم في يديه. ثم مزق الرايتين البيضاء والزرقاء. كان عاريا عريض المنكبين رفيع الوسط.

- وها هو الجسد الهندي ينتصر ثانية- وكانت وظيفته الموروثة هي أن يغلق أبواب الخلاص. دخل المياه المظلمة وهو يدفع القرية أمامه إلى أن انزلقت الدمى الفخارية من فوق مقاعدها. وبدأت تتفتت وسط الأمطار وتُبتلع. اختلط الملك "**كانزا**" مع أم الإله وأبيه. بدأت أمواج صغيرة قوية ومظلمة تنسحب. ثم هجمت موجة عاتية أغرقت من فوق السطح وسمعت أصوات إنجليزية تصيح: "احذروا".

اصطدم القاربان كل منها بالآخر. تطوح الأغراب الأربعة، وأخذوا يتشبثون ويحاولون التعلق بالعصي الطويلة والمجاديف وهم يشبهون وحشا خرافيا أسطوريا دوامة الريح. صاح المتعبدون في مرح وصخب وهم ينزلقون بلا حول ولا قوة إلى الأمام. ليصطدموا بالخادم الذي كان في انتظارهم. ووجهه الجميل الأسمر بلا تعبير، ولما كانت آخر القطع الطينية قد ذابت في الصينية فقد التصقت بهم.

كانت الصدمة صغيرة، ولكن "**ستيلا**" التي كانت قريبة من الصدمة انكمشت بين ذراعي زوجها. ثم مدت يديها إلى الأمام. ثم ألقت بنفسها نحو "**عزيز**". وقد أدت حركاتها إلى انقلابهما. غطسا داخل الماء الدافئ الضحل. ثم طفوا يصارعان في إعصار من الجلبة. كانت المجاديف والصينية المقدسة وخطابا "**روني**" و"**عديلة**" قد انفلتت وطفت فوق الماء وسط الفوضى. أطلقت المدفعية. وقرعت الطبول وصاحت الفيلة، وصوت هائل من الرعد مصحوب بالبرق. انطلق كمرزية. على القبة. كانت هذه هي ذروة الإثارة. استقرت الأمطار في الهبوط باستمرار لتبلل كل شخص وكل شيء. وسرعان ما أفسدت القماشة الذهبية للمحفة والرايات التي على شكل أطباق غالية الثمن. انطفأت بعض المشاعل ولم تعمل الصواريخ النارية. وقل الغناء، وأعيدت الصينية للأستاذ "**جودبول**" الذي التقط قطعة من الطين الملتصقة بها. ودعكها في جبهته دون أي احتفال. أيا كان ما حدث فقد حدث. وبينما الدخلاء يتمالكون أنفسهم كانت حشود الهندوس قد بدأت حركة مفككة عائدين إلى المدينة. لقد عادت الصورة أيضا.

في اليوم التالي جرت مراسم الدفن الخاصة عندما أسدلت ستائر زرقاء وخضراء أمام الضريح الأسري الملكي. واستمر الغناء فترة أطول.. وأطراف مهلهلة ملوثة بالطين.. شراك غير مرضية، وغير درامية وعبارة "الله وهب الحب" المقلوبة..

وإذا ما نظر المرء إلى الخلف مسترجعا الأربع والعشرين ساعة الماضية فلن يستطيع أحد أن يقول أين يوجد مركز الانفعال للفوضى والخلط وكأنه يحاول أن يبحث عن مركز سحابة.

الفصل السابع والثلاثون

عادا صديقين ثانية وإن كانا لايزالان مدركين أنهما لن يستطيعا اللقاء مرة ثانية... ذهبا معا في نزهة إلى الغابات. لقد همدت الفيضانات وأعلن وفاة "**الراجا**" رسميا؛ ولذلك كانت مجموعة بيت الضيافة ستغادر في الأسبوع التالي كما يقتضي ذلك العرف الدبلوماسي. ماذا بشأن الحداد والاحتفال؟ لقد كانت الزيارة فاشلة. كان "**فيلدنج**" قد قابل "**جودبول**" بالكاد. والذي وعد كل يوم أن يريه المدرسة العليا للإمبراطور الملك "**جورج الخامس**" وهي هدفه الرئيسي، ولكنه دائما ما كان يختلق عذرا. صرَّح "**عزيز**" بعد الظهر بما حدث: الإمبراطور الملك قد تحول إلى تراب، ولم يرغب وزير التعليم أن يعترف بذلك لناظره السابق. لقد افتتحت المدرسة في العام الماضي فقط بواسطة مندوب من المحافظ العام وهي لاتزال ناجحة فوق الأوراق الرسمية، وهو يريد أن يبدأ العام الدراسي ثانية قبل أن يلاحظ غياب الإمبراطور الملك. وأن يجمع مدرسيه قبل أن ينتجوا أولادهم. ضحك "**فيلدنج**" من الورطة وضياع الجهد. ولكنه لم يسافر خفيفا كما تعود في الماضي. لقد كان التعليم هو الاهتمام المستمر لديه، لأن دخله وراحة عائلته يعتمدان عليه. كان يعلم أن هنودا قلائل يظنون أن التعليم جيد في حد ذاته، وقد استهجن ذلك الآن على أسس أوسع. لقد بدأ يقول شيئا ثقيلا حول موضوع الولايات الوطنية، ولكن صداقته لـ"**عزيز**" شتتت فكره عن ذلك. لقد كانت إعادة الصلح معه ناجحة على أية حال. بعد اصطدام القاربين المضحك. لم يعد الأمر هراء ومرارة، وعادا معا- وهما يضحكان- إلى صداقتهما القديمة وكأن شيئا لم يحدث. وها هما الآن يمتطيان جواديهما وسط الشجيرات الجميلة والصخور. كانت الأرض حاليا مفتوحة على الشمس الساطعة، وشاهدا منحدرا مغطى بالحشائش لمعت فوقه الفراشات، وكذلك حية كوبرا تزحف وسط الحشائش ولا تفعل شيئا محددا واختفت وسط أشجار التفاح. وكانت هناك في السماء بعض السحب. وبحيرات بيضاء في الأرض، والتلال عن بعد أرجوانية، وكان المشهد يشبه متنزها في "**إنجلترا**" وإن كان غريبا. شد كل منهما لجام جواده ثم أبرز "**عزيز**" خطابا يريد أن يرسله إلى الآنسة "**كويستد**". كان خطابا ساحرا. كان يريد أن يشكر عدوته القديمة لسلوكها اللطيف من سنتين. لقد اتضح الآن تماما أنها كانت قد تصرفت تصرفا ممتازا وقتها: قال لـ"**فيلدنج**":

- عندما سقطت في أكبر خزان مياه عندنا في "**ماو**" لظروف ذات صلة بأصدقائنا. فقد فكرت في مدى شجاعة الآنسة "**كويستد**". وقررت أن أخبرها بذلك رغم عدم إتقاني الإنجليزية. أنا خلالك سعيد هنا مع أطفالي بدلا من وجودي في السجن. سيتعلم أطفالي أن يتحدثوا عنك بعاطفة جياشة واحترام شديدين.

- ستسر الآنسة "**كويستد**" كل السرور.. وأنا سعيد لأنك اكتشفت شجاعتها أخيرا.

- أريد أن أقوم بأعمال طيبة حولي وأمحو العمل الشرير في "**ماربار**" إلى الأبد. لقد كنت متسرعا بدرجة كريهة، وأنا أظن أنك كنت تريد أن تضع يدك على نقودي.. إنها غلطة شنيعة مثل

غلطة الكهف نفسها.

- "**عـزيز**"... أريدك أن تتحدث إلى زوجتي... إنها أيضا تعتقد أن موضوع "**مـاربار**" قـد انمحى.

- كيف هذا؟

- لست أدري.. ربما تخبرك بذلك بنفسها لأنها لن تخبرني. إن زوجتي تسعى وراء شيء ما قد يكون بشكل عام حولي وحولك وحول الآنسة "**كويستد**"، ولكن "**ستيلا**" ليست معنا.

- ماذا تعني؟ هل "**ستيلا**" ليست مخلصة لك يا "**سيريل**"؟ إن هذا يقلقني كثيرا.

تـــردد "**فـــيلدنج**" كان غير سعيد في زواجه. كان مغرما بها جسديا وهي الجذوة الأخيرة قبل منتصف العمر، وهو يعلم أن زوجته لا تحبه وهو يخجل من أن يلعنها، ولكن أثناء الزيارة إلى "**ماو**" تحسن الوضع. بدا على الأقل وجود صلة تربطهما أخيرا. أو بلهجة الدين فإن تلك الصلة ماركة. إنه يستطيع أن يؤكد لـ"**عـزيز**" أن "**ستيلا**" ليست مخلصة له فحسب وإنما أيضا أنها تريد أن تزداد إخلاصا وتحاول أن تعبر عما هو غير واضح له:

- إذا لم تكن تريد الحديث عن "**ماربار**" مع "**ستيلا**" فلم لا تتحدث عنها مع "**رالف**"؟ إنه فتى عاقل حقا.

رد عليه "**عزيز**":

- أخبره أيضا.. ليس عندي ما أقوله له، ولكنه في الحقيقة فتى عاقل وله صديق هندي دائم. وأنا أحبه جزئيا لأنه أعادتي ثانية إليك لأقول لك وداعا.. لأن هذا وداع يا "**ســيريل**". رغـم أن التفكير فيها سيفسد نزهتنا ويجعلنا حزينين.

- لا... لا نفكر في ذلك.

كان "**فيلدنج**" يشعر أيضا بأن هذه نهاية العلاقة بينهما. قد أزيل كل سوء الفهم التعس، ولكن اجتماعيا ليس لديهما مكان مقابلة. لقد ألقى بحظه مع الأنجلو هنود بزواجه من فتاة قروية إنجليزية وأصبح ينال بعضا من حدود حياته الجديدة، ودهش من بطولته الماضية. هل يستطيع اليوم أن يتحدى شعبه من أجل هندي متشرد؟ لقد كان "**عزيز**" بالنسبة له لقاء مؤقتا وتذكارا. وكان كل منهما فخورا بالآخر، ومع ذلك كان محتما عليهما أن يفترقا. ولما كان متشوقا أن يجعل آخر فترة ما بعد الظهر لهما شيئا مميزا أجبر نفسه على أن يتحدث عن خصوصياته إلى زوجته وهي أعز شخص إلى قلبه. قال "**فيلدنج**":

- من وجهة النظر فإن "**مـاو**" كانت ناجحة... لقد هدأتها. لقد وجدت شيئا ملطفا وبعض الحلول لمتاعبها الغريبة هنا.. هل تعرف أي شيء عن عمل "**كريشنا**"؟

- أيها الرجل العزيز.. إنهم يسمونه رسميا "**جوكول أشتامي**" وفيه تغلق كل المكاتب الحكومية ولكن أي شيء غير ذلك يمكن أن يعنيك ويعنيني؟

- "**جوكول**" هي القرية التي ولد فيها"**كـريشنا**" إله الهندوس أو هكذا يقال لأنه لايزال يوجد صراع حول ذلك ما بين "**جوكول**" وقرية أخرى. إن ما أريد أن أكتشفه هو الجانب الروحي إن كانت

هناك روح.

– من غير المجدي أن تناقش الهندوسية معي. وعيشني معهم لم تعلمني شيئا. وعندما أظن أنني أضايقهم لا أفعل. وإذا ظننت أنني لا أضايقهم.. أفعل ربما سيطردونني من الهرولة إلى بيت الدمى ومن جهة أخرى ربما يضاعفون مرتبي. والزمن سيثبت أيهما أصح لماذا كل هذا الفضول بشأنهم؟

– من الصعب الشرح. أنا فعلا لم أفهمهم أبدا! أو أحبهم فيما عدا ذلك القمامة المدعو "**جودبول**". ألا يزال الزميل العجوز يردد:

– تعال.. تعال؟

– أوه.. نعم بالقطع.

زفر "**فيلدنج**" وفتح شفتيه ثم أغلقهما ثم قال وهو يضحك ضحكة صغيرة:

– لا أستطيع أن أشرح لأن ذلك لا يقال في كلمات على الإطلاق، ولكن لماذا تحب زوجتي وشقيقها الهندوسية رغم أنهما لا يهتمان بشكلها؟ إنهما لن يتحدثا إلي عن ذلك. إنهما يعلمان أنني أفكر في أن جانبا معينا من حياتهما هو غلطة، وهما يخجلان من ذلك؛ لهذا أرغب لو أنك تحدثت إليهما لأنك بكافة الجوانب شرقي.

رفض "**عزيز**" أن يجيب. لم يكن يرغب في مقابلة "**ستيلا**" و"**رالف**" ثانية. ويعلم أنهما لا يرغبان في مقابلته ثانية، وأحس أن العجوز العزيز "**فيلدنج**" متلهف على معرفة سرهما، لقد فاته شيء ما ليس بسيطا بل بارزا جعله يعيد قراءة خطابه إلى الآنسة "**كويستد**". ألم يرغب في أن يقول لها شيئا آخر غير ما كتبه؟

أمسك بقلمه. وأضاف: "من ناحيتي فإنني سأربط من الآن فصاعدا اسمك بالاسم الذي هو مقدس في ذهني أقصد السيدة "**مور**" وعندما انتهى كان المنظر اللامع أمامه قد تمزق. وانفصلت المراعي وتحولت إلى فراشات، ثم رفرفت قطعة شعر بجناحيها حول "مكة المكرمة" و"الكعبة المشرفة"، والشجيرات ذات الشوك حيث يموت الحجيج قبل أن يقابلوا الصاحب. فكر في زوجته، وعندها سقط الشبه صوفي والشبه شهواني في حياته الروحية، وانتهى مثل الانهيار الصخري، وبقي في مكانه الصحيح. وجد نفسه ممتطيا جواده مع "**عزيز**" و"**سيريل**".

– أوه.. اصمت ولا تفسد آخر ساعة بأسئلة حمقاء، دع "**كريشنا**" في حاله وتحدث عن شيء معقول.

وفعلا.. وطوال الطريق عائدين إلى "**ماو**" تحدثا حول السياسة. لقد وثق كل منهما بالآخر رغم أنهما على وشك أن يفترقا. قال "**فيلدنج**":

–إن الإمبراطورية البريطانية لا يمكن أبدا أن تنمحي بسبب قسوتها.

ورد عليه "**عزيز**" بحدة:

– حسنا.. ونحن لن نكون ذوي فائدة لكم.

– بعيدا عنا فإن الهنود سيزرعون في الحال. انظر إلى مدرسة الملك الإمبراطور العليا.. وانظر

إلى نفسك وقد نسيت طبك وعدت إلى السحر. انظر إلى أشعارك! إنها أشعار جميلة.. إنها تنشر جانب "**بومباي**" نعم.. وماذا تفعل؟ حرر زوجتك أول الأمر وستكون "**الهند**" حرة. حاول ذلك وسترى من الذي سيقوم بحمام "**أحمد**" و"**كريم**" وجميلة وغسل وجوههم.. إنه وضع لطيف!

صار "**عزيز**" أكثر ثورة، نهض من فوق سرجه وشد رأس جواده آملا أن يتقهقر. كان يحس أنه في معركة:

- هيا ارحلوا جميعا "**تورتون**" و"**بيرتون**". لماذا وُضعنا في كل هذه المعاناة والعذاب؟ لقد تعودنا على لومكم والآن نلوم أنفسنا فقد زدنا حكمة. وإلى أن تصبح "**إنجلترا**" في متاعب ومصاعب فإننا سنظل صامتين، ولكن في الحرب الأوربية التالية.. آه ها! سيكون هنا زمننا.

سكت وكان المنظر رغم أنه كان مبهجا إلا أنه سقط مثل حجر القبر على أي أمل إنساني. وأخذ الجوادان يخبان بجوار معبد "**هانومان**" الإله الذي أحب العالم جدا لدرجة أنه وضع لحم القرد على لحمه، ومرا بحوار معبد "**سايفيت**" الذي دعا إلى الفحشاء ولكن تحت ستار الخلود وأعماله الفاحشة البذيئة. لا تحمل أي علاقة مع أعمال الجسد والدم الفاحشة. وقد توغلا بين الفراشات والضفادع وأشجار كبرى ذات أوراق ضخمة مثل أطباق وردية بين شجيرات الغابة. كانت أقسام الحياة اليومية عائدة وقد أوشك المقام المقدس على أن يغلق.

كشر "**فيلدنج**" عن أنيابه وهو يشد لجام جواده:

- من تريدهم بدلا من الإنجليز؟ اليابانيين؟

- لا.. الأفغان.. أسلافي.

- أوه.. وأصدقاؤك الهندوس سيحبون ذلك.. أليس كذلك؟

- سيتم تسوية الأمر... مؤتمر لرجال الدولة الشرقيين.

- فعلا سيتم تسوية الأمر.

- إنها القصة القديمة، سنسرق كل رجل. ونغتصب كل امرأة من "**بيشاور**" إلى "**كلكتا**" - افترض ذلك وأن نحضر رجلا يكرر ذلك، ثم تذكر أسبوعيا في جريدة "**بيونير**" بهدف إخافتنا حتى نتمسك بكم. نحن نعرف، ومع ذلك لم يكن يستطيع أن يتفق مع الأفغان في "**ماو**"، ووجد نفسه محاصرا في ركن. فجعل جواده يتقهقر ثانية حتى يتذكر أن له أرض المولد والأم فصاح:

- ستكون "**الهند**" أمه واحدة! ولا أجانب من أي نوع! الهندوس والمسلمون والسيخ سيكونون جميعا فردا واحدا: تحيا "**الهند**"! تحيا.. تحيا!

"**الهند**" أمة واحدة! يا له من تمجيد آخر قاده إلى حماسة الأخوة في القرن التاسع عشر وهي تتهادى في تلك الساعة في العالم لتحتل مقعدها! إنها ستشبه مثيلتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة. إنها ستكون في مرتبة "**جواتيمالا**" وربما "**بلجيكا**". لقد سخر "**فيلدنج**" ثانية فاندفع "**عزيز**" في طريقه غاضبا أشد الغضب متخبطا هنا وهناك لا يعرف ماذا يفعل. وصاح:

– ليسقط الإنجليز! قد يكره كل منا الآخر ولكننا نكرهكم أكثر. وإذا لم أستطع أن أزيحكم فسيفعل ذلك "**أحمد**" و"**كريم**" حتى ولو مر خمسمائة عام. سنتخلص منكم. سنطرد كل إنجليزي ملعون إلى البحر ووقتها سنكون أصدقاء.

قال الآخر وهو يعانقه بحرارة:

– ولم لا نكون أصدقاء الآن؟ هذا ما أريده وتريده أنت.

ولكن الجوادين لم يريدا ذلك فقد انحرفا مفترقين مرسلين الأحجار لتسد الطريق. بحيث كان لابد أن يسيرا في خط منفرد، وكل منهما وراء الآخر عبر المعابد والخزان والسجن والقصر وبيت الضيافة الذي ظهر أمام الأنظار عندما خرجا من فتحة وشاهدوا "**ماو**" تحتهما. لقد قالوها جميعا بمئات الأصوات إنهم لا يريدون تلك الصداقة.

لا.. ليس بعد وقالت السماء.. لا ليس هناك!

كتبت في "**وايبروج**" ١٩٢٤

تمّت بعون الله

مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط).

تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 13-5329 بيروت – لبنان.

وهذه قائمة بأسماء ا لكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة أجور البريد.

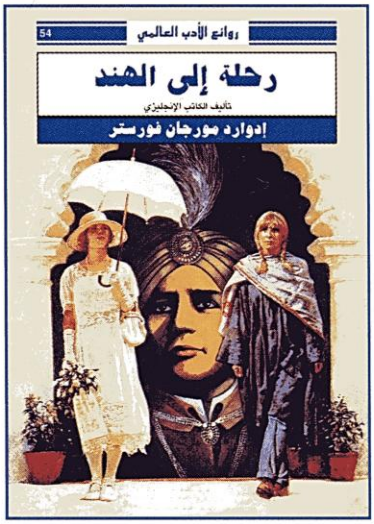
ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوڤاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطئة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	ألكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دوستوفسكي
١٤	عاشقات في الخريف	ستيفان زفايج
١٥	ديكاميرون	جيوفاني بوكاشيو
١٦	إعترافات جان جاك روسو	جان جاك روسو
١٧	صافو	ألفونس دوديه
١٨	دم... وخمر	ليو تولستوي
١٩	الآلهة عطشى	أناتول فرانس
٢٠	مياه الربيع	إيفان ترجنيف

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
٢١	أنّا كارنينا	ليو تولستوي
٢٢	رسول القيصر	جول فيرن
٢٣	حذار من الشفقة	ستيفان زفايج
٢٤	ضحكة في الظلام	فلاديمير نابوكوف
٢٥	مرتفعات ويذرنج	إميلي برونتي
٢٦	الخطيئة الأولى	ألبرتو مورافيا
٢٧	جين إير	شارلوت برونتي
٢٨	الدكتور جيفاجو	بوريس باسترناك
٢٩	المسبحة	فلورنس باركلي
٣٠	رجال ونساء	مكسيم جوركي
٣١	حياة	جي دي موباسان
٣٢	ليالي بلزاك	أونوري دي بلزاك
٣٣	المقعد المسكون	جاستون ليرو
٣٤	الطريق إلى بئر سبع	إيثيل مانين
٣٥	غرام سوان	مارسيل بروست
٣٦	الظمأ... للحب	ميكا والتاري
٣٧	هل تحبين "برامس"؟	فرانسواز ساجان
٣٨	بيللا دونا	روبرت هيتشنز
٣٩	قصة مدينتين	تشارلس ديكنز
٤٠	قلوب ضالة	رابندرانات طاغور
٤١	رحلات جاليفر	جوناثان سويفت
٤٢	ماري ستيوارت	فردريك شيللر
٤٣	موبي ديك	هيرمان ميلفيل
٤٤	كبرياء وهوى	جين أوستن
٤٥	روبنسون كروزو	دانيال ديفو
٤٦	مغامرات "توم ساوير"	مارك توين
٤٧	ذات الثوب الأبيض	ويلكي كولنز
٤٨	فن الحياة	أندريه موروا
٤٩	قضية بليرو	ألفونس ألي

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
٥٠	المومياء	تيوفيل جوتيه
٥١	الغيرة	جي دي موباسان
٥٢	شارلوك هولمز	السير أرثر كونان دويل
٥٣	الإبن الضال	هنري بوردو
٥٤	رحلة إلى الهند	إدوارد مورجان فورستر
٥٥	المخطوف + أولالا ساكنة الجبال	روبرت لويس ستنفنسون
٥٦	غانية أطلنطا	بيير بنوا
٥٧	الأمير والفقير	مارك توين
٥٨	آلام فرتر	جوته
٥٩	القلعة	أرشيبالد جوزيف كرونين
٦٠	الجريمة	جورج برنانوس
٦١	حياة في لندن	هنري جيمس
٦٢	دون كيشوت	ميجويل دي سيرفنتس
٦٣	الخالدون	ديل كارنيجي
٦٤	مولن العظيم	ألان فورنيه



"إدوارد مورجان فورستر" (١٨٧٤ - ١٩٧٠)

ولد "إدوارد مورجان فورستر" في "لندن" عام ١٨٧٤، التحق بمدرسة "تونريدچ" وبعد أن أنهى الدراسة بها التحق بكلية الملك الواقعة في "كمبريدچ" عام ١٨٩٧، وظل "فورستر" مرتبطا بهذه الكلية طوال حياته حتى رشح للرسالة الفخرية منها عام ١٩٤٦ وذات مرة صرح "فورستر" قائلا: إن كل حياته في مجملها لم تكن مثيرة، ذلك إلى جانب أنه كان متواضعا للغاية فيما يتعلق بأطروحاته وإبداعاته الأدبية. في حديث لهيئة الإذاعة البريطانية حيث كان يحتفل بعيد ميلاده الخمسين، قال "فورستر": «إنني لم أكتب كل ما أريد... إنني أكتب لسببين: الأول -للحصول على المال والثاني- لأحظى باحترام من أحترمهم، وأود أن أقول إنني متأكد جيدا من أنني لست أعظم روائي». لكن كبار النقاد من جانب وعامة القراء من جانب آخر كان لهم رأي آخر، فلقد وزعت "بينجوين" من رواية «رحلة إلى الهند» ما يزيد على المليون نسخة.

بالإضافة إلى الروايات الخمس الشهيرة ومجموعات القصص القصيرة المتوفرة لدى "بينجوين"، نشر "فورستر" حوالي أربعة عشر عملا آخر تشتمل على ترجمتين (سيرتين)، كتابين عن "الإسكندرية" التي أقام بها خلال الحرب العالمية الأولى حيث كان يعمل ضمن أفراد الصليب الأحمر، ذلك إلى جانب نص لفيلم، واشترك مع "إيريك كروزيير" في كتابة نص أوبرالي للأوبرا الإنجليزية. أما بالنسبة لروايته السادسة "موريس" التي كتبها عام ١٩١٤ فلم تنشر إلا في شهر سبتمبر (أيلول) عام ١٩٧١ بعد رحيله في شهر يونيو (حزيران) عام ١٩٧٠.

كانت قضية "ماربار" حدثا ألقى مدينة "كاندرابور" في حُمَّى المشاعر العنصرية. كانت الآنسة "كويستد" في زيارة لـ"الهند" من "إنجلترا" للرجل المتوقع أن تتزوجه وأظهرت اهتماما بوسائل معيشة الهنود التي أسدل عليها ستار من المجتمع البريطاني الذي ألهبته الشمس. مما يدل على التحيز الاجتماعي الذي عُبِّر عنه ضد أي اتصال بين البريطانيين والهنود الذي بدا في البداية أن له مبررا عندما عادت بمفردها يائسة من رحلة إلى الكهوف بصحبة طبيب شاب هندي. وقد قبض عليه بتهمة محاولة الاعتداء عليها، ولكن عندما قدمت القضية للمحاكمة سحبت الآنسة "كويستد" الاتهام وأطلق سراح الطبيب. هل كانت ضحية هلوسة أو عقدة نفسية أو مُقْتحِم مجهول أم ماذا؟

في هذه الرواية الدرامية يصور الكاتب بتعاطف وإدراك دقيق رد الفعل المعقّد الشرقي أمام الحكم البريطاني في "الهند". ويكشف عن الصراع ما بين الطباع والتقاليد التي تنطوي عليها تلك العلاقة.

L 200

53-38-019-8
9 789953 380193